ميلاد العصور الوسطى

تأليف

ه . موس

ترجمة : عبد العزيز توفيق جاويد
راجعه : الدكتور الباز العريني

وزارة التعليم العالي
١٠٠٠
كتاب

ميلاد العصور الوسطى

٣٩٥ – ٨١٤

بإشراف
الهيئة العامة للكتب والأجهزة العلمية
وزارة التعليم العالي

تصدر هذه السلسلة بمعاونة

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

[illegible]

١٩ كنيسة الأرمن ش الجيش

تليفون : ٩٣٤٠٩٨

الألف كتاب

٦٢٣

ميلاد العصور الوسطى

٣٩٥ – ٨١٤

تأليف

ه . سانت ل . ب . موس

ترجمة

عبد العزيز توفيق جاويد

راجعه

الدكتور السيد الباز العريني

١٩٦٧

الناشر

عالم الكتب

٣٨ شارع عبد الخالق ثروت بالقاهرة

هذه ترجمة كتاب

THE BIRTH OF THE MIDDLE AGES

395 — 814

تأليف

H. ST. L. B. Moss

محتويات الكتاب

قائمة الصور والخرائط

تنبيه : صورة الغلاف تمثل القائد بليساريوس ممتطيا جواده

كلمة المترجم

إن نظرة واحدة إلى هذا الكتاب توضح أهميته . فهو ينتظم حقبة طويلة من الزمن تبلغ قروناً أربعة . تبدأ بعالم البرابرة ، ويأخذ فى دراسة تاريخ أوربا قرناً فقرنا ، ودولة فى إثر دولة ، مستعرضاً قبائل البرابرة ، إذ تظهر فى موجات متلاحقة متدافقة : القوط والآفار والجرمان واللومبارد والفرنجة وغيرهم وغيرهم . والكتاب يحدد لكل هؤلاء وغيرهم فى الصورة مكاناً معينا لا يخرج دراسته عن التناسب السليم بينه وبين غيره من الأجزاء التى تقع معه فى إطار واحد . ولم يغفل المؤلف أمر العرب ، فلم يتجاهل أثرهم فى تلك القرون ، وأنه كان لهم ضلع كبير فى تاريخها ، وكانوا عاملا فعالا فى حضارتها . ومن ثم فهو يفرد لهم قسما كاملا من كتابه يدرس فيه عقيدتهم وتاريخهم ، وما أسهموا به من فضل فى خدمة الحضارة .

* * *

والآن ما قصة هذه العصور الوسطى ؟ أين مبتداها ومنتهاها ؟ وكيف يكون لحقبة ابتداء وميلاد ، والتاريخ تدرج وتطور حينا ، وانتقال وتحول أحيانا ، وتوقف وجمود بل حتى موت حينا آخر ؟ بل إن تقسيم التاريخ إلى حقب يكاد يكون — كما ألمع المؤلف نفسه فى مقدمته — تعسفا والتماسا للمحال .

على أن المؤرخين ، التماسا للتسهيل على أنفسهم وعلى قرائهم ، كانوا يستقرئون العناصر والظواهر الغالبة على فترة من الفترات ، ويجمعونها مجموعات يصدرون بها أحكاما عامة ، ويطلقون عليها أسماء تريح القارئ والمؤلف جميعا .

فالعصور الوسطى هى الفترة الممتدة بين العصور القديمة التى يرى المؤرخون أن أغلب ظواهرها ومعظم معالمها انتهت عند قريب من نهاية القرن الرابع الميلادى ، وبرزت ظواهر أخرى واشتدت وغلبت على الناس والزمان حتى أصبحت طابعا واضحا لها ، ولها صفاتها ومميزاتها التى أجمع المؤرخون على تسميتها باسم العصور الوسطى . وظلت تلك الظواهر والمميزات حية قوية ما لا يقل عن عشرة قرون ، إلى أن انبثقت أحوال أخرى فى فكر الناس وطريقة عيشهم وأسلوب تصرفاتهم فى الحياة ومعالجاتهم لشئون الفنون والأدب والتجارة والاقتصاد والمعايش

والاجتماع ، بحيث أصبح واضحا ظهور عصر جديد فى تاريخ الإنسانية ، عصر ثقافة وحضارة من نوع جديد هو الذى اصطلح الناس على تسميته باسم عصر النهضة .

على أن المؤلف ـ كما هو واضح من عنوان كتابه ـ لم يتسع مجال بحثه ليشمل بنظرته العصور الوسطى بأكملها بل قصر جهوده على فترة أربعة قرون فقط هى التى ذر فيها قرن تلك العصور إلى أن قامت على سوقها نبتا غضا ، ويافعا فتيا ثم لم يتجاوز ببحثه تلك المرحلة .

وإن مؤرخا فى منزلة الأستاذ العلامة « موس Moss » من المؤرخين المحدثين لا يمكن أن يأخذ نفسه إلا بأسلوب الدراسة الحضارية . فهو لا يقتصر على سرد التاريخ فى صورة حقائق وحروب ووقائع وملوك وأفراد ، بل يأخذ على عاتقه ـ أولا وقبل كل شيء ـ دراسة الأحداث والشعوب والعلوم والحضارات والثقافات وخبرات الأمم وتفاعلاتها مع ما يحيط بها من ملابسات ، وردود أفعالها إزاء ما يصطلك بها من عوامل ومؤثرات خارجية . ولا غرو فهذه هى الطريقة المحدثة فى دراسة التاريخ ، تهتم بالأمة قبل الملك ، وبالمجتمع دون البلاط ، وتهتم بالعلوم والثقافات اهتمامها بالشعب وأساطيره وأحلام طفولته التى تتكون منها عقليته البدائية .

* * *

والمؤلف يقسم كتابه أقساما أربعة : جعل عنوان القسم الأول منها الرومان والبرابرة ، وتحدث فيه عن العلاقة بين روما والبرابرة ، وكيف أنها بدأت بالتجارة وانتهت إلى زج الإمبراطورية فى أفدح المعاطب . وأما القسم الثانى فتحدث فيه عن عصر جستنيان فى أربعة فصول ، وفاه فيها حقه ، وتناوله وعصره من جميع نواحيه الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والعسكرية ، ولم يفته أن يبين ما جرته سياسة ذلك الإمبراطور الكبير على الدولة من أضرار . وكما سبق أن ذكرنا أفرد للإسلام ـ وهو حقيقة من أبرز الحقائق فى العصور الوسطى ـ قسما كاملا ، تحدث فيه عن عقيدته حديثا لم يرقنا بعض ما فيه فأعملنا فيه القلم إحقاقا للحق ، كما تحدث عن مآثره العسكرية وفتوحه ، فضلا عن حديثه المسهب عن حضارته وثقافته وعن الزيت الجديد الذى أضافه ذلك الدين القيم إلى مشعل الحضارة حين التقطه باهتاً خابى الضياء ممن سبقه من فرس وروم فسطع وأشرق بمن انضم إلى ركبه من عظماء الإسلام ، ما بين عالم ومشرع ، وفنان ومعمارى ، وفيلسوف ومفكر . ثم يتحول

المؤلف فى القسم الرابع إلى عصر شرلمان فيحدثنا عن الأوضاع التى مهدت لعظمته، ويفرد فصلا كاملا للفرنجة والجرمان وعاداتهم وعرفهم وتشريعهم . ولم يفت الكاتب ـ فى طول كتابه وعرضه ـ أن يتحدث عن البابوية وعلاقتها بالأحداث والشعوب والأمم والأباطرة على كر القرون الأربعة التى هى مجال الكتاب .

ومن الظواهر الرئيسية التى عالجها المؤلف فى كتابه : مسائل العراك بين السلطتين الزمنية والدينية بعد القتال الدموى الذى نشب بين المسيحية والوثنية ،وهما من أعظم معالم التاريخ فى تلك الحقبة، بل هما يكادان أن يكونا المحورين الرئيسيين لأهم شئون الناس.

وبالقضاء على الوثنية تم القضاء على ماتبقى فى العالم من عقل حر يفكر طليقا ، ويد حرة تتفنن بغير إسار ، وقلب حر يختلج بغير كابح ، ووقع الناس فى أغلال التزمت فى الدين ، وتخلوا عن الأصالة فى الفن ، والتزموا الجمود فى الإبداع الأدبى. وظلت الإنسانية أسيرة لتلك الأغلال التى قيدت يدها ،ووضعت على قلبها أكنة ، إلى أن جاء عصر النهضة لحطم التزمت ، ومزق أغطية العيون ، وهتك أكنة القلوب .

ولكن من ذا الذى يستطيع أن يقول إن العصور الوسطى كانت عصر تأخر محض ؟ . إن كل ما فى الأمر أنها كانت عصر توقف أو فترة جمود ، وإلا فبماذا تسمى ما حدث من ضم برابرة أوربا بمختلف قبائلها إلى حظيرة المسيحية ، وصبغهم بصباغ الحضارة الأوربية القائمة ؟ وكيف تفسر النهضات العلمية والأدبية التى قامت فى بريطانيا وغالة وجرمانيا ؟ إن نظرة مقارنة واحدة تضع ما كتبه تاكيتوس عن جرمانيا إلى جنب ما كتبه غيره عنها فى عهد شرلمان لتوضح ماطرأ على الجرمان من فرق هائل . فالقول إذن بأن العصور الوسطى فى عداد عصور الظلمات قول مردود ، لأن طبيعة البشر تأبى إلا التطور . وقد لا يكون السكون إلا فترة انكماش لهجوم أو اختمار لتفاعل .

وقد حرصنا على ترجمة الكتاب ترجمة علمية صحيحة تجعله صورة صادقة للأصل الإنجليزى ، بحيث يستطيع الاستفادة منه قارئ عام مثلما يفيد منه طالب جامعى، وعنينا بتزويده بنفس الصور والخرائط التى وردت فى الطبعة الإنجليزية إتماماً للفائدة وتنويراً للقارئ وأمانة فى النقل .

والله يهدى إلى سبيل الرشاد .

مصر الجديدة فى ١٥ أكتوبر سنة ١٩٦٧ — عبد العزيز توفيق جاويد

مقدمة الكتاب

تفصل بين العالمين : القديم والوسيط فجوة كبيرة ، قد لا يسد ثغرتها ـ من حيث اهتمام القارئ العام ـ إلا ذلك السفر الجليل « اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها » الذى دبجته يراعة جيبون . وعلى الرغم من الأبحاث المستفيضة التى تمت فى السنوات الأخيرة ، فإن من العبث أن ننكر أن القرون المعروفة باسم « العصور المظلمة » لا تزال من أشد مراحل التاريخ الأوربى غموضا . ومع ذلك ، فلا شك أن الجهود المبذولة فى استجلاء كثير من المسائل الرئيسية قد أحرزت بعض التقدم . فإن بعض الآراء قد نبذ نبذاً قطعيا ، إذ يرى الثقات اليوم مثلا ، أن الإمبراطورية الرومانية لم تنته بسقوط عاصمتها الغربية ولا بخلع رومولوس أو غسطولوس . وتفسير زوال العالم الرومانى بأنه حادث فجائى يفسح المكان بعد المزيد من التحليل، لنظرية تطور قائمة على قسط أكبر من الاستدلال. كما أن ما أسدته بيزنطة فى التاريخ من جلائل الأعمال أخذ ينال حظه من الإنصاف ، فضلا عن التقدير الذى نال العناصر الأصيلة للحضارة التى واصلت حمل لواء التقاليد الرومانية على ضفاف البوسفور .. ولم يعد أحد ينظر إلى الهجوم الإسلامى من خلال أعين خصومه فى القرون الوسطى ، الذين ضرب تهديده لعقيدتهم على أبصارهم غشاوة ، أعمتهم عن الأصل المشترك للثقافتين المسيحية والإسلامية . ذلك لأن الدراسة العميقة النقادة لفن ذلك الزمان وأدبه [1] أفضت فى كثير من الحالات إلى ازدياد تقدير الإسلام ، كما أنها أفضت دون ريب إلى تعميق الإحساس باستمرار الصلة بين النظام القديم والنظام الجديد .

---

(١) يقصد المؤلف هنا لفظة الأدب بمعناها العام الذى يضم جميع ما حوته اللغة من المصنفات والمؤلفات . (المترجم)

وازداد وضوح كبار الشخصيات فى ذلك الزمان عن ذى قبل ، كما أن مستكشفات علم الآثار القديمة (الأركيولوجيا) والاهتمام الحديث بالأحوال الاقتصادية ، هيأت للخيال الناشط صورة أكثر إشراقاً للحياة اليومية للمجتمعات والأفراد. وقد حاولنا فى الصفحات الآتية تقديم خلاصة موجزة لقرون أربعة من التاريخ الأوربى كما تشاهد فى ضوء تلك النتائج .

ومن الأمور الواضحة التى لا تحتـاج إلى تأكيد ذلك الطابع التعسفى للعصور التاريخية التى ليست فى الواقع ، من نواح معينة ـ سوى وسيلة ممتازة للحفظ والتذكر . فالعمليات العضوية لا يمكن أن تشطر شطراً باتا بلمسة قلم ، ولا يكاد عاقل يتوقع أن تتطور جميع أشكال النشاط البشرى بنسبة واحدة متساوية . ولذا وضع العلماء تواريخ مختلفة لبدء العصور الوسطى ، تتراوح بين القرن الثالث والقرن الثامن ، ولـكل من هذه التواريخ من المبررات ما يتفق مع ما يرتبط من أهمية بمظهر من مظاهر الحضارة الأوربية . وبناء على هذا ربما كان يحق لعام ٣٩٥ أن يعد تاريخاً لبدء تلك العصور مثلما يحق لأى عام آخر، ذلك أن وفاة ثيودوسيوس الـكبير حدثت فى لحظة بالغة الأهمية لأوربا . فإن ثيودوسيوس ظل إبان السنوات الثلاث الأخيرة من حياته يحكم دون منازع فى الأملاك الرومانية . ومنذ تلك اللحظة أصبح تقسيم الإمبراطورية إلى شرق وغرب نهائيا ، على الرغم من أن الإمبراطورية لم تبرح من الناحية النظرية متحدة. ففى مدة حياته كان فى الإمكان اعتبار بريطانيا و بلاد الغالة وأسبانيا أجزاء متكاملة من الإمبراطورية الرومانية ، ولـكن ثلاثتهن انتقلن فى أقل من جيل واحد إلى قبضة فاتحين من المتبربرين الهمج ، وسقطت روما فريسة فى يد القوط الغربيين . وهـــذا الإمبراطور المقاتل الذى هلك اثنان من أسلافه

المباشرين صرعى فى ميدان القتال على الحدود ، خلفه على العرش سلسلة من الحكام الضعاف ، وانتقل السلطان الحقيقى فى الدولة الرومانيــة إبان ما يقارب القرن من الزمان إلى قبضة أمراء الجند . ولو نظر المرء إلى الدولة من ناحيتها الداخلية لما وجد فيها إلا تغيرات طفيفة لا تــكاد تستلفت الأنظار . ذلك أن غارات المتبربرين ، وإن اتسمت بالفظاعة التامة ، لم تزد على أن عجلت بالفوضى والمحن التى كابدت العناء منها معظم الولايات الغربية منذ بدء نشوب الفوضى فى القرن الثالث . ولم تــكن الإصلاحات الخطيرة التى أنجزها دقلديانوس وقسطنطين ، والتى أنهت هذه الفوضى، إلا تحقيقا إلى حد كبير لنزعات كانت واضحة للعيان فى عهد الإمبراطورية الأولى ـ وذلك لأن نهاية القرن الرابع لم تحدث أى انقطاع حقيقى فى نظام الحــكم الإمبراطورى . وكل ما فعلته أنها اعترفت صراحة بحقيقة واضحة هى أن : « أسرة قيصر » خَلَفت فعلا الهيئة التنفيذية الدستورية التى ورثتها الإمبراطورية عن الجمهورية الرومانية . ومع ذلك ، فهناك تغيير واحد كانت له أهمية أعظم من أى تغيير آخر فى مستقبل أوربا أدخــله قسطنطين حين أشرك الــكنيسة المسيحية فى حكم الدولة. إن هذه الخطوة هى الفاصل بين العالم القديم وعالم العصور الوسطى. ذلك لأن اعتناق العقيدة الجــديدة قد غير اتجاه عقول الناس وحدد سياسة حكامهم . ولم تــكف الإمبراطورية الرومانية نهائياً عن المحافظة على التوازن بين المسيحى والوثنى إلا فى عهد ثيودوسيوس ، ولذا فإن النتائج الــكاملة لإجراء قسطنطين الثورى لم تأخذ فى الظهور إلا فى تلك الآونة . لهذا السبب ، إن لم يكن لغيره ، يجوز حقاً لهذا البحث الذى نضعه بين يديك أن يتخذ من وفاة ثيودوسيوس الــكبير مؤسس الدولة المسيحية نقطة بداية .

وربما وجب علينا أن نذكر أن الغرض من الخرائط التخطيطية والصور التي يحتويها الكتاب هو التوضيح والإنارة . وسيجد القارئ في قائمة المراجع إحالات إلى بعض الأطالس التاريخية والمراجع المصورة للفن في أوائل العصور الوسطى .

وأود أن أعبر عن شكري للأستاذ العالم ن . ه . باينز على ما بذله من مساعدة وتشجيع مثمر لي في أثناء تأليف هذا الكتاب، وإلى المستر ا.ل. ودوارد والأستاذ العلامة ه . ا . ر . جب والمستر د. بيرلي والمستر ج. ن . ل . مايرز على ما قدموه من نقد نفيس واقتراحات قيمة ، وإلى القائمين على مطبعة كلارندون لقاء كرم أخلاقهم وسعة صدورهم .

أغسطس ١٩٣٥ ه . سنت . ل . ب . م

القسم الأول

الرومان والبرابرة

الفصل الأول

العالم الرومانى

إن إجالة الفكر فى روما الإمبراطورية تعرض أمام عين الخيال صورة للحرب والفتوح والكتائب الزاحفة فى ظل النسر المظفر لإخضاع الشعوب القصية. على أن الحقيقة البارزة التى يتسم بها القرنان الأولان من الحقبة المسيحية، هى ذلك السلام العميق الذى ران على حوض البحر المتوسط، وعم الشطر الأكبر من أوربا الوسطى والغربية. وفى عهد أوغسطس كانت الإمبراطورية امتدت فعلا إلى أقصى اتساع لها [1]، ومن ثم لم يعد هَمّ خلفائه منصرفا فى معظم أمرهم إلا إلى ربط أطراف البلاد بعضها ببعض. وامتدت داخل الحواجز العظيمة المحصنة على الراين والدانوب والفرات، شبكة من الطرق تغطى ممتلكات روما المترامية، وتوصل بين تخوم اسكتلندة وبين الصحارى العربية. وكانت تسرى فى هذه الطرق حركة مرور وتجارة لم تبرح فى ازدياد مستمر، لا يقتصر أمرها على الجيوش والموظفين، بل تتجاوز ذلك إلى التجار والسلع، فضلا عن السائحين. وسرعان ما نمت حركة تبادل للسلع التجارية بين الولايات المختلفة، ولم تلبث تلك الحركة أن بلغت مرتبة لم يسبق لها نظير فى التاريخ، ولم تتكرر ثانية على صفحته إلا منذ بضعة قرون خلت. وكانت تُحمل فى هذه الطرقات: المعادن المستخرجة من مرتفعات أوربا الغربية، والجلود والأصواف والأنعام الحية من مراعى بريطانيا وأسبانيا

---

(١) مع بضع استثناءات هامة قليلة مثل بريطانيا والمناطق الواقعة شمال الدانوب وشرق الفرات الأعلى.

وشواطئ البحر الأسود والخمر والزيت من بروفانس وأكيتانيا ، والخشب والقار والشمع من جنوب الروسيا وشمال الأناضول ، والفواكه المجففة من سورية والرخام من سواحل بحر إيجه ، وأهم من ذلك كله الحبوب من مناطق زراعة القمح بشمال إفريقية ومصر ووادى الدانوب سداً لحاجات المدن الكبرى : كل هذه السلع كانت تنتقل بملء الحرية من أقصى الإمبراطورية إلى أقصاها ، فى ظل نظام للنقل والتسويق بالغ الكفاية والدقة .

الصناعة والتجارة

تلقت صناعة السلع المعدة للتصدير بالجملة أيضاً دفعــة قوية ، فنمت الصناعات الزاهرة بكل ولاية من الولايات . وكانت التجارة وأعمال المصارف نشطت منذ عدة قرون فى العالم الهللينستى ، وكان الطرف الشرقى للبحر المتوسط أول من أفاد من النظام الجديد . وجملة القول ، إن هذه الولايات الشرقية كانت مناطق الإنتاج والصناعة ؛ على حين أن الغرب كان مستودع المواد الخام . وهكذا كانت دمشق وأنطاكية والإسكندرية تصدر البطاطين والبسط والسجاجيد ونسيج الكتان وأرق أنواع الخزف وصنوف الزجاج ، الرخيص منه والنفيس ، والجواهر والعطور وأدوات الزينة. ومع ذلك فإن القرنين الأولين شهدا حركة انتقال للصناعة نحو الغرب . وأخذت الثروات تتكدس بأرض الحنطة ، فضلا عن مناطق إنتاج الخامات مثل بلاد الغالة وأسبانيا وإيطاليا وإفريقية ، ورغبة فى تلبية طلبات الطبقات الثرية والمترفة ، تزايدت هجرة اليونانيين والمصريين والسوريين إلى الغرب ليمارسوا مهاراتهم أطباء وفنانين ومعلمين وموسيقيين وصاغة للفضة . وكان السوريون بوجه خاص أعظم تجار ذلك الزمان ؛ فإنهم كانوا ينتشرون فى كل أرجاء أوربا ، مغامرين أفراداً ،

أو كمجتمعات من التجار ، أو يوجدون بمدن أفريقية وأسبانيا ، أو يشتد تزاحمهم على امتداد طرق التجارة بوادى نهر پو أو حوض الراين . فى القرن الخامس نفسه ، يلاحظ جيروم بمرارة وجودهم ، ويقرر أنهم يواصلون حركتهم المربحة بين أنقاض عالم منهار . أما تقدم الصناعة فأكثر ما يدل عليه دلالة مباشرة ، ظهور مصانع فى الغرب ذات حجم ضخم ، منها مثلا مراكز لصنع الخزف والزجاج بوسط فرنسا وجنوبها ، وبوادى نهر الراين أو ببريطانيا ، حيث تمكنت السلع المنتجة على أساس الإنتاج الكبير من القضاء على حب الأفراد للتصميمات الكلتية أو توجيه ذلك الحب وجهة أخرى .

وفضلا عن ذلك لم تكن التجارة تقتصر بأى حال على داخل حدود الإمبراطورية . فإن الحدود لم تكن من هذه الناحية حداً فاصلا ، بل كانت على العكس من ذلك خط مستوطنات خارجية قائمة على التخوم ، يصل بين نهايات الطرق البرية الرومانية ، ويهيىء للبرابرة النازلين خارجها أسواقا غاصة بالسلع . كانوا يقايضون زينات الخيول ورشماتها والجواهر والنقود والخزف وحليات البيوت والأدوات والآلات الزراعية على ما لدى البرابرة من رقيق وكهرمان وجلود الحيوان ، فتنقل من مصانع الغاليين الرومان[١] (Gallo - Roman) على نهر الراين وتنفذ إلى أعماق وسط ألمانيا ، وتشق طريقها إلى معاقل الرؤساء بالدانيمركة أو جنوب السويد . وكانت السفن التجارية الرومانية ترسو بالموانى الإرلندية ، أو ترتاد جنوباً ساحل أفريقية الغربية المكسو بالغابات . على أن التجارة مع الشرق كانت تنطوى على قدر أكبر من الاحتمالات الرومانسية . وكانت تنتهى فى البحر الأحمر عدة

---

(١) الغاليون الرومان أو (الغالو رومان) هم الرومان النازلون ببلاد غالة أى فرنسا . (المترجم)

خطوط ملاحية عظيمة ، وكان ذلك البحر يتصل بالإسكندرية بمرفأ وقناة وطريق للقوافل يحرس بكل عناية بقوات من الشرطة ، وهو مزود بمستودعات تخزين وصهاريج مياه . وكان أحد هذه الخطوط الملاحية فى البحر الأحمر يمتد جنوباً عبر بلاد الحبشة والصومال حتى أوغندة ، وإلى الجنوب منه كان تجار العرب يحتفظون فى يدهم بزمام احتكار التجارة ، وكان العاج ومحار السلاحف والزنوج الأرقاء المجلوبون من الداخل ، يجمعون مقايضة على الزجاج والأقمشة الزاهية الألوان ، فضلا عن الفئوس والحلى المصنوعة من الشبهان[1] والنحاس . وكان الركن الجنوبى الغربى من بلاد العرب يصدر البخور والأفاويه إلى الغرب ، وينقل فوق ذلك محصولات بلاد الهند والصين كالقطن والحرير وخشب الساج والآبنوس وخشب الصندل ، التى تفرغها السفن بموانئ البحر الأحمر وبالمرافئ الواقعة عند رأس الخليج الفارسى ، ومنها تنقل بطريق القوافل حتى تصل آخر الأمر إلى الإسكندرية ، أو إلى أحد المراكز التجارية السورية كدمشق أو أنطاكية . ثم لم يلبث القوم أن وفقوا إلى اكتشاف الرياح الموسمية ومنفعتها لهم فى التجارة ، وأن بدءوا التجارة المباشرة مع الهند ، وهى حال استبعدت الوسيط التجارى العربى ، وسرعان ما وظف فيها تجار الإسكندرية وسورية أموالهم . وقد علم استرابون أن عدداً من السفن لا يقل عن مائة وعشرين سفينة كان يسافر منها كل عام إلى الهند ، وتتحدث مصادر أخرى عن مستعمرات التجار الأجانب الذين استقروا بمدن شاطئ مالابار الساحلية ، وعن الموانئ العظيمة بجنوبى الهند وسيلان ، بما تحويه من نظم للمنارات وخدمات من المرشدين ، ومستودعاتها الضخمة وأرصفتها ، وعن

---

(١) الشبهان والشبه : النحاس الأصفر — كما ورد بالمعاجم . (المترجم)

وصول السفن التجارية [١] الرومانية الضخمة إليها ، وهى تنزل شحناتها من الغلمان المغنين والقيان المرسلين إلى حريم أمراء الهند ، وعن أوانيها الفضية ونسيجها الكتانى الزاهى ، وعن نبيذ البحر الأبيض الذى تحمله ، وكنوز العملة الذهبية الإمبراطورية ، التى تُدفع ثمنا لجوالق [٢] الفلفل الضخمة وبالات القطن الثقيلة ، وشتى صنوف الجوهر من ماس ولؤلؤ وزبرجد ، والعقاقير والعطور التى كانت تحملها تلك السفائن إلى العالم الغربى . وأخذ التجار يتوغلون برحلاتهم رويداً رويدا نحو الشرق ؛ حتى عرفوا مصب الكانج وشبه جزيرة الملايو ، ثم استطاع تجار الإمبراطورية الرومانية إنشاء علاقات تجارية مع الموانئ الصينية عام ١٦٠ للميلاد. على أن أيام عظمة التجارة الرومانية كانت ولّت آنذاك ؛ فإن الزمن أعد عند ذاك لأوربا قروناً مترادفة من الفوضى ، فلم تتحقق من ثم احتمالات تأثير الصين على حضارتنا .

وكان لسهولة المواصلات ويسر تبادل السلع أثرهما القوى فى نشر الوحدة ، بل إذاعة الاتساق فى الدولة الرومانية . وكانت نتيجة ذلك أن اقتسمت غالبية سكانها مستوى مشتركا للعيش ، فلم يكن الفارق كبيراً بين الأدوات التى تستعملها الدور (الفيلات) بجنوب إنجلترة ومثيلاتها بالجزائر ، مثل المصابيح وأكواب الشراب ووسائل التدفئة والزخرفة الداخلية . وكان الدينار الذهبى يحظى فى منطقة الراين بنفس الثقة التى يلقاها فى بلاد القرم وفى أسواق السنجال (Cingal) وتحددت معايير اللغة بأن سادت اللاتينية فى الغرب واليونانية فى الشرق ؛ واختفى اللسان الوطنى اختفاء تاما فى كثير من الأصقاع . وكانت النظم المشتركة

---

(١) وكان يدير هذه السفن رعايا من الرومان فيما يعتقد من شهدهم من الهنود ، ولكن من المحتمل أنهم كانوا سوريين أو مصريين جنسا .

(٢) الجوالق : هى الزكيبة والغرارة كما ورد فى المعاجم (المترجم)

التى تعيش فى ظلها شعوب الإمبراطورية مصدر رابطة أخرى لوحدة تلك الشعوب ، وذلك لأن الحكم بالأقاليم المختلفة ، وإن كان يتكيف طبق الظروف المحلية ، كان نظاماً واحداً فى جوهره يدار من مركز الدولة ، وهو فوق ذلك نظام ينزع إلى تزايد الاتساق بين الأجزاء وإزالة التخالف . وآية ذلك أنه بمقتضى مرسوم كراكلا الصادر فى ٢١٢ ، صار غالبية رعايا الإمبراطور مواطنين رومانيين ، واختفى من الوجود « الوضع المنحط » لساكن الإقليم . وعلى الرغم من أن النظام الإدارى بإيطاليا نفسها ، احتفظ لها طويلا بامتيازات خاصة فيما يتعلق بالضرائب ، فإنه سوّى فى النهاية بنظام الأقاليم ، كما أن اعتزازها بمنزلتها فى الغرب — وقد تحدته كل من بلاد الغالة وإفريقية وأسبانيا فى ميادين الأدب والتجارة — لقى من هذا الإذلال عناء أشد وأكبر . وما نسوق هذين الأمرين إلا ليكونا مثالين لتطور أبعد أثراً وأوسع مجالا . ولما تزايدت الأخطار المحدقة بالإمبراطورية عمد رجال السياسة والتدبير فيها إلى مضاعفة جهودهم للمحافظة على الصرح المترنح بتحويله إلى بنيان متجانس ، وشد بعضه إلى بعض « بمنطق » حديدى ، قوامه القوانين والشرائع الجائرة ، غير مبالين بما اتخذوه من صرامة مسرفة ولا بقمع جهود الأحياء وما يثيره ذلك من رد فعل مضاد ، ولم يحفلوا إلا بإقامة كتلة متماسكة متينة غير متمايزة من المادة الصلبة .

الشرق والغرب

ولم تكن الشدائد ولا الأخطار التى حاقت بالدولة فى عهدها الأخير هى التى خلقت مواطن الضعف والتجريح فى النظام الإمبراطورى ، بل كانت هى التي كشفت عن تلك المواطن . والحالات الاجتماعية والاقتصادية المصرية

المشابهة لما كان فى العالم العهيد كثيراً ما تضللنا ، وذلك لأنها تنزع إلى إسدال الغموض على نواحى حضارته التى هى أكثر بدائية . وقياساً على معايير زمننا الحاضر ، لا بد أن عدد سكان أوربا فى ذلك الزمان كان مفرط الصغر ؛ إذ إن عدد سكان الإمبراطورية الرومانية لم يتجاوز ربع أعداد السكان الذين ورثوا الأقطار التابعة لها . ولم يكن توزيع السكان متعادلا ، فالشطر الشرقى لم ترجح كفته فحسب فى كثافة سكانه بل أيضاً فى مستواه من الثروة والحضارة . ولم يكن بالغرب من المدن ، باستثناء روما وقرطاجة ما يعدل المدن الزاهرة ، بآسيا الصغرى وسورية ومصر والتى أربى سكان الكثير منها على مائة ألف نسمة . فالولاية الأخيرة (مصر) كانت على الرغم من صغر حجمها ، تضم ما يقارب سُبع سكان الإمبراطورية بأكملها ، كما أن الشطر الأكبر من موارد الإمبراطورية كانت تؤديه الأقطار المطلة على البحر المتوسط الشرقى . ومن الناحية الأخرى ، فالثابت قطعاً أن المجموع الكلى لسكان الإمبراطورية الرومانية ازداد قلة بعد ثلاثة قرون من قيامها . وكانت إيطاليا وبلاد اليونان أشد البلاد تعرضاً لنقص السكان ، كما أن مناطق مترامية من بلاد الغالة أصبحت خالية من الناس ، لمـا كابدته من الطاعون والحروب الأهلية . ولم يكن تأثير روما الحضارى على الغرب موزعاً توزيعاً متكافئاً . فإن الطرق الرومانية ، شأن الدروب الجانبية والطرق الرئيسية الشريانية التى تكون شبكة المواصلات ، كثيراً ما كانت تحصر بين خيوطها مناطق مترامية، لا تكاد فيهـا لغة السكان وعرفهم وعاداتهم تتأثر بأى حال بلغة غزاتهم الفاتحين وعاداتهم . وأكثر ما اتضح ذلك فى إقليمى الشمال والغرب ، حيث تناثرت قبـائل من الرعاة والزراع البدائيين الموزعين توزيعاً خفيفاً بين المستنقعات والغابات ، بصورة لا تفى بالمطلوب لبيت المال والاستغلال التجارى

على عكس منطقة البحر المتوسط التى اتسع بها نطاق الزراعة . يضاف إلى ذلك أن النفوذ الرومانى كان يزداد ضعفاً كلما اقترب من أطراف الإمبراطورية . ولا تنس أن معالم التخوم نفسها أخذت تنطمس ، وتشبع أمراء الألمان وراء الراين بالثقافة الرومانية ؛ وسمح لجماهير غفيرة من البرابرة بالسكنى فى الممتلكات الرومانية بشرق بلاد الغالة وفى الأقاليم الواقعة جنوبى الدانوب. بل لقد حدث فى عهد الإمبراطورية الرومانية الشرقية المعروفة بالبيزنطية أن بعض المواطنين الرومان كانوا يفضلون الإقامة ببلاط حاكم أجنبي على مواجهة المطالب المتزايدة لجابى الضرائب الإمبراطورى .

وفى الشرق نفسه ، حيث دأبت الممالك الهللينستية التى نشأت عن فتوح الإسكندر على أن تنشر فى كل مكان المثل العليا للحياة بالمدن الإغريقية مدة ثلاثة قرون قبل أن تصل إليه روما — ظلت التقاليد الوطنية كامنة تنتظر ساعة الخلاص لكى تنتفض وتجاهد . ولم يكن للإغريق سوى أقلية صغيرة بسورية ومصر ، حيث صارت لهم مكانتهم بفضل تفوقهم الثقافى ، لا العددى. غير أن الحضارات القديمة بتلك الأصقاع احتفظت بحيويتهـا وإن غمرتها إلى حين ثقافة يونان ، كما أن نمو الأدبين القبطى والسوريانى ، اللذين أنعشهما قيام الكنائس المسيحية التى أصبحت ترجمانا يعبر عن العواطف الانفصالية والمحلية ، قد غذّى شعوراً بالتباعد وعدم التجانس مع فاتحيهم الأجانب ، كما زاد فى حدة المعارضة المريرة لسياسة الإمبراطورية وضرائبها . وغنى عن البيان أن فقدان الدولة فى النهاية لهاتين الولايتين إنما يرجع لمثل هذه الأسباب الداخلية ، فإن الغزاة الفرس والمسلمين فى القرن السابع وجدوا عوناً كبيراً من هيئات معادية كثيرة فى هذين الصقعين ، أما آسيا الصغرى فلم يصطبغ

بالصبغة الهلّينستية فيها سوى الحواشى المطلة على البحر . بيد أن المناطق الجبلية الداخلية التى كانت مستراداً لعصابات اللصوص والمنطقة الرئيسية لتجنيد الجند للجيش الرومانى فيما عقب ذلك من زمن ، لم تكن لها أية تقاليد ثقافية تستطيع أن تكونّ بؤرة يتجمع فيها التذمر ، ومن ثم استطاعت بيزنطة الاحتفاظ بقبضتها على شبه الجزيرة كله إلى عهد متأخر من العصور الوسطى [1] .

الإمبراطورية فى خطر

كشفت الضربات المتعاقبة التى تلقتها المنطقة المتحضرة بأوربا منذ نهاية القرن الأول عن مكامن الخطر على البنيان الإمبراطورى . وشهد عهد ماركوس أوريليوس (١٦١ — ١٨٠) انحسار الرغد المرفرف على الدولة ، وأعقب حكم بيت الأنطونيين قرن من الفوضى والاضطراب تضعضعت فيه قوة الحكومة المركزية ، حيث كانت السلطة سرعان ما تنتقل من إمبراطور قصير العهد إلى آخر ، تتولى تنصيبه أو عزله الفيالق الرومانية حسبما يمليه عليها جشعها أو تقلّب أهوائها . وظهر الحكم العسكرى الاستبدادى فقضى على آخر آثار « الحكم الثنائى » غير الواقعى الذى أقامه أوغسطس ، وتزايد نفوذ الجيوش مع ازدياد الحاجة إليها . ذلك لأن الحدود أخذت تتعرض لتهديد متزايد ؛ وأخذت القبائل الجرمانية الضاربة فى الشمال من الأراضى المنخفضة إلى وادى الدانوب تضغط على الحواجز القائمة فى سبيلها ، وكان للقراصنة السكسون فى بحر المانش ضريب هو لصوص البحر من القوط فى البحر الأسود وسواحل بحر إيجة الشمالية . ونشأ فى الشرق خطر جديد عندما حل

---

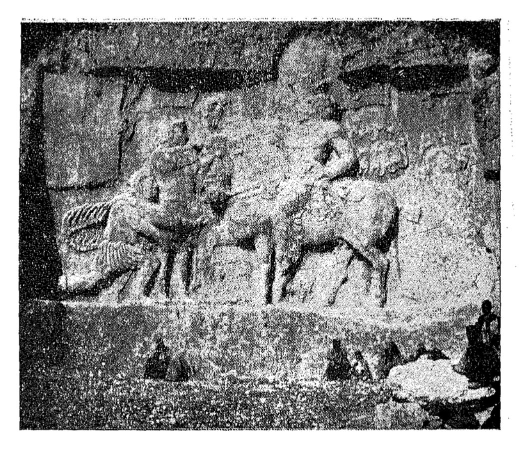
(١) انظر المترجم كتاب : « الحضارة البيزنطية » تأليف ستيفن رانسيمان الذى صدر بمجموعة الألف كتاب ، فضلا عن « الحضارة الهللينستية بنفس المجموعة » . (المترجم)

آل ساسان (٢٢٧) ذوو النزعة العدوانية محل البارثيين فى عرش فارس . وعندئذ أصبح خط الفرات بحاجة دائمة إلى التعزيزات والإمداد ، ومنذ تلك اللحظة كان لزاماً على الدولة الرومانية التى لم يعد يتوافر لديها العدد الكافى من الجند ، أن تعالج مشكلة الجبهة المزدوجة . وبعد انقضاء فترة دامت نحو ستة قرون ، جددت فارس محاولاتها لاسترداد سلطانهـا على غرب آسيا بعد أن قضى عليها زحف الإسكندر الأكبر المكلل بالنصر . وهنا ظهر من جديد ضريب الملك العظيم فى أيام ماراتون ، مدعياً أنه ند للحاكم العالمى الآخر نزيل روما . وحدث أكثر من مرة إبان القرن الثالث أن راكبة الفرس اجتاحوا سورية حتى أوشكوا بلوغ بحر إيجة ، فهددوا بذلك تجارة إقليم من أغنى الأقاليم . وبلغ الأمر ذروته فى حملة عام ٢٦٠ الفاجعة ، عندما أسر عاهل الفرس خصمه الإمبراطور فاليريان .

ومن المحتمل أن هيبة روما فى الشرق الأدنى لم تعد إليها قط بعد تلك الضربة . ولا بد أن ذلك الفوز الساسانى الذى جد الفرس فى تسجيله حفراً فى الصخر وتصويراً جصيا (Fresco)[1] على الجدران ، قد انتشر خبره انتشار النار فى الهشيم ، فى مدن ذلك العالم الذى امتدت فيه طرق القوافل من شرق البحر المتوسط إلى الخليج الفارسى ، الذى اجتمع فيه خليط عجيب من الترف العالمى الباذخ والشظف الصحراوى الجاسى ، والمصالح التجارية ومناسر اللصوص والتعصب الأعمى الشديد الأوار ، ما كان من أثره أن صيغت بعد ذلك بعدة قرون حياة النبي محمد وتشكل تقدم الإسلام . فما كان لروما من قوة عاتية ،

---

(١) انظر « التقرير عن حفائر دورا يوروبوس » الموسم الرابع (نيوهافن ١٩٣٣ ، ص ١٨٣ — ١٩٩ والحفر البارز الذى لا يزال مرئيا قرب نقش رستم . أنظر اللوحة رقم ١



(١) صورة الإمبراطور فاليريان وهو يركع أمام سابور الأول

وصفت طرق الصحراء بكتل الحجر ، وملأت حصون الواحات بالحاميات ، وواصلت بسط دائرة نفوذها أماماً على امتداد خطوط التجارة المجلوبة على ظهور الإبل من الهند والشرق الأقصى ، شغلت آنذاك فى حرب القوات الإيرانية التى صارت نداً لها ، ولم تعد تحافظ على تخومها التقليدية[١] إلا بمشقة بالغة متزايدة . ومن آيات ضعف روما أن ظهرت على الفجاءة دولة تدمر (Palmyra) التى لم تعمر طويلا ، والتى اعتمدت فى حياتها على تجارة القوافل والتى احتفظت باستقلالها المجيد والوجيز الأمد حتى تغلب أورليان على ملكتها زنوبيا[٢] (Zenobia) . وكانت ظاهرة مماثلة لهذه تجرى فى الغرب ، حيث نجحت ولايات الغالة التى خرجت على طاعة السلطة المركزية ، فى مقاومة الدولة الرومانية مدة تربو على عشر سنوات . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن إيطاليا نفسها تعرضت لغزو البرابرة ؛ وتشهد أسوار أورليان العظيمة التى لا تزال تحيط بروما ، مثلما تشهد أسوار المدن الإيطالية الأخرى المبنية فى ذلك الوقت ، بقرب تحول المدن المفتوحة فى العالم القديم إلى معاقل القرون الوسطى[٣] المحوطة بالخنادق والمحصنة بالأبراج .

وفى أثناء هذه السنوات بلغت الأزمة الاقتصادية فى الإمبراطورية ذروتها ،

---

(١) عن تاريخ حدود الفرات فيما أعقب ذلك من زمن ، انظر كتابنا هذا الفصل السادس .

(٢) وهى المشهورة عند العرب باسم الزباء   (المترجم)

(٣) إن المدن المسورة لم تكن بطبيعة الحال شيئاً جديداً ؛ ولكن الأمن الذى أتاحه « السلام الرومانى Fax Romana » وتطور المواصلات فى عهد الإمبراطورية الأولى قللت من الحاجة إلى التحصين وشجعت على انتشار الضواحى على امتداد الطرق الرئيسية . ولا بد أن التباين الواضح بين مظهر المدن القديمة ومظهر مدن القرون الوسطى بغرب أوربا كان لافتاً جداً للأنظار .

واتفق أن الحاجة إلى المعادن النفيسة اللازمة لدفع أعطيات الفيالق ، التى كانت سلطة الإمبراطور تعتمد على ولائها المشترى بالمال ، اجتمعت إلى نقص كارث فى خام الذهب والفضة وهبوط عاجل فى إيرادات الضرائب . والراجح أن الميزان التجارى فى أثناء القرنين الأولين للميلاد كان يجنح لصالح دول آسيا المصدرة . وإن بين أيدينا الآن من الدلائل الأكيدة (وإن كانت التقديرات الدقيقة غير متيسرة) مايشير إلى تسرب عملتى الذهب والفضة من الإمبراطورية الرومانية نحو الشرق . وربما كان ثمة عامل أخطر من هذا ، هو هبوط إنتاج المناجم الأوربية . فإن من الأمور الملحوظة فى ذلك الزمن فساد نظام العملة . فاختفى الذهب من التداول ، ولم تعد الفضة المعروفة فى الأيام الأولى إلا مجرد عملة نحاسية عليها طلاء رقيق من الفضة . وعلى الرغم من انخفاض قيمة العملة فقد احتفظت الأسعار بشىء من الثبات حتى عهد جالينوس (٢٥٣—٢٦٨) ، وذلك بغض النظر عن ارتفاع ضخم ترتب على تخفيض قيمة السبيكة فى الدينار . وعندئذ بدأت فترة تضخم مالى مفرط . إذ حلقت أسعار الحنطة بمصر فى عهد أورليان حتى بلغت أرقاماً خيالية ، وتبعتها معدلات الأجور وإن كانت بدرجة أقل . وأغلقت المصارف أبوابها ، ولكنها أمرت بأن تعود إلى العمل؛ وباتت المضاربة فى العملة من الأمور المألوفة . وتأثرت التجارة مع الشرق تأثراً جدّيا ، وهى التى كانت تقوم على عملة ذهبية كاملة الوزن والنقاء ، ولم تنتعش بعد ذلك إلا فى عهد جستنيان ، على الرغم من أن تجارة البحر المتوسط ظلت تحتفظ بقدر كبير من قوتها السابقة .

دقلديانوس وقسطنطين

ومن أوائل الأعمال التى قام بها دقلديانوس فى أثناء اضطلاعه بإعادة تنظيم الإمبراطورية ، إعادة العملة الذهبية والفضية ، ولقى هذا الأمر من النجاح

مالم تصادفه محاولاته التالية لضبط أسعار المواد الغذائية بما أصدره من مراسيم. وهناك سؤال ربما كان من المستحيل تقديم الإجابة عنه : ــ وهو إلى أى حد يمكن القول بأن دقلديانوس أوقف تيار تحول الاقتصاد النقدى المعروف فى الإمبراطورية الأولى ، إلى الاقتصاد « الطبيعى Natural » الذى اشتهرت به العصور الوسطى[١] . وقد استمر الجيش وموظفو الخدمة المدنية يتلقون أعطيات هزيلة ، ولكنهم كانوا يعولون أنفسهم إلى حد كبير من مصادر أخرى ــ هى حصولهم على الإقامة والجراية ، كما أن النقل وخدمات أخرى غيره كانت مما يفرضه الجند على الناس ، كما كان الموظفون يحتمون على الناس دفع الأتعاب والحلوان وتسهيلات السفر والإقامة المجانية . ومن العسير علينا أن نحدد تقديراً للقيمة النقدية لكل هذه الأمور ، على أن ذلك النظام ظل معمولا به لعهدى دقلديانوس وقسطنطين ، ولم يكن الجهاز المالى الذى ابتدعه هذان العاهلان ، فى جوهره إلا مجرد تسويغ قانونى لهذه التدابير شبه النظامية .

وعندى أنه ليس من الغض من قدر الخدمات الجليلة التى أسداها هذان الرجلان اللذان أنقذت أعمالهما الإمبراطورية مما أحدق بها من انحلال ، أن نرى أن إعادتهما تنظيم الدولة لم يكن فى حقيقته سوى قبول واقعى للموقف الفعلى الذى كانت تقفه البلاد ، لا ابتداعاً لنموذج جديد للحكومة . على حين أتم من سبقوهما من الحكام التغييرات اللازمة للجيش؛ أما التفرقة الشديدة بين جيوش الحدود التى كانت تنحط على الدوام فتصبح قوات حراسة مرابطة (Militia) من فلاحين مستقرين ، وبين الجيوش النظامية المؤلفة من صفوة المقاتلة الأشداء ، فلم تكن إلا اعترافاً بحاجات الزمان ومقتضياته . ذلك أن

---

(١) انظر التذييل ب

قوة ضاربة سريعة الحركة يمكن إنفاذها فى وقت قصير إلى أحد أقاليم الأطراف، تستطيع على الأقل أن تطرد المغيرين البرابرة الذين لم تستطع حاميات التخوم منعهم من الدخول إليها . ومما يشهد بضعف الحكومة المركزية استقلال حكومات الولايات عن السلطة المركزية ، حيث أنشئت وحدات أصغر التماساً للكفاية ، على حين أن مركز الإمبراطور نفسه ــ وقد غض منه فى العهد الأخير الاعتماد على أهواء الكتائب ، ــ كان يرفع عالياً فوق كل مصلحة محلية لأى قطاع فى الدولة بازدياد مكانته شبه المقدسة ، التى سبق أن تكهن بها فعلا بعض من سلفوهما من الأباطرة ، كما أن التعبير عن ذلك التقديس ، بما كان يجرى عليه من مراسم محكمة بالبلاط ، ربما كان متأثراً بالمثال الفارسى الماثل فى بلاط كسرى . وحتى إنشاء القسطنطينية ذاته ، وهو أمر يسجل ــ والحق يقال ــ بداية حقبة جديدة ، يمكن من ناحية أخرى أن يعتبر بغاية البساطة مجرد اعتراف تام بحقيقة مقررة . هى أن مدينة روما لم تعد مركز الإمبراطورية .

الوثنية فى عهدها المتأخر

على أن هناك تجديداً مثيراً آخر قدر له أن يغير أساس الدولة الرومانية بأكمله ــ هو تحويل وضع المسيحية بفضل ما فعله قسطنطين ــ من ديانة محرمة إلى العقيدة المكرمة للبيت الإمبراطورى . وكانت سلخت من عمرها وقتذاك قروناً ثلاثة من النمو والتطور من نواحيها الاعتقادية (Dogma) والإدارية واتساع رقعتها الجغرافية . وبلغ عدد أنصارها بضعة ملايين ، كان ينتمى الجانب الأكبر منهم إلى الأماكن الشرقية ، وذلك فضلا عن أن ما أشرنا إليه آنفاً من نشاطات اليونان والسوريين فى أوربا الغربية أفضى إلى حمل التعاليم الجديدة

إلى المراكز التجارية بتلك الأصقاع . فالمجتمعات البدائية الأولى حل مكانها منذ أمد بعيد بدايات النظام الطبقى فى سلّم الوظائف الأكايروسى ، الذى اتخذ له جهاز الإدارة المدنية لحكومة الأقاليم مثالا يحتذيه ، وذلك على حين أن الأهمية السياسية والاقتصادية للحواضر العظيمة قيدت ، إلى حد ما ، السلطة التى يستمتع بها أساقفة روما وقرطاجة وأنطاكية وإفيسوس والإسكندرية . وقد بدأت المسيحية بين أدنى طبقات المجتمع مرتبة ، وكان الانتماء إليها لا يزال قاصراً على الأميين غير المتعلمين ، وإن أمكن وجود المسيحيين فى كل فئات المجتمع ، بل حتى فى دوائر القصر نفسها . على أن ثلاثة قرون من الاتصال بينها وبين عالم الإمبراطورية الرومانية القديمة أفضت إلى إحداث تعديل عميق فى الطرائق التى كانت تعبر بها عن نفسها ، كما أن القرن الرابع بما مر به من صروف التغير أدى إلى التعجيل بنتائج ذلك التفاعل . على أنه لا بد من الإدلاء ببعض بيانات ، مهما يكن عدم كفايتها ، عن الجو الذى كان يسود العالم فى عهد ثيودوسيوس الأكبر .

وفى إبان هذه القرون تغيرت روح الوثنية تغيراً تاماً . ذلك أن الولاء الحق لآلهة دول المدن القديمة ببلاد اليونان وروما توقف من زمن بعيد بين أفراد طبقة المفكرين من المجتمع ، ولكن عروش تلك الآلهة لم تظل شاغرة . فإن التشكك وإن كان بارزاً فى الأدب المسطر ، كانت تحل محله على توالى الأيام فكرة مخالفة عن الدين ، مؤسسة على الرغبة فى الاتصال الشخصى بالمعبود المقدس . وما أكثر الأشكال والتجمعات التى ظهرت فيها نحل الأسرار الخفية السائدة فى تراقيا ومصر وسوريا وآسيا الصغرى وفارس ، وتبناها العالم

الرومانى ، هذا إلى أن الرطازات[1] (Myths) الهللينية كانت (إن لم تنبذ) تنسج بطريقة ذات أسلوب خاص فى التكوين الجديد لهذه العقائد المركبة . وكانت الظروف السياسية تساعد على صهر العبادات المحلية فى التركيب الأكبر منها . بل حدث حتى فى البدايات السحيقة لدول المدن بأرض اليونان الأصلية ، أن كثيراً من آلهة القرى ذوى شأنها حتى أصبح اسمهـا مجرد صفات تضاف إلى اسم زيوس أو أثينا ؛ وحدثت عملية مماثلة لهذه فى روما ، وإن عُوضت النزعة إلى الوحدة هنا بما كانت تظهره من استعداد لتقبل الآلهة الأجنبية فى پاثيونها[2] المزدحم . وأفضى قيام الملوكيات الهللينستية الذى قضى على الحياة المشرقة للمجتمعات بدول المـدن ، إلى تحويل أفـكار الناس إلى دخيلة نفوسهم ، حيث شرع كل إنسان يبحث لنفسه عن سبيل إلى الخلاص الفردى ، على حين أن الاستبداد الذى ران على الممالك الجديدة التى قامت على النسق الأسيوى ، عود العالم الناطق بالإغريقية على فكرة عبادة الحاكم ، وهى فكرة تغذوها وترعاها بكل عناية الأسر المالكة المتربعة فى العروش ، بوصف كونها أداة قوية تعتمد عليها الدولة . وجنت روما ثمار هذه الحال عندما أدخلت عبادة الإمبراطور ، كما أن المبدأ الرواقى القاضى بالاعتقاد « بالعناية Providence » البصيرة بكل شىء والمحسنة الخيّرة ، ربمـا عاد بالعون على أبناء الولايات المتواضعين فى إذكاء فـكرتهم التى تصوروها عن الإمبراطور القادر على كل شىء ، الذى كانت عدالته تتصرف فى حياة ورفاهية الجموع الهائلة من السكان .

---

(١) الرطازات (Myths) هى القصص التقليدى المعهود عن الآلهة والأبطال ، وخاصة ما يقدمه العقل البدائى تفسيراً لاحدى الحقائق أو الظواهر . (المترجم)

(٢) الباثيون : معبد يجمع الآلهة جميعا . (المترجم)

ولم يعد نمو الفكر الفلسفى معادياً للمعتقدات الشعبية ، بل أصبح يعاون بقوة تيارات التوحيد المشوب[1] التى كانت تعمل ناشطة فى المشاعر الدينية . وقد بدأ الأمر بوضع المسوغات العقلية للرطازات القديمة ، ثم استحداث رموز لها ، ثم لم تلبث الظواهر المشتركة بين مختلف الملل والنحل التى اعتبرت معالجات لقوة إلهية واحدة ، — حتى مزجت فى كتلة كالسديم حاول أفلوطين بتفكيره السليم أن يستخرج منها قاعدة منتظمة ، مستخدماً فى ذلك قوانين الاستدلال العقلى عند اليونانيين ، ومطبقاً إياها على مادة لا تتقبل مثل تلك المعالجة . على أن الأفلاطونية الحديثة كانت فى يديه منهاجاً للحياة لا مبدأ ونظرية . وحلت فى الأنفس نزعة تأملية محل النظرة الرواقية العملية ، وطريقتها فى التشديد على الخُلُق ، ومع أنه لا ينبغى إغفال عنصر التسويغ العقلى (Rationalizing) عند أفلوطين ، وهو افتراض الإغريق أن العالم ممكن الفهم ، لأن أدواره المتعاقبة إنما هى نتائج منطقية إحداها للأخرى ، فإن جوهر فكره إنما هو فهم تصوفى للحقيقة يكاد يكون حسياً ، أى أنه إدراك مباشر يتم دون تدخل من ملكة الاستدلال العقلى . ويتيسر هذا بفضل الوشائج الجوانية المتبادلة بين جميع ما فى العالم من أشخاص وأشياء ، والتى ترقد متوارية تحت سطح الظواهر ، وبهذه النظرية أيضاً يصبح تفسير الظواهر الطبيعية كالتخاطر (Telepathy) والفأل واقتران النجوم ممكنا . على أن صنع المعجزات والتطهر اتباعاً للطقوس والعرافة ليس إلا جزءاً يسيرا من فلسفة أفلوطين . وقد تحتم على خلفائه فى أثناء محاولاتهم تجميع قوى الوثنية كلها على العدو المشترك ، أن يدخلوا تلك الوسائل السحرية المساعدة ليتهيأ لهم اقتناص عواطف

---

(١) التوحيد المشوب (Henotheism) : هو الإيمان بإله واحد ولكن مع عدم انتفاء الإيمان بغيره . (المترجم)

الجماهير ، على حين أنهم التماساً للتقريب بين المفكرين راحوا يعزجون بغاية الأحوذية بين العقائد والمذاهب التى قامت فى العالم العهيد ابتداء من أفلاطون وأرسطوطاليس إلى الرواقيين والكلبيين . وهكذا يتضح أن علم الكون (Cosmology) التصوفى الذى اشتهرت به الفلسفة الأفلاطونية الحديثة وما حوى من فكرة عن الخلاص ، على صورته التى طورها إيامبليكوس (Iamblichus) ، يعتبر الشكل النهائى الذى اتخذته الوثنية المنظمة أداة فى أثناء كفاحها مع المسيحية[1] ، وينبغى ألا ينظر إلى الصراع على أنه معركة بين الإيمان والتشكك ، بل منافسة بين ديانتين غريمتين ذواتى خفايا وكل منهما تعبر عن زمانها[2] . وبغض النظر عن الاعتقاديات (Dogma) لا تكاد تكون ثمة ناحية غير مشتركة عند كل من الوثنيين والمسيحيين : ــ الزهد والصوم والتهجد والتطهر والطقوس والقديسين والملائكة والشياطين والاعتماد على الرؤى والتكهنات باستفتاح الكتب[3] (Sortes) . والفن الوثنى والمسيحى يستخدمان طريقة رمز واحدة ، حتى ليعسر التمييز بينهما ، إلا فى الحالات التى

---

(١) وهذا الوضع ينطبق بوجه رئيسى على الشرق ، حيث يتم مصطلح « الهلينستية Hellenism » الذى يطلقه المسيحيون على خصومهم ، على المحاولة الواعية وغير الناجحة ، لحشد تقاليد الثقافة الكلاسيكية دفاعا عن العقيدة القديمة . على حين أن مصطلح « الوثنية » وهى النظير اللاتينى للهلينستية فى الغرب يشير إلى وجود الشعائر القروية البدائية بشكل متناثر . ولقد كانت روما بما اجتمع لها من ذكريات تاريخية هى المكان الوحيد الذى صمدت فيه نحلة سياسية وأرستقراطية لعبادة الآلهة القدماء .

(٢) إن جوليان نصير الوثنية يهاجم الكلبيين الآخذين بالمذهب العقلى الذين يسخرون من الرطانات الكلاسيكية ، مهاجمة أكثر شدة ومرارة مما يهاجم أتباع المسيحية . أنظر ج . بيديه فى : « La Vie de l' Empereur Julien » (باريس ١٩٣٠) ص ص ٢٤٨ ع ع .

(٣) كان الأقدمون يستفتحون الكتب السماوية أو إلياذة هوميروس أو إينيادة فرجيل التماساً للفأل . (المترجم)

تستخدم فيها الموضوعات المسيحية البحتة ؛ وفضلا عن ذلك ، فإن النقاد العصريين يتجهون إلى تخفيض عدد هـذه الحالات[١] التى يفترق فيها المسيحيون عن الوثنيين . إذ إن المسيحيين كانوا عندما هلّ القرن الرابع تقبلوا الدراسات والعلوم الوثنية وتشربوها ، وشاهد ذلك أن المنازعات التى دارت فى المجالس الكنسية الكبرى تدور حول أفكار أفلاطون وأرسطو التى كانت تلوّن أفكار الناس فى ذلك العصر وتعدّلها على نفس الشاكلة التى تريم بها نظريات النشوء والارتقاء وعلم النفس على العالم اليوم . ومما هو جدير بالذكر أن جوليان فى أثناء محاولته إعادة العبادات الوثنية الأولى كان يهدف إلى تأسيس نوع من هيئة دينية أو « كنيسة » تشبه المنظمة المسيحية من أوجه كثيرة ؛ فوضع لها مذهباً اعتقادياً مجدداً وأقام فيها سلّما للوظائف الكنسية ومجموعة من المستشفيات وبيوت الصدقات ومعونة الفقراء وسجلا بالكتب المحرمة[٢] على المؤمنين (Index Expurgatorius) .

ديانة القرن الرابع

والشاهد المقنع على قوة مركز المسيحية ، إخفاق جوليان فى تحقيق هدفه إزاء الرأى العام ومعارضته . ذلك أن الرطازات المسوّغة عقلياً والآلهة المندمجة بعضها فى بعض كان يعوزها التقبل الشعبي الحسن الذى تجده قصص الكتاب المقدس ، وهى شىء أقرب فى روحه وزمانه لعالم القرن الرابع . ذلك وإن ما فى الأفلاطونية الحديثة من نقاط دقيقة خفية ، وما يتصف به

---

(١) مثل رمز لسمكة . انظر ف . ز . ج . دولجر فى (Ixoye) (مولستر ١٩١٠ — ١٩٣٢) .

(٢) انظر بيديه (Bidez) بالمصدر نفسه ص ٢٦٩ .

التقريب بين النحل عند الوثنية من ليونة وعدم تحديد وراحة نفسية ، كانا بمنزلة سواء ، من حيث ضعف قوتهما على إجبار القلوب على الإذعان . وكانت المسيحية فى توحيدها القاطع النافى لكل ما عداه تشارك اليهودية فى أنها مصدر قوى للاستقرار ، (على النقيض من سائر الديانات القديمة) . فهى عقيدة ليس فيها مكان لآلهة أخرى عدا ما يتوارى فى زى الشياطين الشريرة . وكانت مذاهب العقيدة تتشكل وتشتد صلابة على مدى الزمن ، يعززها فى ذلك امتلاكها لكتاب مقدس معتمد ، وهنا أيضاً حققت المسيحية لهذا الزمان حاجة كان يطلبها ، وذلك لأن من خصائص المراحل المتأخرة فى الفكر اليونانى الرومانى ، ازدياد اعتماده على سلطان الشواهد المعتمدة . وغير خاف أن عبقرية بلاد اليونان الأصيلة القادرة على الخلق والابتكار اختفت من زمن بعيد ، وأن الانتصارات التى أحرزها الرومان فى ميادين الأدب والفن والعمارة والهندسة بل حتى القانون ، كانت فى أغلب أمرها ثمرة التطبيق الذكى لمبادئ مكتشفة من قبل(١) . وكان الناس يحسون أن العصر الذهبى قد ولى . ومن الموضوعات المألوفة فى كتابات ذلك الزمان ازدياد الشغف بالماضى والشعور بالنقص فى الحاضر . فإن الإمبراطور قسطنطيوس طوى فى نفسه عند زيارته روما لأول مرة فى أخريات أيامه ، إعجابه بالسوق (الفوروم) التى أنشأها تراجان ؛ ولكنه رأى أنه ليس فى وسع الإنسان الفانى أن يطاول مثل هذا العمل العظيم ، وصرح

---

(١) انظر الحكم القاطع الذى أصدره بيورى حيث قال : «لم يبتكر رومان الامبراطورية شيئا . وليس من الغلو فى شىء أن نقول ، إن الصفة الغالبة على العالم الرومانى من عهد أوغسطس حتى سقوط أوغسطولوس ، الافتقار إلى الأفكار والعجز عن التفكير الجاد المعوق ، وفرط التوقير للمراجع المعتمدة » .

بأنه ليس كفوا إلا لمحاكاة حصان تمثال تراجان (Trajan) الذى يمثله في هيئة[1] الفارس .

وفوق هذا ، كان القرن الرابع عصراً يسيطر عليه « المجهول » . فإن خيوطاً خفية كانت تسلك كل شىء فى العالم مجموعات من التعاطف أو التنافر . فالشمس والقمر يمارسان سلطانهما على المخلوقات التابعة لمملكتيهما . ولصيحة الديك فى الصباح وشخوص عين الزهر إلى ضياء الشمس معناهما الخفى[2] . والإنسان نفسه ، ذلك الكائن الذى يولد فى ظل اقتران النجوم ، والذى ترافقه مدى الحياة الروح الحارسة ، اتخذ وضعه فى عالم كل شىء فيه — حتى الجمادات — له صفات سحرية ، وقد يعود عليه أقل الأفعال أو الأحداث بالشؤم أو الثبور . ولم يأت على الإنسان حينٌ سمع فيه الصوت السماوى أكثر ولا أوضح منه فى هذا الزمان . وكانت الرؤى وتأويلاتها تزداد على الأيام بروزاً ، وأخذ عالم الأحلام يجتاح على الدوام ساعات يقظة الإنسان . واتخذ الفكر فى ذلك الزمن صبغة ذاتية قوية ؛ وازدادت قيمة ما انطوى عليه الإنسان من صراع داخلى وتجربة عاطفية ، بينما أخذ العالم الخارجى يختفى فى سحب الوهم والخيال . ولو أنك نظرت إلى العمل العظيم الذى ألفه القديس أوغسطين ، وهو عمل لا يمكن إيفاؤه حقه من تبيان أثره على الناس فى العصور الوسطى ، لوجدته يتصف بهذه الصفة الشبيهة بالأحلام . وإن الأسنة المشحوذة فى بيانه اللغوى الفاخر والمتناقض أيضاً فى كثير من الأحيان ، لتزود الجدليين فى مختلف المدارس بل حتى فى المدارس المتضادة بمستودع كامل للسلاح ، كما

---

(١) أميان فى ١٦ ، ١٠ ص ١٥ .

(٢) نلمس فى أعمال السحر بالعصور الوسطى آثاراً لكثير من هذه الوثنية المتأخرة .

أن مزاعم البابوية والإمبراطورية فى غرب أوربا والتى لم يتصورها خيال أوغسطين قط ، كانت تدور المناظرات فيها على أساس جدلياته. ولكن ينبغى لنا أن نفرق بين أوغسطين ابن القرن الرابع وبين البناء الجديد الذى شيدته على أساساته طاقات قادرة على التنظيم ظهرت فى القرون التالية . وإن أوغسطين ليقف وسط العالم القديم تحده حدود الإمبراطورية الرومانية ، ومع ذلك فهو يملك جميع موارد الثقافة الغربيـة . على أنه فى الحين نفسه يقف بمعزل من هذا العالم ، ملفقاً فى حلمه الجميل بمدينة سماوية ليس من فيها من القطان إلا غرباء وحجاجاً على هذه الأرض . وكان هذان المظهران جميعا : وأعنى بذلك وحدة الحضارة الوثنية والمسيحية من ناحية ، والصدع العميق القائم بينهما من ناحية ثانية ، غريبين جميعاً عن العصور الوسطى ، يوم لم يعد خضوع الحضارة الوثنية والمسيحية السابق لأباطرة الرومان سوى ذكرى فى غرب أوربا[1] ، ويوم ذوى نهر الدراسات الكلاسيكية حتى أصبح مجرد بضعة جداول قليلة توجه بعناية إلى قنوات الكنيسة ورجالها . ولو نظرنا من زاوية ذلك العصر إلى كتاب « مدينة الله Civitas Dei » الذى وضعه أوغسطين لوجدناه تأكيداً حاراً للتدخل الإلهى فى الشئون البشرية ، أكثر منه « فلسفة للتاريخ » ؛ ووجدناه رؤيا وجدية أكثر منه صوغا تكهنياً للحدود القادمة مستقبلا للكنيسة والدولة ، ألفه متصوف فيلسوف تعالى عن الحقائق المحزنة التى يحتويها زمانه ، بما دبج من وصف لمجتمع مثالى ، يقوم على مبدأ العدالة الحقة ، فيلسوف لم يتطلع إلى عالم الحس بل إلى شرفات مدينة سرمدية لم تبنها يد[2] .

---

(١) إن الأثر العميق لتلك الذكرى معروف مشهور : ولكنه أثر عارس فى عالم الفكر لا الحقائق .

(٢) انظر المقارنة التى عقدها المستشرق جروليباوم فى كتاب « حضارة الاسلام » الذى صدر للمترجم بمجموعة الألف كتاب ، — بين القديس أوغسطين وبين الإمام الغزالى ص ٣٤٨ (المترجم)

وحدة الإمبراطورية

عند وفاة ثيودوسيوس ، قسمت الإمبراطورية بين ولديه ، أركاديوس وعمره ١٨ سنة وقد ورث الجزء الشرقى ، وهنوريوس وعمره ١١ سنة ونال الجزء الغربى . ولم يكن فى ذلك التقسيم شيء جديد . إذ كانت هناك دوما فروق معينة بين الولايات الغربية ، التى كانت ثقافتها وحياة المدن فيها مما أنشأته يد روما ، والمناطق الشرقية التى كانت لا تزال تحتفظ بالتقاليد الهلينستية. وقد كان تنظيم الإمبراطورية فى عهدى دقلديانوس وقسطنطين ، ذلك التنظيم الذى مهد السبيل لتولى إمبراطورين فى الإمبراطورية ، تهيأ له أن يستقر بوصفه التنظيم الطبيعى للأمور ، الذى استطاع أن يثبت على اضطرابات القرن الرابع[1] . ولذا كان أول ما قام به فالنتنيان من أعمال (٣٦٤) عندما تولى عرش الإمبراطورية ، أن عين فالنز إمبراطوراً شريكا . ومنذ تلك الساعة أخذ شطرا الإمبراطورية فى الافتراق السريع . ولم تتهيأ إلا فرص قليلة ، وعلى أزمنة متباعدة لقيام الشطرين بعمل موحد ؛ ولعل آخرها الحملة البحرية الكبرى التى سيرت فى ٤٦٨ على جزريك (Gaiseric) فاتح أفريقية الوندالى ، الذى كانت قرصنته تهـــدد تجارة البحر المتوسط بأكملها ؛ على أن هذه المحاولة القائمة على التعاون انتهت بالإخفاق التام .

ومع ذلك فمن الأمور الهامة أن يتذكر القارئ أن الإمبراطورية ظلت فى عين معاصريها ، وحدة واحدة غير قابلة للتقسيم . ومن الأمور الزائفة والغريبة عن فكرات ذلك الزمان التحدث عن « الإمبراطورية الشرقية

---

(١) انظر مايلى فى هذا الفصل بعنوان «الإمبراطور» . إذ عادت الإمبراطورية منذ عام ٤٨٠ فأصبحت من جديد تخضع لامبراطور واحد .

والإمبراطورية الغربيـة » ؛ ذلك أن الناس كانوا يفكرون فى شطرى الإمبراطورية باعتبار كونهما : «الجزئين الشرقى أو الغربى» (Partes orientis (Veloccidentis) . ومن الأمور الشائعة قولهم إن « الإمبراطورية الغربية » سقطت فى ٤٧٦ عندما خلع أودواكر الإمبراطور رومولوس أوغسطولوس ، بيد أن ذلك القول ينطوى على غلطة مزدوجة . ذلك أن رومولوس كان مغتصباً للعرش . إذ إن الإمبراطور الشرعى للأجزاء الغربية الذى لجأ إلى دالماشيا قبل ذلك ببضع سنوات ، قد مات فى ٤٨٠ . وكان معنى ذلك من الناحية الدستورية أن زينون أصبح يحكم آنئذ الإمبراطورية كاملة غير مقسمة من بيزنطة . واعترف المتبربرون بمبدأ استمرار الإمبراطورية ذاك ، كما أن بعض زعمائهم كانوا يناصرون ذلك المبدأ مناصرة حقة [١] . ومن شواهد ذلك أيضاً ، أنه حدث بعد ٤٧٦ بزمن بعيد أن السنوات لم تزل تؤرخ باسمى القنصلين ، اللذين ينزل أحدهما بروما ويقطن الآخر القسطنطينية ، كما أن الدساتير الإمبراطورية لم تبرح تُعلَن باسم الإمبراطورين كليهما ، وإن كان الذى حدث بعد ٤٥٠ هو أن القوانين الغربية لم تعد تنشر فى الشرق . فإن الإمبراطورية كانت من الناحية النظرية دولة واحدة (Respublica) ، يعقد البرابرة معها المعاهدات ، على أننا نصادف مرتزقة البرابرة (Foederati) فى الشرق يقاتلون مرتزقة الغرب من البرابرة . وحدث ذات مرة أن استيليسكو قائد هونوريوس اعتبرته القسطنطينية « عدواً للدولة » لأنه حاول أن يفصل إقليم (Prefecture)

---

(١) أمثال ألاريك وأتولف وثيودريك . انظر القوط الغربيون بالفصل الثانى وانظر مملكة ثيودريك بالفصل الثالث . ومن الحقائق البارزة طوال العصور المظلمة ، أن حكام بيزنطة ظلوا على الدوام يؤكدون إدعاءهم الحق فى ممارسة السيادة على ممتلكات روما بأوربا الغربية ؛ وأن مركز شرلمان لا يمكن أن يفهم دون الرجوع إلى ذلك الادعاء . بل إن .ؤرخا بيزنطيا كتب فى القرن الثامن نفسه يقول إن فرنسا قسم من الأقسام الإدارية (Diocese) بالامبراطورية الرومانية .

إلليريا (Illyricum) عن الشرق ويضمه إلى نصيب سيده . ولم يتردد الإمبراطور زينون فى شهر السيف على إيطاليا ، يوم استطاع بإرساله ثيودوريك لمهاجمة أودواكر ، أن يخلص تراقيا من شر قومه من القوط وأن يرحم الخزانة البيزنطية من النفقات الطائلة التى يدفعها لهم أعطيات .

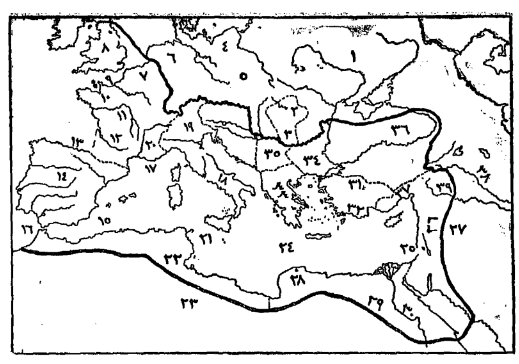
ومنذ أن افتتح قسطنطين عاصمته الجديدة فى (٣٣٠) أخذت القسطنطينية تنمو على حساب روما . وكانت من الناحية التجارية أهم منها كثيراً ؛ ذلك أن مركز التجارة العالمية انتقل إلى شرق البحر المتوسط ، وظهر فى الأفق منافس قوى لأنطاكية والإسكندرية . وكانت عظمة الأساقفة تطابق إلى حد كبير عظمة مدنهم ؛ وبذا صار كرسى القسطنطينية الأسقفى الذى كان تابعاً أول الأمر لهرقلية مثار حسد المطارنة ، ثم صار آخر الأمر يفوق فى المكانة كرسى الإسكندرية وأنطاكية جميعا ، ولا يسبقه سوى كرسى القديس بطرس بروما ، وذلك لأن : « القسطنطينية هى روما الجديدة » . وكانت المدينة من الناحية السياسية مركز القيادة العليا لنظام عسكرى وإدارى عظيم . بل لقد كان لها مجلس شيوخ خاص ، وإليها كان يرد القمح من مصر ، وقد كان الحصول عليه امتيازا لروما فى أحد الأيام .

وفى أثناء المائة الأخيرة من السنين ، لم يدخل روما سوى أباطرة ثلاثة ، وهو أمر يتفجع عليه الشاعر كلوديانوس . ذلك أن روما أصبحت مدينة إقليمية . وظلت ميلانو التى تقع على مسافة دانية من الحدود الإيطالية ، مقراً للإمبراطور حتى انسحب منها هونوريوس خشية سطوة الأريك ، إلى مستنقعات رافنا ، التى أصبحت قصبة الحكم نيفا وقرنا من الزمان . وقد كانت غيبة الأباطرة سبباً فى أن روما صارت فى قبضة البابوات، الذين شرعوا

آنذاك رويداً رويدا فى تنمية سلطانهم فى أثناء القرون الوسطى . كان البابوات يستطيعون فى الحين المناسب أن يتحدّوا الإمبراطور ، وأن يتفاوضوا مع المتبربرين ، وأن يرفعوا الرأس عاليا إزاء البقية الباقية من الأرستقراطية الرومانية التى يتزعمها والى (Prefect) المدينة رئيس جماعتهم ، بعكس بطاركة القسطنطينية الذين كانوا يعيشون فى ظل القصر . ولما أن سقطت روما أصيب العالم المتحضر بهزة شديدة ابتداء من أوغسطين فى هيبو إلى جيروم فى بيت لحم. ولكن الصدمة قد أصابت العواطف وحدها (وإن لم تكن رغم ذلك إلا صدمة حقيقية) . إذ إن روما كانت المدينة المقدسة : التى استودعت كلا من النظام القديم والعقيدة الجديدة ، ففيها كوخ رومولوس وقبر بطرس القديس . ولكنها لم تعد منذ زمن بعيد المركز الفعلى للإمبراطورية .

الحـــدود

وفى (٣٩٥) أصبحت الأقاليم الشمالية الغربيـة من الإمبراطورية على عتبات تغيرات هامة . ففى بريطانيا بات الدفاع عن « الشاطئ السكسونى » ، أى صفحة البحر المعرضة لهجمات السكسون فى بحر الشمال وعلى كل من جانبى بحر المانش،أهم مصدر لقلق رومافى أثناء القرن الرابع ؛ إذ يبدو أن مجموعة من القلاع امتدت قرب نهاية ذلك القرن على ساحل يوركشير . ولكن الجيوش الرومانية انسحبت فى (٤٠٢) لتسهم فى الدفاع عن إيطاليا . وفى (٤٠٧) عبر مرشح للعرش اسمه قسطنطين حدود بلاد الغالة بمعظم القوات الرومانية ، وهناك هزم هزيمة تامة ولقى مصرعه على يد قواد هونوريوس .ولم تعد الجنود إلى موطنها ، ثم انقضت مائة سنة لم يسمع فيها إلا القليل عن بريطانيا . ويشهد علم الآثار ولا سيما ما عثر عليه من النقود بمـا حدث من التخلى عن للواقع



(٢) خريطة الإمبراطورية الرومانية فى القرن الرابع

١ ـــ القوط الشرقيون ٢ ـــ داكيا ٣ ـــ القوط الغربيون
٤ ـــ اللومبارد ٥ ـــ الوندال ٦ ـــ السكسون
٧ ـــ الفرنجة ٨ ـــ إقليم بريطانيا ٩ ـــ نهر السين
١٠ ـــ باريس ١١ ـــ بلاد الغال ١٢ ـــ بوانييه
١٣ ـــ بوردو ١٤ ـــ إقليم أسبانيا ١٥ ـــ قرطاجنة
١٦ ـــ أشبيلية ١٧ ـــ مرسيليا ١٨ ـــ إيطاليا
١٩ ـــ ميلان ٢٠ ـــ ارلس ٢١ ـــ قرطاجة
٢٢ ـــ إقليم إفريقية ٢٣ ـــ الماوريون ٢٤ ـــ البحر المتوسط
٢٥ ـــ بيت المقدس ٢٦ ـــ إقليم الشرق ٢٧ ـــ العرب
٢٨ ـــ برقة ٢٩ ـــ إقليم مصر ٣٠ ـــ نهر النيل
٣١ ـــ آسيا ٣٢ ـــ أزمير ٣٣ ـــ مقدونيا
٣٤ ـــ تراقيا ٣٥ ـــ إقليم داكيا ٣٦ ـــ إقليم بنطش
٣٧ ـــ إيساوريا ٣٨ ـــ الدجلة ٣٩ ـــ نهر الفرات

الرومانية و بإحراق المدن ، وأخذ اسكتلنديو إيرلندة يلاحقون الساحل الغربى بالغارة والدمار ، وفى إحدى غاراتهم سيق باتريك أسيراً من مصب نهر السيفون فيما يرجح . واندفعت القبائل التيوتونية فى أودية الأنهار وعلى الطرق الرومانية شرقاً وجنوباً . ومنذ تلك اللحظة لم تعد تصل إلى العالم الرومانى عن بريطانيا سوى الشائعات والأساطير . إذ إن بروكوبيوس فى القرن التالى يعدها بلاداً تكاد تمتلىء بالثعابين ، وجزيرة أشباح لا يقطنها إلا الموتى، تنقل إليها الأرواح عبر البحر من بريتانى .

وكانت حدود الراين أيضاً على شفا الانهيار . وكان جوليان (يوليانوس) أعاد إليها النظام فى (٣٥٧) بسلسلة من الحملات الباهرة على الفرنجة والألامان المهاجمين ، وواصل فالنتنيان الكفاح ونصّب البورجنديين الوافدين حديثاً لمقاتلة الألامان ، وتمكن استيليكو فى (٣٩٥) من توكيد الدفاع عن بلاد الغالة ، فضلا عن بريطانيا ـ مدة عشر سنوات أخرى . ولكن النواحى الشرقية اصطبغت بصباغ جرمانى ثقيل . فقامت مستوطنات لأقوام من التيوتون على جانبى الراين ، وكان الدفاع عن تلك المنطقة موكلا إلى الجند المرتزقة أو الفرق المساعدة (Foederati) وهم القبائل المتبربرة الذين كانوا يظهرون فى كل يوم استعداداً لقتال أبناء قرابتهم أو منافسيهم لقاء أعطيات الرومان أو ما يقطعهم الرومان من أرض ، ثم ينضمون فى اليوم التالى إلى أعدائهم بالأمس ، أملا فى ابتزاز السلب ، أو الحصول من الإمبراطورية على شروط أفضل . وعندما استدعى معظم حرس الحدود للدفاع عن إيطاليا من الأريك ، استطاعت قبائل بأكملها عبور النهر وقد تجمد ماؤه فى ليل بهيم ، وأن تدخل الأراضى الرومانية دون التعرض لشيء من العقاب . وعلى هذا النحو عبر الراين حشد

مختلط من الواندال والسويف والألان حوالى (٤٠٦) ، فقضوا على مقاومة الفرنجة ، وشرعوا يجوبون فى أرجاء بلاد الغالة ردحاً من الزمان ، وهم ينهبون معظم المدن ويتسببون فى الفوضى والمجاعة ، حتى تمكنوا فى النهاية فى (٤٠٨) من عبور جبال البرانس ، واستقروا بأسبانيا ، محدثين بها نتائج مماثلة للتى أحدثوها بغيرها وإن كانت هنا أدوَم . ومن الجلى أن قبضة الإمبراطورية على ممتلكاتها وراء جبال الألب أخذت تهن وتتقلقل . فإن شئنا سوق دليل آخر صح أن نلتمسه فيما فعله قسطنطين المغتصب القادم من بريطانيا ، إذ تمكن من أن يطلق على نفسه اسم سيد بلاد الغالة مدة أربع سنوات ، لمجرد تجنبه لقاء البرابرة المتجولين . وإن حملات قسطنطين وغيره من زعماء الرومان على قواد هونوريوس لتتسم بجو من الزيف واللاحقيقة عندما نتبين أنه فيما عدا ولاية پروفانس والركن الشمالى الشرقى من أسبانيا ، كانت هذه الولايات تنتقل فعلا واسماً إلى قبضة البرابرة .

ومع ذلك فإن هذه الحقائق لم تتضح فى (٣٩٥) [١] ؛ إذ إن الضغط الرئيسى كان مركزاً فيما يبدو على منطقة الدانوب . إذ حدث فى (٣٧٦) أن القوط وقد دفعهم إلى الأمام غزو الهون ، تدفقوا على الحدود ، وعاثوا فساداً بمقدونيا ، وتمكنوا فى (٣٧٨) فى معركة أدرنة الكارثة من إنزال الهزيمة بجيش رومانى وقتل الإمبراطور . ومن الجلى أنهم قد وصلوا فى زحفهم هذا إلى أسوار القسطنطينية نفسها ، ومع أن ثيودوسيوس تمكن من الاتفاق معهم ، فإنهم ظلوا يهددون العاصمة . إذ إن أعداداً غفيرة منهم كانت

(١) إن كلوديانوس وهو شاعر معاصر يتغنى بثقة تامة بما أحرزه استيليكو والجيوش الرومانية ببريطانيا وغالة من انتصارات باهرة ، مقارنا إياها بما أنزله ماريوس بقبائل الكيمبرى والتيوتون من هزائم ولكن لا يغرب عن البال أنه كان شاعر القصر وداعية ماهراً ذكيا .

تعمل فى الجيش الرومانى ، بينما نزلت جموع المحالفين منهم بداخل الإمبراطورية بوصفهم وحدات وطنية تطالب بإعانات ضخمة .

ولكن القسطنطينية نجت من الهلكة . ولم يكن ذلك إلا لشىء واحد كما سنرى بعد : هو أن القوط حولوا وجهتهم نحو الغرب ؛ ولسبب آخر هو أن الحدود الشرقية خيم عليها الهدوء طوال القرن الخامس بأكمله . وقد اقتسمت أرمينية فى (٣٨٧) بعد أن ظلت « دولة حاجزة » بين روما وفارس منذ عهد أوغسطس ، فانتهى بذلك النزاع الطويل على اكتساب « مناطق النفوذ » — وإلى أبعد من ذلك جنوبا ، أى بأرض الفرات ، ظل خطر الدفاع هادئاً لا يكدره مكدر ، وذلك لما أحدق بفارس من تهديد أعداء أُخر بمنطقة نهر آموداريا ؛ كما أن سلسلة القلاع الرومانية كانت كافية لردع شراذم الأعراب المتجولة بتلك المنطقة .

وحافظت الدولة فى إفريقية أيضاً على حدود الصحراء من البدو المغيرين ، على الرغم من تضاؤل كفايتها ؛ وشاهد ذلك أن سينيزيوس (Synesius) أسقف برقة (Cyrene) وجد القوات النظاميــة أجبن من الجند المحلية التى كان يجمعها من جيرانه ويقودها بنفسه . فإذا انتقلنا إلى الغرب ، وجدنا السكان المغاربة والبونيين[1] قد اغتنموا فرصة الاضطرابات[2] الاجتماعية والدينية للتخلص من نفوذ الرومان .

---

(١) المغاربة (Moors) والبونيون : هم الفينيقيون وأحفادهم النازلون بشمال إفريقية (المترجم)

(٢) انظر ص ٢٧ الفصل نفسه بعنوان الهون ومناعبهم .

الجيش

وكان الجيش فى قريب من ٤٠٠ للميلاد مرآة تعكس الأحوال العامة التى تشيع فى الإمبراطورية . فقد كان معروفاً رسمياً أن البنيان الأساسى لإصلاحات دقلديانوس وقسطنطين كان لا يزال قائماً . وكان الغرض من هذه الإصلاحات هو أولا ـ تشجيع الكفاية بفصل السلطة العسكرية عن السلطة المدنية ، وثانياً المحافظة على الحدود بإقامة خط متصل من المعسكرات ، على حين أن زهرة الجيش (بغض النظر عن فرق الجند الإقليميين على اختلاف أنواعهم) كانت تؤلف قوة متحركة تستطيع أن تبادر بالتحرك إلى أية نقطة تتعرض للغزو[١] . وتزايد إبان القرن الرابع الفرق فى النوع بين جيش الميدان (Comitatenses) وقوات الحدود أو الثغور (Limitanei) ؛ فإن الأخيرين ، وكانوا موزعين على معسكرات دائمة أو مستوطنات صغيرة ، ألحقت بها بعض الأرض الزراعية ، ما لبثوا أن أصبحوا تقريباً جند رديف من الفلاحين : وكثيراً ما كانوا أقواماً أشبه بالبرابرة بسبب تزاوجهم المختلط بالأجانب والتسرب المستمر بين الناس على امتداد مناطق الحدود ؛ ولا يختلفون كثيراً عن سكان المستوطنات التامة البربرية (Lacti or Gentiles) الذين سمح لهم بالاستقرار فى نواح مختلفة داخل الإمبراطورية ، مقابل قدر معلوم يؤدونه من الخدمة العسكرية . وكانوا ، على أحسن الأوضاع ، يعدون جنداً من الدرجة الثانية ، ونقيضاً غير كريم للجند النظاميين .

وتبين قوائم الجيش زيادة كبيرة فى عدد الكتائب ؛ ولكننا نستنتج

---

(١) انظر التذييل ١

نقلا عن مصادر أخرى أن الكثير من هذه الكتائب لم تكن موجودة إلا على الورق فقط ، أو كانت مجرد فصائل من نفس الكتيبة . إذ الواقع أنه فى تلك الأيام صار العدد المألوف للوحدة الفعالة ألف رجل لا ستة آلاف . ولم يعد يقودها آنئذ وال (Prefect) بل تريبيون . وكثيراً ما كانت تستخدم وحدات أصغر من أنواع مختلفة هى الفصائل (Nu meri) تتكون من حوالى خمسمائة رجل . ويبدو أن الأعداد الفعلية لقوات الميدان الرومانية فى أثناء القرن الخامس كانت بالغة القلة ، وكانت تزاد عادة باستئجار الحلفاء المتبربرين ، وهم قوم لا يعتمد عليهم فى الغالب كما أنهم يتقاضون دائماً أجوراً باهظة .

غلبة البرابرة على الجيش

وبلغ من تغير الجندى الرومانى فى ذلك الزمان أن زميله من جند الإمبراطورية الأولى لم يكن ليستطيع تمييزه كجندى ، إذ لم يكن يرتدى الزرد سوى الخيالة وقلة من المشاة . وحل محل الترس المثلث القديم ، درق مستدير مجوف ، غالباً ما كان يحمل شارة الفرقة . وكان السيف القصير (Gladius) المستخدم فى الطعن لا يزال يستخدم ، ولكن النصل العريض (Spatha) الطويل ، وهو من أسلحة البرابرة ، أخذ يحل محله . وندر الآن حمل حربة الرمى الثقيلة (البيلم Pilum) فلم تعد تستخدم إلا عند الجند البرابرة . وكانت دبابيس[1] (Pikes) القرون الوسطى آخذة فى الشيوع ، وأصبح جميع الراكبة فى القرن التالى يحملون المزاريق . ونقل القوس عن البارثيين ، ولم ينقض طويل زمن حتى صار سلاحاً للفارس والراجل على السواء . وحدث

---

(١) الدبوس آلة حربية تشبه الحربة طويلة القناة مدببة الظبية . (المترجم)

تقدم فعلى فى الخيالة فى أثناء القرن الرابع : إذ أظهرت أهميتها (أى الخيالة) كارثة أدرنة ، وظهرت الفرسان المدرعة للقرون الوسطى فى صورة الخيالة الثقيلة (Cataphractarii) لأول مرة ، وما لبثت منذ تلك اللحظة حتى صارت القوة الفاصلة فى المعارك . وتسرب إلى الجيش كثير من الكلمات والعادات الألمانية فإنا نسمع اسم الدرانجوس (Drungus) ، وهو نوع من تشكيلات الجيش ؛ على حين أن صيحة الباريتوس (Barritus) وهى صيحة حرب كانت تبدأ بهمهمة خافتة وتنتهى بزئير رهيب ، قد انتقلت آنئذ من الجند المساعدة (Auxilia) الألمانية إلى صفوف الجيش بأكملها .

ومما يلفت النظر إلى المظهر غير الرومانى الذى اتسمت به القوات الإمبراطورية فى تلك الفترة ، ـ عَلَمِ الكتائب الجديدة المنقول فيما يرجح عن كتائب الفرقة الرومانية الكاملة القديمة ، التى تكاد الكتائب الجديدة تضارعها فى العدد . وكان العلم على هيئة أفعوان (Draco) ـ وهو شارة لعلها اقتبست عن الداكيين (Dacians) ، وهو مخلوق ضخم بربرى الشكل يمتلىء بالهواء ويثبت على رأس رمح .

وهذه الشارات البربرية ليست إلا أعراضاً لتغير بالغ العمق . فإن الجندى الرومانى كان يحارب آنذاك على قدم المساواة مع الهمجى المتبربر . وكان فى الأيام السالفة يقل عن المتبربر عدداً وقوة احتمال ؛ ولكن كانت له وقتذاك الغلبة على المتبربر بفضل تدريبه ونظامه الكامل وتفوقه فى السلاح ووسائل المواصلات . فأما الآن فإن ذلك كله قد ذهب . إذ إن التكتيك المعقد لم يعد فى مكنة الرومان ؛ بل إن المعسكرات العظيمة التى كان الفيلق الرومانى يقيمها كل ليلة ـ وبها كان يزيد روحه المعنوية قوة وحركته سرعة ـ لم تعد مألوفة

فى ذلك الحين . وكان كثير من البرابرة مزودين بسلاح أفضل ، بل لقد خدم بعضهم فى القوات الرومانية فترة من الزمن . هذا إلى أن الجهاز الإمبراطورى كان يتداعى . وكانت إدارة المهمات الحربية مقلقلة الأسس ، والأعطيات مضطربة ، وكان الجو مفعما بالاضطراب وسوء النظام .

وهناك نتيجة ترتبت على ذلك ، هى نمو عدد الأتباع الشخصيين ؛ وأصبح القانون ألعوبة فى يد كبار الملاك يتناولونه بالعبث كيف يشاءون ، وصاروا يدفعون الأجور لأتباعهم ويسلحونهم ويطعمونهم . ونمت تلك العادة متأثرة فيما يحتمل بنظام حراس الأمراء أو الأتباع (Comitatus) الألمانى الذى يصفه تاكيتوس[١] . لم يلبث نظام الأتباع أن أصبح معترفاً به فى عهد جستنيان ، يوم أصبح جميع القواد ، بل حتى الموظفين المدنيين والأفراد العاديين يتخذون من البقلار أتباعاً لهم (Buccellarii)[٢] . وبلغ عددهم عند بليساريوس (Belisarius) مثلا ٧٠٠٠ رجل ، ولكن كانت تلك حالة استثنائية . إذ لم يكن لدى نارسيس (Narses) سوى أربعمائة .

كانت الكتائب الرومانية مكونة فى الأصل من الإيطاليين ؛ ثم استدعت الحال فيما بعد اللجوء إلى أبناء الأقاليم ، حتى ترامى الأمر إلى أن أصبحت أقل أجزاء الإمبراطورية مدنية مثل بلاد الغالة وإلليريا وإيسوريا

---

(١) انظر من الفصل الثانى فى عنوان ألمانيا الباكرة وتاكيتوس : (٥٥ ؟ — ١٢٠ ؟) مؤرخ رومانى ذائع الصيت [المترجم] .

(٢) يظهر أن كلمة البوقلار أو البوكلارية مشتقة من لفظة Buccella ، وهو ضرب من البسكويت ؛ ولعل ذلك يرجع إلى أنهم كانوا يحصلون على طعام أفضل من الوجبات الخشنة التى كان يعطاها الجند العاديون .

(Isauria) — مناطق التجنيد الرئيسية فى الدولة . أجل إن التجنيد الإجبارى كان لا يزال موجوداً فى الإمبراطورية — إذ كان يتحتم على الملاك تقديم عدد معين من الرجال ؛ ولكن نظراً لأنهم كانوا يرسلون أقل الرجال صلاحية أو يستعيضون عن رجالهم بما يؤدونه من الأموال ، فإن هذا الإجراء كاد يبطل . وعندئذ صارت المادة التى يأتلف منها الجيش مكونة من أسرى المتبربرين والقبائل التى خضعت بشروط ، والشعوب التى أنزلت على الحدود أو بالقرب منها أو الجند المتبربرين المتحالفين (Foed erati) الأحرار وما إلى ذلك . وكلما كان الرجل متبربراً أكثر ، كان جندياً أفضل . وبلغت الأمور نقطة التحول عند نهاية القرن الرابع . إذ سمح ثيودوسيوس بأن يدخل البلاد عدد جارف من القوط ، فلم يعد من الممكن بعد ذلك أن ينالوا أى نصيب من العلم — بالطرائق الرومانية ، ولو كان ذلك عن طريق توزيعهم بين مختلف الوحدات .

أما القيادات العليا ، فقد تولى الجرمان نصفها على الأقل منذ عهد جوليان ، فضلا عن أن كثيراً من الباقين كانوا من أرومة بربرية . وكان القوم على الدوام يستخدمون اللغة الدارجة لملاءمتها لحقائق الموقف . فكانت الخزانة العسكرية تسمى بالخزانة البربرية (Fiscus baricus) . ومما له دلالته ومغزاه أن أما مصرية تذكر فى التماسها تسريح ولدها أنه «انطلق مع البرابرة» وهى تعنى بذلك أنه قد انخرط فى الكتائب الرومانية .

الإمبراطور

إن مركز الإمبراطور فى ذلك الأوان كان — بمعنى ما — النتيجة المنطقية لما عمله أوغسطس . فإن ما يسمونه باسم «الحكم الثنائى Diarchy» أو اقتسام سلطة السيادة العليا بين الإمبراطور (Princeps) ومجلس الشيوخ ،

كان منذ البداية أقصوصة إلى حد كبير ، وصرف عنه النظر قبل عهد دقلديانوس ، ومنذ تلك اللحظة أصبح الإمبراطور هو المتحكم فى كل المجالات ، وبهذا يمكن القول بأن حكومة الإمبراطورية كانت حتى سقوطها فى ١٤٥٣ حكومة استبدادية مطلقة (أوتوقراطية) . ولكنها مع ذلك كما قال مومسن[١] : « حكومة مطلقة يلطف من عنفوانها الحق المشروع فى الثورة » . وكان الإمبراطور يخشى على الدوام ظهور منافس له . وبناء على النظرية الأصلية التى رسمها أوغسطس ، كان مجلس الشيوخ والشعب ينتخبان الإمبراطور ويوليانه مهام منصبه . ثم تعدل هذا الوضع عملياً بمناداة السناتو والجيش بالإمبراطور ، وإن بقى المبدأ الأصلى قائماً فى بيزنطة على صورة احتفال يقام بحلبة السباق (Hippodrome) على أعين العالم كافة . وإن استطاع منافس أن ينصبه جزء من الجيش إمبراطوراً ، صار له « وضع دستورى فرضى ، إما أن يثبته الاحتفال وإما أن يلغيه » (فيما يقول بيورى) ، فإن أخفق فيما قام به من انقلاب (Coupd' etat) عُدّ ثائراً متمرداً . وإن نجح كان الإمبراطور الشرعى .

بيد أن هذا لم يكن الإجراء العادى الذى يتم عند وفاة أحد الأباطرة . إذ كان لكل واحد من هؤلاء الحكام شريك يصغره موجود عند موته ، وفى تلك الحالة لم يكن هناك أى انتخاب . وهذا المبدأ الذى عملت به الأسر المالكة والذى تجلى ظاهراً فى سياسة أوغسطس ، أصبح عرفاً معترفاً به :

---

(١) هو ثيودور مومسن (Mommsen) (١٨١٧ — ١٩٠٣) : وهو عالم ألمانى بالعلوم الكلاسيكية ، بحث بإيطاليا فى النقوش الرومانية . وتولى أستاذية التاريخ القديم بجامعة برلين منذ (١٨٥٧) وله عدة مؤلفات عظيمة . [المترجم]

إذا كان للإمبراطور « الحق فى نقل المنصب الإمبراطورى إلى الغير » . وعندئذ يكون شريكه أو شركاؤه خاضعين له ، وليس للإمبراطورية إلا حاكم أعلى واحد فقط . (وعلى هذا الاعتبار ، تكون المدة من دقلديانوس إلى يوليوس نيبوس (المتوفى ٤٨٠) حالة استثنائية)[١] . وهكذا بقيت ولاية العرش الانتخابية قائمة على الدوام من حيث المبدأ ، ولم يكن السناتو يلعب فى ذلك دوراً هاماً إلا فى حالات استثنائية فقط .

وثمة قيود أخرى كانت مفروضة على سلطة الإمبراطور . فعلى الرغم من أن الإمبراطور كان من الناحية النظرية فوق القانون ، إلا أنه كان عليه التزام غير مكتوب بأن يحافظ على الأنظمة والقوانين الرومانية . وينبغى أن يكون مسيحياً أرثوذكسيا : وقد تم انتزاع هذا الالتزام حينما تولى العرش الإمبراطور أناستوسيوس (٤٩١) ، وكان معروفاً بآرائه الإلحادية ، ثم جرى العرف فيما عقب ذلك من أيام بأن يحلف الإمبراطور يميناً عند تتويجه . بيد أن الكنيسة لم تكن تواصل على الدوام ادعاءها السيادة على الدولة ، كما حدث فى الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، ومن ثم لم تكن بيزنطة فى حاجة إلى أمثال دانتى أو أكام لصياغة النظريات المحكمة فى هذا الصدد ، إذ لم تكن الكنيسة هنا إلا إدارة من إدارات الدولة ؛ وكان الإمبراطور رأس الكنيسة ، وكان البطريرك وزيره فى الشئون الدينية ، والحاكم يلقى هنا سلطته من ربه مباشرة ، ومع أنه لم يكن يعبد شأنه فى العهود الوثنية ، إلا أن قصره ومخدعه أسبغت عليهما صفة القداسة فى المراسم الرسمية . وربما أمكن تلمس المؤثر الفارسى فى هذا الأمر؛ ومن المحقق أنه واضح فى تفاصيل مراسيمية

---

(١) انظر ص (١٤) .

أخرى . وكان التاج وهو شريط أبيض مطرز باللؤلؤ ، قد أصبح أهم شارات الملك شأنا ؛ كما كانت الأحذية الأرجوانية أيضاً جزءاً من ثياب الإمبراطور. وكان الخصيان والنساء يسيطرون على بلاط أركاديوس وهونوريوس . وكان كبير الأمناء واحدا من أبرز أربعة من الموظفين ذوى الأهمية ، وهو (Peaedositus Sacri Cubiculi) من الخصيان . وكان الإمبراطور يحاط بسياج من آداب اللياقة والمراسم (كان التعبير عنه يتطلب حشداً ضخماً من رجال البلاط والخدم) كما كان محوطاً بسياج يبعده عن كل اتصال بالحياة الواقعية .

ومن المفارقات العجيبة أن المركزية الإدارية بلغت فى الحين نفسه أقصى ذروتها . فكان الإمبراطور يمسك بيده خيوط الحكم جميعاً ؛ فهو المصدر الوحيد للقانون ، وفقهاؤه هم الذين يفسرونه ، كما أن مجلسه كان يتكون من رؤساء الإدارات الحكومية الكبرى فى الدولة ولم يعد فى الإمكان التفريق بين إيرادات الدولة ودخله الخاص : وكان الإمبراطور يستخدم هيئة ضخمة من العملاء الخصوصين (Curiosi or Agentsimrebus) وهم مكلفون بالبحث فى كل نقطة من نقاط الإدارة وتقديم التقارير إليه رأساً . وإن مجموعة قوانين ثيودوسيوس التى نحن مدينون لها بالشيء الكثير مما لدينا من معلومات عن ذلك العصر ، لتحفل بالأوامر الإمبراطورية التى يقصد بها إلى معالجة الظلم وإساءة التصرف . ومع ذلك فإن مجرد تكرار تلك الأوامر نفسه يدل على الفشل . والحق أن الجهاز الحكومى بلغ من الفخامة والتعقيد مبلغاً عطل نشاط كل فرد . وكان من المحال تغيير حركة أصغر ترس فى تلك الدواليب المتداخلة بعضها فى بعض . هذا إلى أن الجهاز نفسه كانت تهدده قوى بالغة الضخامة ؛ إذ صار وقف زحف البرابرة على الدولة فى الاعتبار الأول . وكان رؤساء الجند

(Magistri militum) أصحاب النفوذ والسلطة الحقيقية فى أثناء ذلك القرن ، كما أن أى إمبراطور غير ميال للحرب لا مفر من أن يُجعل فى المرتبة الثانية بعد قائد الجيش .

الهيئة السناتورية

وقد انحدرت منزلة سناتو روما فأصبح مجلس بلدية ، يرأسه والى المدينة (Prefect) وهو المهيمن على الخزانة (Aerarium) ، التى لم تعد منذ زمن بعيد خزانة الدولة ، وأصبح الآن يشرف على سقايات الماء بالمدينة وتزويدها بالمؤن . وتجلى انحدار مكانة السناتو بعد انتقال البلاط الإمبراطورى إلى ميلانو أولا ثم إلى رافنا فى النهاية . فالهيئة التى كانت تدير شئون الإمبراطورية لم تعد تحفل إلا بالجامعة وبسجلات العاصمة . ومع ذلك فإنه لم يبرح من الناحية النظرية محتفظاً بسلطاته الأولى ، وربما أظهر فى أيام الأزمات أنه عامل حاسم فى الأمور . فأما بيزنطة ، فنظراً لشدة نزعتها المركزية ، لم يعد ثمة فارق بين السناتو ومجلس الإمبراطور (Consistorium) . وظلت الوظائف القديمة : وظائف القنصل والبرايتور (Praetor) موجودة لم تمحها يد الزمن ، وتعتبر أن أعلى المناصب التى يتطاع إليها نبلاء العاصمة أو الأقاليم . وعلى الرغم من أن أعباء هذين المنصبين لم تعد تتجاوز ما يعرض على السكان من الألعاب أو الحفلات .

وكان مجلس الشيوخ (Senatus) أو السناتو نفسه يضم نسبة ضئيلة جداً من رجال طبقة أعضاء السناتو (Ordo Senatorius) ، وهى الطبقة الكبيرة من الملاك الأغنياء الذين كان لهم بكل أرجاء الإمبراطورية سلطة ونفوذ عظيمان

رغم أن هذا النفوذ لم يكن إلى حد كبير يستند إلى صفة رسمية لهم ، فما لم يكن الرجل من هؤلاء منتسباً إلى تلك الطبقة بحكم مولده ، فإنه كان ينتظم فيها بأمر خاص من الإمبراطور أو السناتو ، أو حتى أصبح عضواً بإحدى طبقات الأشراف الثلاث : وهى الوجهاء ، والنابهون ، والصفــوة النبلاء (Spectbilis, Illustris, Clarissimus) . وكان لــكل منصب رسمى هام فى الإمبراطورية لقب مرتبط به أو يصح الحصول عليه عند التقاعد . وكانت هذه الألقاب تتغير باستمرار ، وتزداد عددا على الدوام فى أثناء القرنين الرابع والخامس . ولم تــكن الألقاب ألقاب تــكريم وشرف وحسب ، بل كانت تسوغ لحاملها أنواعاً مختلفة من الإعفاء من الضرائب ، ومن ثم كانت موضع التقدير والاهتمام . وبهذه الطريقة كانت طبقات بأ كملها من الموظفين تنتقل آلياً إلى عقد رجال السناتو . ومن العسير أن نصف بالتفصيل سلم الوظائف . على أنه كان يلى الطبقات الثلاث سالفة الذكر طبقة الأكامل (Perfectissimi) وهى طبقة تتألف من صغار الموظفين ومن رؤساء هيئات معينة ، وكانت فى كثير من الحين معراجاً يرقى به إلى طبقة السناتو . وفيما يلى هذه الطبقة ، انتظم السكان فى أقسام تقوم على الحرف والأعمال كما سنرى بعد .

وبعد حدوث الفوضى الجائحة التى رانت على القرن الثالث ، أصبح الاستقرار الشغل الشاغل والهدف المرموق ، وتم بلوغ ذلك بإقدام الحكومة بعزم قوى على توطيد النظام الإدارى وتبسيطه . وقد اشتد غلاء المواد الغذائية؛ فحاول دقلديانوس ضبطه بإصدار الأوامر بتنفيذ لائحة عامة لأعلى الأسعار ، وأدت المحاولة إلى تقديم كثير من الناس إلى المحاكمة ، ولــكنها لم تلق أى نجاح يذكر ، وخفضت قيمة العملة وأصبح الذهب والفضة نادرين ؛ وأدخل قسطنطين عملة الصولدى (Solidus) الذهبى ، التى لبثت عدة قرون العملة

المعيارية للدولة ، على الرغم من أن وحدة القيم الحقيقية هى وزن الرطل من الذهب . وكان أساس تقدير الضرائب إبان الإمبراطورية الأولى هو العرف السائد بمختلف النواحى ؛ وهو نظام شديد التعقيد ، إذ إن معظم الإيرادات كان يحصل من الضرائب غير المباشرة ومن إنتاج المزارع الإمبراطورية الكبرى . على أن أفدح الأعباء هو تلك الضرائب الاستثنائية التى كانت تفرض على الناس نقداً وعيناً لتزويد الجيوش الرومانية والموظفين المسافرين بالميرة ووسائل النقل . وتزايدت هذه الفرائض المحتمة زيادة هائلة فى أثناء اضطرابات القرن الثالث يوم كاد كل إقليم يقيم لنفسه إمبراطوراً أو مدعياً للعرش ، وكادت التجارة المنتظمة تكون مستحيلة . ولكن دقلديانوس بدلا من أن يعود إلى النظام القديم قرر أن يواصل العمل بهذه الإجراءات ، وذلك فى ضريبة الميرة (Annona) ، كما قرر أن يستعيض عن نظام التقدير القديم بطريقة بالغة البساطة والسذاجة فى الحساب وهى طريقة الربط (Iugatio) ، وهى طريقة لا تحفل إلا قليلا بالخصائص[1] المحلية . إذ لا بد من إنقاذ الإمبراطورية على حساب شعبها . ولم يكن فى الإمكان إحراز هذا الإنقاذ إلا بتحويل الأمة كلها إلى آلة مقننة لإنتاج النقود وضروريات الحياة ، وذلك بقصد مواجهة النقص المتواصل فى الإيرادات والتجارة وعدد السكان بل حتى فى الابتكار والمبادأة .

وكان الفلاحون قاعدة الدولة التى عليها تقوم . ومن ثم فقد وجب قهرهم ووجبت مع ذلك حمايتهم . ولم يعد معظم الفلاحين الصغار (Coloni) من الملاك ؛ إذ إنهم أصبحوا بحكم العقود أو التشريعات – من ناحية ، ولكن

---

(١) انظر التذييل ا

بالأكثر بحكم الحاجة الاقتصادية من ناحية أخرى تفوق الأولى ، ـ مستأجرين في مزارع كبار الملاك . وقد انتقصت آنذاك حريتهم الشخصية ؛ فربطوا هم وأبناؤهم بالأرض ؛ وإن فكروا في الفرار والإباق [1] وضعوا في الأغلال . ولكن سادتهم (Patrohus) ينبغي ألا يسرفوا في تجريدهم من غلة الأرض دون ترك فائض لهم بما يفرضونه عليهم من إيجار فاحش ؛ ولا يجوز لهم أن ينقلوا الفلاح الصغير إلى مكان آخر إذا باع السيد الأرض التي يعمل عليها الفلاح . ثم صار الملاك آخر الأمر مسئولين عن جمع الضرائب التي يدفعها مستأجروهم وبذلك تم إخضاع صغار الفلاحين . فإنهم أصبحوا عند ذاك يؤلفون طبقة من أشباه الأحرار ، تقع في منتصف الطريق بين المواطنين الأحرار والأرقاء .

اضطراب شئون الزراعة

ومما يشهد بالحالة المؤسة التي بلغها الكساد الزراعي ، ويدل على أهميته لدى الإمبراطورية ، الإجراءات المتنوعة التي لجأت إليها الحكومة لتمنع الناس من التخلي عن زراعة الأرض ، فتقرر فرض إيجار اسمي على حيازة الأرض البور الموروثة التي يتعهد حائزها بزراعتها زيتوناً وكرما (Emphyteusis) وهذا النوع من الحيازة هو المعروف بأرض الطعمة . وتحتم على مالكي المزارع الضخمة أن يضيفو إلى أملاكهم قدراً معلوماً من الأرض غير المزروعة ويؤدوا عنها ضريبة (Epibolé) .وهناك عدد من البرديات التي اكتشفت حديثاً بمصر ، توضح لنا وضوحاً لا لبس فيه المصاعب التي تنجم عن اتباع هذا النظام ،

---

(١) أبق العبد أبقا وإباقا : هرب (المترجم)

الذى استمر معمولا به إلى العصر البيزنطى ، فكل من ظهرت عليه أمارات اليسار جعلت على كاهله قطع من هـذه الأرض البور ، وأفضت المطالبات الرسمية المتواصلة بتقديم الإبل والأسلحة والقوارب والأرقاء ووسائل المواصلات الأخرى ، إلى القضاء على كل تجارة ، وتحول الآبقون إلى قطاع طرق ، وتركوا زملاءهم يؤدون الضرائب الفادحة ، وأخذت رمال الصحراء تطبق فعلا على حقول القمح وعرائس الكروم التى تركها أصحابها يباباً بلقعاً .

وقام الفلاحون بثورات فى أصقاع مختلفة . ففى غالة وأسبانيا أشبّت عصائب الثائرين (Bagaudae) حروباً متقطعة فى أثناء القرنين الرابع والخامس ، وكانوا فى أحوال عديدة يقدمون العون للبرابرة . إذ إن سالفيان وهو قسيس فى جنوب غالة وصف هؤلاء الثائرين ، ويتحدث أيضاً عن رجال فروا إلى البرابرة للتخلص من جابى الضرائب . وثار الأرقاء فى بعض المناطق على أسيادهم : ويروى بريسكوس [١] الذى عاش فى منتصف القرن الخامس والذى أرسله الإمبراطور فى سفارة خاصة إلى أتيلا بمعسكره شمالى الدانوب ، أنه وجد تاجراً يونانياً يعيش بين ظهرانى الهون ، وأن التاجر أدلى إليه بأسباب مفصلة لإيثاره العيش فى ظل البربرية على خفض الحضارة . واشتد فى إفريقية بغض الفلاحين للدولة الذى كانت تزيد فى أواره المشاعر العنصرية المغربية والبونية (الفينيقية) ، ولم يلبث حتى ثار شرره ناراً ولهيباً نتيجة للانشقاق الدوناتى [٢]

---

(١) بريسكوس (Priscus) عن تفاصيل رحلته الشائقة إلى معسكر أتيلا ، انظر المترجم المجلد الثانى من «معالم تاريخ الإنسانية» تأليف هـ.ج ولز ص ٦٥٢ ط ٢ لجنة التأليف (المترجم)

(٢) الدوناتيون : طائفة مسيحية قوية نشأت بشمال إفريقية وخرجت على كنيسة القسطنطينية ثم انشقت على نفسها ولم تزل فى شقاق قرونا عدة حتى قضى عليها الفتح العربى فى القرن السابع (المترجم)

كما أن عصابات الجلادين[1] وغيرهم من المتعصبين المتهوسين وهم المسمون (Circumcelliones) أحدثت من الاضطرابات ، ما مهد السبيل للغزاة الوندال. هذا وإن الازدهار الفجائى الذى أصابه الفن الكلتى ببريطانيا والأدب القبطى والسريانى بمصر وسورية ليشهد بأن الثقافات المكبوتة بمواطن أخرى كانت ترقب ضعف قبضة الحكم الرومانى لتواصل نشاطها . غير أن هذه الحركات كانت استثنائية . إذ إن التبلد كان الصفة الغالبة على الفلاح الذى لم يكن يتراءى له فيما يحيط به من آفاق أية بارقة تبشر بمآل أحسن ، والذى كان همه الوحيد منصرفاً إلى تجنب الهلاك جوعاً فى سنته التالية .

وأخضعت التجارة والصناعة أيضاً للسيطرة الحكومية . وقد عرفت مصر فى العهود الهللينستية هيئات مكونة من طوائف من أصحاب السفن والتجار تقوم فى خدمة الدولة . حتى إذا جاء عهد كاوديوس كانت تلك الممارسة قد امتدت إلى جماعات أو نقابات (Collegia) أخرى من البحارة (Navicu Larii) والتجار (Mercatores) فى الموانئ الإيطالية ؛ ومنذ عهد أورليان ، نالت نقابات جميع الحرف اعتراف الحكومة وحمايتها ورقابتها . على أن هذه الجماعات ، فيما عدا تجارة القوافل السورية لا تمت بأى شبه للشركات العصرية ذات رأس المال المشترك ، وكل ما كانت تفعله أن تقيم لنفسها « شخصية قانونية » سهلة وصريحة عند التعامل مع الدولة . أما الصناعة طوال تلك الفترة فكانت أساساً فى أيدى الأفراد .

ولعل نقابات البحارة أذيعها صيتا ، وذلك استنادا إلى كثير من النقوش،

(١) طائفة الجلادين : فئة دينية ظهرت فى إيطاليا تؤمن بتعرية أجسادها وتعذيبها بالسياط . (المترجم)

وربما أمكن اتخاذها مثالا . وقد طلب دقلديانوس منهم أن يشتركوا فى نقل المواد الغذائية ، لا لسكان العاصمة فحسب ، بل للجيوش أيضاً . وكانت ممتلكات هذه النقابات تعد رهينة لسلامة وصول الشحنات . وكان عليهم أن يسلكوا أقصر الطرق ، وألا يتوقفوا بمكان مالم تقض عليهم بذلك ضرورة ماسة ، وكانت حرفتهم وراثية . وكذلك أيضاً انتظم الخبازون وتجار لحم الخنزير وموردو الخشب لأفران الحمامات وحرف وصناعات أخرى بالعواصم والمدن الصغيرة فى نقابات على نفس الأسس التى لم يكن يجوز لأحد الانسلاخ منها . وكانت ذخيرة الجيش ومعداته تنتجها مصانع للدولة يعمل بها عمال أرقاء كادحون مرهقون عملا .

وصارت الإدارة المحلية وجباية الضرائب أيضاً جزءاً لا يتجزأ من الجهاز العظيم . كما أن أعضاء مجالس المدن (Curiales) المسئولين عن الإدارة المحلية وجباية الضرائب ربما كانوا أكثر تعاسة من أية طبقة أخرى فى المجتمع . وقد كانت الإمبراطورية تتألف (فى ناحية واحدة فقط) من مجموعة ضخمة من البلديات تحتفظ بقدر كبير من الاستقلال . ولكن ذلك الاستقلال قد انتقص على عهد تراجان ، إذ تقرر إنفاذ مندوبين إمبراطوريين (Correctores Curatores) لتنظيم مالية بعض المدن ببلاد اليونان وآسيا الصغرى . وبنمو هذا الإجراء اضمحلت وطنية المدن والغيرة على استقلالها ، وأصبحت الأعمال الخيرية نادرة واستثنائية ؛ كما أن قيام المسيحية الذى أفضى إلى هدم معابد آلهة المدن (Polis) ، التى ظلت قروناً عديدة قبلة وبؤرة لولاء المجتمعات وعبادتها ، عاون على القضاء على القوى التى حافظت على حياة دولة المدينة (City-state) القديمة ، ولكن الحاجة إلى الحكم المحلى ظلت قائمة ؛ ومن ثم

بات من الضرورى إجبار أعضاء مجالس المدن (Curiales) ، وهم الموسرون من أهل المدن وأصحاب الأملاك الذين يصح انتخابهم أعضاء بمجلس سناتو المدينة أو لتولى الوظائف التنفيذية ، على مواصلة القيام بالتكاليف (Munera) المنوطة بهم كالقضاء فى المسائل الطفيفة والانتدابات لبعض المهام وفحص المبانى وخدمة البريد والنقل ، وجمع الضرائب إلى غير ذلك ، وهى أعباء لا يتقاضون عنها أية مرتبات. وقد أقيم تمييز رسمى بين التكليف (Munera) والتشريف (Honores) ، إذ كان المصطلح الثانى يطلق على الوظائف التى هى فى حد ذاتها مكافأة مشتهاة لشرف قدرها . ومما له دلالته على حالة الشعور العام أن ذلك الفرق لم يعد قائماً .

وكان من أشد الأعمال وطأة على الناس تقدير الضرائب الإمبراطورية أو جبايتها . وأعضاء مجالس المدن (أو مندوبو البلديات) هم المسئولون شخصياً عن هذه الأعمال ، وذلك بينما طلبات الخزانة الإمبراطورية فى ازدياد مستمر . وكانت توضع فى طريقهم كل ألوان العقبات . فإن كبار الملاك كانوا يرفضون الإدلاء بأية معلومات ، بل كانوا يسلحون أتباعهم لكى يطاردوا جابى الضرائب . وقد تتعرض طبقة أعضاء مجالس المدن بأسرها للدمار ، نتيجة لرداءة المحصول أو غارة جيش مغير ، وذلك لأنه لابد لهم من تسديد النقص من جيوبهم الخاصة . ومما كان يزيد فى مرارة شعور الكراهية بين المدينة والريف ، ما انساق إليه أعضاء مجالس المدن مرغمين على اللجوء إلى الرشوة والابتزاز .

اضمحلال الطبقات الوسطى

ولو تأملنا على مر العصور الأوامر الصادرة من عهد قسطنطين إلى ماجوريان وهى التى تتضمنها مجموعة قوانين جستنيان ، لأمكننا أن نتعقب من خلال مائة وخمسين عاماً صدر فيها ١٩٢ مرسوماً ، التدمير البطىء الذى أُنزل بالطبقات الوسطى . فإن محاولاتهم اليائسة للوصول إلى طبقة رجال السناتو والاستمتاع بما لتلك الطبقة من مكانة وحصانة ، تُكبح كبحاً تتزايد شدته على كر الأعوام — إذ تقفل دونهم أبواب الجيش والكنيسة والخدمة المدنية . وتصبح العضوية فى طبقة أعضاء مجالس المدن (مندوبى البلديات) وراثية ؛ ولكنها من ناحية أخرى تمجد بالألقاب الرنانة : فهى تسمى آونة «بالسناتور الأصغر» وآونة «بالمكانة الرفيعة» . وقد تقرر منع الأعضاء من السفر إلى الخارج أو السكنى فى الريف ، «إذ ينبغى لهم أن يظلوا بين أحضان مسقط رأسهم ، طبقاً لمقتضيات الروابط المقدسة المقدرة عليهم ، ولأنهم يحرسون السر الأبدى الذى لا يستطيعون التخلى عنه إلا بالتخلى عن التقوى.» وهذا مثال طيب على لغة القانون وبيانه وعلى إنكاره التام لكل حرية شخصية . وتشهد مراسيم أخرى بمزيد من القيود ، وتوقف كل محاولة للهرب . ومن ثم صار الأعضاء (المندوبون) بمصر والشرق يفرون إلى صوامع النساك بالصحراء ؛ ولكنهم كانوا فى البلاد الأخرى يلتمسون الانضمام إلى نقابات أخرى أشد تواضعاً ، أو يضعون أنفسهم تحت رعاية مالك أرض قوى ، وكان كثير من صغار الملاك يفارقون مزارعهم خفية تحت ضغط الديون ، وينضمون إلى صفوف الفلاحين الصغار (Coloni) .

حياة الطبقات العليا

وعلى النقيض التام لهذه الأحوال المتعسة تنهض الحياة المترفة التى تحياها الطبقات العليا . وقد زادت دخولهم فى كثير من الحالات ، على حين تناقصت إيرادات الخزانة الإمبراطورية . كانوا يعيشون آمنين فى معاقلهم الريفية ، ومن ثم كانوا يتحدون جابى الضرائب ويؤلفون هيئة ضخمة من «الماسونية» المتكتلة المكونة من المحافظين (الحكام) والموظفين ، ترتبط فيما بينها بأواصر الدم والطبقة بغية القضاء على أهداف العدالة ومحو أثر كل مرسوم إصلاحى . ويتبدّى فيهم خليط عجيب يجمع بين خصائص العصور القديمة والوسطى . ويحيط بالأسر الكبيرة فى تلك الفترة جو إقطاعى واضح الشذى والمعالم — ومثال ذلك أسرة أنيكى (Anicii) فى روما ، وبيت آبيون بمصر وأرستقراطية جنوب فرنسا المتشابكة بروابط الصهر والقربى ، بما لها من الأملاك الضخمة المترامية التى أشبهت الممالك الصغيرة ، وقيامها بشئون القضاء قيام السادة المتصرفين وما لها من فصائل من الراكبة الأتباع . وتتجلى فى الفسيفساء المنقولة من أرضية الفيلات الأفريقية صور ومبان تشبه القلاع أو البيوت الريفية المحصنة ؛ وفيها يقدم موالى الأرض خدماتهم أو يدفعون دفعات عينية؛ ويمارس القوم ضرباً من «الاقتصاد» يقوم على الاكتفاء الذاتى ، ويواجهون جميع مطالب الحياة بالصناعة المحلية[1] . وفى تلك الفسيفساء يظهر اللورد ورفاقه ممتطين جيادهم فى أثناء خروجهم للصيد أو الاحتفاء برجال العلم . ويعطينا أوسونيوس وغيره صورة مماثلة للأحوال القائمة بجنوب فرنسا . ومنها يتبين

---

(١) يمكن هنا مقارنة هذا الوصف بالفيلا المبنية فى تشدورث بجبال كوتس ولدس (القرن الرابع) بما فيها من مكان للصباغة يثير الاهتمام . ويدل حجمها على أنه من المحتمل أن المقصود منها كان خدمة حاجات الحى .

أن أيام حياة المدن أخذت تنقضى . فإن المدن الرجمية القديمة ذات الشكل الكلاسيكى غير المسورة ، بما احتضنت من حمامات ومعابد وسقائف معمدة وأرباض (ضواحى) حافلة بالفيلات والقبور لم تلبث حتى صارت مكتظة وأحاطت بها الأسوار والأبراج التى بادر القوم إلى تشييدها معاجلين بما انتزعوه من شواهد القبور ، ومن الكتل الحجرية التى أخذوها من بعض المبانى العامة . وباضمحلال التجارة انتقل الترف إلى الريف . فزخرت السبل بقطاع الطرق ، وتوقفت الطرق التجارية العظيمة الممتدة بين الولايات عن اجتلاب الخزف أو المصنوعات المعدنية إلى دار الفلاح أو الصانع المحترف (Artisan) . وأخذت حياة القرية تنمو حول الدار الريفية (Manor) للشريف : وإن كثيراً من الدساكر الفرلسية القائمة اليوم اتخذت اسمها من صاحب الأرض الرومانى الأصل الذى كان يعيش فى مزرعته فى ذلك الأوان والذى لم يكن يحضر إلى المدينة فيما يرجح إلا لقضاء عيد الفصح أو من أجل قضية هامة أمام دور القضاء . على أن القرن التالى هو الذى شهد التطور الكامل لهذه العملية . وعند نهاية القرن الرابع كانت التجارة المنقولة بحراً لا تزال ضخمة بالغة الأهمية . ولم تبرح أجزاء كثيرة من الإمبراطورية تهنأ بالرغد واليسار ؛ إذ إن الحياة الحضرية المشرقة بمدن مثل أنطاكية والإسكندرية كانت لا تزال مستمرة ، ومع أن الزراعة انحطت منذ زمن بعيد بكل من بلاد اليونان وإيطاليا ، إلا أن قدرة الأرض على الإنتاج لم يصبها هبوط عام . إذ إن سورية ومصر وشمال إفريقية وأسبانيا وجنوب غالة كانت لا تزال تنتج محاصيل موفورة زاخرة . وينبغى ألا يغرب عن بالنا أن الزراعة فى الإمبراطورية الرومانية كانت على الدوام أهم الحرف . وفضلا عن هذا ، فإن حياة الإقطاع التى وصفناها إن هى إلا إحدى مظاهرها . أما الجانب الاجتماعى ،

فإننا لو ألقينا إليه أول نظرة ، فربما تصورنا أننا رجعنا إلى الوراء إلى عهد جوفينال أو مارتيال أو بليني الأصغر . وإن الشعر الساخر الذى ألفه أميان وجيروم ليدور حول البذخ الذى يبديه نبلاء الرومان فى ثيابهم وولائمهم ، وحول حاشية البلاط والطفيليين والأتباع والعبيد . وفى الشرق يجأر يوحنا فم الذهب (Chrysostom) بصوت كالرعد منددا بالحرير والجوهر والأثاث والعربات المموهة بالذهب والفضة ، ويصف المواكب المألوفة المنظمة فى تشكيلة عسكرية والمكونة من الأرقاء والخصيان والعربات التى تجرها البغال (وهى التى يلحظ وجودها أميان بروما أيضاً) ، عندما يغادر النبيل من هؤلاء مدينة القسطنطينية أو أنطاكية إلى مقره الريفى ، وقد حمل معه الرياش الكثير والميرة الوافرة لقضاء بضعة أيام فقط . وإن ذلك المنظر ليذكرنا بمنظر عربات المليك[1] الأعظم (Le Grand Monarque) ، حين تنطلق من فرساى على طريق مارلى ، غير أن الجو العام لا يفترق فى جوهره عما كان فى عصر تاكيتوس أو هوراس .

والسبب الرئيسى فى هذه الروح المحافظة التى تتجلى فى آداب سلوك الناس هو الأهمية الاجتماعية التى نيطت بشكل من أشكال التربية كان يجنح إلى الإبقاء على المعايير القديمة . فقد كانت دراسة النحو (الأجرومية) وعلم البيان ضرورية لإعداد الفرد ، لا للخدمة المدنية فقط — (ولا يخفى أن معظم أفراد الطبقات العليا كانوا فى حاضرهم أو ماضيهم موظفين فى الإمبراطورية) — بل وأيضاً من أجل الاختلاط الاجتماعى المهذب . فكان ينبغى للرجل المثقف أن يكون على معرفة جيدة بالنماذج الكلاسيكية شعراً أو نثراً ، وأن يقدر تمام

---

(١) المليك الأعظم : يعنى لويس الرابع عشر . (المترجم)

التقدير اكتمالها الفنى ؛ وكثيراً ما كانت الأبحاث الأثرية العتيقة أو مسائل الأجروميةمدار الحديث على المائدة أو موضوع الرسائل التى يتسع وقت الفراغ لتحريرها ، غير أن هذا الإصرار على الشكل دون المادة ، هو الظاهرة الدالة على عيبين عظيمين فى فكر ذلك الزمان وأدبه . فالعيب الأول هو أن الفكر والأدب كانا غير واقعيين وعتيقين وأكاديميين . ولم تكن للكلمة المكتوبة إلا أضعف العلائق بلغة الحديث العام ، التى اشتد انحدارها وقتئذ نحو : « اللاتينية المتأخرة » التى ذاعت فى العهود الوسطى ، فإن رسائل سياخوس إن هى إلا تدريبات واعية على التعبير الرشيق وليست أقوالا أصيلة ، أما أوسونيوس[1] الذى يستطيع أن يصور منظراً من المناظر : كارتياد الماشية للماء ، أو صائد سمك يحمل قصبة ، أو مغرب الشمس على صفحة أحد الأنهر بكل ما أوتيه «بروست[2] Proust » من دقة ، دون أن يستخدم إلا نعوتاً قليلة ، فإنه يقدم معرضاً كاملا من الصور الريفية مثل أساتذة بوردو وثراة الريف والعمات العذارى الجديرات بريشة كامبراى ، على أنه طالما أورد من الأساطير والأوصاف الكلاسيكية ما لاعلاقة له بالموضوع . فإن منظر كرمة على ضفاف الجارون ، لم يكن محيص من أن يستثير منه إشارة إلى رودوپى[3] وبنجايوس ؛ ولا مندوحة للدار الريفية أن تذكر الكاتب بجميع مبانى مشاهير المعماريين من ديدا لوس فصاعداً فى حقب التاريخ .

والعيب الثانى والأشد خطورة وجدية هو السلطان الجارف الذى كان لعلم

---

(١) أوسونيوس (٣١٠ — ح ٣٩٠) : شاعر لاتينى ولد ببوردجالا (بوردو) وعين لشهرته الأدبية مؤدبا لجراتيان بن فالنتنيان . (المترجم)

(٢) بروست (١٨٧١ — ١٩٢٢) كاتب فرنسى كتب دراسة نفسية لحياته وزمانه . (المترجم)

(٣) رودوپى : ولاية يونانية بقرب تراقيا بها مناظر جبلية . (المترجم)

البيان عليهم ، فإن جميع الاعتبارات الأخرى : كالإيقاع والحصيلة اللغوية والتوكيد ، تخضع كلها لهدف واحد هو إحراز الغلبة فى الجدل . وهو المبدأ الخبيث الذى تمثله «عصائب الرءوس المقدسة المنذورة» فى رواية «السحاب» لأرستوفانيس[١] ، وتتجلى آثاره فى الكتاب المسيحيين والوثنيين على السواء فيما يقوم فى الحليات الزاهية والمبالغة الرتيبة المنتظمة ، والحيف المتعمد مع الخصوم ، وفقدان النزاهة بينهم جميعاً . وهى حال تفشو بدرجة متساوية فى هجاء چيروم وبيانيات ليبانيوس[٢] وفواصله المسجوعة ، كما تتبدى فى أسوأ صورها فى المجموعة الضخمة من الجدليين من رجال الكنيسة (الإكليروس) وحتى أوغسطين نفسه لا يسلم منها تماماً ، وإن توقد فى كتابه «الاعترافات» قبس إخلاص محموم ؛ ولم تكن نغمات الأرغن الفاخرة التى وضعها كلوديانوس[٣] إلا موسيقى للعقل وحده لا القلب . وكانت أسرار العقيدة المسيحية ورمزيتها بحاجة إلى وسائل جديدة للتعبير ، هذا وإن التراتيل الفخمة لهيلارى وإمبروز[٤] والغنائيات السحرية النابعة من يراعة پرودنتيوس[٥] ، أعظم شعراء المسيحية الرومانية ، لتصهر الأخيلة العبرانية ذات السمة الاستصراخية العجيبة الواردة فى ترجمة التوراة[٦] السبعينية (Septuagint) مع المسائل الرنانة غير المفهومة

---

(١) أرستوفانيس (ح ٤٤٨ — ٣٨٠ ق.م.) مؤلف درامى فكاهى بأثينا . (المترجم)

(٢) ليبانيوس (٣١٤ — ٣٩٢ م) سفسطائى يونانى وثنى ، علم بالقسطنطينية ، من تلاميذه فم الذهب . (المترجم)

(٣) كلوديانوس (٤٠٨ م) آخر الشعراء اللاتين العظماء . ولد بالإسكندرية . (المترجم)

(٤) امبروز من آباء الكنيسة اللاتين كتب كثيراً من التراتيل (٣٤٠ — ٣٩٧) . (المترجم)

(٥) پرودنتيوس (٣٤٨ — ٤٠٥ م) من شعراء الكنيسة اللاتينية ، ولد بأسبانيا وعاصر أوغسطين . (المترجم)

(٦) ترجمة التوراة "سبعينية" : أقدم نسخة إغريقية من العهد القديم ويقال إن واضعيها ٧٠ عالماً . (المترجم)

فى الاعتقاديات (Dogma) المسيحية ، وإن عقلية القرون الوسطى لتتجلى بالفعل فى كتاب الجهاد الأكبر (Psychomachia) وفى كتاب المقدمة[1] (Cathemerinon Liber) ، وهى عقلية يشهد ماهو محفور على أبواب مدينة شارتر ، بما ركب عليه عالمها المنتظم وما يتصل به من خطة الخلاص ومن مقابلة بين الفضائل والرذائل ومن دورات متعاقبة للمواسم والأعياد ، تلك التى جعلت موئلا ركيناً يقى الناس مما تجلبه الفوضى التى تملأ الدنيا من أخطار شيطانية شريرة .

ومن نافلة القول أن نلخص فى تجريدات آلية ميول ذلك العصر التقليدى النزعة فى كل من الفن والأدب والدين والفلسفة والعلوم . وغنى عن البيان أن التفاعلات بين المسيحية والوثنية ، أى التقاء روافد الثقافة الرومانية والإغريقية والشرقية ، لن يتيسر نقل صورة لهـا — إن كان ذلك ممكناً على الإطلاق — إلا بالإكثار من الأمثلة التفصيلية . على أنه يمكن استخلاص صورة لبعض خصائص الطبقات المتعلمة من كتاب القرنين الرابع والخامس ؛ نسوق منها التعالم الرشيق والتحررية المبهمة والإنسانية الواهنة والوحدة الوجودية غير المحددة ، وفوق كل ذلك طائفة ضخمة من الخرافات الشائعة زحفت إليهم من الطبقات الدنيا عندما ضعف المذهب العقلى (Rotionalism) . وإذا نحن شئنا أن نبحث عن التعبير الصحيح عن تلك الفترة ، وجب علينا ألا نطلبه عند الغلاة المتطرفين . فإن سيماخوس العالم المتمكن من العديد الذى لا حصر له من النحل وفلافيانوس الذى يعتبر « آخر الوثنيين » ، والذى كان المدبر للانتعاش النهائى الذى أصابته الديانة القديمة فى روما عشية انتصار

---

(١) انظر ف . ج . ا . رابى فى « A Hist ory of Christ-Lat. Poetry » (أوكسفورد ١٩٢٧) الفصل الثانى عن برودنتيوس .

المسيحية[1] على يد ثيودوسيوس ، إنما ينتميان إلى عصر سابق . أما أوغسطين وسمعان العمودى وأمبروز فهم المبشرون الآذنون بالمدرسانيين[2] (Schoolmen) والنساك والأحبار فى العصور الوسطى . بيد أن الجمهرة العظمى من ذوى الرأى المتعلمين لا هى بالمسيحية ولا هى بالوثنية . ومما له دلالته أن عقيدة كثير من كبار الكتاب فى ذلك الزمن ، نذكر منهم أوسونيوس وكلوديانوس ونُنّس على سبيل المثال لا الحصر ، لا تزال موضع أخذ ورد بين الباحثين .

الخلافات الكنسية

على أن عهد ثيودسيوس يعتبر مرحلة جديدة فى علاقة الكنيسة بالدولة . إذ ساد بينهما فى الداخل والخارج هدنة قصيرة من الهدوء النسبى . ففى القرن الرابع انقسمت الكنيسة على نفسها نتيجة للهرطقة والانشقاق ، وزاد من حدتهما اشتداد المشاعر العنصرية أو النزعات الوطنية المحلية . إذ إن الكراسى الرسولية فى أنطاكية والقسطنطينية والإسكندرية كانت تتنازع الصدارة على الشرق . وكان الدوناتيون بإفريقية والبرسكليانيون بأسبانيا وجماعات النساك التى تطوف بمصر والشرق الأدنى بما يبثونه من آراء عن الطعام والزواج والملكية والملبس ، — يتلقون جميعاً تأييد السكان فى مناهضة السلطة . والمعروف أن هذه السلطة نفسها التى تتمثل فى شخص الأباطرة كانت منذ وفاة قسطنطين إما أريوسية أو شبه أريوسية ، وكثيراً ما كان كبار رجال الكنيسة فى كثير من الكراسى الدينية يعزلون وفقاً لسياسة

---

(١) تمكن ثيودوسيوس الأول فى معركة فريجيدس قرب أكويليا من إنزال هزيمة ساحقة بجيش الغرب بقيادة أربوجاست الفرنجى وإمبراطوره الضعيف يوجينيوس .

(٢) المدرسانيون : هم فلاسفة أو لاهوتية العصور الوسطى . (المترجم)

الإمبراطور ، فإن تم ذلك على خلاف المشاعر الشعبية ، اقتسم ولاء المدن الكبرى أسقفان أو مطرانان أو أكثر لكل منهما أتباعه المستعدون للهياج . فقد حدث فى روما أن حزب داماسوس البابوى — فى إرهاص منه بفتن القرون الوسطى - اقتحم عنوة كنيسة أورسينوس البابا المغتصب[1] ، وقتل نيفا ومائة من أتباعه فى يوم واحد (٢٦ أكتوبر ٣٦٦) .

ومنذ أن عقد مجمع نيقية (٣٢٥) تكررت محاولات وضع صيغة الأركان الاعتقادية (Dogma) ، وأنتجت سلسلة من العقائد (Creeds) تمثل سنن المذاهب بمختلف ظلالها وتنتهى غالباً بصب اللعنات على الخصوم . ولم يكن بد لما كان يحدث دائماً من عودة الأحزاب المختلفة إلى التجمع ، من إحداث الشغب ، وخاصة متى زادت أوارَه المصالح السياسية أو الشخصية أو الوطنية . على أن الأمور اتخذت فى ذلك الحين مظهرا أكثر استقراراً . إذ كان الإمبراطور كاثوليكياً . ومن ثم اتخذت إجراءات صارمة إزاء مختلف الزندقات (الهرطقات) . على أن المراسيم المناهضة للوثنية اتخذت مظهرا أقوى . إذ حدث فى داخل الكنيسة أن عادت روما والكراسى الرسولية الشرقية إلى الوفاق مرة أخرى — واصطلحت القسطنطينية والإسكندرية وأنطاكيـة فى اتفاق على الهدف . وصار مذهب أريوس قضية خاسرة داخل الإمبراطورية ، وإن تكاثر أتباعه سريعاً بين البرابرة على حدودها . إذ لم يكن « مذهب وحدة طبيعة المسيح Monophysitism » قد ظهر بعد . وأخذ نظام الكنيسة يزداد استقراراً ، كما أخذت علاقتها بالدولة تزداد توثقا . وتأسست - أو وسّمت -

---

(١) البابا المغتصب أو المعارض Anti-Pope : هو حبر أعظم يتصب لمناهضة بابا شرعى الانتخاب . (المترجم) .

امتيازات منوعة مثل التحرر من أعمال عضوية مجالس المدن[1] (Curia) أو الإعفاء من الخدمة العسكرية ، فضلا عن حقوق الوصية والملكية . وأصبح للأساقفة اختصاصات مدنية ، على حين باشرت السلطة العلمانية الهيمنة على الانتخابات الكنسية بدرجة من النجاح متفاوتة رغبة فى صيانة النظام العام وحفظ وحدة الإمبراطورية .

وفى القرن الرابع تمركزت الخصومات المذهبية حول علاقة الابن بالآب ؛ وتمركزت فى القرن الخامس حول طبيعة الابن . ولم تكن المسألتان منفصلتين إحداهما عن الأخرى . فأما مذهب أريوس ، فإنه عندما أخضع الابن للآب ، اعتبر عند أنصار أثناسيوس منكراً للألوهية التامة للابن . على حين أن مذهب سابيليوس ، وهو النقيض لمذهب آريوس ، كان ينكر ما للمسيح من صفة بشرية تامة — على غير أساس واف من التمييز فيما يرى أنصار آريوس . وقد عقد قسطنطين مجمع نيقية ، وهو المجمع الذى انتصرت فيه الإرادة الإمبراطورية والذى أُدين فيه آريوس . وحاولت مجامع مختلفة انعقدت فى أثناء القرن الرابع أن تقرر مذاهب إما شبه آريوسية ، وإما غير ملتزمة بشىء حيال طبيعة المسيح . ثم عقد ثيودوسيوس آخر الأمر مجمع القسطنطينية (٣٨١) ، فأكد من جديد عقيدة نيقية ، ومنذ ذلك الحين اشتد قمع الآريوسية .

وفى القرن التالى أصبحت المنازعات تدور حول علاقة الناحية البشرية بالناحية الإلهية فى طبيعة الابن وشخصيته . بيد أن أهميتها بالنسبة للمؤرخ

---

(١) أو مندوبى البلديات .

العام إنما تقوم إلى حد كبير فى النتائج السياسية المترتبة عليها . ولعل أهم تلك المنازعات التنافس الذى احتدم بين القسطنطينية والإسكندرية ، ولا شك فى أن تطورات هذا التنافس توضح كثيراً نواحى الخصومات الدينية فى ذلك العصر . وقد كانت الكنيسة منذ أول أيامها قد نظمت نفسها على غرار أقسام الدولة . فأصبحت المدن كراسى أساقفة ، كانوا يجتمعون فى مجامع دينية (Synod) تعقد بعاصمة الولاية . وأصبح أساقفة هذه العواصم مطارنة، يهيمنون على انتخابات من يليهم من أساقفة[١] . وأخيرا يجىء دور المطران الأعلى أو البطريرك الذى يظهر فى الكراسى الرسولية الكبرى بروما وأنطاكية والإسكندرية وإفيسوس ، كما أنه بدوره يشرف على انتخابات المطارنة. ثم دخل فى الأمر عامل جديد أثار القلق حين أسس قسطنطين مدينته، التى أخذت أهميتها تزداد منذ ٣٣٠ م . وكان أسقف بيزنطة من الناحية النظرية تابعاً لمطران هرقلية . وسرعان ما أصبح هذا الوضع شيئاً شاذاً بالنظر إلى الوضع السياسى ، وفى ٣٨١ أعلن مجمع القسطنطينية أنه لا يسبق أسقف بيزنطة فى المكانة إلا أسقف روما « لأن المدينة التى هو أسقف لها هى روما الجديدة » . وكان المبدأ واضحاً ، وكذلك كان الخطر الذى ترتب عليه بالنسبة للإسكندرية .

العداء بين القسطنطينية والإسكندرية

ومنذ ٣٩٥ يوم مات ثيودوسيوس إلى ٤٥٠ حين تولى مرقيان الحكم بعد ثيودوسيوس الثانى ، كان نجم مصر فى صعود ، وذلك لأن من استولوا على العرش من الأباطرة كانوا ضعافاً ، على حين تولى كرسى أسقفية

(١) على أن هذه التطورات كانت لا تزال غير مألوفة فى الغرب إبان القرن الرابع .

الإسكندرية مجموعة متعاقبة تكاد تتخذ هيئة الأسرة الكاملة من الأحبار المشهورين بالقوة والإقدام المجردين من كل خلق أو ضمير ، وكانوا يستخدمون طرقاً تقليدية تدخل فيها الرشوة وصب اللعنات واستغلال العداوة القومية وإرهاب المجامع باستخدام النوتية المسلحين بميناء الإسكندرية ورهبان طيبة . وتولى توجيه السياسة المصرية سلسلة من الشخصيات القوية ورجال اللاهوت الأكفاء ، واتخذ النزاع أربع مراحل : انتهت المرحلتان الأوليان منهما بنصر حاسم للإسكندرية ، وحققت الثالثة مجرد النجاح ، بينما انتهت الرابعة بالسقوط والانهيار .

المرحلة الأولى : ٣٩٨ . وفيها فشل ثيوفيلوس أسقف الإسكندرية فى الحيلولة دون انتخاب فم الذهب بطريركا لكرسى القسطنطينية بسبب تأييد يوترويبوس الخصى تشريفاتى أركاديوس لفم الذهب .

وفى ٤٠٣ استغل ثيوفيلوس غضب الإمبراطورة يودوكسيا على فم الذهب الذى أساء إليها ، وأفاد من حنق بعض الفئات المناهضة له فى آسيا ، وتمكن بذلك من خلعه فى مجمع البلوطة (Synod of The oak) . وانتهى الأمر بإرسال فم الذهب إلى المنفى .

المرحلة الثانية : ٤٣١ . مجمع إفيسوس وفيها تمكن كيرلس أسقف الإسكندرية بفضل استخدام نفس الوسائل من خلع نسطوريوس بطريرك القسطنطينية وحرمانه من الكنيسة ، بتهمة أنه قال بالانقسام الشديد فى شخصية المسيح .

المرحلة الثالثة : ٤٤٩ . مجمع إفيسوس الثانى المعروف بمجمع اللصوص (Lotrocinium) . وفيه نجح ديوسقوروس أسقف الإسكندرية فى خلع فلافيانوس أسقف القسطنطينية وإعادة يوتيخوس وهو راهب لم يقتصر

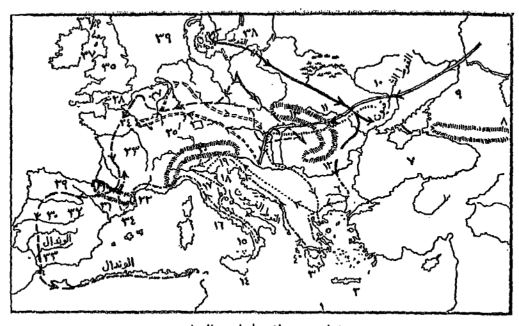
ساعة مهاجمة نسطوريوس على الأخذ بمذهب وحدة شخصية المسيح بل وبوحدة طبيعة المسيح أيضاً . ولم يتحقق ذلك النجاح فحسب برشوة الحاجب (التشريفاتى) الخصى كريسافيوس وغيره من رجال البلاط ، بل وأيضاً بقوة مسلحة استخدمت فى المجمع . وفى هذه الآونة أصبحت روما معادية للإسكندرية بعد أن ساندتها فى ٤٣١ بينما كانت أنطاكية تتردد فى موقفها.

المرحلة الرابعة: ٤٥٠.مات ثيودوسيوس الثانى . وطردت أخته بولخيريا الحاجب كريسافيوس ودعت إلى انتخاب مرقيان إمبراطوراً ، وإلى عقد مجمع خلقدونيــة (٤٥١) ، وفيه تقرر إدانة يوتيخوس (أوتيخا) ونفى ديوسقوروس ، وبذا زالت نهائياً سيادة الإسكندرية .

على أن نتائج مجمع خلقدونية الأخرى كانت أهم من سقوط الإسكندرية. ذلك أن المجمع أقر مبدأ طبيعتى المسيح الذى صاغه ليو (لاوون) بابا روما . فلقى ذلك مقاومة من حزب الإسكندرية ، وانتهى الأمر بأن انتشرت بكل من مصر وسورية هرطقة « وحدة طبيعة المسيح Monophysite » ، وهى مذهب لا يعترف له إلا بطبيعة واحدة فقط . ومنذ تلك اللحظة صار لزاماً على الأباطرة بالقسطنطينية الاختيار بين الاتفاق مع روما بعقيدتها السليمة وبين السلام مع إقليمين من أهم أقاليم الإمبراطورية ، وإذ أصدر زينون فى ٤٨٢ رسالته فى الاتحــاد (Henoticon) [1] اختار بذلك سبيل السلم مع الإقليمين وسار على نهجه الامبراطور أناستاسيوس . أما جستنيان فاختار

---

(١) كانت رسالة الاتحاد أو خطة الاتحاد (Henoticon) محاولة لإيقاف كل خصومة دينية بعد ذلك ، باعلان كفاية العقيدة وفقاً لما تقرر فى نيقية والقسطنطينية ، وتعبيراً فى الحين نفسه عن الرغبة فى استرضاء الكنيسة المصرية ومصالحتها بالتخلى فعلا عن قرار خلقدونية وجعله مسألة متروكة للبحث . وكان العامل الرئيسى فى تحطيمها معارضة روما لها .



(٣) خريطة غارات البرابرة

١ — البحر المتوسط
٢ — كريت
٣ — اسبرطة
٤ — كورنثة
٥ — ثرموبيلاى
٦ — أدرنة
٧ — البحر الأسود
٨ — جبال القوقاز
٩ — الآلان
١٠ — نهر الدنيبر
١١ — نهر الدنيستر
١٢ — نهر الدانوب
١٣ — جبال الكربات

١٤ — صقلية
١٥ — كوستانزا
١٦ — روما
١٧ — فلورنسا
١٨ — راقا
١٩ — أكويليا
٢٠ — جبال الألب
٢١ — جبال البرانس
٢٢ — نربونة
٢٣ — الفرنجة
٢٤ — باريس
٢٥ — البرجنديون
٢٦ — الآلامان

٢٧ — تريف
٢٨ — نهر السين
٢٩ — السويفيون
٣٠ — الآلان
٣١ — نهر الإبرو
٣٢ — سرقطة
٣٣ — أشبيلية
٣٤ — جزر البليار
٣٥ — الانجل ساكسون
٣٦ — الاسكتلنديون
٣٧ — البريطونيون
٣٨ — بحر البلطيق
٣٩ — بحر الشمال

والخطوط تمثل هجرات القبائل وخطوط سيرها .

═══ مسار القوط

— . — . — . مسار ألاريك وأتولف

. . . . مسار القوط الشرقيين

— — مسار الوندال

═══ مسار الهون

= = = مسار أتيلا فى ٤٥١

ملحوظة : المسارات المبينة تقريبية

الأخذ بالرأيين على التعاقب . على أن تلك المشكلة لم تنته إلا بعد سقوط مصر وسورية فى أيدى المسلمين .

نشأة الديرية

وكانت مصر مركز هذه المنازعات ؛ وكانت كذلك الوطن الأصلى للرهبانية . وكانت الإمبراطورية – ولم تفتأ – تحوى بكل أجزائها منذ البداية أعداداً ضخمة من الرجال والنساء (المعترفين والعذارى Confessors & Virgins) تمارس الزهد ، وتواظب على أداء الصلوات فى الكنائس . على أن أنطونيوس (ح ٢٧٠) أصبح زعيماً لحركة خطيرة منذ أن هجر العالم والكنيسة المنظمة أيضاً ، ولجأ إلى الصحراء ناسكا . واحتذى مثاله أعداد كبيرة من الناس ؛ ولم تلبث منطقة البحيرات الملحة بوادى النطرون وصحراء سقيط ، أن حوت ما يزيد على خمسة آلاف من النزلاء ، فكان بهاتين الجهتين « أشد الزهاد تمسكا بالفضائل » (Duchesme) . واستهوى تجلدهم ألباب الشرق واستولى على خياله مثلما استولت أعمال قديسى الأعمدة على الأفئدة فيما عقب ذلك من الزمان . واستحدث باخوميوس نظاماً أكثر ثمرة فى أثناء القرن الرابع . فتأسست مجموعات من الأديرة لكل منها قاعدة عامة ، وتخضع لسلطة واحدة . وكانت تزورها جماعات من الحجاج يفدون إليها من روما وغالة وأسبانيا ، ما لبثوا أن نقلوا طرائقها إلى الغرب . ثم ما عتمت منطقة سيناء وفلسطين وسورية حتى امتلأت بالرهبان الذين يعيشون فرادى أو فى مجموعات . وفى آسيا الصغرى ، وضع باسيليوس طائفة من القواعد تفوقت فى اعتدالها ونظامها على قواعد باخوميوس ، وظلت منذ ذلك الحين إلى اليوم معمولا بها فى إدارة جميع أديرة العالم الإغريقى والصقلبى (السلافونى) . وكان الرهبان

يتنازعون أحياناً مع سلطات الكنيسة والدولة جميعاً ؛ وكانوا يتسلحون بالهراوات ويهاجمون المجامع الدينية ويشتتونها ، أو يهدمون معابد الوثنيين أو الهراطقة أو محاريبهم المقدسة . فالقومية النامية التي تؤذن ببزوغ فجرها الآداب القبطية والسريانية وجدت أبطالها في أشخاص مثل شنوده (Shenuti)، الذى راح من أبراج ديره الأبيض القائم على رأس تل ، يقود مئات من الأتباع محرضاً إياهم على مهاجمة من بمصر من الكفرة والآثمين والقضاة الظالمين وأصحاب الأملاك الجائرين .

على أن النفوذ السياسى للرهبان كان أمراً محلياً ومتقطعا . وأهم منه السلطة العلمانية المتزايدة التى أوتيتها الكنيسة بوصفها هيئة ضخمة ذات جيش من الأتباع ، تملك الأراضى والثروات والمؤسسات الخيرية ويرأسها أساقفة أصبحوا أهم الشخصيات فى مدن الأقاليم . فإن أكاكيوس فى آمد (Amida) وسينيسيوس فى برقة (Cyrene) وسيدونيوس فى أوفرنيه (Auvergne) وغيرهم كثير ، هم الزعماء الطبيعيون للمجتمع ؛ فكانوا يرأسون السفارات إلى البرابرة وكانوا يحمون قطيعهم (المسيحيين) من المجاعة والعدوان ، بل لقد كانوا يتولون تنظيم المقاومة المسلحة للعدو .

الفصل الثانى

عالم البرابرة

الغزوات

تكفى نظرة واحدة إلى الخريطة لإظهارنا على الموقف الخطر الذى تتعرض له الإمبراطورية فى ٣٩٥ . فعلى نهر الراين حل محل القبائل المتناثرة التى عرفها قيصر وتاكيتوس ، خط قوى من أقوام أخذت تنتقل ببطء نحو الغرب من منطقة البلطيق ، وكلما اقتربت من التخوم الرومانية ازدادت تماسكا وقيمة حربية . وكانت المجموعتان الفرنجيتان (Frankish) أقوى هذه الأقوام ؛ على أن الألامان الذين عرفوا طريقهم إلى الزاوية المنعكسة بين الراين والدانوب لم يكونوا أقل خطراً منهم،وذلك بسبب المركز الاستراتيجى الذى صار لهم . فأما الزاوية المنعكسة الأخرى التى كونها التواء الدانوب قرب بودابست وبلغراد صوب الجنوب ثم الشرق ، فإنها امتلأت إلى حد كبير عندما أنشئت ولاية داكيا (: ترنسلفانيا ورومانيا) ؛ على أن هذه الولاية الأخيرة تركت للبرابرة بعد ٢٥٧ : فإن الوندال الأسدنجيين (Asding) كانوا يملكون عند ذاك الشمال الغربى من هذا الإقليم ، بينما أخذ القوط الغربيون يضغطون جنوباً منذ ٣٦٤ على الدانوب ، وقد سد الاثنان الطريق على الجبيد (Gepids) . وكان القوط الشرقيون لا يزالون يتجولون فى السهول العظيمة بجنوب الروسيا ، ولم يكونوا فيما عدا بضع ثلل قليلة جوالة منهم،قد احتكوا مباشرة بالإمبراطورية الرومانية ولا اتصلوا بها . وإلى أقصى الشرق نزل

على نهرى الدون والفولجا الآلان وهم شعب إيرانى ، ومن وراء ذلك الخط الأول كانت تنزل قبائل أخرى قلقة مستعدة للقيام بدورها — منها السكسون على نهر انويزر والآنجل فى إقليمى شلزويج وهولشتين ؛ فضلا عن السويف على نهر الإلب واللومبارد فى سيليزيا والهيرول (Heruls) بالقرم والصقالبة وراء مستنقعات البريبت .

وكان كل قطاع من تلك الحدود الطويلة يتعرض فى وقت من الأوقات لمغير يتهدده بالاختراق أو يخترقه فعلا ؛ على أن الرومان كانت لهم خطوط مواصلات داخلية ، وكانت الجيوش تبادر إلى النقطة المعرضة للخطر . فأما الآن فلم يعد لذلك التدبير جدوى . إذ برزت قوة جديدة من أرض السهوب الآسيوية ، كان ضغطها هو المحرك لهجات البرابرة ، التى أصبحت مستمرة بكل مكان ، والتى لم ينقض عليها أكثر من جيل واحد حتى حطمت الإمبراطورية فى شقها الغربى . وكانت تلك القوة الضاغطة هى الهون . فالمعروف أن الهون بلغوا نهر الفولجا بعد ٣٥٥ بقليل ، فقهروا الآلان وردوا القوط الشرقيين إلى ما وراء الدينستر (ح . ٣٧) ؛ ودفع الضغط بالقوط الغربيين حتى عبروا الدانوب ، وكانت معركة أدرنة الكبرى فاتحة مصائب روما . وتوقف زحف القوط الغربيين بضع سنوات بفضل ثيودوسيوس ، فلما وافاه أجله أخذوا يعيثون فى بلاد اليونان تدميراً وانتهاباً (٣٩٦) ويستقرون فى إبيروس (٣٩٩) فهددوا بذلك شبه جزيرة البلقان وشبه جزيرة اليونان ؛ ثم أوقفهم استيليكو حيناً من الدهر ، ما حتموا بعده أن استولوا فى النهاية على روما (٤١٠) ، ثم تجاوزوها إلى أكيتانيا (٤١٦) حيث أقاموا فى النهاية مملكتهم التولوزية (Tolosan). وفى تلك الأثناء انحاز إلى الآلامان فى أثناء فرارهم غرباً ، الوندال

الأسدنجيون (٤٠١) ، الذين اكتظ بهم وادى التيس ، وأخذوا يتحولون إلى ديار ذوى قرباهم بسيليزيا ويزيدونهم عدداً . ويعززهم السويف ، وتتقدم الشعوب الأربعة فتخترق حدود الراين عنوة (٤٠٦) وتتجول فى أرجاء غالة ثم تعبر جبال البرانس (٤٠٩) وتعيث بأسبانيا فساداً طيلة عشرين عاماً ، قبل أن يستولى الوندال نهائياً على مملكتهم بأفريقية ، وبعد مضى خمسين سنة استقر القوط الغربيون بإيطاليا ، واقتسم الفرنجة والبرجنديون بقية غالة . وبات الأنجل والسكسون منهمكين فى فتحهم لبريطانيا ، فإذا انتهى القرن الخامس كانت كل الأقاليم الغربية بأيدى البرابرة .

التاريخ المبكر لألمانيا

والتاريخ المبكر لألمانيا غامض يغشاه الضباب شأن الغابات والمستنقعات التى كانت تغطى الشطر الأعظم من البلاد . فعلى شواطىء البلطيق بين نهرى الإلب والأودر كانت تقوم المستقرات الجرمانية البدائية ، وهى مجموعات من الخصاص تبنى حيثما قطعت الغابات أو فى المناطق المرتفعة وتسكنها قبائل تحترف الصيد أو الرعى . فإذا تزايد السكان أو ندر الصيد تحركوا غرباً ، دافعين أمامهم الشعوب الكلتية ، وهم السكان الأول لجنوب ألمانيا وغربها . فبلغوا الراين حوالى ٢٠٠ ق . م . ، وفى مدى قرن واحد لم تعد بافاريا كلتية السكان . على أن فتوح قيصر فى غالة وطدت حدود الراين ؛ فلما واجه الألمان الغربيون ذلك الحاجز لم يستطيعوا إحراز أدنى تقدم بعد ذلك . فتحتم عليهم أن يتخذوا وسائل بالغة الأثر فى إنتاج المؤن . وكانت نتيجة ذلك أن تطورت الزراعة وتبلورت النظم . وحمل إليهم تجار الرومان أنواعاً جديدة من السلع

وضروباً أجنبية من آداب السلوك . ويصف تاكيتوس الذى كتب بعد ذلك بمائة وخمسين عاماً نوعاً من الثقافة يفوق فى التقدم ما شهده قيصر .

وفى تلك الأثناء كانت قبائل جرمانية أخرى تعبر البلطيق من شبه الجزيرة الإسكندناقية فيما بين القرنين السادس والثالث ق . م وتستقر على شاطئه بين الأودر والفستولا . واتخذ هؤلاء الألمان الشرقيون لأنفسهم طريقاً آخر مخالفاً ، ففى أثناء القرون التالية التمسوا لهم طريقاً صوب الجنوب عبر أوربا ، إما صاعدين الفستولا إلى جبال الكربات وإما مخترقين پولندة ومستنقعات البريپت إلى السهول العظيمة التى تمتد شمال البحر الأسود . وقد ظلوا يتحركون على الدوام سعياً وراء المراعى الجديدة ، فاحتفظوا بذلك بطرائق عيشهم البدائية على نقيض الجرمان الغربيين . على أن الصورة المركبة التى يصح استنتاجها مما سطره قيصر وتاكيتوس وغيرهما من الرحالة أو العلماء (Savants) ، الذين دونوا عجائب الشعب الجرمانى ، ينبغى ألا تطبق عليهم الآن إلا مع شىء من التعديل ، وذلك بمراعاة مختلف مراحل التطور التى ألمت بمختلف القبائل والتى لا نعرف عنها سوى النزر اليسير ، ومن العسير دائماً على المراقبين المتحضرين أن يتجنبوا نسبة الصلابة الشديدة والتمسك بالمألوف إلى الأجناس التى هى أشد بساطة ، ذات الأفكار المبهمة والعادات المتغيرة يضاف إلى ذلك ما كان من اختلاف جوهرى فى الثقافة بين الجرمان وسكان دول المدن فى البحر المتوسط . فقد أُخضع الفرد فى تلك المدن ، للدولة منذ عدة قرون خلت ؛ فإن ابتعد عنها ، أصبح منبوذاً ، وصار غير مكتمل الإنسانية . فأما الجرمانى فى عزلته أو فى مستقر أسرته الصغير ، فكان قبل كل شىء فرداً يأبى كل تدخل فى شئونه ، ولا يعترف بأى التزام خلا التزام

الولاء لكلمته وعهده حين يعطيهما لفرد آخر . ومن هنا غلبت عليه نزعة دائمة للابتعاد عن كل مركز أو بؤرة يجتمع إليها الناس ؛ ولو تتبعناه فى كل مراحل تطوره الدستورى الأبكر ، وجدنا أن جميع روابطه مع العائلة والعشيرة والدولة تتحطم . إذ لم يكن بد من حدوث سوء التفاهم بين الطرفين . وأضحى غدر الجرمان موضع التندر عند الرومان ، نظراً لخرقهم المعاهدات وشنهم الحروب الغادرة . كما أن الولاء الشخصي الذى لعله يكون التفسير الصحيح لخلق استيليكو المتذبذب ، ربما كان السبب فى شعور الكراهية الذى يحسه خصومه إزاء ما لا يستطيعون فهمه .

وقد كانت كل قبيلة عند استقرارها فترة من الزمن تحتل منطقة تحددها العوائق الطبيعية كالمستنقعات أو الغابات أو الأنهار . وكانت القبائل تنقسم إلى بطون (فروع Gaus) ، تتفاوت فى ضخامتها ، وتقدم للجيش بين ألف محارب وألف وخمسمائة . وكل بطن من هذه البطون تنقسم إلى ما يعرف بالمئين ، وهى جماعات خاصة ، تتراوح الواحدة منها بين المائة والمائة والعشرين من الأحرار ، وذلك لأغراض الحرب أو القضاء ، وترتبط بالعشيرة ؛ وهى مجموعة مؤلفة من عائلات تتراوح عدتها بين العشرة والعشرين . واستمر نظام المئين على الرغم من كل التغييرات التى حدثت ، وصار أساساً . (وما تلحظه هنا وفى مواطن أخرى من «سيمترية» ودقة لا ينبغى تطبيقه حرفياً) .

وكانت السيادة فى يد الجمعية الشعبية (Thing or Mallus) ، وهى الاجتماع الذى يضم جميع المحاربين الأحرار ، وهى التى تنتخب الحكام وتبت فى معاهدات الحرب والسلام ، وتختار أعضاء جدداً فى المجتمع ، وكان يدعو إلى اجتماع تلك الجمعية ملك يرأسها أو رئيس البطن من القبيلة أو زعيمها

(فى القبائل غير الملكية) ، وفيها يقدم القرابين كاهن أعلى وينزل العقوبات بكل من ينتهك هدنة الجمعية . وكان رئيس البطن (Gau) يقود كتيبة فى الحرب ، ويوفر العدالة بمحكمته بمساعدة رؤساء المئات (المئينيات) ، ويعطى كل عائلة نصيبها من الأرض . وكان الملك فى الأيام الأولى سلطات بالغة التحديد . وكان لبعض القبائل ملكان ، ولبعضها الآخر ملك واحد . وكان بعضها ينتخب قائداً يقتصر عمله على قيادة حملة عسكرية واحدة ، أو يختار رئيس بطن (Gau) ليرأس الجمعية الشعبية ؛ وثم قبائل أخلت فيها الملكية مكانها لحكم الكهان . ومن حق القبيلة أن تعزل الملك إذا أساء أو ظلم ؛ ومع أن الملوك كانوا يختارون عادة من عائلة بعينها ، فإن كل فرد منها كان يصح انتخابه . وكان كل شخص قوى الشخصية يستطيع أن يجعل الملكية قوة فعالة ، ولاسيما وقت الحرب؛ومما زاد فى سلطة الملك اتصال القوم بالاستبداد الرومانى ، ولا سيما حينما تستقر القبيلة فعلا داخل الإمبراطورية .

أما الجيش الذى هو نفسه جماعة الأحرار شأنه فى تاريخ بلاد الإغريق وروما الباكر ، فإنه كان ينتظم الآلاف والمئات والعشائر . وكان تشكيله فى المعركة يتخذ عادة صورة الإسفين (Cuneus) . والقاعدة الجارية أن الخيالة كانت أهم أسلحته ، على أن الفرنجة كان يغلب عليهم القتال راجلين . وكانت المعادن نادرة . ومما كانوا يستخدمونه فى المعارك قلانس الجلد ، والتروس المستديرة المصنوعة من الخشب أو الأغصان المضفورة والمغطاة بالجلد الناشف ، فضلا عن المزاريق (وهى السلاح الرئيسى) . والهراوات والقسى وفئوس القتال . وكانت القلاع المستديرة المقامة بقنن التلال أو صفوف العربات هى تحصيناتهم . وتطورت صناعة السفن بين القبائل البحرية ، بادئة بالأشجار

الضخمة المحفورة ، التى تتسع لعـــدد قد يبلغ الثلاثين رجلا ، فمنتقلة إلى الغلايين[١] المصنوعة من الألواح على النحو المعروف عند الفيسكنج ، والتى تتسع لأكثر من مائة ، إلى سفن القرصان السكسون ذات الشراع المصنوع من الجلد ، والتى أصبحت مصدر الفزع لموانئ بحر المانش .

وكانت أدنى طبقة فى المجتمع تتكون من شعوب مغلوبة تقوم على فلاحة الأرض ، وذلك فضلا عن وجود قلة من خدم المنازل معظمهم من أسرى الحرب ؛ وكان عدد أفراد هذه الشعوب الخاضعة يزداد كلما نمت الزراعة (وذلك لأن الجرمان الأحرار كانوا يأنفون ممارسة الفلاحة) . حتى جاء أوان أصبح فيه الهدف الأول من الغارات الحصول على هؤلاء العمال الزراعيين . وكانت الطبقة الثانية وهى طبقة الأحرار ، هى الجمهرة الغفيرة من السكان . أما النبلاء فهم عائلات الملوك ورؤساء البطون . وكان لكل ملك أو رئيس الحق فى أن يتخذ له أتباعا (رفاقا Comitatus) وهم جماعة من الأتباع الأحرار الذين كانوا يتناولون الطعام على مائدته زمن السلم ، ويشكلون حرسه الخاص فى أثناء المعارك .

على أن البيان السابق ينطبق على جرمان الغرب المستقرين أكثر مما ينطبق على تلك القبائل البدائية التى نحن على وشك أن نترسم تجولاتها[٢] .

---

(١) الغليون معرب لفظة (galley) وهى لفظة مستخدمة من قديم الزمان فى حوض البحر المتوسط وتدل على طراز قديم من السفن التى تدفع بالمجاديف والأشرعة . (المترجم)

(٢) إن العادات العقلية التى أنتجت هذه الثقافة ، كانت مع ذلك شائعة الانتشار بين جميع الشعوب التيوتونية ، كما أن النظم التى لم توجد إلا فى صورة بدائية فى أثناء فترة الهجرة ، ما لبثت أن ازدادت تطورا عندما توقفت الهجرات . على أن الصراع بين هذه النظم الجرمانية وبين الحضارة الرومانية سوف يؤلف أساس الفصل التالى .

وكانت الماشية أهم مصدر للطعام فى أثناء الزحف والمسير ، وفى ذلك إلى حد كبير تفسير للسرعة المدهشة التى كانت تنتقل بها الجموع المهاجرة ، فإن دوابهم لم تكن فى حاجة إلى وسائل نقل ؛ بينما الواقع أن عرباتهم كانت تجرها الثيران فعلا . ومن العسير تقدير أعداد الشعوب الغازية ؛ ومن المحتمل أن الشعوب الكبرى منها كانت تضم أعدادا تتراوح بين الثمانين ألفا والمائة والعشرين ألفا ، على حين أن عدة الصغرى منها كانت تتراوح بين ٢٥٫٠٠٠ إلى ٥٠٫٠٠٠ ويمكن اعتبار مقدار الخمس من كل شعب رجالا مقاتلين ، إذ إن المعارك الكبرى التى كانت تنشب بين الجيوش الإمبراطورية وأعدائهم الجرمان كان يشترك فيها قرابة عشرين ألفاً فى كل من الجانبين . ومن ثم يجوز القول بأن الإمبراطورية الرومانية تعرضت لهجمات أعداد جارفة من الأعداء .

وليس من اليسير علينا أن نشهد صورة كاملة لهؤلاء القوم « على مألوف عادتهم من العيش » . غير أن الرومان اهتموا بالناحية البشرية (الأنثروبولوجية) لهؤلاء الجرمان ، هؤلاء الأطفال الطوال ذوى الشعور الشقراء الذين يزينون أنفسهم بدمالج السواعد والسلاسل المصنوعة من الذهب ، وهم يرقدون أسابيع ناعسين أمام النار ، عاكفين على الشراب أياماً كاملة بلياليها ، أو تجيش نفوسهم بالحزن أو الغضب المفاجىء ، فينفجرون بالبكاء أو يصرعون أحد الأرقاء ؛ أو يتصايحون مع جيرانهم ، أو يغيرون على الماشية ويحيون قادتهم فى المجالس بدق تروسهم بمزاريقهم أو يتبعونهم فى معمعان المعركة حتى الموت . على حين أنهم يتراءون لنا متماثلين ؛ فيبدون للعين الباصرة برابرة يكتسون الجلود ، ويبدون لعين العقل جماهير من الجياع تدفعهم قوى اقتصادية إلى الأمام . ومن العسير التفرقة بين أمة فيهم من أمة . فاللومبارد

يحملون فأس القتال (Barda) الطويلة ، ويتخذ الفرنجة الفرانسيسكة (Francisca) القاتلة ، ويشهر السكسون سيفا قصيرا (Sah). ويكتب سيدونيوس فى أخريات القرن الخامس عن البرجنديين بأن الواحد منهم يبلغ طوله سبع أقدام ، وأنهم يدهنون شعورهم بالزبد الزنخ ، ويشتهرون بالشراهة فى الطعام ويتحدثون بأصوات جهيرة. والفرنجى أشهب العينين حليق اللحية أصفر الشعر ويرتدى سترة (Tunic)[1] ملتصقة بجسمه . ومع ذلك فما أقل ما تبرز الشخصيات بين هؤلاء الأقوام . فإن ماربود (Marbod) وإرماناريك (Ermanaric) ، وهما سيدان أعليان لإمبراطوريات متناثرة لم يزيدا على كونهما مجرد اسمين . وأزمنة الهجرات هى عصر البطولة عند الشعوب الجرمانية ، كما أن الشخصيات والأحداث التى كانت تمس أخيلتهم ، لا ترى إلا معتمة فى شذرات من القصص الشعبى ، وحلقات الملاحم التى تعرضت إلى التشويه والالتواء فى الأزمنة المتأخرة .

فإن أسطورة الأيلة[2] التى قادت الهون خلال مستنقعات القرم حتى فاجأوا الآلان إنما تنطوى على شىء من الرعب السائد فى ذلك الزمان . ولا يزال شخص ثيودوريك الجبار العاتى وحصاره الطويل لمدينة رافنا الحافلة بالأسرار ينعكس فى قصص ديتريتش فون برن[3] ورابنشلاخت . كما أننا نلمح فى ملحمة نيبلونجنليد (Nibelungenlied) بصيصاً ضئيلا عن قصر جنديك البرجندى القائم على الراين وما اشتهر به من الفخامة والروعة .

---

(١) السترة أو التونقة : جلباب رومانى يشبه القميص . (المترجم)

(٢) الأيلة أنثى الأيل وهو الوعل وجمعها أيايل (المترجم) .

(٣) أعنى ثيودوريك الفيرونى (Dietrich von Bern & Rabenschlacht) .

القوط الغربيون

كان القوط الشرقيون والقوط الغربيون فى الأصل شعباً واحداً . ويظهر من ثنايا أساطيرهم ودلالات أسماء الأماكن أنهم عبروا البلطيق قبل القرن الرابع قبل الميلاد من اسكنديناوه إلى مصب الفستولا . وحوالى ١٥٠ للميلاد شرعت بعض القبائل القوطية تتحرك صوب الجنوب الشرقى ، حركة دفعت بهم إلى أعلى الفستولا خلال مستنقعات البريپت ، حتى بلغوا فى النهاية حوض الدنيپر الأدنى والساحل الشمالى للبحر الأسود . ومن ثم تفرعوا فرعين : اعتبر معناهما —بالنظر إلى ماتلا ذلك من أحداث —القوط «الشرقيون والغربيون». وسرعان ما انتشرت قبائل القوط الشرقيين بأرجاء جنوب روسية ، على حين انحرف القوط الغربيون نحو الغرب ، ودأبوا على إيقاع الفساد بولاية داكيا ، بل حتى بمقدونية وبلاد الإغريق . وأخيرا لم تعد روما تستطيع الاحتفاظ بداكيا ؛ فانسحب تجارها وموظفوها إلى ما وراء الدانوب ، الذى صار من جديد ، بعد تحصينه ، حداً للدولة ، شأنه قبل عصر تراچان .

وفى ذلك الحين أخذت تتكشف تغيرات كثيرة : فقد دخلت إليهم المسيحية الآريوسية ، فأحدثت بينهم الشقاق الداخلى . وقدر لصورتها الإلحادية أن تلعب بينهم وعند سائر الشعوب الجرمانية دوراً عظيما فى شحذ الشحناء والعداوة بين الرومان والبرابرة. وكانت نتائج غزوة الهون أهم من ذلك كثيراً . وقد غلب الفزع على القوط الغربيين فحصلوا من الإمبراطور على إذن بعبور الدانوب إلى مويسيا الدنيا (بلغاريا) ، ثم ترامى بهم الأمر إلى الاستقرار داخل الإمبراطورية كوحدة قومية . وهذه هى البادرة الأولى للطريقة التى تمزقت على غرارها أوصال الأقاليم الغربية بعد زمن يسير . غير أن الاستقرار كان مؤقتاً ؛

ولم يتم فعلا إلا بعد حرب استمرت أربع سنوات ، بسبب ما تعرض له هؤلاء اللاجئون من معاملة سيئة من قبل الموظفين الرومان ، كما لم تبلغ المسألة ذروتها إلا بكارثة (٣٧٨)[1] العظيمة . ولمعركة أدرنه أهمية مزدوجة . فإنها من أعظم ما منيت به روما من الهزائم على يد الجرمان ، ويمكن وضعها فى مصف فاجعة ڤاروس (Varus) التى حدثت عام ٩ للميلاد ، وموت الإمبراطور دكيوس فى (٢٥١) . كما أنها البداية الحقة لحروب القرون الوسطى ؛ فمنذ تلك اللحظة أصبحت الجند الراكبة الثقيلة التى دهمت بسنابكها الفرق الإمبراطورية ، هى العامل الفاصل فى المعارك ، حتى تحدى حملة الحراب السويسريون والرماة الإنجليز فى القرن الرابع[2] عشر كل ما كان لها من تفوق .

ولعل أعظم الأحداث شأناً انتخاب القوط الغربيين ألاريك ملكا لهم ، عقيب وفاة ثيودوسيوس . وقد عمد ألاريك شأن كثير من المقتدرين من الجرمان ، إلى التحلل إلى حد ما من أواصر الدم ، وانخرط فى الجيوش المحالفة للرومان . ولعله كان يأمل فى الارتقاء إلى مركز هام بالإمبراطورية ، كما فعل أربوجاست واستيليكو وغيرهما . ذلك بأن ما لجأ إليه من المداورات العجيبة إبان السنوات الخمس عشرة التالية يصح تفسيره على أن مصالحه لم تتفق فى مجموعها مع مصالح قومه من القوط الغربيين (التى اقتصرت على حيازة الأرض وتلقى المعونة المالية) ، بل كانت تتجه نحو إحراز وضع خاص داخل الإمبراطورية . فبدأ بأعمال التدمير والفساد بكل بلاد اليونان ، بما فى ذلك شبه جزيرة

---

(١) انظر ص ٧٥ بعنوان التزوات .

(٢) على أن أهمية الخيالة تجلت فى أوائل القرن الرابع ، وبخاصة فى معركة مورسا (Mursa) فى (٣٥١) .

البيلوبونيز (المورة) . وكانت جند الرومان بقيادة استيليكو الذى لم يقم بأية مقاومة فعالة لعدة أسباب[1] . وكانت الخطوة التالية هى تعيين ألاريك « سيدا للجند » فى إلّيريا (Illyricum) ، وهو أمر أرضاه مدة أربع سنوات . على أن ما كان يأمله من القسطنطينية من ترقيات أخرى ، ربما قضت عليه الأزمة التى ثارت ضد الجرمان ، وهى الأزمة التى كانت تتفرز بها تلك المدينة[2] ، ومن ثم حول وجهته نحو الغرب . ولكن حظه فى الغرب لم يكن أسعد منه فى الشرق . فلو خامرته بعض الآمال فى الوصول إلى تسوية مع استيليكو ، فإنها تبددت يوم وقعت فى الغرب أزمة مناهضة للجرمان كالتى وقعت فى الشرق أعقبها مقتل استيليكو وملاحقة البرابرة بالقتل والذبح بكل أرجاء إيطاليا . وعندئذ لم يعد يبدو محتملا تحقيق شيء من مطمحى ألاريك وهما : — توفير مستقر من الأرض لقومه والحصول على منصب سام لنفسه فى الشق الغربى من الإمبراطورية . ومن ثم زحف بجيوشه على وسط إيطاليا . وكانت الحكومة الرومانية تتخذ أحياناً طريق العناد وتنزع أخرى إلى الإذعان . وارتاب ألاريك فى الأمر ، وخشى الخيانة فثارت ثائرته ، وما نشب أن فرض الحصار على روما ، التى سبق أن أدت له إتاوة مقابل رحيله عنها — ولم تلبث المدينة الإمبراطورية أن سقطت فى ٢٤ أغسطس (٤١٠) . فنهبت دور النبلاء وأحرقت ، ولكن الأنفس التى أزهقت كانت قليلة . ونجت الكنائس من كل ضرر (فإن ألاريك كان مسيحياً أريوسى المذهب) ولم يحق بالآثار القديمة ضرر بليغ . ولكن أخبار الكارثة تردد صداها بكل أرجاء العالم المتحضر ؛

---

(١) انظر ص ٧٦ وانظر ما ورد بعنوان : « القرن الخامس فى الغرب » ف ٣ .

(٢) انظر ف ٣ بعنوان تصادم الحضارات .

فتراءى للكثيرين أن نهاية العالم قد أزفت[١] .

وعندئذ اقترح ألاريك عبور البحر إلى إفريقية ، إما بقصد إسكان شعبه بصفة دائمة فى ذلك الإقليم الغنى أو التحكم فى إيطاليا بوضع يده على مستودع قمحها . ولكن سفن النقل حطمتها عاصفة مباغتة ، كما أن ألاريك نفسه مات قبل نهاية العام . على أنه لا بد أن نتذكر أن غزوته لم تكن هجوماً معادياً موجهاً على الإمبراطورية ، فإنه شأن بقية الجرمان كان يعد الإمبراطورية نظاماً ضرورياً ، له ولقومه فيها حق طبيعى فى الحصول على مكان . وتتبدى هذه الفكرة بشكل أدعى للعجب عند أتولف شقيق ألاريك وخليفته . فإنه سمع وهو يقول إنه كان يأمل أن « يحول رومانيا إلى قوطيا » ويجعل من نفسه إمبراطورا قوطيا عليها . ثم عاد بعد ذلك وقد اقتنع بأن القوط أبعد الناس عن احترام القانون وأشد الناس شماسا ، بحيث لا يصلحون ورثة الرومان ، فعول على استخدام شعبه فى خدمة الإمبراطورية واكتساب لقب معيد مجد العالم الرومانى (Restitutor orbis Romani) . ولعل عدوله هذا عن رأيه قد حدث عندما انتقل إلى بلاد غالة ، وخاض الحرب لصالح الإمبراطورية وتزوج فى ناربون[٢] من جالا بلاسيديا شقيقة الإمبراطور ، التى كانت أخذت أسيرة من روما ، ومع ذلك فإن هذه الفعلة الأخيرة كدرت هونوريوس ؛ وعندئذ قطع أسطول رومانى الطريق على ميرة القوط ، فاقتادهم أتولف

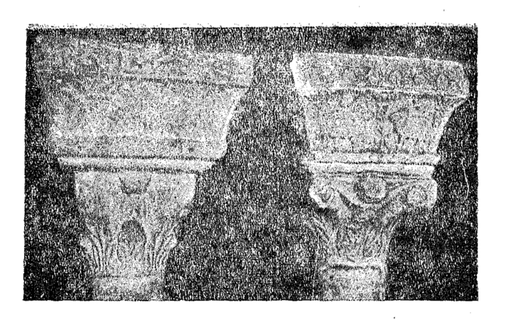
---

(١) إن أعظم أعمال أوغسطين وهو كتابه : «De Civitate Dei» أى مدينة الله كتب استجابة لما أحسه المسيحيون من حاجة إلى فلسفة للتاريخ تستطيع تفسير هذه الكارثة ، وتعليل الحقيقة المزعجة : من أن المدينة التى عاشت بعد أباطرتها الوثنيين ، قد وجب أن تسقط أخيرا عندما اعتنق حكامها الدين المسيحى .

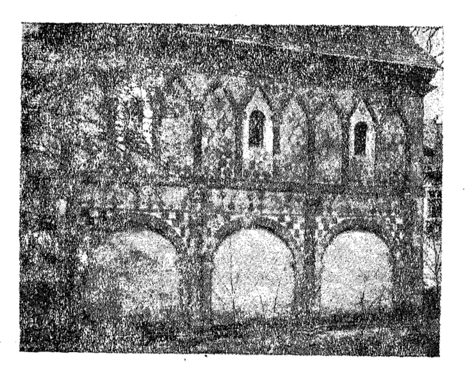
(٢) يسميها مؤرخو العرب أربونة (المترجم)

إلى أسبانيا ، حيث مات فى السنة التالية . وانتقم القوط من الرومان على هذا التصرف ، فأنزلوا كثيراً من الإهانات بجالا بلاسيديا ، ثم توصل « واليا Wallia » الملك التالى الذى عقبه فى الملك إلى عقد اتفاق مع روما : تقرر بمقتضاه أن تعود جالا بلاسيديا إلى وطنها مقابل حصول القوط على ما يلزمهم من طعام ، فضلا عن قيام القوط الغربيين بتطهير أسبانيا من المغيرين من الوندال والسويف والآلان. حتى إذا أفنى القوط الغربيون الوندال السيلنجيين ومعظم الآلان ، حصلوا على مستقر دائم لهم ، تقرر أن يكون بفرنسا لا بأسانيا ، حيث صارت لهم الغلبة والسيطرة بدرجة يخشى شرها . ومنذ تلك اللحظة عملوا فى الدولة جنداً مرتزقة محالفين (Foederati) ، وأصبح فى حوزتهم ما يسمى اليوم باسم أكيتانيا (أكويتين) وهو الإقليم الواقع بين نهرى اللوار والجارون . وهذه المنطقة التى كانت تضم بواتييه وبوردو وتولوز ، كانت لا تزال جزءاً من الإمبراطورية ، كما أن سكانها الرومان ظلوا خارج سلطان القوط الغربيين كما ظلوا خاضعين للإدارة الإمبراطورية ، على الرغم من أنه تحتم عليهم أن يتنازلوا عن ثلثى أرضهم للوافدين الجدد .

وفى تلك الأثناء كان البرجنديون وهم من الجرمان الشرقيين الذين نفذوا إلى سيليزيا قرابة ١٥٠ للميلاد ، ثم دخلوا وادى المين بعد ذلك بمائة سنة ، — قد شقوا طريقهم بين ظهرانى الألامان إلى نهر الراين ، فبلغوه فى نهاية القرن الرابع . وفى ظل حكم أسرة جيبيتشنج (Gibichung) (وهو اسم رددت صداه موسيقى ڤاجنر) التى كانت ورمز مقر حكمها ، — أجاز لهم الرومان حيازة ما يقع على جانبى النهر (الراين) من الأراضى بقصد حماية التخوم من غارات الألامان ، وفى أقصى الشمال ظلت مجموعتا الشعوب المعروفة باسم الفرنجة الساليانيين والريبواريين ، مصدر خطر مستمر نحو



٤ — (ا) صورة تيجان أعمدة من عهد الميروفنجيين



٤ — (ب) صورة تبين العمارة فى عهد الأسرة الكارولنجية

مائتى سنة ، ولم تبرحا تستغلان كل ما يلم بالإمبراطورية من أزمات لعبور النهر ، من أجل الإغارة والنهب . وتمكن الإمبراطور جوليان من إعادة الأمن إلى نصابه (٣٥٧ — ٣٦٠) وأجاز للساليين أن يمكثوا ببلاد البلجيك رعايا للإمبراطورية .

على أن الريبواريين دفعوا لفترة من الزمن إلى ما وراء الراين ؛ ولكن الضغط لم يفتر بل زاد شدة وبخاصة بمنطقة كولونيا ، وعلى الرغم من تحصين تلك المدنية العظيمة مرات عديدة ، فقد كان مصيرها محتوما . وانتقلت العاصمة الإدارية لغالة من تريف إلى آرل فى مطلع القرن الرابع ، على أن تريف تعرضت فى مدة عشرين عاماً لثلاث هجمات عنيفة .

البرابرة فى فرنسا وأسبانيا

ومع ذلك فإن هونوريوس جدد المعاهدة مع الفرنجة ، فأضحت غالة سنة ٤١٦ فى سلام من الناحية الرسمية . وبدا لروما فترة من الزمن أنها توصلت إلى حل مشكلتها وأن الجموع الغازية سيتم تمثلها بسلام فى الأقاليم الغربية . وقد استقرت فى فرنسا آنداك ثلاثة شعوب بربرية (الفرنجة الساليون والبرجنديون والقوط الغربيون) ، كما استقر شعبان آخران بأسبانيا (الوندال والسويف) وستتعقب بعد هذا هجرات الوندال حتى مستقراتهم بأسبانيا وما يليها (شمال إفريقيــة) .

وكان الوندال من الشعوب الجرمانية الشرقية وقد غادروا ساحل البلطيق فى وقت سابق على تحرك القوط ، ثم نجدهم عند حلول القرن الأول الميلادى نازلين بسيليزيا وبوهيميا . وترتب على الاضطرابات التى أثارتها حرب الماركومان (حوالى ١٦٦ م) ، أن تعرضت الأقوام للتفرق والتشتت ، فتحرك صوب

الجنوب إلى هنغاريا شعب الوندال الأسدنجيين ، الذى اشتق اسمه فيما يحتمل من اسم البيت المالك فيه . وبقى الوندال السيلنجيون بسيليزيا ، التى يظهر أن اسمها ليس إلا صيغة صقلبية للاسم القديم «سيلينجيا» ، وبعد مدة تقارب القرن ، هاجر عدد منهم إلى الحوض الأوسط لنهر المين . وأضعف الأسدنجيين فترة من الزمن ما وقع من صراع بينهم وبين القوط . ولما اكتشفوا حوالى عام ٤٠٠ أن الأرض التى يعيشون بها على نهر الثيس تضيق بمعيشتهم ، غادرها جانب كبير منهم بقيادة ملكهم جوديچيل وانحازوا إلى الآلان (الذين هربوا غرباً فراراً من هجوم الهون) ثم عبروا الدانوب الأعلى . على أن مسيرهم توقف عند هذا الحد ، وظلوا يسكنون داخل الإمبراطورية مدة خمس سنوات بوصفهم جنداً مرتزقة (Foederati) . غير أن الدولة الرومانية اضطرت فى ٤٠٦ أن تجرد حدود الراين من الجيوش لمواجهة خطر ألاريك وقومه من القوط . وسرعان ما انتهز أعداؤها الفرصة على الفور . فإن الوندال الأسدنجيين والآلان ، عبروا النهر المتجمد (الراين) وقد زادت أعدادهم زيادة ضخمة بمن انضم إليهم من السويف والوندال السيلينجيين إلى آخر ليلة من السنة . وظلت جماعاتهم المتناثرة من الخيالة مدة سنتين تعمل التدمير فى الشطر الأعظم من فرنسا ، دون أن تلقى أية مقاومة منظمة ، على أن تولوز قاومت جميع هجماتهم بفضل أسقفها الذى دافع عنها باقتدار وكفاية . والشعر المعاصر لتلك الأحداث يعرض بالكلم صور ذلك الغزو . فإن مدناً حصينة تستسلم للسيف والنار : وتقع بأيدى البرابرة صياص[1] تجثم فوق صخرات وعرة وبيوت لنساك قائمة بمفردها فى أكناف الغابات ، وكنائس تحرسها آثار القديسين

---

(١) الصيصة : الحصن والقلعة كما ورد فى القرآن الكريم (المترجم)

والشهداء . « لقد كانت بلاد الغالة تتصاعد إلى السماء دخاناً لحريق واحد متصل[1] » .

الوندال

بيد أن العاصفة أخذت فى الهدوء . ففى ربيع ٤٠٨ عبر الوندال وحلفاؤهم جبال البرانس وهبطوا أرض أسبانيا ، حيث واصلوا إفسادهم مدة سنتين أخريين . وعندئذ تدخلت روما ، وعقدت تسوية مؤقتة فى (٤١٠) ؛ وأُنزل الأسدنجيون والسويف بمقتضاها فى غاليسيا ، والسيلينجيون فى اندلوسيا ، على حين استقر الآلان فى البرتغال وشمال شرقى أسبانيا . ومع ذلك ، فإن روما لم تنس سياستها القديمة : « فرق تسد » ؛ فعمدت إلى استخدام خير ما جربته من وسائل التعامل مع أعدائها بأن عهدت فى ٤١٦ إلى « واليا » ملك القوط الغربيين بمهاجمة البرابرة بأسبانيا . وكانت ترجو من وراء ذلك إنقاص أعداد الطرفين . وقام واليا بمهمته بنجاح باهر محق به السيلينجيين من الوجود محقاً ، واضطرت بقايا الآلان أن تندمج فى الوندال الأسدنجيين . وعندئذ اتبعت السياسة الرومانية سبيلها المألوف . فاستدعى القوط الغربيون من أسبانيا ، حيث اشتدت قوتهم أكثر مما ينبغى ، ومنحوا مستقرات فى أكيتانيا . ثم منحت الدولة عونها للسويف لمناهضة قوة الوندال والآلان المتزايدة ، فهزم الأخيرون ودفعوا إلى جنوب أسبانيا . وهنا جمعوا شتاتهم رغم ما حدث لهم وصدوا جند الرومان ، ولم تلبث المدن الساحلية القوية التحصين أن سقطت فى أيديهم الواحدة تلو الأخرى تحت ضربات هجماتهم من البر والبحر . ومما يدل على أن روما رأت بوضوح خطر قوة البرابرة البحرية ، ما بذلته

---

(1) Uno Fuma Vit Gallia tota rogo

من محاولات للاحتفاظ بالسواحل الجنوبية لفرنسا وأسبانيا ؛ ومما له دلالته صدور قانون بالقسطنطينية حوالى ذلك العهد ينص على إنزال عقوبة الإعدام بكل شخص يعلِّم البرابرة طريقة بناء السفن . غير أن الدولة الرومانية عجزت تماماً عن تجنب ذلك الخطر . فاستولى البرابرة على أشبيلية وقرطاجنة[1] ونهبوهما ، وعندئذ تطلعوا إلى مغامرة أعظم .

وفى (٤٢٨) أصبح جزريك (جايسريك) ملكا على الوندال. وهو من أعظم شخصيات ذلك الزمان ، ولا شك أنه كان سياسياً بارعاً فاق كل زعماء البرابرة باستثناء ثيودوريك وكلوفيس ، فضلا عن كونه مقاتلا موفقا لا يجد الخوف إلى قلبه سبيلا . وهو الذى أدار دفة غزاة إفريقية ، والراجح أنه وزن العواقب وزنها الصحيح . فإن تلك البلاد كانت غير مستقرة الأحوال ؛ إذ كان سكانها البربر (Moorish) فى ثورة ، وزاد الانشقاق الدوناتى الاضطراب شدة. ولم يكن لدى الكونت بونيفاس قائد الرومان قوة كافية من الجند ، والواقع أنه لم يكن قادراً على صد الغزاة . يضاف إلى ذلك أن من يسود إفريقية يمسك بيديه مفتاح إيطاليا . وتلك مسألة معترف بها من زمن بعيد ، إذ إن امتلاك تلك الأقاليم (الإفريقية) كان جزءاً جوهرياً من استراتيجية كل من ڤسبازيان وسيڤيروس من بعده . وأصيبت روما بخسارة فادحة لما ترتب على فتح جزريك من ضياع الجزية التى تؤديها لها إفريقية ، وأشد من ذلك خطورة أن موارد قمحها أصبحت وقتذاك تحت رحمة ذلك البربرى . وبنمو قوة الوندال البحرية لم يعد الأمر قاصراً فحسب على عجز الجيوش الإمبراطورية عن بلوغ إفريقية ، بل إن جميع الموانى وجميع تجارة غرب البحر المتوسط ، أصبحت معرضة لانتهاب القراصنة ، على حين أن قوات الوندال ربما هبطت فجأة بأية نقطة بإيطاليا أو صقلية .

---

(١) قرطاجنة هذه مدينة أسبانية وهى غير قرطاجة الموجودة بتونس . (المترجم)

وفى عام (٤٢٩) قاد جزريك قومه ، وعدتهم حوالى ثمانين ألفا ، عبر مضيق جبل طارق . فبادر إلى اجتياح السهول الغنية والاستيلاء عليها ، غير أنه لم يتمكن من فتح قرطاجة وبعض معاقل أخرى . وعززت القوات الرومانية ، فأنزلت بجزريك هزائم فادحة فعقد مع الرومان معاهدة ، استقر بمقتضاها الوندال هناك بصفة جند مرتزقة محالفين . ومن الجلى أن تلك الحركة قد تمت بتقدير محكم . فلم تمض أربع سنوات حتى استولى جزريك فجأة على قرطاجة . ولمنع الرومان من الإقدام على هجوم مضاد ، أرسل عمارة بحرية قوية لإعمال الدمار فى صقلية وسردينية (اللتين كانتا تعتبران آنذاك المصدر الرئيسى لمؤونة الرومان) . وفى (٤٤٢) ، اضطرت روما أن تعترف بجزريك حاكماً مستقلا للشطر الأكبر من الأقاليم الإفريقية ، وكان ذلك هو الثمن الذى دفعته فى مقابل السلام . وبذلك صار وضعه مختلفاً تماماً عن وضع ملوك القوط والبرجنديين ، الذين كانوا لا يزالون رعايا للإمبراطورية الرومانية .

الهون

ويحدث بين الفينة والفينة فى التاريخ الأوربى أن تفتح نافذة على مصراعيها بغتة فنطل منها على إقليم مجهول من سهوب مترامية ، أو صحراوات من حصباء أو رمال أو مناطق من الحجر الأسود البراق أو مراع فوق الجبال الشامخة . وتتحرك فوق سطحها ثلل صغيرة من الراكبة ، وهى تسوق أمامها قطعانا من الشاء وأراعيل من الخيل . فإذا حل الصيف وجدتهم بعاداً فى أقصى الشمال ينتجعون السهول العظيمة التى تمتد حتى غابات الصنوبر السيبيرية . فإذا اقترب الخريف قوضت الخيام وحملت وانطلقت المخيمات المكونة من خمس أو ست عائلات فى طريقها نحو الجنوب ، وهى تخترق على التعاقب سهوب الطفل

العظيمة والسهوب الملحة وصحراوات الحصباء ، وفيافى الرمال المتنقلة ، حتى يصل القوم إلى حوضى بحر قزوين وبحر آرال . وبعض هـذه القبائل تجتاز حوالى عشر درجات من خطوط العرض فى كل عام ، وهى مسافة قد تصل إلى ألف ميل ذهابا ومثلها إيابا . والرحلة ضرورية ، إذ إن السهل الشمالى يغطيه فى الشتاء طبقة سميكة من الثلج ، فإذا حل الصيف جففت حرارته كل ما فى الجنوب من كلأ . وقد أفضى قيام هذه الظروف على كر القرون إلى نشوء الثقافة البدوية (الترحلية) . ولكى يتم بسرعة قطع مسافات مترامية من الأراضى الصحراوية ، رُبِّى جنس من الخيل يستطيع العدْوَ عشرين ميلا فى الدفعة الواحدة ، وأن يقطع فى اليوم الواحد أكثر من مائة ميل . ويقضى الرجال حياتهم على ظهور الجياد . فتنحرف أقدامهم إلى الخارج ، ولا تصيب (سمّانة) الساق إلا حظاً ضئيلا من النمو . وهم قوم من العنصر المغولى مكتنزو الأجسام كبار الرءوس قمحيو اللون عيونهم مشقوقة وأفواههم كبيرة وشعرهم أسود صلب ، ولا يمكن استخدام الثيران هنا — إذ إنها لا بد أن تهلك فى الصحراء ، وذلك فضلا عن شدة بطئها . ولا تنس أيضاً أنه يستحيل على البدوى الحق ، أن يمارس الزراعة . إذ إن طعامه الأساسى هو ابن الأفراس والأغنام بعد تجهيزه بطرائق شتى . وشهوته للطعام هائلة ؛ ولكنه فى بعض الأحوال يستطيع تحمل العطش أياماً والجوع أسابيع . وهذا أمر يتمشى مع ظروف حياته ، التى تكاد تبلغ حد المجاعة شتاء والوفرة التى لا حد لها صيفا . والمخيم هو وحدته الاجتماعية : إذ إن أراضى الرعى والآبار لا تكفل العيش لما يزيد على ذلك ، ولكن المخيّم جزء من العشيرة ، والعشيرة جزء من القبيلة والقبيلة جزء من الشعب . وقد تظهر الأيام فى بعض الأحيان (خاناً) عظيما يلم شمل الشعوب فى رهط حاشد : فإن كان الرهط أضعف من الأرهاط المجاورة له ،

دُفع من منطقة السهوب فيهبط على فارس وأرمينية وجنوب روسية أو هنغاريا . وربما تفرق شمل الرهط عند وفاة «الخان» ؛ أو تظل الشعوب المكونة له تنزل الظلم مدة قرون بالعنصر المغلوب على أمره ، بأن يعودوا كل شتاء للمطالبة بالمؤن والنساء . فتنحط الحضارة بتلك المناطق ، ويصبح السكان خونة أذلاء . على أن الغزاة لا يلبثون حتى يتحولوا رويداً رويدا إلى جنس مختلط ، وحتى يفقدوا إلى حد ما خصائصهم المغولية . وهذا ما حدث مع الإسكيذيين الذين عرفهم القدماء ومع المجريين فى عصرنا هذا .

وغنى عن البيان أن غزوات هـذه الشعوب الألطائية تختلف اختلافاً بعيداً عن الهجرات الجرمانية . إذ إن التيوتونى والرومانى جميعاً كانوا ينظرون إلى الهون نظرة الرعب المشوب بالخرافات ويحسون نحوهم بنفور وتقزز . ونظراً لمـا اشتهر به الهون من السرعة الخارقة ، نسبت إليهم قدرات سحرية ، وبولغ فى عدد أفرادهم مبالغة عظيمة . والواقع أن الجزء الأعظم من مقاتلة الهون كان يتكون من أفراد القبائل المهزومة ، ولا سيما الچيپيد ومن معهم من الآلان والقوط والصقالبة وغيرهم ، الذين جرهم الهون معهم فى أثناء تقدمهم من جنوب روسية إلى أوربا الوسطى(١) . واتخذ الهون مركز قيادتهم فى هنغاريا ؛ فإن أتيلا ، الذى ورث الحكم فى (٤٣٣) مع أخيه بليدا ، الذى يظهر أنه أهمله آخر الأمر ، ـ كان يفرض سلطاناً قوياً وغير محدود ، ولكنه فعال على كل من القوط الشرقيين والصقالبة المقيمين بجنوب روسية وسائر القبائل الجرمانية النازلة على ضفاف الدانوب . واستطاع من موقعه المتوسط أن يهدد شطرى الإمبراطورية بدرجة سواء ، فدأب على المطالبة بعودة اللاجئين ،

---

(١) انظر أول الفصل الثانى ص ٧٥ .

وعلى أن ينتزع من الإمبراطورية إتاوة ضخمة من الذهب . وإذ انصرف فى السنوات الستة الأولى من حكمه إلى الفتوح الصقلبية فإنه امتنع عن الهجوم الصريح على الغرب ، حتى لقد حدث أنه أعار الرومان جنداً مرتزقة من الهون ليقاتلوا عنهم البرجنديين والقوط الغربيين ؛ وفى الحين نفسه استطاع أن يفرض على القسطنطينية معاهدة كلها مذلة وهوان . غير أن العلاقات ازدادت سوءاً بعد (٤٤٠) وشابها شىء من العداوة ؛ وعندئذ هوجمت حدود الدانوب وتعرض شمال بلاد اليونان للنهب الشديد . ولما عقد الصلح فى (٤٤٧) طولبت الدولة بتعويضات ضخمة وتقرر جعل الحد الفاصل بين الطرفين عند نيش ، التى تقع على مسافة بعيدة ، جنوب الدانوب .

ثم حدث تغير فى (٤٥٠) . إذ تولى الإمبراطورية فى الشرق مرقيان ، وأبى أن يدفع للهون بعد ذلك أية جزية . ولم يلبث الغرب أن حذا حذوه . ويبدو أن أتيلا عزم فى تلك اللحظة على أن يقوم بفتح حاسم . فشق طريقه عنوة عند نهر الراين الأدنى فى عيد الفصح من عام (٤٥١) وتقدم إلى أورليان . وكان يأمل أن يلزم القوط الغربيون فى أكيتانيا الحياد . ولكنهم قرروا أن يقاتلوا فى صف روما ، فأدى ذلك إلى قلب ميزان المعركة . والتحم الطرفان فى سهل موررياك قرب تروى (Troyes) . فلقى ملك القوط الغربيين مصرعه ، ثم اضطر أتيلا إلى الارتداد فى النهاية إلى معسكره بعد أن تكبد الطرفان خسائر فادحة ، وبذلك انتهت الأسطورة التى تزعم أن الهون قوم لا يقهرون . على أن آئتيوس قائد الرومان أدرك وقتذاك أن القوط الغربيين أشد خطراً على الإمبراطورية من الهون ، وعندئذ أتاح للهون فرصة للنجاة .

وكثيراً ما اعتبر ذلك القتال من المعارك الفاصلة فى التاريخ ؛ ولكن الراجح أن جيش الهون كان على كل حال محتوماً عليه التشتت السريع عند وفاة حاكمه وقائده . والواقع أن جغرافية أوربا ، لا العوامل السياسية ولا العسكرية هى التى أنقذتها من قبضة الحضارة البدوية ، هنا وفى سائر المعارك الأخرى ، ودفعت عنها المصير الذى تعرضت له آسيا ، التى ظلت إلى يومنا هذا غارقة فى الهمجية . « فلو أن ألمانيا أو فرنسا كان بها من السهوب ما لهنغاريا ، حيث كان المترحلون يستطيعون منها تزويد أنفسهم بما يلزمهم من طعام ، ثم ينطلقون من ثم إلى ما هم عليه من تدمير ، فالراجح أن ضياء الحضارة الغربية ما كان إلا ليخبو من زمن بعيد ، كما أن العالم القديم لم يكن بد من أن يتبربر ، ولم يكن بد للصين الراكدة الآجنة اليوم من أن تكون على مفرق الحضارة » . (پايسكر Peisker) .

نهاية إمبراطورية أتيلا

تراجع أتيلا عند ذاك إلى هنغاريا ، ثم عاد فى السنة التالية فغزا شمال إيطاليا ، فسقطت أمام هجماته أكويليا ومعظم القلاع الأخرى (وإن لم تسقط رافنا بفضل المستنقعات التى كفلت لها الأمن) . ولكن زحفه على روما لم يتم . ذلك أن انتشار المجاعة والمرض بين جنده ووصول الإمدادات الإمبراطورية من الشرق ، كانت أموراً عززت بقوتها البراهين والحجج التى قدمتها بين يديه بمعسكره على نهر منكيو سفارة الرومان برئاسة البابا ليو الأول بجلاله وقوة أثره . وعاد أتيلا إلى وطنه ليتجهز لقتال القسطنطينية ؛ ولكنه مات فى السنة التالية .

واقتسم أبناؤه ميراثه ؛ ولكن شعوب الدانوب فطنوا إلى الفرصة

السانحة لهم وانقضوا كالذئاب الضارية على سادتهم المكروهين . وتزعم الجيبيد سائر قبائل القوط : الروجيين (Rugii) والسويف والهيرول ، فأنزلوا بالهون هزيمة ساحقة على نهر نيداو (٤٥٣) وطردوهم إلى سهول الروسيا ، ولم يبق منهم بهنغاريا سوى شراذم متناثرة . وظلت منطقة الدانوب بعد ذلك مائة عام مسرحاً لدوامة دوارة من الشعوب المتصارعة ، وكانت دبلوماسية الدولة الرومانية الشرقية تشجع النزاع ، بما نهجته من خطط تقليدية تجاه البرابرة . وعندئذ سيطر الجيبيد وهم من شعوب الجرمان الشرقيين على هنغاريا ورومانيا ، وتنازعوا مع القوط الشرقيين النازلين آنذاك في غربهم على امتلاك مدينة سيرميوم (وهي لا تبعد كثيراً عن بلغراد) التي كانت تتحكم في الطريق الروماني العظيم الممتد من الغرب إلى الشرق . ويظهر أن الجيبيد بلغوا مرادهم عند وفاة ثيودوريك العظيم في (٥٢٦) : ولكن ظهر في ذلك الوقت مطالبون جدد بالسيادة هم اللومبارد ، فغير موقف الدانوب بأجمعه . فتألف تحالف بين الجيبيد واللومبارد ، ولكن المصالح المتضاربة كانت أقوى من كل شيء . ونشبت بين الفريقين حروب مريرة طويلة الأمد ، انتهت في (٥٦٧) بهزيمة الجيبيد نهائياً ، فلم يلعبوا بعد ذلك دوراً في التاريخ .

القوط الشرقيون

وكانت الأراضي الممتدة شمال البحر الأسود بين نهر الدنيستر غرباً ونهر الدون شرقاً (أي بين منازل القوط الغربيين ومنازل الآلان) يحتلها في قريب من (٣٥٠) القوط الشرقيون المعروفون بشدة المراس بقيادة ملكهم إرماناريك ، الذي لم تكن له إلا سيادة ضعيفة على قبائل الصقالبة النازلة إلى الشمال منهم . وقضى الغزو الهوني على تلك الإمبراطورية ، ودفع القوط غرباً ،

فساروا ثلثلا من اللاجئين إلى البلقان . على أن كثيراً من القوط الشرقيين لم يلبثوا بعد وقفة غير موفقة لهم على نهر الدنيستر ، أن انحازوا إلى أقاربهم القوط الغربيين فعبروا جميعاً نهر الدانوب[١] ، وأسهموا فى القتال الذى نشب فى أدرنه (٣٧٨) . وفى (٣٨٠) عقدوا حلفاً مع ثيودوسيوس الأول ، ومنحوا مستقرات بهنغاريا الدنيا . ومع أنهم لم يزالوا تحت سيطرة الهون الذين كانوا بسطوا سلطانهم على هنغاريا ، فإنهم باتوا الآن متحدين تحت ملك واحد ، ثم تحت حكم أبنائه الثلاثة من بعده ، ولم يشذ عن ذلك إلا جماعات متناثرة دخلت فى خدمة الرومان ، أو أولئك الذين انحازوا إلى الجيوش المختلطة التى فى خدمة راداجايسوس والتى شنت هجوماً مباغتاً وخطيراً على إيطاليا (٤٠٤ — ٤٠٥) فسحقهم استيليكو على مرتفعات فيسولى . وقد كانوا بوصفهم حلفاء تابعين يقاتلون مع أتيلا عند سهل مورياك ، ولـكنهم لعبوا دوراً بارزاً فى ائتلاف الشعوب الذى قضى على الهون بعد وفاة أتيلا ، وازدادوا صلابة وصمودا فيما تلا ذلك من حروب مع قبائل الدانوب . وفى (٤٧١) أصبح ثيودوريك الملقب فيما بعد بالعظيم — من زعمائهم . والمعروف أن ثيودوريك قضى عشر سنوات من حياته وهو صبى رهينة بالقسطنطينية ، ولا بد أنه قد تعلم الشيء الـكثير عن تنظيم الدول المتحضرة ، شأن ألاريك (الذى تماثل حياتُه حياتَه من كثير من الأوجه) ، وإن ظل حتى نهاية أيامه أميًّا لا يكتب ، فإذا شاء التوقيع باسمه اضطر إلى استخدام روسم[٢] من ذهب .

وبعد أن استنفد قومه كل موارد بانونيا تحركوا حوالى ذلك الزمن

---

(١) انظر ف ٢ بعنوان القوط الغربيون ص ٨٤ . .

(٢) الروسم لوحة مثقبة بالحروف المطلوبة لـكتابة الاسم . (المترجم)

إلى جوار سالونيكا ، ومن هناك ظلوا يمارسون ضغطاً مستمراً على العاصمة (القسطنطينية) . وشهدت السنوات العشر التالية صراعاً ثلاثياً مستمراً بين الإمبراطور زينون وبين ثيودوريك و بين ثيودوريك آخر لُقب استرابون (وهو أيضاً قوطى شرقى) كان قائداً لكتيبة من بنى قومه تعمل فى خدمة الرومان.وكانت سياسة الإمبراطور تأليب ثيودوريك هذا على سميه ؛ ولكن عند وفاة ثيودوريك استرابون فى (٤٨١) ، لم يكن بد من البحث عن وسيلة أخرى لتخليص القسطنطينية من المعونات المالية الفادحة التى لا بد لها من أدائها . وقد حكم أودواكر[١] إيطاليا منذ (٤٧٦) ولكن زينون لم يعترف به إلا اعترافاً شكليا ، وظل يترقب سنوح فرصة يسترد بها سيطرته على الغرب . ولسنا نخال بعد الذى خبره زينون من ثيودوريك ، أنه توسم فيه أن يكون أطوع كنائب ملك من أودواكر ؛ على أنه جعل الاعتبار الأول تخليص إلليريا من ذلك الكابوس الساحق ، فقدر أنه إذا دمر كل من أودواكر وثيودوريك أخاه ، كان فى ذلك الخير كل الخير .

وتقبل ثيودوريك المهمة المنوطة به وانطلق إلى إيطاليا فى (٤٨٨) سيداً لجند الإمبراطور ، يقود جيشاً مخلطا من القوط الشرقيين ومن غيرهم من المغامرين . والتحم الطرفان فى المعركة الفاصلة على نهر أدَّا فى أغسطس (٤٩٠) فهزم أودواكر هزيمة منكرة فبادر بالالتجاء إلى راڤنا المنيعة . وعند ذلك قرر مجلس السناتو الرومانى أن يؤيد ثيودوريك ، واعترف به حاكماً على إيطاليا. وكانت هناك عدة مدن لا تزال تناصر أودواكر وتسانده ، فنجح ثيودوريك فى استثارة السكان الرومان للقيام بمذبحة شاملة فى حامياتها البربرية . وفى تلك

---

(١) انظر الفصل الثالث بعنوان : « القرن الخامس فى الغرب » ص ١٠٤ .

الأثناء كان الوندال أيضاً يعيثون فى صقلية فسادا وتدميرا ، وبعد قتال مرير أجبروا على التخلى عن مطالبهم فى الجزيرة . ولكن كان هناك فى النهاية شخص أودواكر وله وزنه الذى لا بد للقوم أن يحسبوا حسابه . واستهل ثيودوريك آخر مرحلة من فتوحه عندما بدأ حصار رافنا الذى دام ثلاث سنوات .

وقد تأثر خيال الجرمان بهذه المدينة العجيبة ، إذ تشيد بذكراها حلقات المجموعة الملحمية العظيمة التى تدور حول ثيودوريك . ولم تكن رافنا حتى الأمس القريب إلا مدينة خربة خيم عليها الصمت،وكانت تتألف من مجموعة من أبراج الأجراس تقع فى سهل وخم موحل من المستنقعات الوبيئة بالملاريا وحقول الذرة التى تخترقها القنوات البطيئة التى كاد يسدها القصب (البوص) وأزهار النيلوفر المائية . وهى لا تزال تحتفظ إلى اليوم بشىء من مجدها السابق . فإن كنيسة القديس ڤيتالى — وهى أفخم كنائسها — المتوهجة بالفسيفساء المرصعة بالجوهر والرخام الشفاف ، إنما ترجع إلى عهد جستنيان يوم ارتقت رافنا ذروة جمالها.ومع ذلك فإن صيتها ذاع طوال أربعة قرون باعتبارها مقراً لقيادة أسطول رومانى . لقد كانت مياه الأدرياتى تتخللها وكانت معابدها ومخازنها تقوم على جزر تحيط بها القنوات شأن البندقية اليوم . وانحسر البحر عنها شيئا فشيئا ، ولكن المدينة لم تكن فى تلك الأيام متصلة بإيطاليا نفسها إلا بطريق مكون من جسر طويل يخترق المستنقعات ويمضى إلى داخل المدينة نفسها فيقود المسافر إلى معاقل مرفأ كلاسيس البحرى ومنارته . وقد ظلت المدينة زهاء قرن مستقراً ومقاماً للإمبراطور وحاشيته . فأقام بها هونوريوس وڤالنتنيان الثالث الإمبراطوران الوانيان اللذان لم يكونا سوى أطياف ظلال . وقضيا

فيها حياتهما الوادعة ، بين مؤامرات النساء والخصيان والقساوسة ورجال البلاط، بعيداً عن مثار النقع ودوى الضجيج فى عالم متقلب متغير ، عالم قاد فيه استيليكو وآئتيوس آخر كتائب الرومان على المغيرين .

وهنا فى بناء صغير بشكل الصليب تأتلق على جدرانه وسقفه نجوم من الذهب مرصعة فوق خلفية لا زوردية داكنة ، يرقد «الناووس» الضخم الذى يضم رفات جالا پلاسيديا . وهذه الأميرة الرومانية التى كانت حياتها مرآة تعكس تاريخ زمانها ، هى ابنة ثيودوسيوس الأعظم وشقيقة أركاديوس وهونوريوس إمبراطورا الشرق والغرب . وقد أخذت أسيرة يوم نهبت روما ، وأصبحت زوجاً لأتولف ملك القوط الغربيين ، ثم صحبته إلى فرنسا وأسبانيا . ثم تزوجت بعد ذلك قسطنطيوس القائد الرومانى ، وبعد وفاته ووفاة أخيها هونوريوس أصبحت الحاكم الفعلى للغرب مدة خمس وعشرين سنة فى أثناء الوصاية على ابنها الصغير المتأنث فالنتنيان الثالث فضلا عن مدة حكمه الضعيف . وإن جمالها الذائع الصيت ، وتقلبات الحظ بها ، صورة تشتبك اشتباكاً عجيبا بمصائر أوربا الغربية ، لتجتمع لتجعل منها أشد شخصيات ذلك القرن رومانسية . بيد أن لها ناحية أخرى لا تقل دلالة على الزمان . فبتأثيرها ، أصبح جو البلاط كثيفاً بما انعقد فيه من سحب بخور التصوف الدينى . ولعل ميادين المعارك الدائرة على الحدود ليست هى الموضع الذى نلمس فيه ما حفلت به هذه الفترة الغامضة من التاريخ من أطياف معتمة ، بل فى ظلام مقبرة جالا پلاسيديا . ذلك بأن دوافع تلك الأطياف ستظل سراً دفيناً إلى الأبد ؛ غير أن بصيصاً من الفهم قد يطرق على الفجاءة أبصارنا عندما تقع على الرموز السرية والأشكال المقدسة لليمام والغزلان والشاء والعيون والأزاهير والكروم المنضفرة المتشابكة

بعضها فى بعض ، والإنجيليين والقديسين ، التى تلمع وسط الظلماء وتتكهن بسعادة غير دنيوية .

وكانت رافنا آنذاك تحتفظ بأسرارها كشأنها اليوم . ولما لم يستطع ثيودوريك اختراق الحصون ، تفاهم مع أودواكر . واتفقا على شروط الصلح. وبمقتضاه أصبحا شريكين فى الحكم فى إيطاليا معاً بدرجة متساوية . ويبدو أن الأول منهما (ثيودوريك) كان يضمر فى نفسه الغدر . فبعد دخوله بعشرة أيام دعا أودواكر إلى وليمة . وبينما هما مستويان إلى المائدة ، ركع رجلان بمظلمة أمام أودواكر وأمسكا بيديه . فاندفع جند ثيودوريك المختبئون ، ولكنهم ترددوا فى القضاء على الرجل الشيخ . فتقدم ثيودوريك بنفسه وشهر سيفه . وصاح أودواكر قائلا : « أين الله ؟ » فقال ثيودوريك : « أنت فعلت هذا بأصدقائى» ، ثم شقه بسيفه من الترقوة إلى القطن . ودهش ثيودوريك للضربة التى صدرت منه فصاح قائلا : « ليس للشقى عظام فى جسده » . وكانت الأوامر صدرت قبل ذلك بإعمال الذبح فى المرتزقة الأعداء ، ومن بعدها لم يلق ثيودوريك أية مقاومة لادعائه السيادة العليا بإيطاليا .

الفصل الثالث
التقاء الحضارتين

القرن الخامس فى الغرب

عالج الفصلان السابقان عالم الرومان وعالم البرابرة فى (٣٩٥) . وكان لزاماً علينا تسلف الحوادث بترسم خطى الشعوب البربرية الرئيسية كلا على حدة بقدر الإمكان . فماذا كانت نتيجة الصدام بين التقاء الحضارتين الرومانية والجرمانية ، كما يتجلى فى التاريخ المضطرب فى القرن الخامس ؟ ولعل الأفضل أن تسمى العمليــة باسم عملية التعجيل بتطور تدريجى ؛ إذ لا بد لنا من تذكر أن سكان شطر عظيم من الإمبراطورية كانوا بالفعل برابرة ، وأن العنصر الجرمانى قد غلب على الجيش الرومانى ، وأنه لم يكن بين زعماء المغيرين باستثناء چزريك (جايسريك) فيما يحتمل ، من كان يريد للإمبراطورية السقوط .

ومن المستحيل أن ندلى بتفســير سيكولوچى لتصرفات الشخصيات الرومانية الرئيسية فى هذه الفترة ؛ إذ كان الدخول محظوراً إلى بلاطات رافنا والقسطنطينية ، حيث كان يتربع ابنا ثيودوسيوس الإمبراطور المقاتل ، على عرشيهما كأنهما أميران شرقيان محلّيان بالجواهر فى غرفات مقدســة عليها حُرّاس حِراس يحمونها من العالم الخارجى . والحق إن « هذين الأميرين الصغيرين المسكينين ، وهما زهرتان شاحبتان من زهرات الشباب » ، كما يقول دوكين (Duchesne) لم يكونا إلا مركزاً للمؤامرات العديدة التى

كانت تحاك فى البلاط ؛ ولكن معرفتنا بهذه المؤامرات لا تزيد عن هذا بكثير . وكان أقرب الناس إلى الإمبراطور هو كبير الأمناء (الحجاب) ، وهو خصى ، بيده إدارة القصر الإمبراطورى ، وكان بما يلجأ إليه من توسيع مجال عمله وإدارته يزيد فى الحكم الشخصى للإمبراطور على حساب الإدارات الكبرى فى الدولة . ولكن حدث فى الغرب أن أصحاب الأملاك الإقطاعيين بفرنسا وإيطاليا بلغوا من القوة والنفوذ ما جعل الحكومة المركزية تعجز عن التغلب عليهم ؛ فأما فى الشرق فإن رؤساء الإدارة الحكومية ، ومعظمهم من أصل وضيع — لم يظهروا إلا مقاومة ضئيلة لاستبداد الملكية البيزنطية ، فصار لكبير الأمناء (الحجاب) صاحب القوة المطلقة مثل يوتروپيوس ، الحرية فى أن يختار زوجة للإمبراطور أو أن يتآمر مع القادة الخونة . ومع ذلك فإن رجال البلاط والموظفين بكل من القصرين كانوا يؤلفون حزباً قوياً يدعو فى بعض الأحوال بأعلى صوت إلى اتخاذ التدابير لمناهضة الجرمان . وكان لنساء القصر دور عظيم — ولكنه لم يبلغ من الضخامة المنزلة التى صورها خيال وعاطفة المؤرخين البيزنطيين الذين أرادوا أن يحملونا على تصديقه — فكثيراً ما كن يتحكمن فى ضعاف الأباطرة بنفس الطريقة التى كان يتحكم بها فيهن مستشاروهن الروحيون . والجو كله مفعم بالشبهات والبحث عن المصالح الذاتية . والجواسيس منبثون فى كل مكان وذوو الحظوة يرتفعون ويسقطون . ولا يتبدى فى الجو تمسك بأى مبدأ خلقى ، ولا طمأنينة لأية صداقة .

وتقف قبالة هاته الخلفية طائفة من الشخصيات العظيمة ، هى شخصيات « سادة الجند » فى القرن الخامس . وفى أيديهم السلطة الحقيقية ، إذ تعتمد

مصائرهم الإمبراطورية على الجيش الذى يخضع لسلطانهم . ولما كان معظمهم من البرابرة ، فلم يكن فى إمكانهم ، شأن القواد فى القرن الثالث ، خلع الإمبراطور والاتشاح بالأرجوان . كانوا موضع الكراهية والخوف من الأباطرة والحزب المناهض للجرمان، على أنهم كانوا سنداً لا يستغنى عنه وقوة بالغة القدرة. وكثيراً ما كان هذا البغض يتغلب على سائر الاعتبارات الأخرى . إذ إن هونوريوس يأمر بإعدام استيليكو (٤٠٨) ويقضى فالنتيان الثالث على آئتيوس (٤٥٤) ولا يلبث حتى يلقى نفس المصير بعد ذلك بقليل . وفى المرحلة التالية يكون المتصرف فى الشئون هو « سيد الجند » ريكيمر (المتوفى ٤٧٢) ، فهو الذى يقيم أباطرة ضعافاً فيقتلهم أو يخلعهم إذا أظهروا نفاراً ومغالاة فى الاستقلال. وأخيراً يتخلص أودواكر من الإمبراطور (٤٧٦) ويحكم إيطاليا حكماً شخصياً كنائب ملك بالاسم للسلطة الحاكمة بالقسطنطينية .

القرن الخامس فى الغرب

ظل نجم استيليكو متربعاً فى كبد السماء من (٣٩٥) إلى وفاته فى (٤٠٨) . وقد ظل يتهم على الدوام بالخيانة ؛ وليس عسيراً علينا أن نرى أسباب تلك الاتهامات . فإنه سمح لألاريك عدة مرات بالانسحاب ، وذلك ببلاد اليونان (٣٩٧) وبإيطاليا (٤٠٣) على حين أنه كان بوسعه على وجه التحقيق أن يدمر قواته ويقضى عليها ، وبذا حال دون سقوط روما فى (٤١٠) . يضاف إلى ذلك أنه لم ينقذ غالة من الغزو الرهيب فى (٤٠٦) ، وهو موقف ترك ولايتين فريسة لتدميرات الوندال وحلفائهم . ويبدو أنه كان يدير سياسته على ثلاثة أسس . فإنه كان الذراع اليمنى لثيودوسيوس ، حتى لقد عين وصياً على ابنيه الصغيرين فى (٣٩٥) .وكان الولاء الشخصى من خصائص الجرمان ، ولم يداخل التردد

قط قلب استيليكو فى ولائه لبيت ثيودوسيوس . أجل إنه ربما استخدم جميع الوسائل ليبز أركاديوس ويعلو عليه ، ولكن شخص الإمبراطور لم يتعرض لأدنى خطر . ومن الحقائق الجديرة بالذكر أن استيليكو لم يأذن بقيام أية مقاومة عندما أصدر هونوريوس أمره بإعدامه . وكان الأساس الثانى لسياسته ، وهو الأساس الذى لعله قد تبناه مؤخراً عندما حطم الانتقاض على الجرمان فى القسطنطينية آماله ، هو عقده العزم على الحصول لنفسه على الولاية (Prefecture) على إلليريا[1] — (وهى بلد حافل بالرجال اللازمين للجندية لا يُقوم بثمن) — لضمها إلى الجزء الغربى من الإمبراطورية . ولكى يبلغ هذا الهدف عمد إلى استخدام قوات ألاريك ؛ وكانت نتيجة محاولته فى هذا الصدد أن أعلنت حكومة أركاديوس أنه عدو للشعب ؛ ومن أجلها ضحى بغالة وتركها فريسة للهجوم البربرى الذى كان واجبه يحتم القضاء عليه . وقد فرض الأساس الثالث عليه فرضاً لا لشىء إلا لكونه بربريا . وطبيعى أن النمو السريع للنفوذ الجرمانى فى أروقة الجهات العليا كان يحظى باستحسانه ؛ مذ كان للجرمانى الحق فى الحصول على نفس المكانة التى يرقى إليها الرومانى داخل الإمبراطورية . وربما كان فى هذا تعليل لرأيه فى ألاريك ، واعتباره إياه حليفاً نافعاً ، لا عدواً عاما ؛ ومن المحقق أن ذلك الأساس هو الذى دفعه إلى تأييد جائناس والحزب الجرمانى بالقسطنطينية ؛ كما أنه يفسر تماماً عداوة المحافظين الرومان ، التى أوردته حتفه آخر الأمر .

وشهدت المدة التالية (٤٠٨ — ٤٢٣) تأسيس مستوطنات البرابرة المحالفين بكل من غالة وأسبانيا ، ويرجع الفضل فى إدارة دفة هذه الحركات[2]

---

(١) انظر التذييل .

(٢) انظر : « البرابرة فى فرنسا وأسبانيا » من الفصل الثانى .

بمهارة إلى قسطنطيوس « سيد الجند » الرومانى الذى تزوج من جالا پلاسيديا فى (٤١٧) ، فولد له منها ڤالنتنيان الثالث . وجهوده بإقليم غالة تعتبر فى الدرجة الأولى من الأهمية . فإن ما تفخر به فرنسا اليوم من أنها قطر لاتينى ينبغى أن ينسب جزئياً إليه ، فهو صاحب الفضل فى تمكين البرابرة من الاستقرار بدرجة نسبية من السلام بالأراضى الرومانية ، حيث تشربوا قوانين السكان ونظمهم . واتخذت ترتيبات عسكرية جديدة بشمال غربى غالة ، وهيأ إنشاء مجلس الأقاليم السبعة فرصة طيبة لإقامة بؤرة للنفوذ الرومانى ، وكان ذلك المجلس يعقد فى أول كل عام ، ويحضره ممثلون عن كل من المنطقتين الرومانية والقوطية الغربية .

وتوفى قسطنطيوس فى (٤٢١) ، ومات الإمبراطور هونوريوس فى (٤٢٣) . على أن ظلا قوياً لآئتيوس « آخر الرومان» قد خيم على الثلاثين سنة التالية (٤٢٣ — ٤٥٣) . وهذا اللقب يبرره ما كان له من الشخصية وما قام به من أعمال . غير أنه دأب على معارضة «الحزب الرومانى» براڤنا ؛ كما أنه نصب نفسه عدواً لجالا پلاسيديا والقائدين المنافسين له ، فيليكس وبونيفاس ، ولم يكن ذلك إلا بفضل مساعدة مرتزقته من الهون . وقد ركز كل اهتمامه على غالة ؛ ولما حاول القوط الغربيون بسط نفوذهم إلى إقليم پروڤانس ردهم على أعقابهم ؛ أما مملكة البرجنديين بورمس التى كانت تغير على جيرانها للنهب فقد أزالها من الوجود (٤٣٦) بفضل جند الهون المرتزقة . (وكان واضعو ملحمة نيبيلونجنليد[1] « Nibelunge nlied » الجرمانية يعتقدون أن ذلك كان من عمل آتيلا — ما لم يكن « إتزل » تركيبا

(١) قصيدة جرمانية عن القرون الوسطى كونت من مصادر أقدم منها وتتحدث عن ملوك ورمس وما حولها وعلاقاتهم بآتيلا . (المترجم)

مزجياً لاسمى آتيلا وآئتيوس) ، ومن ثم أقامت البقية الباقية منهم بإقليم ساڤويا . ومن سخريات القدر ، أن آئتيوس هو الذى التقى بغزوة آتيلا فى (٤٥١) ، وتمكن بمساعدة القوط الغربيين من تحويل وجهتها ثانية إلى وادى المورياك — وبعد ثلاث سنوات طعنه ڤالنتنيان الثالث فى قاعة المجلس . ثم تم القضاء على بيت ثيودوسيوس بمقتل ڤالنتيان نفسه فى السنة التالية .

والآن بلغت الأمور آخر مداها . فجلس على العرش فى مدى عشرين عاماً ما لا يقل عن تسعة أباطرة ضعاف ، ينصبهم ويخلعهم « سادة الجند »(*) ريكيمر وخلفاؤه . فيهاجم الوندال إيطاليا دون أن يمسهم قصاص ، ويستولون على روما نفسها ويطلقون فيها أيديهم انتهاباً . ويضمحل كل أثر لسلطات الرومان فى غالة وأسبانيا بعد اغتيال الإمبراطور ماچوريان الذى أظهر من بالغ الكفاية ما لم يقره ريكيمر صاحب الفضل فى إجلاسه على العرش . ومنحهم أودواكر أحد زعماء مرتزقة الچرمان المحالفين بإيطاليا ، ما طلبوه من الحصول على مستوطنات فوق الأراضى الإيطالية ، كما فعل غيرهم من البرابرة بإقليمى غالة وأسبانيا ، فأعلنوه ملكا عليهم فى (٤٧٦) . وكانت نتيجة ذلك أنه أغفل رومولوس أوغسطولوس الإمبراطور الطفل الذى عينه سلفه (وذلك لأن نيپوس الحاكم الشرعى ، الذى اعترف به الشطر الشرقى للإمبراطورية ، كان قد فر إلى دالماتيا قبل ذلك بعامين) . وظل أودواكر حتى مجىء ثيودوريك يحكم إيطاليا مثلما حكمها ريكيمر ، غير أنه حدث بعد وفاة نيبوس فى (٤٨٠) أن السيد والإمبراطور الدستورى للبلاد لم يعد ملكا ضعيفاً يقيم بروما أو راڤنا ، بل صار الإمبراطور الذى يقيم بالقسطنطينية ، الذى كان أودواكر يعمل فى خدمته نائباً ملكياً من الناحية النظرية .

(*) يقال للواحد منهم سيد الجند أو مقدم الجند . (المترجم)

الشطر الشرقى

ومن الغريب أن تاريخ الشطر الشرقى للإمبراطورية الرومانية فى القرن الخامس ، يسير موازيا لتاريخ النصف الغربى . بل إن الأزمات فى الشرق تزيد – فيما يبدو – شدة وخطورة ؛ بيد أن الدولة تتغلب عليها بنجاح . وسنعمد الآن إلى تقصى أوجه التباين بين الشقين الشرقى والغربى . ففى (٤٠٠) بلغ نفوذ الجرمان بالقسطنطينية أقصى ذروته . إذ أمكن التخلص من روفينوس الوالى البرايتورى والخصى يوتروپيوس كبير الحجاب . فأضحى الحزب الرومانى رغم مساندة الإمبراطورة يودوكسيا عاجزاً لاحول له ولا قوة . وهنا انتقلت مقاليد السلطان إلى يد جائناس « سيد الجند » المتبربر ؛ وكانت جنده تعسكر داخل العاصمة ؛ وربما انتعشت آمال استيليكو فى تلك اللحظة ، سيما وقد كان يتبع سياسة مماثلة لسياسة جائناس ومتفقة معها تماماً . ولكن العواصف والرعود كانت تملأ رحاب الجو . فإن جند القوط كانوا من الوقحاء ، وأنكى من ذلك وأشد نذيراً بالشبور أنهم كانوا من الأريوسيين المراطقة . ولم تلبث العاصفة أن هبت فى إحدى ليالى الصيف . إذ حدث بالمدينةشجار صاخب ، لم يلبث أن انتشر فى كل أرجائها . وأغلقت البوابات وطارد السكان الجنود وأعملوا فيهم الذبح ، أو أحرقوهم أحياء بالكنيسة التى لجأوا إليها . وفى تلك الليلة انقصمت قوة الجرمان إلى الأبد . وبعد ذلك ببضع سنوات تحرك إلى الغرب خطر القوط الغربيين بعد أن ظل منذ معركة أدرنة كغمامة قتماء تظلل البلقان ، تحرك غرباً عندما وجه ألاريك خطواته نحو إيطاليا .

وتولى العرش بعد أركاديوس وهونوريوس أميران لا يقلان عنهما ضعفاً وعجزاً ، هما ثيودوسيوس الثانى وڤالنتنيان الثالث . وانغمس بلاط الشطر الشرقى ، بتوجيه الحشد الكبير الذى يعمره من النساء ، فى النزاع المذهبى بين القسطنطينية والإسكندرية ، وهى معركة ضخمة لما يترتب عليها من عواقب سياسية[١] — وحوالى ذلك العهد اشتد ضغط الهون على الشرق أكثر منه على الغرب ؛ فأعملوا فى ولايات الشرق نهباً وتخريباً ، وأبهظوا سكانه بفادح الضرائب المدمرة ليحصلوا على المقررات المالية المطلوبة . ثم عاد الخطر فانحرف للمرة الثانية غرباً ، ثم تلاشى عقب وفاة آتيلا . بيد أن انقراض أسرة ثيودوسيوس تلاه ظهور أباطرة على جانب كبير من الكفاية (فى الشرق) ؛ على أن تدارك الموقف فى الغرب كان أوانه فات . فلم يستطع ماچوريان أن يفعل شيئاً إزاء وجود بربرى مثل ريكيمر . أما فى الشرق ، فإن ما اجتمع فى أيدى سادة الجند من سلطة خطيرة ، قد تعرض لعوائق عديدة . فما كان لأمثال استيليكو أو آتيوس من سلطة مطلقة على جميع الموارد العسكرية بالبلاد : الجيش الدائم وقوات الثغور على السواء ، لم يكن أمراً تجيزه القسطنطينية[٢] بأية حال . وكان تهديد الوندال لإيطاليا من الخلف يزيد من اعتمادها على جيوشها ؛ ولم تتعرض القسطنطينية لمثل هذا الخطر الداهم . فلما تجدد ظهور الخطر الجرمانى ، اكتشف الإمبراطور ليو (لاوون) وخلفاؤه من القوى المضادة الفعالة ما يرده ويكبح جماحه .

وكل ما كان يطمع فيه عادة سيد الجند من البرابرة هو أن يتزوج أميرة من البيت الإمبراطورى . وبلغ تلك الغاية أسپار القائد الآلانى القوى ،

---

(١) انظر ص ٧٠ بعنوان العداء بين القسطنطينية والاسكندرية .

(٢) انظر التذييل ١ .

الذى دبر عند وفاة الإمبراطور مرقيان (٤٥٧) تنصيب صنيعته ليو على العرش الإمبراطورى وأجبره بعد مصانعة طويلة للظروف ، أن يزوج ابنته من ابن أسبار ، راجياً بذلك أن يخلفه على العرش الإمبراطورى . ولكن ليو كانت لديه خطط أخرى قد دبرها . إذ استدعى إلى العاصمة فصائل قوية من الإيسوريين ، وهم عنصر جبلى شديد المراس من أحد أقاليم أسيا الصغرى ، فأضحى قائدهم تاراسيكوديسا (وهو الاسم الأصلى لزينون إمبراطور المستقبل) « سيداً آخر للجند » إلى جانب أسبار ، وتزوج من ابنة ثانية للإمبراطور ليو . وتألف حرس خاص جديد للإمبراطور ، معظمه من الإيسوريين وبذلك قام جهاز يصلح لتدبير انقلاب عسكرى ، غير أن ليو تردد فى استخدامه . وكان نفوذ أسبار يزداد فى تلك الأثناء قوة ، على حين أن الدولة لم تستطع ، وقد أضعفها الإخفاق الباهظ الذى منيت به الحملة البحرية التى سيرت على الوندال (٤٦٨) — أن تقوم بأية مقاومة له . وأخيراً حانت ساعة العمل . فاغتيل أسبار غدراً بإحدى الولائم وتمزقت شيعته بدداً ، على حين أن الحرس الجديد قضى على محاولة قام بها أشياع أسبار للهجوم على القصر (٤٧١). على أن القبائل القوطية التى كان أسبار يعتمد عليها كانت تملأ تراقيا بما رحبت ، وظلت بقيادة زعيمها ثيودوريك استرابون[١] تواصل على الدوام تهديد العاصمة . وكان الإيسوريون طائفة مكروهة من الناس ، وعندما عمد حزب البلاط بمساندة جند ثيودوريك ، إلى إقامة مرشح آخر منافس ، كان لزاماً على زينون ، الذى أصبح وقتذاك إمبراطورا ، أن يفر إلى موطنه إيسوريا . وهنا أيضاً فى القسطنطينية كان العلاج الناجع فى متناول اليد . ذلك أن ثيودوريك الأمالى (الذى أصبح فيما بعد ثيودوريك الأكبر) ،

---

(١) انظر ف ٢ بعنوان : « القوط الشرقيون » .

وهو ملك القوط الشرقيين فى مقدونية ، كان على أتم استعداد لمنافسة سميّه (ثيودوريك استرابون) فيما يتطلع إليه من ألقاب القسطنطينية وأموالها . وبفضل معونته عاد زينون إلى العرش والسلطان ؛ وبتأليب الزعيمين أحدهما على الآخر ، لم تتحقق لأى منهما السيادة ؛ ولم يلبث زينون بعد وفاة ثيودوريك استرابون ، أن دبر أمر إيفاد ثيودوريك الآمالى لفتح إيطاليا[١] .

لقد زال الخطر الجرمانى ؛ ولكن بقيت أخطار أخرى . ذلك أن إيسوريا كانت بؤرة عصيان وفتنة . وظهر البلغار المترحلون فى حوض الدانوب الأدنى . وأخذت النزعات القومية تنمو ويصلب عودها بأرمينية وسورية ومصر . وأخذ العرب يغيرون على التخوم الشرقية والبلميون[٢] (Blemmyes) على الأطراف الجنوبيــة . وقد شل قراصنة الوندال حركة التجارة فى البحر المتوسط . ولكن هذه لم تكن إلا صعاباً هينة . ولم تعد فارس مصدر متاعب للإمبراطورية لانشغالها بغزوات الهون . على حين أن نفوذ البرابرة داخل الإمبراطورية قد كبح تماما . وبذا لم تبرح الإمبراطورية قائمة عند نهاية القرن .

كلوفيس وفتح غالة

ولم تنقض سنوات كثيرة حتى حاول المتحالفون فى غالة بسط حدودهم[٣] . فإن القوط الغربيين نزلاء أكيتانيا ، الذين أحبط ماچوريان محاولاتهم الاستيلاء على ساحل الريڤييرا المظيم القدر ، حولوا وجهتهم إلى أسبانيا ، ولم يلبثوا حتى

---

(١) من شاء تفصيل هذه الأحداث فلينظر للمترجم . « الحضارة البيزنطية » تأليف رانسيمان (الألف كتاب) (المترجم)

(٢) البلميون . قبائل تسكن جنوب مصر . (المترجم)

(٣) انظر ف ٢ القسم المعنون « البرابرة فى فرنسا وأسبانيا » .

احتلوا البلاد كلها عند (٤٧٦) باستثناء إقليم جليقية ، الذى صمد لهم فيه السويف . وحوالى ذلك تعرضت پروڤانس لهجوم قوى . ولما لم تستطع إيطاليا إرسال أية مساعدة ، أصبحت ممتلكات القوط الغربيين بقيادة يوريك فى أقصى اتساع لها ، فامتدت من مضيق جبل طارق إلى مصب اللوار ومن المحيط الأطلسى إلى جبال الألب . وفى تلك الأثناء استولى البرجنديون فى ساڤوى على مدينة ليون ، وصار فى قبضة أيديهم حوض الرون بأكمله من چنيف إلى أڤنيون . وكان جلياً حتى ذلك الحين أن الفرنجة الساليين أدوا واجبهم كجند مرتزقة متحالفين . وكان ممثل روما بشمال غالة شخصية بالغة الغرابة ، تمثل صفات ذلك الزمان . إذ إن آيچيديوس ممثل روما عين فى عهد ماچوريان قائداً للجيوش الرومانية فى غالة . وانقطعت عليه السبل إلى إيطاليا بسبب وجود الممتلكات القوية التابعة للقوط الغربيين والبرجنديين ، فأصبح بذلك حاكماً مستقلا ، ثم خلفه فى هذا الوضع الشاذ ابنه سياجريوس ، الذى اتخذ سواسون عاصمة له . وكان البرابرة يعرفونه باسم ملك الرومان (Rex - Romanorum) — وهى عبارة لا معنى لها عند الرومان . وكان شلدريك وهو من رؤساء الفرنجة الساليين أعان القوات الرومانية على اللوار فى صد السكسون المغيرين ورد هجمات القوط الغربيين المتجهة شمالا . وأدرك بوضوح ميزة الاحتفاظ بشمال غالة مفتوحاً أمام زحفه . وفى تلك الأثناء كان الفرنجة الريبواريون ينتشرون على يمين الراين ويساره من مراكزهم فى كولن وماينز .

وفى (٤٨٢) توفى شلدريك ، وخلفه على العرش ابنه كلوڤيس وقد بلغ من العمر ستةعشر عاما . وقد كابدت شخصية هذا العبقرى العجيب شيئاً من

التشويه من كثرة ما رُدِّدت فى ملاحم الساجا التى وضعها المعجبون المعاصرون له . فإنهم عبدوا فيه بطلا صورته أخيلتهم ؛ وبذا صيغ ما اشتهر به الفرنجة من وحشية ومكر وغدر فى أبلغ صورة ممثلا فى شخصية كلوفيس الأسطورية . والراجح أن الصورة هنا أدق من تلك التى دبجها عنه الكاثوليك بوصفه المدافع التقى عن الدين ، الذى يشن حرب الهدى والتقى على الهراطقة والوثنيين . ولكن واحدة منها لا تنصفه . فإن عظمته الكاملة لا تتجلى إلا فيما أنجز من أعمال جليلة ، غيرت وجه بلاد غالة فى أقل من ثلاثين سنة . فلم يعد للالتزامات التى تقيد بها المحالفون أية قيمة ، وكان سياجريوس أول غرض لهجوم المحالفين . وإذ تعرض سياجريوس لهزيمة ساحقة قرب سواسون ، فإنه فر إلى القوط الغربيين ، غير أنهم أسلموه إلى كلوفيس تحت التهديد ، فأمر بإعدامه . وسرعان ما سقط فى يد الفرنجة كل ما يقع من فرنسا شمال نهر اللوار (باستثناء إقليم بريتانى الذى حافظ على استقلاله قبائله الكلتية يعاونها لاجئون رومانيون بريطانيون) . وفى الآونة نفسها ، تمكن كلوفيس باستخدام أساليب القتل والفتح أو المكيدة الحربية من بسط سيادته على سائر الساليين ، وما لبث أن تهيأ له بنفس الوسائل إضافة الفرنجة الريبواريين إلى إمبراطوريته ، ثم دفع الألامان إلى ما وراء الراين بعد قتال مرير .

على أن حادثاً خطيراً وقع قبل إتمام هـذه الأعمال — : وهو تعميد كلوفيس على المذهب الكاثوليكى . وستظهر فيما بعد أهمية هذا الحادث . فمن نتائجه المباشرة أن تحول كل قسيس كاثوليكى بأرض القوط الغربيين أو البرجنديين إلى أداة تعمل على نصرة كلوفيس ، والحصول على تأييد السكان الرومان فى غالة ، وجعله حليفاً مرغوباً فيه من وجهة نظر بيزنطة

ضد حكام الغرب الآريوسيين . وبفضل هذه الميزات ولضعف ألاريك الثانى الذى خلف يوريك على حكم القوط الغربيين ، قام كلوفيس بمهاجمة القوط الغربيين ، وبعد بضع حملات لم يحالفه التوفيق فيها ، استطاع آخر الأمر أن يقهرهم فى معركة ڤوجليه (Vougle) الشهيرة قرب بواتييه (٥٠٧) . فلقى ألاريك مصرعه ، وانتقلت أملاكه بغالة إلى قاهره (كلوفيس) ، وذلك فيما عدا شاطىء الريڤييرا الذى بادر القوط الشرقيون إلى الذود عنه فى الوقت المناسب ، وبذا تمكنوا من الاحتفاظ به لإيطاليا . ومنذ تلك الساعة اقتصر حكم القوط الغربيين على أسبانيا . وكانت آخر ضحايا كلوفيس هى برجنديا ، ولكن فتحها لم يتم إلا بعد عشرين عاما من وفاته فى (٥١١) واستخدمت وسائل كثيرة : منها الحرب الصريحة والارتباط بالمحالفات المبنية على المصاهرة ومساندة الأحزاب والخيانة والغدر والاغتيال . على أن برجنديا التى قامت بدفاع مجيد لم تخضع سنة (٥٣٢)[1] إلا نتيجة لتفوق عدد قوات العدو .

الممالك الجرمانية الرومانية

ولا يخفى أن اتحاد ثقافتين إنما هو عملية بيولوچية ، وأن ما يترتب على مثل هذا الاتحاد من نتائج لا يمكن تحليله بدقة شأنُ خلُق أى شخص وعدم إمكان تفسيره بنظريات مندل . ومع ذلك ، فإن ازدواج الثقافتين كان بالغ الوضوح فى المراحل الأولى . فإن معظم هذه الممالك سقطت قبل تحلل هذا الازدواج بزمن بعيد ، إذ إنه حتى مملكة الفرنجة نفسها لم تستكمل وحدتها التامة إلى أيام شرلمان . وكان الازدواج قطعة من طبيعة الاستيطان نفسه ،

---

(١) انظر ف ٣ القسم المعنون « المؤمرات الكاثوليكية فى فرانسا » .

الذى يعتبر من تراث الجمهورية الرومانية . إذ إن الجند المرابطين بالأقاليم كانوا ينزلون فى بيوت الأهالى ، الذين كانوا يتنازلون لضيوفهم عن نسبة معينة من ممتلكاتهم (هى فى العادة الثلث) . وبمقتضى نظام الضيافة (Hospitium) كان بكل إقليم تقريباً فى القرن الرابع جماعات من الجند المرتزقة المحالفة (وهم محالفون من الناحية النظرية) . والراجح أن القوط والوندال كانوا يعتبرون — فى البداية على الأقل — عند الرومان بكل من إيطاليا وغالة وأسبانيا ضيفاً ثقيلا ومؤقتاً من نفس ذلك النوع . وبذا كان الانقسام حاداً بين الجرمان (البرابرة) والرومان ، فالسكان المدنيون ، فى جانب ، وهم يقومون بالإدارة والزراعة والتجارة ، والجند فى جانب آخر — وهم فى الأغلب من البرابرة المراطقة — لا يخضعـــون إلا لقوانينهم ، وعرفهم ، ولا ينزلون بالمدن ولا يدينون بولاء إلا لزعمائهم .

وكانت الملكية (حكم الملوك) شائعة الانتشار ؛ ولكنها لم تكن من الطراز الرومانى ، الذى تطور عن فكرة أوغسطس « الجمهورية » فقد كان الملك أو الرئيس الجرمانى ينتخب قديماً على يد جمعية الأحرار ، الذين كانوا يرفعونه على ترس ، وبذلك ينادون به زعيما لهم . فالملك ذو الشخصية القوية المنحدر من أسرة شهيرة مثل أسرة آمال أو بالثيد أو ميروفنج ، كان بوسعه أن يتحدى حلقة المقاتلين الأشــداء ، وإذا هو وفق إلى الظفر فى القتال أو الغزو تزداد قوته ونفوذه . فعندما اقتاد ألاريك وجزريك وثيودوريك جماعات من أجناس مختلفة ونفذوا إلى الأراضى الرومانية ، لم يعد حكمهم قومياً ، بل تحول إلى زعامة شخصية تعتمد على أساس عسكرى . وزالت جمعية الأحرار من الوجود ؛ وأخلت الارستقراطية العنصرية المكونة من صغار الزعماء مكانها لطائفة جديدة مؤلفة من النبلاء يقومون بالخدمة فى

الوظائف اجتمعوا حول شخص الملك بوصفهم محافظى قصر (صناجلة Seneschal) أو ماريشالات أو كونستبلات ؛ أو يتولون حكم أقاليم المملكة كالكونتات ، الذين جمعوا فى أيديهم السلطتين المدنية والعسكرية .

ومن الواضح أن هذا النظام البدائى مخالف تماماً لسلم الوظائف عند الرومان ، فمثلا من الجائز أن يعهد إلى رجل البلاط عند الفرنجة القيام بمهام خاصة . على أنه بقى من النظام المالى الرومانى بعض الآثار الجزئية ، حتى بمملكة الوندال نفسها . فبقيت الضرائب غير المباشرة — واستمرت المكوس على الكبارى والمعديات — وبقيت أيضاً رسوم الموانى ونحوها — واستمر السكان الرومان يدفعون ضريبة الدخل ما بقيت سجلات الدولة قائمة . على أن الجرمان لم يفهموا الضرائب المباشرة . ولم يكن نظامهم السياسى يستسيغها ، كما هو ظاهر لنا عند الفرنجة . كان الملك حاكما مطلقاً : وكأن المملكة ملك خاص له يرثها ورثته ؛ وكانت إيراداتها تذهب إلى « خزائنه » . وليس عليه نحو رعاياه واجبات ؛ ولم يكن ثمة من الخدمات العامة ما يجرى الإنفاق عليه . وإذا نظرنا إلى الضرائب فى هذا الضوء تبين أن الضريبة لم تكن إلا ابتزازا غير مشروع ، يتولى جبايتها عادة القوات المسلحة . فإذا كان الملك ممن مست قلبهم التقوى أو أصابه مرض خطير ، التمس منه الأساقفة تخليص روحه من نار جهنم بإحراق سجلات الحسابات .

ومن الآثار الموروثة أيضاً عن نظام الاستضافة ، أن كلا من الجرمان والرومان ظلوا يخضعون لقوانينهم الخاصة[1] . ومع ذلك ، فإن ذلك الوضع

---

(١) انظر الزراعة الفصل الخامس عشر .

المتعب قد خففه التزام الجانبين لشيء من المساهلة والوفاق . ففى ممالك القوط الغربيين والبرجنديين التى اشتد بها الطابع اليونانى ، اقتبست مجاميع القوانين التيوتونية الشيء الكثير من التشريع الرومانى ؛ أما فى مملكة الفرنجة فقد صار القانون السالى المختلف تماما عن القانون الرومانى ، سائداً بالمناطق التى يغلب فى سكانها العنصر التيوتونى .

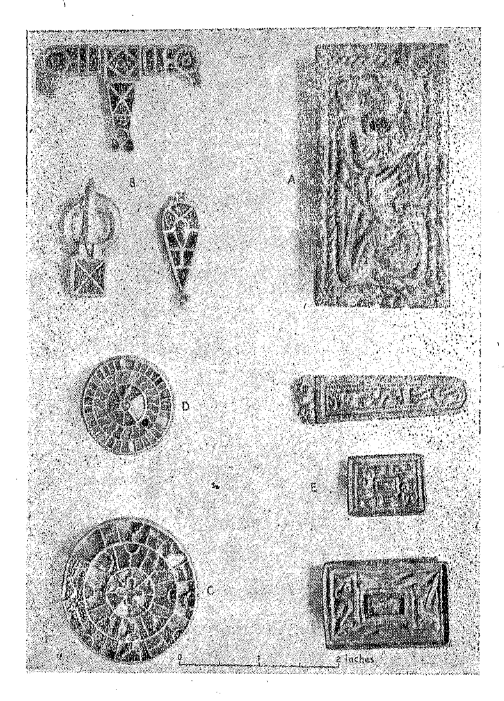
وكان المبدأ الرئيسى فى القانون الجرمانى هو إبطال ما تأصل بين العائلات من عادة الأخذ بالثأر ليحل مكانها ما يكفله الملك من السلام . ولهذه الغاية وضعت قائمة مفصلة بقيم التعويضات . وكان لكل فرد ديته (Wergild) التى تختلف باختلاف سنه ومكانته ، والتى يدفعها قاتله لذوى قرباه . ولكل أصبع ثمنه ؛ وكل جرح يقدر التعويض عنه بغاية الاهتمام . والقانون السالى يمتاز بالشمول والتفصيل ؛ بما خصص به من التفاصيل حول سرقات الماشية أو الخنازير وعمر الحيوان وحالته ، وموضع الحادث وظروفه . ومن الواضح أن هذه التسويات لا علاقة لها بالعقوبة والجزاء ، فلم يكن الغرض منها سوى الحيلولة دون تطور الأمور حتى تصل إلى حد العداوة والمنازعات . ومما يشهد بأهمية الأسرة كوحدة اجتماعية ، ما ورد فى القانون السالى من نص مشهور يقضى بمنع الإناث من وراثة المزارع ؛ وبذا توزع الأرض بين الأبناء فقط بشرط ألا تخرج عن دائرة العائلة .

ومقدار الدية يمدنا بمعلومات ثمينة عن تنظيم المجتمع الفرنجى . فإن دية رجل البلاط ، وهى ٦٠٠ صولدى (Solidi) ، ثلاثة أمثال دية المقاتل الحر ؛ ودية الرومانى الحر (من جميع الطبقات) تعتبر نصف دية الفرنجى الحر ، كما أنها تعادل دية الفرنجى شبه الحر (Laeti) ، وهو من طبقة تقع

بمنزلة وسط بين الأحرار والرقيق، وتقابل من بعض النواحى عند الرومان، طبقة فلاحى الأرض الذين كانت ديتهم مع ذلك أقل من دية الرومان . أما الصناع غير الأحرار والأكثر مهارة مثل الصيّاغ، فتزيد ديتهم على دية سائر العمال . وإن مركز الرومانى فى هذا التصنيف ليدل على انحطاط قدره . بيد أنه كان يستطيع تحسين مركزه بالدخول فى خدمة الملك ، كما فعل كثير من النبلاء الغاليين الرومان (Gallo - Roman) .

فرنسا فى عهد كلوفيس

والراجح أن قوة الغزو الكاملة اقتصرت على بلجيكا وشمال فرنسا . ويقع قلب مملكة الفرنجة شمالى نهر اللوار وشرقه ، ويضم مدن أورليان وباريس وريمز وسواسون وكمبراى وكولن (كولونيا) . وفى إمكان المرء منا أن يتصور ما كان يتناثر فى هذا الصقع من قرى وضياع : وهى مجموعات من بيوت ومخازن منخفضة البنـاء ومسقفة بالقش والقصب ، ومبنية بالخشب وأعواد الشجر والأقذار ، وتفصلهـا سياجات من غصون الأشجار عن الحدائق والبساتين والمروج والأرض المعدة للحرث . والواقع أن جميع ما نعرفه من أنواع اللحوم والفاكهة والخضر كان معروفاً وقتذاك ، كما يتبين من رسالة فى التغذية كتبها لـكلوفيس الطبيب البيزنطى أنثيموس ، الذى أرسله إليه ثيودوريك الـكبير . ومن ألوان الطعام المحبوبة لحم الخنزير والبيض المسلوق طويلا . ولـكن البيض المسلوق لا يحظى باستحسان الطبيب . وهو يرى أن الجبن الطازج غذاء مفيد، على أن ما كان قديماً وجافاً منه ، فليس سوى السم نفسه . ومما تذكره الرسالة السمك والدواجن ولحم الصيد واللحوم المطبوخة مع الخضروات وأنواع المشهيات المصنوعة من النبيذ والشهد ومركبات اللبن



(٥) جواهر البرابرة

ثم الجعــة وشراب العسل . وتقدمت الزراعة . وكان القوم يستخدمون الطواحين التى تديرها الثيران إلى جانب الرحى اليدوية ، كما أن استخدام الطاحون المــائى الرومانى أخذ ينتشر . ولم يكن يجرى بتلك المنطقة إلا قدر ضئيل من التجارة ؛ وكانت الواردات الأجنبية مقصورة على أدوات الترف كمصنوعات العاج والجوهر والقرنفل والفلفل والبلح والتين . وكانت الطبقة الحاكمة تعيش فى معظم الأحوال بالريف ؛ وكان للأساقفة سلطان كبير على سكان الشوارع الضيقة بالمدن المسورة ، وكانوا يؤيدون دولة كاوفيس تأييداً قوياً . وفى مقابل ذلك ظفرت الـكنيسة بالهبات السنية . وشيد كاوفيس وأبناؤه الأديرة فى باريس . وتمكن نيكيتيوس أسقف تريف (Trèves) من اجتلاب العمال الإيطاليين لتعمير الـكنيسة البازيليكة القديمة وإن عمروها تعميراً رديئاً إلى حد ما . على أن أعمدة من الحجر الجيرى حليت تيجانها بما حفر عليها من أشكال وجه الإنسان ، حلت محل أعمدة الجرانيت الـكورنثية ، التى تحطمت عندما أحرق الفرنجة المدينة . ودهنت الجدران لمحاكاة الواجهات الرخامية السابقة . ومع ذلك فإن كنائس أخرى تزخر بالفسيفساء ورقائق الذهب والزجاج الملون . وفى (٤٧٠) أعيد بناء البازيليكة التى كانت تغطى قبر القديس مارتن بمدينة تور ، وهى مركز شهير للحج ، وأقيم بها مكان نصف دائرى لجوقة المرتلين ، نقل طرازه عن مزارات الحج المقدسة فى الشرق كالناووس المقدس ببيت المقدس . ولم يلبث هذا الشكل المعمارى حتى تمخض عن طراز الحنايا (Chevets) بالـكاتدرائيات الرومانسكية والقوطية بفرنسا . وتتجلى أيضاً فى حليات القوط والفرنجة مؤثرات شرقية ، هى مؤثرات الفن اليونانى السرماتى المعروف بشبه جزيرة القرم ، بما فيه من أشكال حيوانية

تتخذ بأسلوب خاص ، ومن الجواهر القاتمة المتلألئة ، أو مكعبات الزجاج المركبة فى مثقبات الذهب . ويدبج لنا سيدونيوس صورة مشرقة لشاب من نبلاء الفرنجة وحاشيته فى ثياب الاحتفالات والأعياد . وهو يشير إلى ستراتهم المخططة اللاصقة بأجسامهم والتى تعلوها عباءات خضراء أرجوانية الحواشى ، ومن فوق هذه معاطف من الجلد ؛ وتبدو ركبهم عارية وقد انتعلوا أحذية من الجلد؛ وتأتلق زخارف خيولهم بما رصعت به من جوهر وهم بحمائلهم وسيوفهم ، وبما يحملون من البلط والحراب والتروس البراقة ذات السرر الذهبيـة والحواشى المفضضة ، يسيرون خلف الأمير الذى ظهر بينهم فى « عباءة قانية الحمرة كلهيب النار وسترة (تونقة) حريرية ناصعة البياض مرصعة بالذهب ، وقد اتسق شعره الأشقر وحذاءاه الحراوان وبشرته البيضاء مع ألوان عتاده وثيابه »[1] .

والمرجع الرئيسى لدينا عن أحوال غالة الجنوبية فى ذلك الزمان هو سيدونيوس أپولينارس ، وهو نبيل من النبلاء الغاليين الرومان (G.R) وسياسى وشاعر ، أصبح فيما بعد أسقف كايرمونت فى أوڤرنيه (Auvergne). والمنظر الذى يصفه سيدونيوس منظر غريب التقت فيه آداب وطباع العصور القديمة والعصور الوسطى . وهو يشير إلى أن قلة من النبلاء قد اعتصمت بالقلاع القائمة فوق الصخور العالية ، بينما ظلت غالبيتهم يعيشون فى دور ريفية ضخمة ، ويقضون نهارهم ، شأنهم أيام هادريان ، داخل مكتباتهم وحماماتهم وفى مزاولة اللعب بالأكر أو فى الصيد أو فى القيام بزيارة الأصدقاء . وكانوا يتناولون طعامهم تحف بهم الأستار الأرجوانية ويعبق الجو من حولهم بنغائم

---

(١) من ترجمة المستر أ . م . دالتون لسيدونيوس .

البخور ، وعلى موائدهم صحاف الفضة الخالصة والكئوس التى تزينها باقات الورود ، ويتلهون بالاستماع إلى نغمات القيثارة والناى ومشاهدة الراقصات الكورنثيات . ويتبادل القوم فيما بينهم رشيق القصائد ورفيع الرسائل ، التى يتجاهلون فيها ماوسعهم الجهد ، وجود البرابرة « المتشحين بالجلود » ، والذين هم يقيمون فى ممالكهم ، على أن انحدار مكانة روما أمر لم يكن خافياً . وربما أمكن المرء أن يهجو سراً أولئك البرجنديين الغلاظ ، أو أن ينكر الآداب المرعية فى بلاط القوط الغربيين ، غير أنه لا بد للفرد فى الحياة العامة أن يبذل لهم كل الملق . بل إن من الناس من تملك قلبه اليأس من روما فأخذت تراوده الأحلام بانفصال غالة عنها ، وجعلوا ثقتهم فى البرجنديين والقوط الغربيين الذين اصطبغوا بالصباغ الرومانى . وتمر أمام أعيننا فى ثروة ضخمة من التفصيل كل طرائق العيش المنوعة فى غالة الجنوبية . فتمر بنا صورة بلاط القوط الغربيين وملكهم الطويل المشوق وصيده وموائده وغرامياته ، وتمر أيضاً أشكال الحياة من سكسونية وهيرولية وفرنجية ؛ وفيها سادة الغاليين الرومان المتأدبون منهم والريفيون والأتقياء ؛ وهناك الأسقف والراهب والتاجر ؛ والكروم والمزارع والخانات والمسافرون واللصوص والسياسة وشعر الحكمة والأمثال والمناظر الطبيعية والمشاهد العائلية . وعلى الرغم من أن سيدونيوس لم يشهد فتوح كاوفيس ، فالراجح استناداً إلى مصادر أخرى أنه لم يترتب عليها تغيرات جذرية . ذلك أن الحضارة الرومانية لم تستأصل من جذورها ، فإن البربرى اقتطف فى إعجاب الطفل الساذج الزهرة الواهنة التى فات أوان زهوتها ؛ وإذا هى تذبل بين أصابعه .

إيطاليا فى زمن ثيودوريك

على أن مملكة ثيودوريك الإيطالية تقف بمعزل عن ممالك غيره من الحكام الجرمان . إذ إنها محاولة فذة لاستخدام نظام للضيافة فى الاحتفاظ بالحضارة الرومانية كاملة غير منقوصة . كتب إلى الإمبراطور أناستاسيوس يقول : « إن مملكتى ليست إلا صورة مطابقة لمملكتك » . غير أنه كان فى الواقع فى وضع مخالف تماماً . إذ إنه لم يكن ملكا إلا على أتباعه من القوط الشرقيين وغيرهم . بينما كان يتولى الحكم على السكان الرومان بإيطاليا بوصفه نائب الإمبراطور الذى يحمل ألقاب « سيد الجند » و « البطريق Patricius » شأن ما فعله من قبل استيليكو أو ريكيمر أو أودواكر . وتجنب ثيودوريك الحصول على إيضاح حول وضعه ذاك ؛ إذ إن ذلك كان ينطوى ضمناً على التسليم بحق الإمبراطور فى الهيمنة عليه بل حتى خلعه ، بوصفه مجرد موظف طارئ . على أنه التزم الناحية النظرية فى كل أعماله . فإنه لم يسك عملة باسمه ؛ كما أن قراراته لم تكن تطبق إلا فى الولايات الإيطالية . إذ لا يجوز لأحد عدا الإمبراطور أن يضع رسمه على السكة ، ولا أن يسن القوانين (Leges) السارية المفعول فى الإمبراطورية . فبقيت الإدارة الرومانية المدنية سليمة لم تمس ؛ ولم يكن فى البلاط صناجلة[1] ولا ماريشالات بل الوالى البرايتورى وكبير الموظفين (Magister officiorum) وغيرهما . وظل مجلس السناتو يعقد جلساته فى روما ويلقى التبجيل من ثيودوريك . وظلت الولايات

---

(١) الصناجلة جمع صنجال وهو ناظر أو حاجب القصر الملكى عند الفرنجة .
[المترجم]

يحكمها ويجبى الضرائب منها موظفون من الرومان . على أن فجوة عميقة كانت تفصل بين القوط والرومان أى بين العسكريين والمدنيين . وكان الزواج بين العنصرين محظوراً . ولم يكن الفريقان يلتقيان إلا عند القمة فى شخص ثيودوريك الذى كان هو نفسه مواطناً رومانياً ، على الرغم من أنه ليس فى وسعه أن ينقل هذا الوضع إلى غيره . وكان القوط خاضعين لكونتات (Comites) الأحياء ، شأنهم فى سائر الممالك الجرمانية الأخرى . واستحدثت وظائف جديدة تتمثل فى الحماة (Saiones) الذين يتولون وقاية الرومان من ظلم القوط وفحص حالات سوء استخدام السلطة مثلما كان يفعل عملاء الإمبراطور (Agentesin rebus)

وإن « مرسوم ثيودوريك » ليعطينا فكرة واضحة عن سياسته . فإنه عبارة عن مجموعة قوانين مستمدة كلها تقريباً من التشريع الرومانى وليس بها إلا مبتكرات ضئيلة . وقد بذلت محاولة خاصة ، كما حدث فى القانون السالى للاستعاضة عن الأخذ بالثأر بالالتجاء إلى الطرق القانونية . ويحافظ المرسوم على المركز الممتاز لملاك الأرض ، غير أنه انطوى أيضاً على تدابير لمنع الظلم الواقع على صغار الفلاحين (Coloni) . وقد صدرت قوانين صارمة لمناهضة الاختطاف وهى تعد دليلا على قلة الأيدى العاملة . على أن الطبقات الدنيا أفادت بطريق غير مباشر ، لا بفضل الأمن والسلام اللذين أفاءهما حكم ثيودوريك القوى فحسب (يقول معاصر معجب به : « لم تكن بوابات المدن تغلق قط ») ؛ بل بالإضافة إلى لائحة الأسواق الدقيقة التى أصدرها وضبط أسعار المواد الغذائية . ولحرصه على أن تكون مؤونة الجيش رخيصة الأسعار ، منع ملاك الأراضى من الاستغلال فزاد انخفاض الأسعار . وكان الغرض العام من المرسوم المحافظة على القديم . فليس وراءه أية نظرية يقوم عليها ، إذ الهدف الأول

والأخير منه الاحتفاظ بالحضارة الرومانية إلى الأبد ، ثابتة دون تغيير ، وآمنة داخل حلقة الحراب القوطية .

وكان ثيودوريك سعيد الحظ بمادحه كاسيودورس ، الذى يعرض سياسة سيده فى عبارات ملتوية ، وهى وإن كانت تنطوى فى تكلف على فخامة اللفظ والحذلقة ، فإنها تعلو أحياناً إلى مرتبة الفصاحة الحقة ، ويتجلى فيها دائماً روح كريمة شريفة . على أن التدابير التى اتخذها تفصح عن نفسها . فإن الضرائب أُجلت ، وافتدى المواطنون الرومان من قبضة المغيرين البرجنديين . وحصنت قلاع الحدود . وجددت الأسوار وسقايات المياه ودور التياترات[1] بروما ورافنا وفيرونا . وحرصت الحكومة على ما اختصت به العاصمة من حق المجانية فى الحصول على الخبز ومشاهدة السيرك . وقام فى رافنا قصر فخم وكنائس عديدة ومقبرة فخمة ، وكان بلاط ثيودوريك فى رافنا مركزاً لحكومة قوية . وكانت أيضاً وسيطاً ينقل الثقافة إلى الممالك الجرمانية ، أو على الأقل ، بعض مظاهر المدنية وألاعيبها . فقد تلقى ملك برجندية ساعة مائية ، على حين حصل كلوفيس على موسيقار وطبيب بيزنطى مع التحيات المناسبة . وانطلق شعراء كثيرون من إيطاليا يلتمسون حظهم عند ملوك غالة . وظهرت نهضة أدبية صغيرة . وكانت ميلان من مراكز تلك النهضة ، وازدهرت فيها مدارس النحو واللغة تحت رعاية الأسقف لورانس فكان يؤمها الصبيان من كل صقع حتى من غالة . فهنا وفى ميلان ورافنا كان الرومان أمثال كاسيودورس وإنوديوس يؤيدون حكم القوط . ولم يلق حكم القوط معارضة إلا فى روما .

---

(١) التياترات : التياترو لفظة أقرها مجمع اللغة العربية ولهذا أوردها بمعجمه الوسيط . وهى هنا تدل على المدرج العظيم الذى كان يجتمع فيه الرومان لشهود الحفلات . (المترجم)

فإن المدارس الشهيرة بالعاصمة بما تهيأ لها من تقاليد عريقة وأساتذة موفورى المرتبات ، كانت تعتبر المعقل الحصين للأسرات السناتورية العريقة وموئل التراث القديم . وكان لكثير من هذه العائلات صلات بالقسطنطينية ؛ ثم أخذ ثيودوريك فيما بعد يرتاب فيما يجرى فى تلك الناحية من مؤامرات على الحكم الآريوسى والقوطى .

ويعتبر بوئيثيوس أعظم الرجال فى إيطاليا زمن القوط الشرقيين ، وهو من تلك الشخصيات النادرة الذين يجمعون فى أنفسهم كل معارف زمانهم . فهو عالم وفيلسوف ولاهوتى وشاعر ، وقد أصبح قنصلا وهو فى الثلاثين من عمره ، وأدى خدمات هامة لثيودوريك . ولكن لعله يمثل عصره حق التمثيل بذلك التناقض بين ظاهر مركزه وحقيقة ذلك المركز . ففى تلك القصيدة المترعة بالحقد التى جعل عنوانها «عن بوئيثيوس وتقلده السيف» أظهر إنوديوس التناقض العميق بين ما كان للحزب الرومانى «من مزاعم ضخمة خيالية» وما كان جارياً فعلا من تفوق القوط فى السلاح ، على أن بوئيثيوس فى كتاباته — رغم تفوقه فى الفنون الأربعة الحرة[1] — واعتباره الشارح الصادق لأرسطوطاليس وفرفوريوس ، وميله إلى التعاريف والصفات المميزة وكونه من رجال اللاهوت البارعين — لايبدو أنه «آخر الرومان» وإنما هو النموذج الأول للعلماء والمدرسانيين[2] فى القرون الوسطى . وترجم الملك ألفريد إلى الإنجليزية

---

(١) الفنون الأربعة الحرة : (Quadrivium) هى فى التربية بالقرون الوسطى فروع الرياضيات الأربعة : الهندسة والحساب والفلك والموسيقى . (المترجم)

(٢) العلماء المدرسانيون (Schoolmen) : هم فلاسفة العصور الوسطى أو علماء اللاهوت بها ، والمدرسانية مصطلح وضعه المترجم للدلالة على هذا النوع من الفلسفة . (المترجم)

أشهر أعماله وهو الكتاب المعروف باسم السلوى الفلسفية« Philosophiae Consolatio » وكان أثره قوياً فى فكر العصور الوسطى كأى كتاب آخر . وقد صنفه بوئيثيوس وهو فى سجنه . وأدرك ثيودوريك أن مسارعة ، النبلاء إلى قبول مراسيم الإمبراطور چستين المناهضة للأريوسية ، سوف تدمر كل ما قام به فى حياته من عمل . فأمر — وقد أفقده المرض والشكوك توازنه العقلى — بإعدام بوئيثيوس مع إنزال التعذيب القاسى به . واعتبره الكاثوليك شهيداً ، وإن كان الأخلق به أن يسمى بشهيد قضية السناتوريين. ويرجع ذلك إلى ما كان من الخصومة بين حزب الڤاتيكان بمن انحاز إليه من رجال القانون من العامة (البلبيان) ، الذين أخذوا وقتئذ فى وضع الأساليب والطرائق التى اشتهر بها بعد ذلك المجلس البابوى ، وبين الدائرة الصغيرة من الأسر النبيلة المستمسكة بحكم نشأتها وتربيتها بمثل عليا أقدم عهداً وأشد تهذيباً . .

وتنقسم سياسة ثيودوريك الخارجية إلى فترتين ؛ ويعتبر ظهور كلوڤيس حداً فاصلا بين هاتين الفترتين . فكانت خطته أول الأمر أن يطمئن إلى سلامة التخوم الإيطالية بإبرام سلسلة من المحالفات مع الممالك الجرمانية الواقعة إلى الغرب منه . ذلك أن تلك الدول الآريوسية البربرية تشترك جميعاً فى نوع المشاكل المتعلقة برعاياها من الرومان المستمسكين بالعقيدة السلفية ،والمتصلة بعلاقاتها بالإمبراطور (البيزنطى) السيد الأعلى اسمياً . وكان هدف ثيودوريك أن يقيم توازناً للقوى بين هؤلاء الحكام،وأن يقوم بدور الوسيط بينهم وبين القسطنطينية . وبهذه الوسيلة استطاع أن يكفل لنفسه الزعامة على الممالك الجرمانية ، وأن يجعل نفسه نافعاً للإمبراطور . وكان يرجو من وراء ذلك أن

يكوّن مقاومة قوية لأية فكرة لاسترداد إيطاليا (Reconquista) تراود عقول رجال الدين أو الإمبراطور فى بيزنطة . (فإنه لم ينس سقوط سلفه أو اودوا كر) . ووفقاً لهذه الخطة تزوج ثيودوريك من شقيقة كلوفيس ؛ وزوجت إحدى بناته من ألاريك الثانى ملك القوط الغربيين ، وتزوجت أختها من سجسموند أمير برجنديا . وتزوجت أخته من ثراسامند ملك الوندال ، وبذلك أزال الخطر من جنوب إيطاليا . أما إقليم الدانوب الذى يصح أن تجتازه الجيوش البيزنطية فقد أمنه طرد الچيبيد من سرميوم المركز الاستراتيجى العام .

وتحطم الصرح المعقد بأكمله بضربة واحدة ، يوم انتصر كلوفيس والبرجنديون فى (٥٠٧) على جيوش القوط الغربيين فى وقعة فوجليه[١] . وعندئذ لم تعد هناك أية جدوى من كل ما اتخذه ثيودوريك من وسائل لتحذير ألاريك مما يحدق به من خطر ، ولعزل برجنديا الدولة الحاجزة . وهنا علت فى غالة كلمة دولة كاثوليكية كبرى تؤيدها القسطنطينية فيما يبدو ، وكانت إسفينا يمتد بين الدول الآريوسية المذهب . وكان لابد بأى ثمن من منعها من الوصول إلى البحر المتوسط . وذلك بأن يزحف ثيودوريك على غالة ، وينتزع إقليم پروڤانس من البرجنديين . ويجعل نفسه قيما على حفيده القوطى وارث عرش أسبانيا . وتُعقد محالفات جديدة مع الثورنجيين ، وهم الجيران الأقوياء للفرنجة ، ومع الهيرول على الدانوب . وتُحصن قلاع الألب . وتحل محل سياسة التوفيق بين المصالح المختلفة سياسة الصدام بين الدول . على أن هذه التدابير ، لم تصب — فيما يبدو — شيئاً من النجاح هى الأخرى . وتوفى كلوفيس فى (٥١١) ؛

---

(١) انظر : « المماليك الرومانية الجرمانية ف ٣ » .

وعلى الرغم من أن العلاقات مع القسطنطينية كانت تتغير بلا انقطاع تبعاً لتغير مزاعم البابا ودعاويه ، ولما كان من الخلافات المذهبية ومؤامرات السناتو والمطامع الإمبراطورية ، فإن تلك العلاقات لم تلبث — فيما يبدو — أن استقامت حينما تولى چستين سنة (٥١٨) العرش عقب أناستاسيوس . وكانت لثيودوريك ابنة أخرى هي أما لاسونثا زوّجها من يوثاريك ، وهو قوطى يجرى فى عروقه الدم الملكى ، ثم بدا كأنما تأكدت له وراثة الملك يوم تبناه چستين رسمياً وأصبح زميلا له فى منصب القنصلية . ويختم كاسيودورس تاريخه بذكر الحفلات البهيجة التى أقيمت فى روما احتفالا بهذا الحادث . ولكن الجو تلبد وآذن بالإعصار قبل وفاة ثيودوريك . فقد تولى العرش فى برجنديا أمير كاثوليكى ، فأصبحت بذلك خاضعة لسلطان كلوڤيس ، وأخذت تتفاوض مع بيزنطة تقدم إليها مودتها . وأخذ يوم الصراع بين القوط الشرقيين والفرنجة يزداد قرباً كلما اشتد ضعف الدولة الحاجزة . وفى تلك الأثناء أصبح الهيرول جنداً مرتزقة محالفين للإمبراطورية ، وأخذوا يهددون الحدود الشمالية الشرقية . أما الوندال ، وهم من أخطر الأعداء ، فقد أظهروا عداوتهم وكراهيتهم لثيودوريك . والآن وقد اندمل الانشقاق بين روما والقسطنطينية ، فإن البابا والنبلاء أصبحوا عند ذاك يداً واحدة فى تأييدهم للإمبراطور . وأصبحت أيام الحكم القوطى الشرقى معدودة ، ومن ثم لم يعد لما اتخذه ثيودوريك من إجراءات صارمة للقضاء على كل مناهضة لحكومته من أثر سوى أن أضافت إلى ثيودوريك بطل الچرمان فى ملحمة ديترتش (Dietrich) ، صورة أخرى وردت فى الحكايات الشعبية الرومانية وسير القديسين لشخصية ثيودوريك الظالم المضطهد البشع الذى تراءت له فى ساعة نزعه الأخير ضحاياه ، وألقت به أيديهم الثائرة فى نار جهنم البركانية .

الآريوسية الجرمانية

حدث بعد (٣٤٠) أن أولفيلاس تمكن من هداية بعض القوط الساكنين عند مصب الدانوب إلى اعتناق المسيحية ، وكان أجداده قد نزحوا من قبادوقيا فى إحدى الغارات وأكسبه عمله الكبير لقب « رسول القوط » . وقد ترجم الكتاب المقدس إلى لغتهم ، ولكنه أسقط من الترجمة سفر الملوك ، إذ رأى أن قصص حروب العبرانيين قد تبلغ من الإثارة مالا يحتمله هؤلاء القوم المعروفون بشدة الحمية . ولقد لقى أولفيلاس فى البداية مقاومة عارمة ، ولعل ذلك يعود إلى عرضه المسيحية فى صورة العقيدة المسالمة ، بيد أن الإنجيل لم يلبث أن انتشر بسرعة ، وانتقل غرباً مع القبائل الغازية إلى إيطاليا وغالة وأسبانيا وإفريقية . وكان أولفيلاس أريوسى المذهب ، وأصبحت هذه الهرطقة هى الصورة العامة للمسيحية الجرمانية ، على الرغم من أنها كادت تتوارى من الإمبراطورية نهائياً . وكانت النتائج السياسية لهذه الحقيقة بالغة الأهمية ؛ إذ إنها دقت بين الرومانى والبرابرة إسفينا أقوى وأعمق من العنصر والثقافة ، والواقع أن مذهب آريوس الذى أصبح يطابق وقتئذ المدنية الجرمانية ، — تعرض لتغيرات عديدة . إذ إن هذا المذهب ظهر أول الأمر على أنه خلاف لاهوتى . ولم يلبث أن تطور فى أرض البرابرة إلى كراهية للاعتقاديات (Dogma) زاد فى أوارها — دون أدنى ريب — عجز الجرمان عن فهم أسلوب اليونان فى التحايل الفكرى الحاذق الذى كان فى حد ذاته ثمرة تقاليد فى الفلسفة الجدلية لا يقل عمرها عن ألف سنة ؛ وهذا البغض للاعتقاديات يعتبر عودة إلى التعاليم البسيطة التى كانت سائدة قبل مجمع نيقية . ولم يقتصر الأمر على نقل الكتب المنزلة إلى اللسان القوطى ؛ بل تجاوزه

إلى حد ما إلى الصلوات بالكنيسة . والراجح أن تنظيم الكنائس الأريوسية ، وهي المنقطعة الصلة بالنفوذ الكاثوليكي لاتهامها بالزندقة ، فضلا عن فارق الجنس ، — قد تأثر بالعرف الجرماني ، على حين أن انعزال الكنائس المستقلة إنما يرجع إلى ضغط العرف الدستوري . وعلى غرار النظام الإداري للأقاليم في داخل الإمبراطورية ، قام سلم وظائف الكنيسة الكاثوليكية المؤلف من البطارقة والأساقفة . ولعل ما تبقى من آثار الروابط الوثنية القديمة بين القبائل والكهانات المحلية كان له أثر قوي في تحويل الكنائس الآريوسية بكل مملكة من الممالك الجرمانية إلى كنيسة قومية لا تتجاوز دائرتها حدود قومها وتخضع لنفوذ ملكها ويشتد حرصها على تقاليدها القومية .

وكان الرعايا الكاثوليك لدى ملوك الجرمان يلقون تسامحاً كبيراً في المعاملة؛ فلم يكن ثمة ما يدعو للقيام بمحاولة منظمة لحملهم على اعتناق المذهب الآريوسي، وذلك بسبب الانفصال التام بين الجرمان والرومان . إذ كان الإحساس الذي ساد الجميع هو أن عقيدة الرجل هي عقيدة أمته ؛ وإن كلمة ثيودوريك في هذا الشأن لمعروفة مشهورة حيث يقول : « نحن لا نستطيع فرض دين على أحد ؛ فلا ينبغي إجبار أي إنسان على الإيمان بشيء يناقض إرادته » . ومع ذلك فمن العسير الفصل بين الدين والسياسة ، ومن ثم فإن جميع ما كان يتخذ من إجراءات القمع في كل الممالك الجرمانية كان يستند إلى ما كان الرومان يبذلونه من محاولات للائتمار مع إخوانهم الكاثوليك داخل المملكة أو خارجها بقصد إعادة الحكم الإمبراطوري ، أو بقصد مساعدة ملك كاثوليكي مثل كلوفيس في فتوحه . على أن الارتياب في وقوع الخيانة والكراهية العنصرية ، طالما شحذت هذه الإجراءات فأحالتها إلى اضطهاد . وظهر بين

الوندال فى إفريقية عامل آخر هو لهيب التعصب الدينى — غير أنه ينبغى لنا ألا نبالغ فى آثار هذه المسألة الأخيرة . ولم يحدث أى اضطهاد دينى مابقى جزريك على قيد الحيـاة ، وإن تمخضت ظروف الفتح الوندالى بطبيعة الحال عن بعض المصاعب . وكاد جزريك أن ينشىء من شعبه نواة مركزية تتجمع حول قرطاجة ، وينبغى أن تحتفظ بالطابع القومى[1] . ومن ثم فإن الرومان المجاورين قد طردوا من ممتلـكاتهم ، التى أصبحت « من نصيب الوندال » ؛ وتقرر أيضاً طرد رجال الدين الـكاثوليك من المنطقة ، لـكى لا تتسرب إليها مؤثرات رومانية ، وانتقلت أملاك الـكنيسة إلى الأريوسيين. ولم يبدأ الاضطهاد المنظم للـكاثوليك إلا فى (٤٨٣) وفى عهد هونريك الابن الممقوت لجزريك ، فنشب أول الأمر بالمنطقـة المحيطة بقرطاجنة ، ثم انتشرت المملـكة بأ كملها ، وعلى الرغم من شدته فإنه انتهى بموت الملك فى السنة التالية .

المؤامرات الـكاثوليكية فى فرنسا

لم يكن القوط الغربيون يضعون فى اعتبارهم سوى نقطة الخلاف السياسى. إذ إن ملـكهم يوريك ـ وهو يبسط نفوذه على أوڤرنيه ـ وجد أن من الضرورى أن يأمر باعتقال سيدونيوس أسقف كليرمونت وزعيم الأرستقراطية الغالية الرومانية ؛ غير أن الاعتقال لم يكن بالغ الشدة ، ويظهر أن أشد ما كان يضايقه هو هذر عجوزين شمطاوين تحت نافذة سجنه ، وكان يمتد خلف

---

(١) ومن قبيل هذه المراكز تجمعات قوط أودواكر وثيودوريك حول رافنا وفيرونا (وديتريتش البرنى فى الملحمة هو ثيودوريك الفيرونى) ومدن شمال إيطاليا ؛ وتجمع الفرنجة فى شمال شرق فرنسا والسويف فى جاليكيا .

الغزاة أثر طويل مما ينبعث من الكنائس المحترقة من الدخان وما ينمو فى الهيا كل المخربة من الأعشاب ، غير أن السكان الرومان فى غالة وسائر الجهات ، لم يتعرضوا للأذى بعد أول هجوم عليهم سواء من الفرنجة أو القوط. على أن ظهور كلوفيس ، وهو چرمانى كاثوليكى غير وضع الأمور كلها . ذلك أن المقاومة الكامنة الناشبة بين الآريوسيين والكاثوليك فى المملكتين الكبريين للقوط الغربيين والبرجنديين ، أصبحت وقتذاك جلية لاتخطئها العين . إذ اجتمعت فى الكاثوليكية كل تقاليد روما وحضارتها . كانت الكاثوليكية قوة دولية ، وكانت الحلقة الأخيرة مع عواصم الإمبراطورية ، التى يرأسها كثير من عائلات غالة السناتورية[1] ، وهى التى تتولى تخفيف ويلات المجاعة أو الفقر . وإزاء هذا الوضع وهذه المعارضة ، لم يكن بوسع الكنائس القومية الآريوسية التابعة لأقلية حاكمة من البرابرة ، بما طبعت عليه من روح چرمانية ونظام مركزى ، أن يكون لها فى آخر الأمر السيادة .

وقام رجال الدين الكاثوليكى بكل من مملكتى القوط الغربيين والبرجنديين بمؤامرات متماثلة قصد بها العمل على زيادة بسط سلطات الفرنجة . فإن قيصريوس (Caesarius) أسقف آرل وهو من رجال العلم والسياسة ، قام بدور كبير فى الأحداث التى تركزت حول حصار آرل المشهور بمن فيها من حامية من القوط الغربيين ، وذلك بفضل القوات المشتركة من البرجنديين والفرنجة . على أن الأسقف تعرض للنفى فترة من الزمن ، لاتهامه بمحاولة خيانة المدينة وتسليمها لبرجنديا . واستولى القوط الشرقيون فعلا على المدينة ،

---

(١) السناتورية : نسبة إلى مجلس السناتو ورجاله كما هو واضح . (المترجم)

وفشل بذلك قيصريوس فى تحقيق مراده ، حتى إذا انهزم القوط الغربيون قرب ڤوجليه ، لم تعد مسألة اعتراف فرنسا بأجمعها بسيادة كلوڤيس عليها إلا مسألة وقت . وفى برجنديا ، كان يشغل أهم كرسى أسقفى بها ديبلوماسى عظيم هو أڤيتوس من ڤيينا (Avitus of Vienne) . وعلى الرغم من صلته الوثيقة بكلوڤيس ، حرص على توطيد علاقته بجاندوباد ملك برجنديا الذى أحسن معاملته هو والكاثوليك ؛ ولكن أڤيتوس لم يتردد فى العمل لصالح الفرنجة . وذلك لأنه كان يضع مصالح كنيسته فى المقام الأسمى . وربما جاز لنا أن ندلى إليك بالحقائق الأساسية فى هذا الموضوع . فالمعروف أن كلوڤيس حاول أول الأمر فتح برجنديا (٥٠٠) بأن ساند ثورة شقيق جاندوباد ؛ ومن أسباب فشل الثورة تأييد القوط الغربيين لجاندوباد . على أن أڤيتوس كان يستمتع بنفوذ جارف فى البلاط البرجندى ، حيث كان معظم أفراد الأسرة الملكية يعتنقون المذهب الكاثوليكى فعلا ، وحمل جاندوباد على تغيير سياسته من النقيض إلى النقيض ، والانضمام إلى قضية الكاثوليكية الفرنجية ، بأن يتخلى عن الخطة التى سبق لملك القوط الشرقيين ثيودوريك أن اهتم بوضعها ، وتقضى هذه الخطة باتخاذ المصاهرة أساساً لعقد محالفات بين الممالك الجرمانية الأريوسية . وكانت تلك هى النقطة الحاسمة فى سقوط برجنديا . ذلك أن الفرنجة والبرجنديين اشتركوا فى تقويض مملكة القوط الغربيين فى معركة ڤوجليه ؛ ولكن برجنديا التى اتخذت أداة ما عتمت أن فقدت كل ما اكتسبته من أراض نتيجة لتدخل ثيودوريك الذى كان بيده ساحل الريڤييرا[1] ، على حين أن الفرنجة أقدموا فى خسة ودناءة على اقتسام الغنائم

---

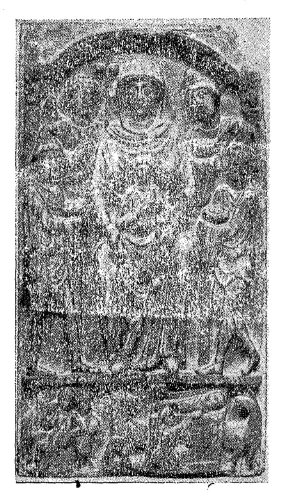
(١) انظر : « القوط والرومان ف ٣ » .

مع القوط الشرقيين . وفى عهد سجسموند الملك التقى الضعيف ، اعتنقت برجنديا المذهب الكاثوليكى رسمياً وبذلك صار لأفيتوس وشيعته من رجال الكنيسة أكبر نفوذ . وعندما قتل سجسموند ابنه ، وكانت أمه ابنة أخت ثيودوريك ، حدث شقاق صريح بينه وبين القوط الشرقيين . وبادر الفرنجة إلى اغتنام الفرصة فغزوا برجنديا . وهزم سجسموند ولم ينقذه انسحابه إلى أحد الأديرة من القتل لا هو ولا عائلته . فإن المغيرين قذفوا بهم فى إحدى الآبار . على أن أخاه جودومير نجح فى صد الفرنجة فترة من الزمن ؛ وراح بهمة عظيمة وعزم قوى يعيد تنظيم الجيش ويصلح المالية ، وأوقف المؤامرات الكاثوليكية عند حدها ، بل لقد نجح فى العدول عما انتهجه جاندوباد من اتجاه مدمر فى السياسة البرجندية بأن تحالف مع القوط الشرقيين . ولكن ثيودوريك كان قد مات ، وحلت الاضطرابات بمملكته . وزالت قوة القوط الغربيين من فرنسا ، ولم يعد ثمة مايوقف تقدم الفرنجة . وفى (٥٣٢) عاود خلفاء كلوفيس الهجوم ، ومن ثم سقطت برجنديا بعد أن قاتلت حتى آخر رمق — أمام هجمات الكاثوليك المظفرين . وعندئذ تكلل ما بذله أفيتوس وقيصريوس من جهود بالنجاح بيد أن ما حصل عليه رعاياها من الكاثوليك من امتيازات لم يكن له أثر كبير فى إرجاء تدمير الممالك الآريوسية فى غالة . وبقيت المسألة الكاثوليكية تشغل أذهان حكام القوط الغربيين فى أسبانيا إلى أن وحد ريكاريد (٥٨٦ — ٦٠١) كلمة رعاياه وأمن حدوده باعتناق العقيدة السليمة .

وتوج كلوفيس عمله العظيم فى غالة بإنشاء كنيسة قومية لها ، جمعت بين الميزات السياسية للنظامين الكنسيين الآريوسى والكاثوليكى . إذ خضعت



(٦) ا — صورة آل سياخى
(مدرسة الإسكندرية)



(٦) ب — صورة عبادة المجوس
(المدرسة السورية)

للكنيسة لسلطة الملك ، وكان سلم وظائف كهنوتها على اختلاف درجاته عوناً عظيما لحكمه ؛ وكانت حدود السلطة الكنسية تطابق حدود مملكته تمام المطابقة ؛ ولم تكن مطرانية آرل تحظى إلا بمكانة شرفية على الرغم من الاعتراف بها كممثلة للكرسي البابوى . وفى الحين نفسه تأكدت مزايا الاتصال بروما وبيزنطة ؛ ولم يعد ثمة ما يدعو إلى الخوف من المؤامرات الكاثوليكية ؛ ومن الاعتبارات الهامة أن كلوفيس لم يعد يخشى — شأن غيره من حكام الجرمان الوندال — من أن تطمس الشخصية القومية للجرمان تحت كثرة السكان الرومان الذين يفوقونهم فى العدد والحضارة . إذ كان بنو جلدته من الفرنجة بشمال اللوار موفورى العدد جداً ؛ كما أن أعداداً ضخمة من التيوتون كانت تنزل قريباً منه فيما وراء الراين ، وحصلت مملكة كلوفيس بإخضاعها الألامان على طابع جرمانى فتحقق بذلك التوازن مع السكان الغالبين الرومان فى البلاد التى فتحها أخيراً .

ثيودوريك والكنيسة

على أن علاقة ثيودوريك برعاياه الكاثوليك عادت عليها أحوال البابوية بالتعقيد والضرر، ولاسيما الانشقاقان الخارجى والداخلى، اللذان أثرا فى اتجاهه نحو الرومان والقسطنطينية . وعلى الجملة وقع التنازع بين ثلاث دعاوٍ متصارعة ؛ الدعوى الأولى تتعلق بما يزعمه البابا لنفسه من الصدارة على الكراسى الرسولية ؛ وأن يكون المرجع الأخير فى كل ما يتعلق بالاعتقاديات (Dogma)، أما الدعوى الثانية ، فتتصل بما يطلبه البطريرك البيزنطى من المساواة مع روما والأسبقية على سائر البطريركيات فى الشرق ؛ والدعوى الثالثة والأخيرة هى

أن يكون للإمبراطور على الجميع السيادة العامة الشاملة . ولم يكن مفر من حدوث الاحتكاك بين الادعاءات الثلاثة ، ولم يكن مفر من أن يؤدى الاحتكاك إلى الانشقاق بين روما والقسطنطينية ، الذى امتد من (٤٨١ إلى ٥١٨) . ومن الطبيعى أن يشجع ثيودوريك هذا الصدع الذى منحه تأييد البابوية . وزاد نفوذه قوة عندما تمخضت الانتخابات البابوية عن ظهور مرشحين متنافسين ، التمس كل منهما المساندة من الملك الآريوسى . ولعل سيماخوس ، الذى كان عدواً للوفاق مع بيزنطة لم يظفر بالنجاح فى الانتخاب لكرسى البابوية إلا بفضل ثيودوريك، على الرغم من أن الانتخاب من الناحية الرسمية كان حراً . والواقع بعد ذلك أن ما حظيت به الكنيسة من الحرية زمن ثيودوريك يفوق إلى حد كبير ما نالته فى عهد كلوفيس أو چستنيان .

وقد اتحد البابا والسناتو لمناهضة بيزنطة طوال حكم الإمبراطور أناستاسيوس المارق (٤٩١ — ٥١٨) . وترتب على ارتقاء چستين العرش فى (٥١٨) وعودة حزب العقيدة السلفية السليمة إلى تولى مقاليد السلطة ، أن قامت بروما حركة تدعو إلى عودة الوفاق مع ثيودوريك . إذ إن مصالح البابا والسناتو والقوط الشرقيين ، لم تبرح واحدة ومتطابقة ، وذلك لأن ثيودوريك كان يطمع فى أن تعترف بيزنطة بابنه يوثاريك خلفاً له فى السيادة على إيطاليا بعد أن طال رفض أناستاسيوس الاعتراف به ، وبذلك يزداد مركزه قوة . وما لبث ثيودوريك حتى حصل على هذا الاعتراف المنشود فى الوقت المناسب، وبذلك انتهى الانشقاق . ومع ذلك لم تتحسن الأمور . فلم يلبث يوثاريك أن مات بعد فترة قصيرة . وجدد چستين التدابير لمناهضة الهراطقة الآريوسيين — وهى ضربة مباشرة سددت إلى المملكة القوطية . وبات التقارب بين نبلاء

روما وبين بيزنطة شيئاً يكرهه ثيودوريك . وطفحت السنوات الأخيرة من حكمه بالشكوك التي ساورته والقساوات التي بدرت منه ، على الرغم من أنه لم يجر أي اضطهاد منظم للرومان أو للكاثوليك باستثناء ما كان من إعدام سيّماخوس[1] بوئيثيوس عضوى السناتو .

(١) يجب التمييز بين سيماخوس هذا الذى كان صهراً لبوئيثيوس وبين أسقف روما الذى كان يحمل الاسم عينه (سيماخوس) كما يجب تمييزه أيضاً من سيماخوس عضو السناتو فى القرن الرابع وزعيم المعارضة الوثنية ونصير القديس أوغسطين ، وصديق أمبروز .

القسم الثاني

انتصار جنكيزخان

الفصل الرابع

القسطنطينية

كان ميدان الأوجستيوم هو سرة القسطنطينية ، وهو ميدان رحيب مرصوف بالرخام ، لا بد أنه فى شكله العام كان يماثل ميدان القديس ماركو (Piazza San Marco) بالبندقية . وكانت تعلو فى جانبه الشمالى قبة كنيسة القديسة صوفيا ؛ وكانت تقوم فى شرقيه أطواق[1] دار السناتو المعمدة ، أما البناء المنخفض الذى يقع إلى الجنوب منه واشتهر بأبوابه الثقيلة المصنوعة من الحديد ، فيعتبر المدخل المؤدى إلى القصر الإمبراطورى ، ويقع وراءه الجدار السامق للمقصورة الإمبراطورية ، وهو بناء كانت طوابقه العليا التى تطل على ميدان السباق فى الجهة المقابلة ، تكوّن المقصورة الملكية للإمبراطور ، وتتصل مباشرة بمبانى القصر بأروقة وسلم حلزونى . وفى الميدان يقع – بالإضافة إلى الصوة[2] ، وهى بناء معقود تبدأ منه جميع الطرق الإمبراطورية ، – عمود باسق من البرونز يحمل فوق هامته تمثالا شامخاً لجستنيان فى هيئة فارس فى عدته الحربية ، وقد أمسك بيده الكرة الأرضية ، وامتدت يده نحو الشرق ، كأنما يأمر البرابرة بآسيا بألا يتخطوا حدودهم . وكان « الميزى Mese » أو الشارع الرئيسى الذى تحف جانبيه السقائف والتماثيل والقصور الفاخرة

---

(١) ورد فى معجم الوسيط ما نصه الطاق ما عطف وجعل كالقوس من الأبنية وجمعها أطواق وطيقان . (المترجم)

(٢) الصوة كما ورد فى المعجم الوسيط : ما انصب من الحجارة ليستدل به على الطريق والجمع صوى وأصواء . (المترجم)

يمتد من ذلك الميدان نحو الغرب على امتداد شبه الجزيرة إلى الباب الذهبى ، وهو مدخل محصن وفق الطراز الرومانى يقوم فى الأسوار الضخمة التى تجتاز البرزخ .

ولو نظرنا من ناحية البوسفور إلى ذلك النطاق الضخم الممتد حول القصر ، الذى يضم المنحدرات بين ميدان الأوجستيوم والشاطىء ، لوجد مرصعاً بمجموعات من القباب المذهبة والجواسق البيضاء والحمامات والشرفات والبيع (الكنائس) التى قامت بين الأشجار والنافورات وربط بينها مجاميع من درج الرخام .

وكان المدخل الرئيسى المؤدى إلى القصر يفضى من الأوجستيوم إلى قاعة عظيمة ذات قبة ، مزينة بالفسيفساءات التى توضح حروب جستنيان وانتصاراته فى المعارك . ومن خلف تلك القاعة تقع غرفة العرش ، وكانت بعض السلالم تؤدى من هذه الغرفة إلى قصر دافنى ، بغرفاته وشرفاته الطلقة الهواء التى تطل عبر المياه الزرقاء على قمم جبال بيثينيا التى تكسوها الثلوج .

على أن قصورا إمبراطورية أخرى ، قامت لا فى هذا الحى وحده بل فى خارج المدينة وعلى الشاطىء الأسيوى .

وكانت مجموعة المبانى المؤلفة من القصر والميدان والكاتدرائية وميدان السباق تعتبر نقطة البداية ، لما حفلت به حياة العاصمة من مواكب وأزمات . فإذا كان عيد رأس السنة ، وكان الإمبراطور تنازل فقبل منصب القنصلية ، ازدانت واجهات المنازل بالطنافس ، ورفرفت الرايات الحريرية على ساريا‌تها ، وغص الميدان بالمنصات الخشبية ، وازدحم بجموع نقابات المدينة وأحزاب السيرك . وفى داخل القصر كان الإمبراطور يتلقى آيات الولاء من

مجلس السناتو . ويستمع إلى مدائح الخطباء ، وفى مقابل ذلك ينفحهم بسلال مملوءة بقطع الذهب وكئوس من الفضة أو يمنحهم لوحات العاج (Diptychs) التى تحمل رسمه . ثم تنفرج بوابات القصر عن المنادين الذين يتقدمون الموكب الطويل المؤلف من الموظفين ورجال البلاط والحرس يسيرون صفوفاً عبر الميدان إلى الكاتدرائية ، وهناك يقدم الإمبراطور ـ بين أنوار الشموع الكثيرة ـ هباته على الهيكل المرتفع ، ويتلقى البركات وذلك قبل أن يمضى ، بموكب النصر إلى الكابيتول . وهذا الاحتفال لم يكن إلا واحداً من احتفالات كثيرة مماثلة . غير أنها ما كانت تقتصر على البلاط وحده ، مثلما كان يحدث فى مجلسه من الإنعام بالرتب أو الترقيات أو لاستقبال أمراء القوقاز أو الهيرول، أو تلقى المبعوثين والسفارات من فارس والحبشة . وعندئذ كانت المواسم البيزنطية تظهر فى أبهى صور فخامتها . وكانت الجماعات الصغيرة من الأجانب الذين كان يرشدهم موظفون دائمون معينون لذلك الغرض ، يسيرون وئيداً بين صفوف من الجند طوال القامة ، كأنها صفوف متراصة من التروس والخوذات المذهبة والريشات الأرجوانية والحراب اللألاءة ، حتى يبلغوا آخر الأمر الأبواب العاجية لغرفة الدخول . وتعقب ذلك فترة انتظار طويلة . وعلى حين بغتة ترفع الستور وتكشف للأعين منصة بالغة الروعة — يتجلى فيها الإمبراطور جالساً على عرشه بين النسرين يحيط به حراس فى ملابس بيضاء لها ياقات مذهبة ، وقد جلس حوله أعضاء السناتو وعلية الموظفين فى أرديتهم الحريرية . وبعد أن ينبطح السفراء على الأرض ثلاثاً ، يسمح لكبيرهم أن يقدم هداياه للإمبراطور قبل أن يأذن له بالانصراف فى كلمات كريمة . ويلقى السفراء طوال مدة مقامهم إكراماً بالغ الحد ، ويعرض على أنظارهم بغاية الاهتمام كل ما فى المدينة من مناظر شديدة الروعة .

ميدان السباق

وإذا كانت كنيسة القديسة صوفيا — كما قال بعضهم — ملكا لله وكان القصر للإمبراطور ، فإن ميدان السباق كان ملكا خالصاً للشعب إذ كان ميدان السباق محور الحياة البيزنطية ، نظراً لأن اتجاهه كان يحدد اتجاه كل من فى الكنيسة والقصر . فهنا كان الناس يعبرون عما تبقى للشعب الرومانى من حريات بما ينبعث من صيحات أحزاب السيرك ، وهى تطلب من الحاكم رفع المظالم أو إسقاط وزير مكروه من الشعب ، وفى هذا الملعب كان وندال إفريقية المنهزمون ، يساقون فى أرجائه بين تهاليل الظفر ، ويرغمون على السجود بين يدى الإمبراطور ، على حين تهتز جنبات حلبة السوق بالتهاليل وأناشيد النصر . وهنا أيضاً كان يحدث بين الفينة والفينة تنفيذ حكم الإعدام فى أعداء الدولة أو التنكيل بهم .

وكانت المنطقة الوسطى من ميدان السباق يقسمها فى الوسط صف من المسلات والعمد ، كان يرتفع حولها مقاعد رخامية بيضاء وتتسع لأكثر من ٦٠٫٠٠٠ مشاهد . وفى الطرف البعيد من الميدان انتصب بناء ضخم منحن فوق سقائف مقامة على أعمدة ضخمة فوق المنحدرات الدنيا . وفى منتصف الواجهة الجنوبية الطويلة قامت المقصورة ، وهى المبنى المرتفع الذى يدلف إليه الإمبراطور من قصره ، وهو أشبه بمرساة بارزة يطل منها على الحشد الثائر من السكان دون أن يخشى شيئاً . إذ كانت المقصورة الإمبراطورية وما يلحق بها من حجرات ، من الارتفاع بحيث لا تبلغها قذفات الحجارة

ولا تتعرض لهجـوم الجماهير[١] . وكان يقف تحته فى إحدى الطنف رجال الحرس والموسيقيون . أما خط النهاية الذى كان يعتبر نقطة النهاية والبداية أيضاً للمتسابقين بالعربات ، فيتألف من صف من مقاصير حجرية تحتلها الأسر الأرستقراطية البيزنطية ، وفى أسفل المقاصير غرف تفصل بينها حواجز وتنطلق منها العربات للسباق ، فتدور بشدة عظيمة حول العمود المخروطى — وهى الصرح الأثرى الذى يحدد الطرف الآخر للسباق ، ثم تندفع راجعة على الجانب الآخر من المحور المركزى (Spina) تحت صيحات جموع المشاهدين المائجين .

وحفلت الرحبات الفسيحة والسقائف المحيطة بميدان السباق بالمسلات والتماثيل الشهيرة ، المنقولة من روما أو المنتزعة من مدن بلاد اليونان أومصر وآسيا الصغرى والتى كانت تلكم الآثار تعتبر فى يوم من الأيام من أمجادها التليدة . وكان بعض هذه الآثار من التماثيل الشامخة التى كانت إمبراطورية الروم الشرقية البيزنطية مولعة بها ؛ وكان بعضها من تماثيل أباطرة الرومان فى هيئة الفارس . ومنها ما كان على الطراز الهللينى* فى أنقى صوره ، غير أنه لم يكن منها إلا عدد قليل من إنتاج مثالين كفيدياس وليسيبوس . وكان أهالى القرون الوسطى الميالون إلى الإيمان بالخرافات ينسبون إليها قوى سحرية ، وكانوا يستطلعون أسرار المستقبل فى الرسوم الهيروغليفية المحفورة على الأعمدة المصرية .

وصهر الصليبيون الفرنجة برونز هذه التماثيل لتحويله إلى عملة ؛ على أن

---

(١) ومع ذلك ففى الإمكان الدخول إليها عن طريق ميدان السباق كما تدل على ذلك فتنة نيقا .

* يفرق المؤرخون بين ما هو هللينى أى مرتبط بالإغريق القدماء ولغتهم وفنونهم وبين ما هو هللينستى أى منسوب إلى حضارة اليونان المشوبة بشوائب أجنبية بعد عهد الإسكندر (انظر للمترجم كتاب « الحضارة الهللينستية ») (المترجم)

أحدهم أشفق على تمثال هرقل الذى بدا حالما حزيناً وعلى تمثال هيلين الذى كساه الجمال الوضاء ، « وقد انفرج فمها كالزهرة وبدا كأنما يريد أن يتكلم ، بينما كانت ابتسامتها تسلب روح من يشاهدها . ولكن من ذا الذى كان يستطيع أن يصور عينيها العميقتين ، وتقويس حاجبيها ورشاقة جسمها الممتع الجميل ؟ [١] » .

ومن الطاقات العليا لميدان السباق كانت العين تمتد فوق المياه الصافية لبحر مرمرة فى الجنوب ، المغطاة لجاته بأشرعة سفن قادمة من ثلاث قارات ، ثم تنتقل إلى ما وراء هذه المياه من أحراش آسيا الصغرى وبيوتها الريفية وجبالها البعيدة ؛ وإلى الشرق كانت تقوم قباب القصر وحدائقه المتدرجة ، والمضيق الضيق والكنائس والدور المقامة فى جانبه الأقصى ، كما يشاهد فى الصدر الأوجستيوم الذى تقع فى خلفه قبة القديسة صوفيا الفخمة . وتُرى إلى الشمال الطرقات والميادين وقناطر السقاية وأقواس النصر بالمدينة والسقوف المتلألئة للكنائس التى لا حصر لها والأعمدة البرونزية العالية ذات الأفاريز الحلزونية ، وهى تعلو سطوح البيوت المتراصة ، ومن ثم تقتاد العين أماماً إلى خط الأبراج المربعة والأسوار الضخام والأراضى المترامية .

الخضر والزرق

على أن هذه المناظر الجذابة جميعها لم تكن شيئاً مذكوراً بالقياس إلى النزاع العارم الناشب بين حزبى الخضر والزرق . ذلك أن أحزاب الملعب كانت مما ورثته الدولة عن الإمبراطورية الرومانية القديمة ؛ وأصبحت بكل مدينة كبيرة

---

(١) نيقيتاس من شونز (Chones) ، ٨٦٤ .

من مدن الشرق تمثل أهم حقيقة فى حياة سكانها المشهورين بسرعة الإثارة . وكان كل مواطن عضواً فى أحد الحزبين اللذين اتخذا مقاعدهما فى جانبين متقابلين من ميدان السباق ، وقد اتشحا بالأردية الزرقاء أو الخضراء ، وهما يتضرعان للقديسين بحرارة مبتهلين بالنصر لحزبهم أو يصرخون بالإهانات لخصومهم . فتدفق فى هـذا المجرى العجيب جميع مشاعر الوطنية وكل ما كانت تزخر به المدينة المستقلة من ولاء محلى للجنس والطبقة جميع سموم العداوات التى كانت فى الأيام الخوالى تستثير دم الإغريقى بله جميع العداوات الحزبية . بل تأثر بها كل شيء حتى الفنون نفسها ؛ فكانت التماثيل والشعر تشيد بجمال وجرأة راكبي العربات معبودى الجماهير . وكان غوغاء أنطاكية أو القسطنطينية أقل اهتماماً بانتصارات الجيوش الرومانية فى المعارك الناشبة على الحدود السحيقة منهم بانتصار الخضر أو الزرق . ومن العسير علينا تعقب ما ينطوى وراء نضـال الحزبين المتنازعين من خصومة سياسية أو دينية. وكان كل من الجانبين يقذف الآخر دون تمييز بتهم الزندقة والخيانة والسحر أو مجافاة الفضيلة والأخلاق ؛ ولم تـكن تلك التهم سوى المظاهر المتداولة فى حملات السباب البيزنطى . على أن ما ارتبط به كل من حزبى الزرق والخضر بالمدن الـكبيرة بالإمبراطورية من روح الزمالة الماسونية الخطيرة، وما يثيره سباق العربات من الانفعالات الحارة التى قد تصل إلى فتنة مفاجئة ، بل إلى حد الثورة ، جعلت أحزاب السيرك قوة ضخمة فى السياسة . وحفظاً لمصلحة الدولة كان لابد من إجراء تنظيم دقيق لشئونهم . ومن ثم عين على رأس كل حزب عدد كبير من الموظفين ، يتولى انتخابهم هيئة تقابل ما هو معروف الآن بنادى الجوكية ، يتألف من مئات من الأثرياء ، الذين يؤدون من الاشتراكات ما يكفى للإنفاق على مؤسسات التدريب وعلى السباق ، فضلا

عما كان يجرى فى أثناء فترات الاستراحة من تحريش الكلاب بالدببة والألعاب البهلوانية . وكان لهؤلاء الموظفين امتيازات وواجبات خاصة فى مراسم البلاط، ولاسيما يتعلق منها بحفلات عيد ميلاد الإمبراطور وزواجه ، وكانوا مسئولين كذلك عن حفظ النظام فى ميدان السباق . وكان أتباعهم يكوّنون حرس الشرف فى المواكب الرسمية ، كما أن فصائل شرطة جند المدينة ، التى تتولى ضبط الأمن بالعاصمة ، وتقوم بالدفاع عن كل ما يوكل إليهم حراسته من مختلف أجزاء سورها ، كانت وثيقة الصلة بالمنظمات الحزبية . على أن أغرب ظاهرة فى هذه المنظمات جميعاً وإن لم يخل التاريخ من سابقة لها عند الرومان ، هى أن الإمبراطور نفسه كان ينتمى إلى أحد الحزبين ؛ وكانت نتيجة ذلك أن أحد الحزبين كان يلقى الحظوة والإيثار ويسمح له بقتل خصومه أو إرهابهم أو بتكوين جماعات من السفاحين (Mohocks) الذين يختالون بثيابهم العجيبة ويثيرون من الاضطراب ما يجعل المسير فى شوارع المدينة محفوفاً بالخطر ، وعلى حين أنه اجتمع فى الحزب الآخر عند كل أزمة جميع عناصر المعارضة للبيت الحاكم، سواء أكانت معارضة شخصية أم دينية أم عنصرية أم أسْرية ، وهى المعارضة التى تثيرها فيما يبدو البقية الباقية من شرارات الديمقراطية الإغريقية التى كانت تومض فى عالم لا يعرف إلا الاستبداد والحكم المطلق .

وكان أناستاسيوس يؤثر الخضر برعايته ، بيد أن جستين وجستنيان درجا على نقيض ذلك . وعندما كان مركز جستنيان غير وطيد ، مضى فى التحيز لحزب الزرق إلى أبعد الحدود ، بل إن دور العدالة نفسها قد أفسدتها المشاعر الحزبية . حتى إذا اطمأن جستنيان فى مستهل (٥٣٢) على ملكه ، أصدر الأوامر إلى المدن الكبرى بضرورة إخماد كل اضطراب يصدر عن

أىٌّ من الحزبين . وكانت نتيجة ذلك أن أمر والى مدينة بيزنطة بإعدام سبعة من الخضر والزرق ، اتهموا بالقتل فى أحد الاضطرابات التى وقعت حديثاً . ومن سوء الحظ أن حبل المشنقة انقطع مرتين ؛ واستطاع جمع من الساخطين أن ينقذ اثنين من المحكوم عليهم ، وقدم الحزبان الالتماسات إلى الإمبراطور بالعفو . فلما رفض الإمبراطور الطلب ، اتحد الحزبان ، وعندئذ بدأ الخضر والزرق — مستخدمين كلمة السر « اقهر Nika » — الفتنة المعروفة باسم ثورة نيقا .

ثورة نيقا

ولم تنقض بضعة أيام حتى تطورت الحركة متخذة شكلا بالغ الخطورة . فقد أشعلت النار فى المبانى المحيطة بالأوجستيوم . وانحاز إلى الحركة سكان الريف الذين أثارتهم الضرائب الفادحة التى قررت عليهم ، فأصبحت فتنة الأحزاب ثورة شعبية . وطالب الثوار بعزل الوزراء الثلاثة المبغضين إلى الناس . وجزع جستنيان لما حدث من اضطراب فأذعن لمطالب الثوار ، بل إنه ظهر بشخصه فى المقصورة ، وأقسم على الكتب المقدسة بأن يرفع المظالم ويمنح العفو العام ؛ ولكن ذلك جاء بعد فوات الأوان . فانسحب إلى القصر مشيعاً بصيحات الاستهزاء والإهانة ـ ولم تلبث الثورة الشعبية أن تحولت إلى ثورة . ولقى الثائرون تأييداً من كثير من النبلاء الذين كانوا منذ البداية يبغضون بيت جستين حديث النعمة ، وتُوج ابن أخ لأناستاسيوس إمبراطوراً رغم إرادته ، واقتادته إلى المقصورة الجماهير الثائرة التى هرعت إلى ميدان السباق . أما الإمبراطور الحقيقى وهو جستنيان ، فصار محصوراً فى قصره وأضحى مركزه فى حرج . وكانت الشكوك تخيم على ولاء أعضاء

السناتو باستثناء من كان منهم من صنائع الإمبراطور وأصدقائه ؛ وكان الحرس في تردد ، فلم يكن الإمبراطور يستطيع أن يركن إلا إلى أتباعه الخصوصيين وإلى الجند من البرابرة الذين يخضعون لاثنين من قواده . فبادر جستنيان إلى عقد مجلس عاجل واستعد للفرار . على أن الموقف لم ينقذه إلا ثيودورا التي كان لخطابها الشهير رنين الصدق والإخلاص — رغم ما أضفاه عليه بروكوبيوس من طابع ثوسيديدس ، إذ قالت : « على الرغم من أن السلامة لن تتحقق إلا بالفرار فلن أركن إليه . وذلك أن من يلبسون التاج ينبغي ألا يعيشوا بعد أن يفقدوه . ولا أحب أن أعيش حتى أرى اليوم الذي لا يهتف فيه الرجال باسمي إمبراطورة لهم . فانج بنفسك إن شئت يا قيصر ، فإن لديك المال ؛ والسفن في انتظارك ؛ والبحر خال من كل حرس . أما أنا فإني باقية هنا . عملا بالمثل القديم القائل بأن الرداء الأرجواني هو كفن جميل » .

وتلى ذلك اتخاذ تدابير صارمة . وتقرر رشوة الزرق ليتخلوا عن الخضر ؛ وفي تلك الأثناء شق القائدان المواليان للإمبراطور طريقهما إلى ميدان السباق عنوة من أبواب مختلفة ، وأعقب ذلك إجراء مذبحة رهيبة . ولم تتوقف المذبحة إلا عند حلول الليل ، وأسفرت عن مصرع ما يزيد على ثلاثين ألفاً في ميدان السباق .

ولم يلبث إبناء إخوة أناستاسيوس التعساء — أن لقوا مصرعهم ، إذ بلغ من خوف جستنيان منهم أنه لم يبق على حياتهم ، وتقرر نفي عدد كبير من النبلاء . وكانت التدابير التي اتخذت — وإن خلت من روح الانتقام — كافية لضمان عدم تكرار ما من شأنه أن يفضي بأعضاء السناتو وبأحزاب السيرك إلى القيام بالأعمال التي أوشكت أن تحرم الإمبراطور من عرشه . وعلى حين

أن مركز الإمبراطور توطد فعلا وزاد قوة ، فقد قامت على أنقاض الحى المهدم الممتد فيما بين سوق قسطنطين إلى أبواب القصر ، مجموعة من العمائر الرائعة تتوجها كنيسة القديسة صوفيا ، التى تعتبر ، مع مجموعة القوانين التشريعية التى تحمل اسمه ، أبقى ما خلده چستنيان من آثار .

كنيسة القديسة صوفيا

وإن كنيسة القديسة صوفيا ، أى كنيسة الحكمة المقدسة ، قد اعترف بها منذ ذلك الحين أنها « أجمل كنيسة فى العالم كله » على حد قول السيرچون ماندفيل . وقد أشاد بوصفها بروكوپيوس فى فقرة رصينة ، كما أن بولس المعروف باسم داعية السكوت ، وهو من رجال البلاط والشعراء البارزين ، استطاع فى قصيدته التى ألفها ، بمناسبة ما قام به چستنيان من افتتاح مبنى الكنيسة من جديد والتى امتزج فيها الخيال الشعرى والتفاصيل المعمارية الدقيقة ، أن يعرض صورة رائعة للكنيسة ، وأهم ما انعكس لديه عن بنائها من طابع وأثر ، وما امتازت به من الرقة والخفة البالغة الحد . فتراءت قبتها كأنما هى مدلاة من السماء ، إذ ترابط فى الهواء — فى شكل يبعث على الدهشة — كل أجزائها ، وقد تدلى كل جزء من الآخر وارتكز على الأجزاء التالية . وهذا التأثير أظهرته فى الواقع تلك القباب التى لم تكتمل استدارتها، والتى استندت عليها من الشرق والغرب القبة الوسطى الكبيرة ، وما اجتمع لها من تناسب وتناسق رائع بين كل ذلك ، وزاد فى هذا التأثير ما كان ينفذ إلى الكنيسة من ضياء الشمس وما يصدر من إشعاع هادئ عن الرخام المتعدد الألوان الذى كان يكسو الجدران والأرض . ويجتاز الداخل إليها أقبية تحيط بها ينابيع

وسقائف مقامة على أعمدة . فإذا تجاوز الداخل غرفة القربان المزدوجة بأبوابها التسعة ، تجلى أمام ناظريه طول المبنى بأكمله ، أما الساحة المربعة الوسطى التى ارتكزت قبتها على أربعة أعمدة ضخمة انتصبت كأنها حائط صخرى قائم ، فيحف بها على الجانبين بهوان من الأعمدة من طابقين ومن خلفهما ارتصت مقاعد أعضاء البلاط ، بينما اتخذت النساء مقاعدهن فى الطابق العلوى . ووراء هذا المتسع كان يقوم منبر القراءة ، وهو يقف كجزيرة من العاج والفضة وسط بحر دوار من الرخام المجزع بخطوط خضراء يانعة أو حمراء قانية ، وقد انتثرت عليه النجوم الذهبية أو تطايرت عليه جداول بيضاء كاللبن على سواد براق ، أو كأنها « مثل زهرة الترنجان الأزرق النابت وسط العشب ، الذى ينتثر عليه هنا وهناك شذرات من الثلج الأبيض » . ويتألف الطرف الشرقى من ثلاث حنايا ؛ احتوت الحنية المتوسطة على الهيكل الذى يحجبه حاجز الأيقونات الفضي الضخم ، الذى انتصبت عليه تماثيل الشهداء والملائكة بأجنحتهم ، وقد أحنوا رءوسهم . وكان المذبح من الذهب الخالص تتدلى فوقه أسجاف حريرية تحمل صوراً أو رسوماً ، وما يعلو المذبح من مظلة هرمية الشكل ، وما يقع خلفه من منابر منحنية معدة للبطريرك ورجال الدين كانت تلتمع بالفضة المكفتة أبدع تكفيت وأتقنه . وفى الليل كانت مئات المصابيح المعطرة التى انتظمت ثريات ، أو التى صيغت بشكل سفن أو تيجان من الفضة، تضيء كل جزء من أجزاء الكنيسة ، بل يسطع ضياؤها خلال فتحات القبة فتؤلف مشعلا يسترشد به الملاح الذى يجتاز التيارات المعاكسة فى البوسفور « وقد استبد به القلق وهو يتوقع — وقد شدت أطناب ساريته — هبوب عاصفة من إفريقية » .

وبلغ فن العمارة المسيحى الذروة فى كنيسة القديسة صوفيا ؛ فما اشتهر به الشرق من لاهوت تجريدى ، تجسد فى الحجر . « فما من أحد يدخل الكنيسة للتعبد ، حتى يدرك أن هذا البناء الرائع لم يبلغ الاكتمال بقوة الإنسان أو مهارته بل بفضل من الله وتوفيقه . هناك يرتقى العقل سمواً حتى يتصل بالذات الإلهية . وقد أحس أنه (جلت قدرته) لا يمكن أن يكون بعيداً عن تلك الدار ، بل كان لا بد أن يؤثر بوجه خاص أن ينزل المكان الذى اجتباه » .

أصول الفن المسيحى

وكما أن قبة تلك « الكنيسة الكبرى » التى تحلق عالية كأنها « برج شامخ » يمتد فى كبد السماء ويشرف على المدينة من عَلٍ فإن الكنيسة نفسها فاقت فى الأهمية كل ما ظهر حتى ذلك الزمان من كنائس لاحصر لها . ومنها كنيسة الرسل المقدسين بما حوت من قبور الأباطرة ، والتى لم تقل كثيراً عن كنيسة القديسة صوفيا فى وفرة ما حوت من الزخارف ، كما أن أهميتها ترجع إلى أنها كانت النموذج الذى اتخذته كنيسة القديس مرقس بمدينة البندقية . ففى كل أرجاء الإمبراطورية ، كانت تشاد المبانى من جميع الأوصاف ، واشتهر كثير منها بتصميمات أصيلة أخاذة — ومن هذه العمائر السقايات والصهاريج بإقليم الجزيرة ، ومنها الجسور المشيدة من الحجارة عند التقاء الطرق بآسيا الصغرى فوق الجداول التى احتفرتها السيول المتدفقة من الجبال ، ومنها الحمامات والنافورات فى سورية ، ومنها القلاع الضخمة على أطراف إفريقية ، ومنها الأديرة المسوّرة فوق جبل سيناء ، ومنها الكنائس المنبثة حول أرجاء البحر المتوسط ، وعلى امتداد شواطىء بحر الأدرياتى إلى بارنزو ورافنا . وتسلط فن العمارة البيزنطى فى أثناء القرن التالى بكل مكان

حتى بلغ روما ذاتها ، وبينما يمكن مشاهدة ذلك الفن ابتداء من قباب بريجو (Périgueux) إلى عقود كنائس كييف المقببة (Cupola) ، ومن آخن حاضرة مُلك شرلمان إلى واحات مصر العليا ، فإن مؤثراتها الزخرفية وطريقةعرضها للأحداث والشخصيات المقدسة ، قد ازدادت اتساعاً وانتشاراً حتى بلغت إرلندة ونورنمبريا وألمانيا ، فيما جرى حمله إليها من التحف العاجية والمنسوجات والصور والرسوم الصغيرة .

كانت أصول الفن المسيحى على الدوام موضع جدال حاد لا يخلو من التحيز الدينى أو الوطنى . إذ إن المسألة اتخذت فى الآونة الأخيرة شكلا جديداً . فقد أغفل ما كان سائداً من قبل من المقابلة بين الشرق والغرب ، وتغيرت طرق معالجة المسائل بسبب المادة الضخمة التى توافرت ووضعت تحت الفحص والموازنة والمقارنة . وعلى الجملة ، لم يعد أحد يعد التغيرات التى حدثت فى تلك القرون طوفاناً جالباً للكوارث يجترف أمامه كل ما على الأرض من معالم ، بل ينظر إليها على أنها روافد وتيارات عديدة متشابكة فى مجرى مائى متواصل المسير لا تقاس أهميته إلا بقوة الدفع الذى تنطلق به الروافد والتيارات من خلال قنواتها جميعاً . ولا شك أن أشكال الفن المسيحى ، فضلا عن روحه إنما ترجع مصادرها إلى الشرق ؛ ولكن لم تكن هذه هى المرة الأولى التى يظهر فيها التأثير الشرقى . فقد دأب كل من نهر النيل ونهر العاصى على صب مياههما فى نهر التيبر منذ عدة قرون خلت . فإن الإسكندرية ، وهى مركز التقاليد الهللينستية فى التشكيل والزخرفة والرسم المثالى لهيئة الإنسان ، كانت على سبيل المثال ، المنبع الأصلى لما انعكس فى المقابر الرومانية القديمة من زخرفة . أما أنطاكية التى تمثل أسلوب الساميين الواقعى الذى يسانده ما كان لمثالى بابل وآشور من تقاليد عظيمة ، فقد علا نجمها وبرّزت بعد أن

صارت المسيحية ديناً رسمياً للدولة وأصاب الفن المسيحى من التغيير ما يجعله يوافق الأحوال الجديدة . فما تجلى فى جصيات (Frescoes) المقابر الرومانية من البساطة فى إظهار الفرح والحزن ، وما كان من رسوم آلهة الحب المتلاعبة وصور المتوسلين والمرساة والسمكة واليمامة ورموز الميلاد الجديد الأورفية ، كل ذلك حل مكانه ما اقترن بالمناظر التاريخية والعقائدية من رهبة وعظمة . فلم يعد المسيح فتى يونانياً رشيقاً ، ولا راعياً يحمل شاة ، بل صار ملكا مؤلهاً قديساً يحكم بلاطه الشرقى من ثنايا السحاب ، واتخذ صورة حزينة لرجل سامى ذى لحية يسهم فى آلام من لا حصر لهم من الشهداء الذين رسمت حكاياتهم بأوفى تفصيل على جدران الكنائس الباسيليكة[١] . وقد كان لعمائر قسطنطين الدائمة الصيت ، لاسيما ماشيد منها فى بيت المقدس أثر فعال فى كل من بناء وزخرفة الكنائس التى كانت تنشأ بكل إقليم من أقاليم الدولة ، كما أن المنمنمات (Miniatures) والتحف العاجية وتذكارات الحجاج قد نشرت فى كل أرجاء الغرب الطرز والأشكال (الرسوم) التى تصور على سبيل المثال مختلف الرسل وأيام الخليقة أو نواحى التماثل بين العهد القديم والعهد الجديد فى الكتاب المقدس — وهى المادة التى يتكون منها فن العصور الوسطى .

المؤثرات الأسيوية

ويكمن وراء هذين المؤثرين التوأمين : مؤثرى أنطاكية والإسكندرية ، مؤثر ثالث أقدم منهما عهداً وأكثر غرابة ، ويرجع الفضل العظيم فى إظهار أهميته إلى استرزجوفسكى (Strzgowski) ، ويتمثل فيما كان لثقافات آسيا

---

(١) الكنائس الباسيليكة (Basilicas) كنائس فاخرة كانت تتخذ من دور المحاكم القديمة فى العهد الرومانى . انظر الحضارة البيزنطية . (المترجم)

البدوية من تقاليد واسعة الانتشار بما لها من أشكال سطحية ومن تصميمات شكلية لعساليج الكرم والزهور والحيوانات ، وما تتصف به من صفة تجريدية لاتمثيلية (أى لاتهدف إلى تصوير الأشياء) . وكما أن البدو الرحل الذين كانوا يظهرون بغتة من سهوب آسيا التى لم تتغير على كرقرون التاريخ ، قد خلفوا طابعهم فى الأقطار التى اجتاحوها ، فكذلك كان مؤثرهم الفنى قوياً محسوساً على يد الإسكيذيين والأتراك والعرب ' على أن تأثيره امتد فى ذلك الوقت[١] خاصة عن طريق شمال فارس ، فانتقل قوياً إلى أرمينية ، التى تعتبر من أقدم كراسى المسيحية ، والتى اشتهرت بما ازدهر بها من الأسقفيات والكنائس والأديرة . وتأثر الفن السورى والقبطى أعمق التأثر بهذه الأشكال الأسيوية ، وعن طريقهما تأثر الغرب ؛ غير أن هذه المؤثرات الأسيوية اتخذت طرقاً أخرى للوصول إلى الغرب مباشرة . فالمعروف أن القوط أقاموا بسهوب جنوب الروسيا زمناً طويلا يكفى لأن يتذوقوا فيه ما ذاع رسمه عند الإيرانيين من أشكال الجواهر والحلى المتشابكة ،التى نشروها فى أثناء هجراتهم التالية فى شمال إيطاليا وغرب ألمانيا وفرنسا وأسبانيا ، حيث انتشر الطراز بين القوط الغربيين فضلا عن الميروفنچيين واللومبارديين ، ومن الأمثلة الدالة على أثره تلك الحيوانات الغريبة التى تتبدى فى بعض النحاتت الرومانسية . ولعل الشكل التجريدى لذلك الطراز استهوى أذواق الشماليين المتقاربة مثلما حدث بإرلندة التى كان يعوزها فن الأشكال المنحوتة ، إذ لم يلبث دخول المسيحية أن أعقبه ظهور أساليب فنية زخرفية شرقية ، امتزجت بما

---

(١) على أن فن التصوير الساسانى الذائع بجنوب إيران مشتق من مصارد عراقية (أرض الجزيرة) وهلليلستية .

فى الأنماط الـكلتية من أشكال القواقع الحلزونية والأبواق ، وتألف من ذلك ما اشتهر به كتاب المشبكات من تصميمات معقدة .

والفنان الإيرانى حينما يتخذ صور أشكال الناس والحيوان والنبات ، لا يستخدمها إلا على أنها أجزاء مكونة لرسم زخرفى كما هو الحال فى سجادة عجمية . وكانت رسومه مسطحة ليس بها شىء من إدراك التشكيل أو المنظور ، لا فى التصوير ولا فى النحت. فتقدير الأبعاد كان يجرى تمثيله بجعل الأشكال فى مناطق إحداها فوق الأخرى ، وكانت الألوان الزاهية توضع بعضها إلى جوار بعض دون تدريج فى قوة اللون . وكان المثل الأعلى عنده هو الحرص على بقاء النمط المستمر ، الذى تظهره الألوان المتقابلة ، أو تعاقب الضوء والظل ، لاخطة متسقة تهدى النظر إلى بؤرة متوسطة . وهذه الخصائص ذاتها ، شاعت أيضاً فى فن الإسكيذيين وفن الشعوب التركية والمغولية . وإذا نحن نظرنا إلى التغيرات التى طرأت على الفن المسيحى ووازنا بين الباسيليكات الرومانية الباردة ، وسطوحها العارية وبنائها المنظم النسق ، ونقوشها البارزة الناطقة التشكيل وتيجانها الغائرة الحفر ، وبين ما كان فى هذا الزمن من الـكنائس الجزلة الوهاجة والفسيفساء والجصيات (الفريسكوهات) الزاهية الألوان ، وأشكال الشهداء جادة التقاطيع ، وما كسا كلّ سطح من رسوم عربية وحليات مخرمة، أو زخارف رخامية، أو تيجان اتخذت كتلها شكل «الدانتلا» المتجمدة، فلن يكون من العسير علينا دون الالتجاء إلى الإشارة إلى شواهد الأشكال المعمارية وإلى التحف العاجية والمنمنمات ، أن ندرك أهمية هذا المظهر الثالث للفن البيزنطى .

التجارة البيزنطية

ولا شك أن اسم الفن « البيزنطى » له كل ما يبرره ، وذلك لأن المدينة العظيمة (القسطنطينية) كانت فى ذلك الأوان ملتقى كل هـذه المؤثرات وبوتقتها . وهى أيضاً مركز التجارة . « فإلى موانيها كانت تقلع كل السفن المشحونة بتجارة العالم يحدوها الأمل فى الربح ، بل إن الرياح نفسها كانت تعمل على جلب التجارة لملء أيدى سكانها بالثروات ».[1] فكانت الفراء والجلود تأتى إليها من جنوب الروسيا وحوض الدانوب ؛ ولـكن الشرق كان المورد الذى تستمد منه ثرواتها الرئيسية . فـكان البلاط والطبقات العليا تستهلك مقادير ضخمة من الجرائر والتوابل وأخشاب العطور ؛ كما أن بيزنطة أصبحت فى نظر الغرب مدينة ترف سحرى عجيب عندما كان الإمبراطور يرسل هباته من المنسوجات الحريرية والجواهر الثمينة إلى ملوك البرابرة وكنائسهم .

وكان ثمة طريقان رئيسيان بين الشرق الأقصى والبحر المتوسط . فأقدمهما عهداً وأقصرها ، هو الذى استخدمته القوافل فى عبور الصحارى الـكبرى بآسيا الوسطى ، وبعد أن تجتاز سمرقند وبخارى وواحات بلاد الصُّغد تبلغ الحدود الفارسية فى مائة وخمسين يوماً . وبعد رحلة تستغرق ثمانين يوماً أخرى عبر فارس تبلغ القوافل نصيبين (Nisibis) وهى مدينة تقع على الأطراف الرومانية . فأما الطريق الآخر الذى أمعن القوم فى استخدامه منذ ١٦٠ للميلاد ، فهو الطريق البحرى . وكانت جزيرة سيلان (سرنديب) هى السوق المركزية الـكبرى ، التى يرد إليها ـ بحرا ـ الحرير والقطن وعود الند والفلفل

---

(١) انظر بولس داعية الصمت ، ٢ ، ص ٢٣٢ — ٢٣٥ .

والقرنفل وخشب الصندل من الصين والملايو وجزر الهند الشرقية . ومن هذه النقطة (سيلان) اتخذت التجارة إلى الغرب طريقين بحريين . أولهما — وهو أهمهما — كان يتخذ طريق الخليج الفارسى إلى مصبي دجلة والفرات وإلى الأسواق الكبيرة بالحيرة . وكان الطريق الآخر يدور حول بلاد العرب ثم يجتاز البحر الأحمر إلى موانى اليمن على شاطئه الشرقى ومرافىء الحبشة فى الغرب أو إلى المدن الرومانية القائمة عند رأس الخليج ، وهى القلزم (Clisma) بالقرب من السويس وأيلة (العقبة Aila) على الفرع الشرقى . والواقع أنه لم يقم بزيارة الشرق من تجار سورية أو الإسكندرية إلا عدد قليل ، شاهدوا حجر الجمشت الذى يضارع فى الحجم كوز الصنوبر وهو يتألق فوق قمة المعبد بجزيرة سيلان ، أو رأوا ملوك الهند بما لهم من جيوش جرارة وقطعان من الفيلة . وترددت الأقاصيص عن جزيرة الساتير ، التى هى جزيرة بورنيو موطن الأورانج يوتان ، كما أن المصادر الصينية تشير إلى التجار الغربيين الذين يهبطون موانيها . وقد أقلع بعضهم إزاء الساحل الإفريقى ، ورأى ما كان لقوافل التجار من مراكز منيعة ، وما كان يدور بينهم وبين السكان فى داخل القارة من المقايضة الصامتة. وذلك لأنه كما ينبئنا كوزماس : فى خارج الخلجان الأربعة العظمى بالعالم وهى البحر المتوسط والبحر الأحمر والخليج الفارسى وبحر قزوين (الخزر) يحيط بالعالم بحر كبير ، امتلأ بالضباب القاتل والتيارات العنيفة ، وكان مصدر خطر دائم على المسافرين . وحدث ذات يوم ، أن ظهرت بعض طيور الفطرس، على مسافة غير بعيدة من زنجبار . وبدأت السماء تنذر بالخطر ، وأخذ الركاب والملاحون يهتفون فى رعب بربان الدفة أن يتجه بالسفينة إلى الميناء ، وأن يعود إلى الخليج ، لما تراءى لهم من أمواج المحيط . وتبعتهم طيور الفطرس الصخاب على ارتفاع كبير ، وهى علامة تدل على أن المحيط قريب منهم .

وروى كوزماس الراهب، وهو تاجر متقاعد من الإسكندرية قصصاً ممتعة يصح الاعتماد عليها عن رحلاته وعن سبوع البحر والزرافات وغزال المسك وجوز الهند وشجر الفلفل وغيرها من الأشياء النادرة . على أن ما كتبه فى علم الكون لا يقل عن ذلك إمتاعاً ولكنه أقل جدارة بالثقة . وحقيقة أمره كما يعبر عنه جيبون يتلخص فى أن : « هراء الراهب عنده يختلط بالخبرة الواقعية للرحالة» . فهو يعمد إلى الأساليب والوسائل التى لاتزال مألوفة لدينا فيستخدمها فى تفسير الكتب المنزلة تفسيراً يدحض بعض المبادئ الوثنية الضارة التى تزعم أن الأرض كروية ، وأن لكل جزء منها ما يقابله فى الجهة الأخرى ، وعنده أن العالم مكون من صندوق مستطيل مؤلف من طابقين اتخذ نفس أبعاد تابوت العهد الذى أنشأه موسى « العليم الكبير بوصف الكون » . أما النجوم فتحملها الملائكة ؛ وتغرب الشمس خلف جبل عظيم. ويعتبر كوزماس نموذجاً طيباً لما شاع بين الرهبان من الأفكار والتأملات ؛ غير أن نظريته الخاصة لم تلق قبولا كبيرا .

وكان معظم التجارة العالمية فى أيدى الفرس ؛ إذ إنهم يسيطرون على أسواق سيلان ويستمتعون هناك بامتيازات خاصة . وكان الملاحون الأحباش يقومون بتجارة البحر الأحمر ، وكانوا يزورون كذلك الموانى الشرقية . أما تجارة الحرير بأكملها فكان الفرس وحدهم وسطاء نقلها، وفى ذلك ما لا يخفى من الضرر . وهذه الحقيقة تحكمت فى سياسة جستنيان التجارية . وبذلت جهود لإنشاء خط القوافل الشمالى الذى كان يجتاز بلاد التركستان، ويعبر القسم الشمالى من بلاد فارس ويسير حول بحر قزوين ثم يهبط إلى الطرف الشرقى للبحر الأسود . ولجأت الدولة إلى استخدام خطة أخرى هى أن تتولى بنفسها الصفقات

مع فارس . وعقدت معاهدة تجارية قصرت استيراد الحرير على مدن ثلاث على التخوم : كالينكيوم فى إقليم أوسروئينى ونصيبين بأرض الجزيرة وأرتاكساتا بأرمينية . وفرضت عقوبة صارمة على التهريب ، وحدد القانون ثمن الحرير الخام الذى كان يتولى شراءه موظفون من قبل الإمبراطور ، بينما تقرر فى الطرف الآخر من الرحلة وضع حد أعلى لأثمان المنتجات المصنوعة فى صور وبيروت . على أن هذه الإجراءات التى اتخذت لم تظفر بنجاح تام ، وذلك لأنه حدث فى بعض الأحيان أن فارس كانت ترفض البيع بالسعر المعروض ، فيتعرض تجار الحرير السوريون من أجل ذلك للخراب . وكانت الحكومة البيزنطية تضطر فى النهاية إلى دفع السعر الأعلى ، ولكنها كانت تغتنم تلك الفرصة لجعل التجارة احتكاراً بيد الدولة .

على أن جهود چستنيان الأساسية ، كانت موجهة إلى تجارة البحر الأحمر . إذ إن الإثيوبيين سكان أكسوم اعتنقوا الكاثوليكية فصاروا من ثم حلفاء له . وساعدهم چستنيان فى استعادة سلطانهم على الساحل المقابل لبلادهم وأعنى به بلاد اليمن . وكانت تجارتهم الواردة من الداخل واسعة النطاق — تشمل البخور والأفاويه والزمرد والعاج — وحملوا الذهب والعبيد من أقصى الجنوب ؛ وكان بيدهم أيضاً زمام التجارة العربية وقدر كبير من الآسيوية . ولم يبذل چستنيان لهم من تكريمه ومساعداته إلا لغاية فى نفسه : هى أن تشتد المنافسة بين الحبشة وفارس على تجارة الحرير اللازمة للغرب . ولكن قبضة الفرس على أسواق الهند وسيلان كانت قوية متمكنة ، ولذا لم يكن لهذه المنافسة أثر كبير . على أن حادثاً مثيراً أدى إلى حل هذه المشكلة ، ذلك أن راهبين تمكنا من تهريب بيض دودة القز من بلاد الصين ، حيث كان القوم يحافظون

على سرها بكل تيقظ وغيرة ، بأن أخفيا البيض فى جوف عصيهم المصنوعة من الخيزران . ولم تلبث سورية أن زخرت أرضها بشجر التوت ، ولم تعد الإمبراطورية بعد زمن قصير تعتمد على ما يرد من الصين .

وعلى الرغم من التحكم الشديد والرقابة القوية التى اتخذتها الدولة فضلا عن الرسوم الكثيرة التى تقرر جبايتها ، فإن التجارة البيزنطية ازدادت ازدهاراً . فكانت سورية ومصر خلايا عاملة تعج بالصناعة الناشطة ، وكان البحر المتوسط من أقصاه إلى أقصاه يعج بسفن التجار ، التى تجلب كل غريب معجب من الفاكهة والجواهر والأقمشة والأفاويه ، كما تحمل أنواع الميناء المدهشة والوشى المونق والمصنوعات المعدنية الدقيقة الواردة من الشرقين الأدنى والأقصى إلى موانئ أوربا الغربية ؛ وكان الدينار البيزنطى (النوميزما) هو العملة الذهبية المتداولة بجميع أسواق العالم .

الحياة فى العاصمة البيزنطية

حاولنا فى الصفحات السابقة أن نخطط للقارئ أصول السياسة الإمبراطورية التى انتهجها جستنيان ، مستخدمين لذلك رمزاً هو تلك المبانى الضخمة التى أحاطت بميناء الأوجستيوم . واستكمالا للصورة لا بد لنا أن نصف الحياة الاجتماعية لمختلف طبقات المجتمع البيزنطى . ومن هذه الطبقات النبلاء الذين ارتدوا الملابس الحريرية والذين اتخذوا لهم دوراً بالمدينة ومساكن بالريف وشغلوا وظائف فى إدارة الدولة والجيش والكنيسة ، واشتهروا بما دبروه من مؤامرات من أجل الوصول إلى السلطة ، وخاضوه من نضال من أجل الصدارة والتفوق وبالخروج للصيد أو لسباق الخيل فضلا عن

اتجاهاتهم الأدبية وثقافتهم المنتقاة . أما الطبقة الوسطى فتمثلها دوائر الجامعة بأساتذتها الذين تدفع الدولة مرتباتهم . ومدارس الحقوق والبيان التي اشتهرت بكفايتها ، وكانت وثيقة الصلة بجهاز الموظفين القائمين بالإدارة المدنية الذين يصور يوحنا ليداس فسادهم وتحيزهم لذوى قرباهم بألوان قوية زاهية . ويلى هاتين الطبقتين فئة التجار وأرباب المصارف وأصحاب الدكاكين ، بما اشتهروا به من الاعتدال فى حياة الترف والطباع الهادئة ؛ ولا مفر أيضاً من وصف الحياة العامة فى المدينة بما حفلت به من الأبروشيات ورجال الشرطة والمطافئ والمحاكم والمدارس والمستشفيات وما حوت من أطباء مقيمين وعنابر منفصلة فضلا عن ملاجئ أيتام ودور الصدقات والمخابز العامة وموارد المياه والصهاريج والسقايات والمجارى . وزخرت المدينة بالميادين الرائعة والشوارع الفسيحة والسقائف وأقواس النصر المصنوعة من الرخام الأبيض الناصع ، وغصت المدينة بالتماثيل والحوانيت التى تعرض للبيع ما لديها من حرائر زاهية الألوان كلهيب النار ، ومن مصنوعات معدنية براقة ، وازدحمت الشوارع الفسيحة بألوان مختلفة من الناس ، من نبلاء فى عباءاتهم الثمينة وستراتهم ذات الأكمام المطرزة بأجمل النقوش ، يسير خلفهم أرقاؤهم الذين ارتدوا القلانس والسترات القصيرة ، أو امتطوا صهوات جيادهم التى طرزت سروجها بالذهب ؛ ومن النساء فى ثيابهن ومحرماتهن الزاهية الألوان أو المتبتلين فى مسوح شهباء وسوداء ، ومن الرهبان والحجاج ؛ والبغايا والمتسولين والنشالين ؛ والحراس والجند المرتزقة من الصقالبة والجرمان والهون ؛ وثم تجار من سورية ومصر ؛ ومن المشعوذين والمنجمين والأطباء الدجالين الذين اتخذوا نواصى الشوارع مقراً لهم ، ومن القصاص فى الأسواق ، يروون قديم الأقاصيص الشعبية من آسيا أو يقصون أحدث أعجوبة أو آخر نكتة ، يروونها مقترنة بأسماء العظماء

حتى باسم الإمبراطور وقسيمه فى الحكم ، بينما اشتهرت الأزقة الضيقة الوعرة الانحدار بما يطل عليها من شرفات وبما حوته من دكاكين معتمة ، والمواخير وهى تنحدر مؤدية إلى الميناء المزدحم — الذى يرتاده البحارة الأجانب ويعتبر موطن الطاعون الذى يجتاح المدينة من حين إلى آخر ويقتل من سكانها خمسة آلاف كل يوم . وعندئذ تسير الأشباح فى الشوارع الخالية وتنفذ من كل شيء حتى الأبواب المحكمة الرتاج ، وتصدر الأصوات الرهيبة التى تحذر الضحية من النهاية المقتربة .

على أن الكنيسة تمثل قطاعاً مستعرضاً يمتد فى كل الحياة البيزنطية ، بما اشتهرت به من تعدد نواحى النشاط ، ابتداء من البطريرك ورجال إكليروسه والوعاظ بالكنائس الكبرى والمعترفين ، بدعة ذلك الزمان ، والقسوس العلماء حتى الرهبان الفلاحين والزهاد الجائلين . وزخرت المدينة وضواحيها بأديرة الرجال والنساء ، ومنها ما أسسه بل نزل فيه أحيانا نبلاء من أعضاء الشيوخ مع حريمهم ، ومنها ما كان ملجأ يأوى إليه المحتاجون فضلا عن الفارين من وجه العدالة . وذلك لأن الأديرة جزء مكمل للدولة ، كما يبين ذلك تشريع چستنيان . إذ جرى الإمبراطور هنا وفى كل مكان على ما كان لروما من نظرية تقليدية . وإذ كان القيام على الوجه الأكمل بالشعائر المقدسة (Sacra) كفل للجمهورية المحاصيل الجيدة (الخير والرخاء) ورد الأعداء عن أبوابها ، فإن چستنيان أعلن أنه : « لو أن هذه الأيدى الطاهرة والنفوس المقدسة صلت داعية للإمبراطورية ، لقوى الجيش ، ولازدادت رفاهية الدولة ورغدها ولازدهرت الزراعة والتجارة بفضل رعاية الله وإحسانه الأكيد » (الإضافات القانونية الجديدة ١٣٣ ، ٥) . ومهما غالينا فى أهمية الدين فى الحياة البيزنطية فلن نوفيه

حقه . فإذا كان ما يجرى بين الإنجليز دائماً من حديث إنما يدور حول الجو ، فإن حديث الناس فى بيزنطة يدور دائماً حول اللاهوت . وإذا كانت الأزمات الداخلية تعتبر أزمات اجتماعية واقتصادية ، فإن الأزمات الداخلية عند البيزنطيين كانت عقائدية . وتعتبر حروبهم صليبية ، ويعتبر إمبراطورهم نائباً عن الله فى الحكم . وفى أزمنة الهدوء والاستقرار ، كان للأديرة بما اجتمع لها من جيوش من الرهبان وحشود من الأتباع دور كبير فى تكوين الرأى العام . وكان للنساك العموديين الذين اتخذوا مقارهم على رءوس الأعمدة تأثير عظيم على السكان ، وكان الأباطرة يستجيبون لمطالبهم ويلتمسون نصيحتهم . وكانت الكنائس تزدحم إبان الشدائد بالمبتهلين الضارعين ، وإن العذراء نفسها لترى وهى تدافع عن استحكامات مدينتها المقدسة .

وكانت بيزنطة بحاجة ماسة إلى عدتها الروحية جميعاً . ذلك أنها تعتبر أساساً مدينة يسهل حصارها ، وكان ما يترتب على توقع الحصار من ثائرة مكبوتة يتجلى دائماً فى اتجاه سكان المدينة ونظرتهم إلى المستقبل . ففى كل مكان تذيع الطيرة ونذر التشاؤم ؛ فالتماثيل الوثنية تتحدث أو تسح بالعرق ، وتتنبأ النقوش القديمة بالمصائب الوشيكة الوقوع ؛ والأيقونات والآثار المقدسة تشفى المرضى وتدرأ سوء الحظ أو تزيح العدو اللدود بما يصيبه من موت مفاجىء . وتنتشر الشائعات الخارجة عن كل معقول ؛ فالإمبراطور ساحر ، وهو يمشى فى الليل بغير رأس وزوجته الملكة تلبسها شيطان . ويجن جنون السكان لما يحل بهم من زلازل وطواعين ؛ فهم يحملون متاعهم ويدفنون فى جوف الأرض ما غلا ثمنه من أشيائهم ثم يندفعون فى الطرقات . والعدو قريب منهم دائماً ؛ وعلى مسافة تقل عن ثلاثين ميلا

يقوم السور البرى العظيم ، الذى ظل الناس موقنين أمد فترات طويلة من الزمن أنه ليس من الحكمة المخاطرة بتجاوزه . وكم من جماعات خرجت للصيد ولم تعد عند المساء ؛ وكم من قرية ودير وبيت ريفى حول العاصمة اشتعلت فيه النيران فى أثناء الغارات المتعاقبة . وما القسطنطينية الإبرج يمتد بارزاً فى آسيا ، معرضاً لموجات الحشود البربرية التى تتوالى عليها من السهوب العظيمة أو الفيافى العربية .

وقد اتخذت القسطنطينية فى منمنمات العصور الوسطى صورة مدينة ترتفع فيها الأبراج تحت اسم مدينة القياصرة عند الصقالبة وميكليجارث[١] عند الشماليين ، فهى فى خيال الغربيين ، يغمرها ضياء الشمس . غير أنها من وجهة النظر الشرقية ، تعد دائماً مصدر النحس والشرور . فإذا عصفت السماء التمعت القباب ، وامتلأت الأسوار بالحراب ؛ ووقفت أمام التحصينات صفوف طويلة من خيام الآقار ، وأخذ الفرسان العرب يثيرون الرعب فى السهول المقفرة . وتضيق فى كل آن حلقة الخناق البربرى القاسى ، وهم يتحرقون شوقاً إلى انتهاب « المدينة التى تهفو إليها قلوب العالمين »[٢] .

---

(١) انظر هـ . ج . ولز « معالم تاريخ الإنسانية » للمترجم جـ ٣ ص ٨٤٢ من الطبعة الثانية .
(المترجم)

(٢) انظر قسطنطين الرودسى فى (Rev. des. Et. Grecques ج ٩ (١٨٩٦) ص ٣٨) .

الفصل الخامس

جستنيان والغرب

توفى جستين فى (٥٢٧) وخلفه فى الحكم جستنيان ابن أخيه ، بعد أن ظل سنوات عديدة الحاكم الفعلى للإمبراطورية . كان جستنيان رجلا متوسط القامة نحيل الجسم ، وكهلا فى منتصف العمر يغلب الصلع على رأسه وإن بقيت فيه شعرات مموجة وخطها الشيب ، وله وجه أحمر مستدير ، واشتهر بالبشاشة ولين الجانب وهدوء الطبع . كان شديد الدأب على العمل ، بالغ الاهتمام بتفاصيل الأشياء ، درج على أن يعد خطط ما ينفذه من حملات إلى الجهات النائيـة ، وما تجرى عمارته من القلاع بإفريقية ، وإعداد البرنامج الدقيق لكل ما يمارسه القنصل من ألعاب ، وتنظيم كل ما يدور من جدل حول وجوب الصيام فى عيد الصوم الكبير . وغلب على سلوكه العام الوقار والاتزان وضبط النفس ، غير أنه يفتقر فى بعض الأحوال إلى المبادرة والإقدام ، إذ ظهر ضعفه الشديد فى أثناء ثورة نيقا ، وأكبر شاهد على ما اتصف به من التردد ما كان لثيودورا ويوحنا القبادوقى عليه من تأثير — فإنه كان شجاعاً ولكنه متوسط الذكاء Une àme de valeur plutôt médiocre على حد قول ديهل .

ومع ذلك فإن ما أنجزه هذا الرجل من جلائل الأعمال قد أكسبه لقب جستنيان الأكبر . ويذكر له التاريخ أنه المشيد لكنيسة القديسة صوفيا وواضع أساس القانون الأوربى ، وهو الذى استرد الممتلكات الرومانية من

عمودى هرقل[١] إلى نهر الفرات. فالسيادة الرومانية (Imperium Romanum) عنده هى سر نجاحه . إن ذلك الفلاح المقدونى استطاع حين اتشح بالأرجوان ، أن يضع أسس العظمة التى اشتهر بها أولئك الحكام الكماة ، الذين بذلوا من الجهود الفائقة ما أبقى على الإمبراطورية طوال خمسة قرون[٢] . وكانت تتركز فى يد القابض على زمام الإمبراطورية جميع سلطات الكنيسة والدولة والقانون والجيش والإدارة . كان مسئولا عن رفاهية رعاياه ، سواء أكانوا فى الأقاليم الشرقية من الدولة أم فى الأقاليم الغربية ، التى نيط الحكم فيها فترة من الزمن بملوك الجرمان ، باعتبارهم نواباً عنه . كان الحامى للكاثوليك جميعاً داخل الإمبراطورية كانوا أو خارجها ، وكان العدو اللدود لكل الهراطقة والوثنيين . هذه هى النظرية التى تنطوى عليها كل أعمال جستنيان . إذ إن جمع القانون الرومانى إبقاء على التعبير عن الحضارة التى تخلفت عن أيام الجمهورية ، وتعزيز المركز الدستورى للإمبراطور بوصفه مصدراً للقانون (Fons iuris) . وكانت المراسم المحكمة التفاصيل داخل البلاط ترفع من شأن المنصب الإمبراطورى ، وإن النقوش المدونة على مبانيه التى توافرت بكل أرجاء الإمبراطورية وإطلاق اسمه على مدن عديدة لتسجل للأجيال التالية عظمة جستنيان ومجده . ورأى الإمبراطور أن لا بد من تطهير الجهاز الإدارى ، وليس ذلك فقط لأن الإمبراطور يدين لرعاياه بواجب حسن الرعاية ، بل أيضاً لأنهم يجب أن يكونوا فى وضع يمكنهم من أداء الضرائب الفادحة التى لا بد

---

(١) عمودا هرقل هما الصخرتان العظيمتان اللتان تحرسان مدخل البحر المتوسط وهما جبل طارق وجبل سبتة (المترجم)

(٢) انظر ف . و . بسل فى (Constit. Hist. of the Rom. Emp.) ج ١ ص ٢١٧ . « فأما العاهل نفسه فإنه عند توليه العرش ، فقد الكثير من شخصيته كثيرة الأهواء ، وأصبح وريثاً لروما ومجرد مفسر بسيط لسياستها الخالدة على الأيام » .

من إنفاقها على مشروعاته التوسعية . وفى قمة هذه المشروعات ، ما كان يراود جستنيان من حلم كبير ، وهو استرداد أقاليم الإمبراطورية الرومانية — إفريقية وإيطاليا وأسپانيا ، فضلا عن غالة وبريطانيا . ويضطر الإمبراطور إلى إهمال تخوم الدانوب والحدود الشرقية ، إذ يسحب منها الجنود لتقوم بالحملات فى الغرب . وينزل سوط الاضطهاد والنفى بإقليمى مصر وسورية صاحبتى مذهب الطبيعة الواحدة (Monophysite) فينفر قلوب الناس فيهما منه ، على حين يمد بعونه البابوية وكاثوليك إفريقية وإيطاليا . وتتحطم الولايات بكل من الشرق والغرب بما فرض عليها من ضرائب لا تطاق ابتغاء تزويد الدولة بالمال اللازم للجيوش والقلاع ، وفضلا عن ذلك يزحف على الدولة من جديد الفساد والرشوة وابتزاز المال تحت ظل إفلاسها . ومن اليسير أن نوضح ما شمل البلاد حتى نهاية حكمه الطويل من سوء حال : حيث فرغت الخزائن وتضور الفلاحون جوعاً وتضاءلت الجيوش وأخذ الغرب ينفصل عن الدولة جزءاً جزءا ، والشرق يتهدد ويتوعد وتجردت الإمبراطورية من كل وسائل الدفاع بينما إمبراطورها الشيخ الفانى لا يعنى إلا بالمنازعات اللاهوتية ، كما أنه من اليسير كذلك القول بأن سياسة جستنيان جلبت الكوارث على البلاد ، وأن موارد البلاد لم تكن لتكفى إلا لحماية حدى الدانوب وفارس . ذلك كله حق لا نزاع فيه ؛ ولكن ينبغى ألا يغيب عن بالنا أن جستنيان لم يحمل هنا من صفاته وخلاله إلا العيوب والمساوئ . ذلك أن « عصر بيزنطة العظيم » الذى حفر لها أثراً خالداً على قوانين أوربا وفنونها ، إنما يرجع إلى أفكار جستنيان عن الإمبراطورية الرومانية التى اقتضت استعادة الغرب ، وزعامة الكنيسة الكاثوليكية ، فضلا عن وضع القانون ، وإنشاء كنيسة القديسة صوفيا .

الإمبراطورة ثيودورا

والإمبراطورة ثيودورا تمثل أعجب نقيض لزوجها . اشتهرت بحب الترف والتعالى والغطرسة وحب السيطرة والميل إلى الانتقام ، وكانت بعيدة النظر لا تحفل بالمثل والمبادئ ، فسيطرت باستمرار على تفكير جستنيان وقراراته عن طريق الإقناع أو بالتآمر والدسائس . ويمكن التعبير عنها بلغة عصرنا الحديث بأنها امرأة واقعية وأنها ممن يعتقدن فى العمل المباشر ، وأنها قوة نافعة تقابل ما عرف عن جستنيان من الميل إلى التوسع ، ومن الخطط التفصيلية المحكمة التى يرسمها على الورق . ومن المستحيل أن نقرر مدى الصدق الذى يكمن وراء الفضيحة التى يرددها بروكوبيوس بإسهاب ولذة عظيمة فى كتابه « النوادر Anecdota » . وكيف أن لها ابناً غير شرعى ، وكيف كانت تهتم بكل ما يتعلق بالاتجار فى أعراض النساء ، كما أن ميولها نحو مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح تتفق دون ريب مع الحقائق الرئيسية الواردة فى القصة بأنها كانت بغيا فى بيزنطة ، ثم فى الإسكندرية فأنطاكية ، حيث وقعت تحت سلطان زعماء ذلك المذهب . ولعل فى إلزامها لرجال البلاط السجود أمامها وجعل ذلك من المراسم ، وفى الوقاحة المتعمدة التى كانت توجهها إليهم ، تعويضاً وانتقاماً لنفسها من المعاملة المهينة التى لقيتها من أبناء طبقتهم .

ظلت ثيودورا حتى وفاتها فى ٥٤٨ تشارك جستنيان فعلا حكم الإمبراطورية . وكان ذوو الحظوة لديها هم وحدهم الذين تولوا مناصب ولاة المدن وقادة الجند والبطاركة والبابوات . أما أعداؤها فكانوا يعزلون أو يقضى عليهم ؛ بل إن يوحنا القبادوقى نفسه ذا القوة والسلطان ، لقى جزاءه

آخر الأمر . كانت تمتلك ضياعاً عظيمة ، وتحصل منها على دخل ضخم ، تمكنت بفضله من إعداد جهاز سرى يخضع لسلطانها ، بل لقد كانت يبلغ بها الأمر أحياناً أن تحبط أعمال وكلاء الإمبراطور وعملائه دون أن يفوتها مع ذلك أن تصالح چستنيان وتسترضيه فيما بعد . ولعل أهم أعمالها وأبرزها نفوذها الهائل على السياسة الشرقية . ومن ثم فمن الطبيعى أنها كانت تميل إلى الكنيسة المونوفيزية الآخذة بمذهب وحدة الطبيعة ، وبلغ بها الأمر يوم أُديل من تلك العقيدة وتعرضت هذه الكنيسة للاضطهاد على يد بيزنطة ، أن آوت إليها قساوستها ورهبانها ؛ ولكنها كانت أوضح من چستنيان إدراكاً للخطر السياسى الذى تتعرض له الملكية إذا اضطرت الأقاليم الرئيسية آسيا وسورية ومصر إلى التمرد بسبب اضطهاد عقائدها . وبفضل مشورتها انتهجت الدولة فى أنسب الأوقات خطة التسامح والتنازل التى كانت ضرورية لمنع وقوع هذه الكارثة .

فتح إفريقيـــة

وبدأ فتح الغرب فى (٥٣٣) عندما أقلع بليساريوس أبرز قواد الإمبراطورية إلى إفريقية على رأس عشرة آلاف من المشاة وما يقارب خمسة آلاف من الفرسان . وذهب معه المؤرخ پركوپيوس ناصحاً ومشيراً ، فترك لنا رواية تفصيلية عن الحملة . وكان السبب الذى اتخذ ذريعة للحرب ، هو أن هيلدريك الملك الوندالى الضعيف ، الذى كان يميل إلى بيزنطة والكاثوليكية قد نحاه عن العرش چيليمر ، الذى كان يمثل الحزب المعادى لبيزنطة . وظهرت حجة أخرى مماثلة عندما حان غزو إيطاليا ؛ وامتدت المماثلة والمشابهة أيضاً إلى سير القتال . ففى كلتا الحالتين ، تبين أن الانتصارات السريعة

الأولى ليست ثابتة دائمة ، فلم يكتمل الفتح إلا بعد سنوات أشتد فيها القتال اضطراباً وارتباكا . ففى إفريقية ، كان كل شىء فى صالح خطة جستنيان الجريئة. فإن أسطول الوندال وشطراً كبيراً من قواتهم قد توجه قبل فترة وجيزة إلى سردينية لقمع فتنة لشبت بها . فهبطت الجيوش البيزنطية دون صعوبة على الساحل الإفريقى وزحفت على قرطاجة متخذة طرقاً ظليلة ، وهى تعسكر ليلا بين حدائق ذات بهجة . واستقبلهم السكان الرومان بالترحاب . وكانت قوات الوندال تتألف من الخيالة الخفيفة ، والواضح أن الخطط الحربية السليمة تقضى هنا بالالتجاء إلى حرب العصابات إزاء خيالة خصومهم المدرعة ومشاتهم بطيئة الحركة . ولكن الملك جيليمر آثر الاشتباك مع أعدائه فى معركتين حاشدتين . وانتصر بليساريوس فى كل من المعركتين رغم ارتكابه أخطاء خطيرة ، ولم ينقض زمن طويل حتى كانت قرطاجة فى قبضة يده ، وحتى كان الملك الوندالى الذى جعل منه بروكوبيوس شخصاً رومانسياً ، متقلب المزاج عجيباً ، قد سلم نفسه لينقذ أتباعه من مكابدة الآلام . وبدت الأمور وكأنما قد انتهى كل شىء ؛ فترك بليساريوس جيشاً صغيراً لاحتلال البلاد . ثم عاد إلى بيزنطة يمتع نفسه بما حازه من النصر ، وقد حمل معه نبلاء الوندال ، الذين اتخذ منهم كتيبة من الفرسان رابطت على الحدود الفارسية . واتخذت شتى الوسائل لإعادة الأحوال القديمة بإفريقية إلى نصابها . فأوثر رجال الدين الكاثوليك بكل حظوة ورعاية ، بينما تعرض للاضطهاد الدوناتيون والأريوسيون والوثنيون . وتقرر أن يسترد أصحاب الأملاك من الرومان أراضيهم ومزارعهم ؛ ولكن الدعاوى القانونية التى مضى عليها قرن كامل كانت تنطوى على صعوبات خطيرة . يضاف إلى ذلك أن التذمر ما لبث أن

ظهر عندما تجلى للناس أن كل ما يؤدونه من الضرائب ويسهمون به في إيرادات الإمبراطورية ، هى السبب الرئيسى فى اهتمام جستنيان بهم .

على أن الأيام كانت تختزن للولايات الإفريقية متاعب بالغة العنف . فبينما كانت الميداليات والنياشين تصنع بالقسطنطينية ابتهاجاً بالفتح ، وتتردد فى أرجاء ميدان السباق أناشيد النصر ، كانت تهدد قوة الرومان بإفريقية هجمات شيوخ البربر ، الذين دأبوا على الخروج من صياصيهم الجبلية فى غارات للنهب والتخريب . على أن سولومون القائد البيزنطى نجح آخر الأمر فى ردهم بل إنه تعقبهم فى التلال ، غير أن خطط القتال عند البيزنطيين (وهم قوم كانوا يحاربون دائماً وفق قواعد معينة) لم تكن صالحة لقتال هؤلاء الخيالة الخفاف والمغيرين الذين يركبون الإبل . وظاهر أن الدروع الثقيلة التى كانت لدى الجيوش الرومانية لم يكن الغرض منها إلا الدفاع لا الهجوم ، وترتب على التوسع فى استخدام القسىّ ، أن اشتد عكوف الرومان على القتال من مسافة بعيدة ، وهى حال لم تعد عليهم — بطبيعة الحال — بأى تحسن فى روحهم المعنوية . فذاع العصيان بين الجند وتوالت حوادث التمرد ، حتى لقد اضطر القائد العام فى بعض الأحيان إلى الفرار لينجو بحياته . غير أنه تعاقب على قيادة الجيش الرومانى من الأبطال أمثال سولومون وچرمانيوس ويوحنا التروجلى ما هيأ للدولة الرومانية أن تتغلب على تلك الأزمات ، وبفضل ما هو معروف بين شيوخ البربر (Moors) ، من الشقاق بسبب ما تفشى بينهم من عداوات وثارات دائمة ، لم يتيسر لهم القيام بعمل متحد ، ولذا فإن السلطة الإمبراطورية استتب لها الأمر بصورة مستديمة فى (٥٤٨) وأخلدت إلى الراحة آخر الأمر الأقاليم التى تعرضت للنهب والخراب .

وإن بروكوبيوس ليروح فى فقرة قوية وردت فى كتابه «التاريخ السرى» ينعى على فتح إفريقية ، أنه تكلف على حد قوله خمسة ملايين من الأنفس ولم يؤد إلا إلى فقر البلاد وخلوها من السكان وجعلها فريسة لغارات البربر وتعريضها للضرائب الفادحة الطاحنة والاضطهاد الدينى والعصيان العسكرى . وهناك من الدلائل ما يحملنا على الظن بأن فى هذه الصورة شيئاً من المبالغة . فالخرائب الكثيرة المتخلفة عن المدن الفاخرة التى لا تزال باقية إلى اليوم بتلك المنطقة تشهد – بما حوت من أسوار وسقايات يرجع الكثير منها إلى تلك الفترة ، – بما كان عليه جستنيان من بعد النظر . ولا شك أن قلاع الحدود تسترعى الاهتمام لا فى حد ذاتها فحسب باعتبار ما تعرضه من مظاهر القلاع فى ذلك العصر ، كالخندق والحصن والفناء والأبراج الجانبية الواقية للجناح وفتحات الرماية – وكلها ترتبط عادة باستحكامات العصور الوسطى ، ولكنها أيضاً تسترعينا باعتبارها جانباً من نظام دفاعى ضخم يمتد إلى منحدرات جبال أوراش ومرتفعات نوميديا ، وفى مناطق مسورة يلوذ بها الفلاحون فى أثناء غارات البربر . ولا تزال الكنائس والأديرة الفسيحة الواقعة فى داخل البلاد تحتفظ بطراز الباسيليكة الرومانى الذى تزينه الزخارف البيزنطية ، على حين يغلب التأثير اليونانى فى المناطق الساحلية ، كما أنه ترك آثاره واضحة على التيجان الرقيقة للأعمدة والزخارف الجانبية . أما الأرضيات المصنوعة من الفسيفساء فإنها تصور بألوان مشرقة انفعالات ميدان السباق وأزياء الزمان ، ويتجلى نشاط الكنيسة فى شدة ازدهار المجامع الكنسية ووفرة الأدب أعنى المؤلفات المتعلقة بالمناظرات الدينية . وتدل البقايا الكثيرة للضياع وأعمال الرى ومعاصر الزيت ، على ما اشتهرت به البلاد من الخصوبة الواسعة الانتشار . ولعل خط الساحل فى إقليم طرابلس إلى طنجة ، قد بدا فى عين الغزاة المسلمين بعد

هذا الزمن بقرن ، كأنما هو بستان واحد مستديم تناثرت فيه المساكن المتباعدة .

عوامل ضعف القوط الشرقيين

على أن التدخل الإمبراطورى فى إيطاليا جاء فى الوقت المناسب . وذلك أن التوازن الذى خيم على دولة ثيودوريك الثنائية قضت عليه وفاة تلك الشخصية العظيمة التى كانت ترفع بيدها ميزان الأمور . وتولت ابنته أمالا سونثا الوصاية على ابنها البالغ عشر السنوات ، والذى تولى العرش عقب وفاة جده . وتمخض حكم المرأة عن مشاكل ما لبثت حتى عجلت بانهيار نظام ثيودوريك . فإن تربيتها الرومانية جعلت المقاتلين القوطيين يرتابون فى أمرها ، على حين أن بيزنطة استخدمتها ، أداة وألعوبة فى سياستها الإمبراطورية ، بل لعلها لم تحفل بها عند وفاتها . ونظراً لأنها كانت تعد العرش حقاً خاصاً لأسرة آمال ، فإنها صممت وابنها لا يزال حدثاً تحت الوصاية أن تحتفظ بالعرش لو مات الصبي ؛ ولكنها كغيرها من أبناء شعبها كانت ضعيفة الإحساس بالوحدة القومية ، فلم تتردد قط فى التفاوض سراً مع جستنيان عندما أصبح مركزها حرجاً .

ومن الحقائق التى ترشدنا فى هذا المقام أن كل من تعاقب على العرش من زعماء القوط أمثال : ثيوداهاد وويتيجيز وهلديباد وإيراريتش وتوتيلا — كان يعد علاقاته بالإمبراطور أمراً شخصياً بحتاً ، لا يختلف فى ذلك عن ثيودوريك مقدم الجندشبه المستقل ، فى مساوماته مع الإمبراطور زينون قبل خروجه لفتح إيطاليا . ولكنهم كانوا فى الحين نفسه يرجعون بصورة

متناقضة غير منطقية إلى التسوية التى عقدت مع أناستاسيوس[1] معتبرين إياها نوعا من الأساس القانونى لدولة رومانية قوطية . وقد فاتهم تماماً أن مركز ثيودوريك الذى لم يتحدد قصداً لم يحفظه فى الواقع سوى المحالفات الكثيرة التى عقدها مع الدول الأجنبية ، فضلا عن الوفاق والانسجام الدينى والسياسى الذى ساد فى الداخل ، وبذلك تهيأ له أن يواجه بيزنطة بجبهة وطيدة . غير أن ارتفاع شأن قوة الفرنجة ومؤامرات الكاثوليك وتذمر طبقة رجال السناتو قد قوضت هذا البنيان فعلا قبل وفاة ثيودوريك .

ولما لم تستطع أما لاسونثا الصمود تلقاء معارضة القوط ، صممت على أن يشركها فى العرش ابن عمها ثيوداهاد ، وهو طراز آخر للبربرى ذى الطابع الرومانى الطامع وإن يكن أعجب شأناً . كان ثيوداهاد شغوفاً بفلسفة أفلاطون ميالا إلى الهدوء والسلام ، وكان لديه عدا ذلك نزعة تسلطت عليه تماماً ، هى الحرص على امتلاك الأراضى . لقد كان على استعداد تام — كما أكد ذلك لجستنيان فى مفاوضات تالية — لأن يتنازل عن إيطاليا فى مقابل الحصول على مزرعة ومنصب فى البلاط الإمبراطورى . وسجنت أما لاسونثا بأمره بجزيرة وسط بحيرة بولسينا ، حيث تم إعدامها بعد ذلك . وكانت تلك هى إشارة بدء الهجوم البيزنطى . إذ تقرر غزو إيطاليا براً من جهة دالماتيا ، وبحراً من إفريقية . ففى (٥٣٦) استولت قوة إمبراطورية على سالونا عاصمة دالماتيا . على حين قاد بليساريوس جيشاً تقارب عدته ٧٫٥٠٠ رجلا . ولا شك أن قلة عدد قواته شىء يسترعى الانتباه ، وذلك بالنظر إلى أهدافه ومنجزاته الكبيرة . ولكن قلة العدد كان يعوضها إلى حد كبير التنظيم الفائق والخطط

---

(١) انظر ص ١٢٤ .

الاستراتيجية التى قاوم بها جموع البرابرة غير المتماسكة . على أن قلة العدد منعته من الناحية العملية من الاشتباك فى معركة حاشدة ، وهذا هو العنصر الذى تحكم فى طبيعة الحرب التى تلعب فيها القلاع والحصارات دوراً بارزاً .

فتح إيطاليا

وفى هذه الظروف تجلت عبقرية بليساريوس العسكرية فى أعلى ذراها . كان المثل الأعلى للجندى المحترف ، فكان شجاعاً فى ساحة الحرب واسع الحيلة فى أساليبه ، فتملق به الجند على اختلاف عناصرهم فى أثناء حملاته فى القارات الثلاث ، ولهذا السبب ذاته كان جليل القدر عند جستنيان ، إذ لم تكن له مطامع سياسية ، ولم ينحرف قط عن ولائه للعرش . ومع ذلك فقد أثار نجاحه في نفس الإمبراطور شبهات قوية ؛ فقتر عليه فى الرجال والمال . ولقى من حاسديه من زملائه فى القيادة كل شر وعناء ، وكانت الحاسة السياسية لديه ضعيفة ، فأوقعه ذلك فى أخطاء جسيمة ، كما أن انقياده لزوجته أنطونينا ، الصديقة الحميمة للإمبراطورة ، قد ورطه فى المؤامرات المعقدة التى كانت تحاك بالقصر . ولذا فإنه قصر دون بلوغ مرتبة البطولة الحقة . على أنا لو وازنا بين حدوده وعيوبه ما خفى منها وما ظهر ، بما حققه من أعمال رائعة لتبين أنه كان بحق أعظم قائد فى زمانه .

سقطت صقلية دون تسديد رمية واحدة ؛ إذ كانت حاميات القوط فيها ضعيفة لا تكاد تفى باحتلالها ، كما أن أصحاب الأملاك فيها استقبلوا الجيوش البيزنطية بالترحاب . وكانت نابولى حاضرة القوط فى كامبانيا هى الهدف التالى للقوات البيزنطية ، فلم تلبث أن أذعنت للهجوم بعد حصار مثير ، ولم يخل الأمر من بعض الأحداث المؤسفة ، إذ كان سكانها — وهم من التجار —

أقل استعداداً من صقلية أو بروتيوم الإقطاعية للترحيب بالقوات الإمبراطورية، التى يبدو أن من كان بها من هون وإسوريين وصقالبة ، كانوا يبعثون الخوف فيهم أكثر من القوط .

وفى تلك الأثناء استبد اليأس والفشل بالملك ثيوداهاد ، — فسعى للتفاوض مع الإمبراطور ؛ على أن انتصار جيوشه فى دالماتيا دفعه إلى نبذ العرض الذى أسلفناه إليك ، ومن ثم لم تسفر المباحثات بينهما عن أية نتيجة . وكان سقوط ناپولى هو الذى قرر مصيره المحتوم . إذ خلعه الجيش القوطى ، وانتخب مكانه ويتيچيز أحد قواد ثيودوريك . وكانت المستقرات القوطية الرئيسية تقع بشمال إيطاليا ، فبادر ويتيچيز إلى الانسحاب إلى راڤنا لينظم قواته بعد أن ترك روما مفتوحة للبيزنطيين ، فاحتل بليساريوس المدينة (روما) . وقضى شتاء عام (٥٣٦ — ٥٣٧) فى عمارة الأسوار المتخربة ، إدراكا منه لأهمية التمسك بالعاصمة ، رغم ما تراءى لكثير من الرومان ، من سخافة الفكرة التى تجعل جيشاً مؤلفاً من خمسة آلاف رجل يتولى الدفاع عن محيط مدينة يبلغ اثنى عشر ميلا من هجمات جيش يفوقهم فى العدد عشر مرات أو عشرين مرة . وإن قصة الحصار ليست إلا سلسلة من الأحداث الجذابة المثيرة ، التى تبدأ بفرار بليساريوس على جواده الأشهب كلون الحديد ذى الغرة البيضاء ، من الخيالة الذين تعقبوه ، ووصوله أمام أسوار المدينة ، التى أبت أول الأمر أن تفتح أبوابها لذلك الراكب المسربل بالدم والنقع[1] . واستشرت الخيانة والرعب فى الداخل . وأوشك القوط أكثر من مرة أن ينفذوا إلى المدينة ، بأن لجئوا إلى نقطة ضعيفة ، أو عمدوا إلى الزحف أسفل بهو الأعمدة

---

(١) النقع هو غبار الحرب كما فى البيت المشهور .   (المترجم)

بكنيسة القديس بطرس ، فيردهم أعداؤهم بمهاجمتهم لهم بالتماثيل المحطمة المنتزعة من مقبرة الإمبراطور هادريان . واستمات بليساريوس فى الدفاع حتى وصلته الأمداد المتأخرة ، وفى مارس (٥٣٨) رفع الحصار عن المدينة بعد أن دام سنة كاملة . فأضحى الطريق وقتئذ ممهدا لقيام بليساريوس بزحف جديد ، وهوجمت معاقل القوط المنيعة بوسط إيطاليا ؛ ولم تنته سنة (٥٣٩) حتى أطبقت الجيوش البيزنطية على راڤنا . وتلى ذلك قصة عجيبة ، توضح بقوة أخلاق القوط والبيزنطيين . ذلك أن چستنيان لما شعر باحتمال نشوب الحرب بينه وبين فارس ، أظهر استعداداً لمنح القوط شروط الصلح ، بأن يترك لهم الاحتفاظ بما يملكونه من الأراضى الواقعة شمال نهر پو . على أن بليساريوس أبى أن يتجرد من نصره فرفض التصديق على الاتفاق . وغضب القوط لذلك وجزعوا إذ وجدوا أنفسهم بلا أرض يستقرون فيها فعرضوا عليه التاج ، وقبل ويتيچيز التنازل عن عرشه . وقبل بليساريوس العرض ، ولكنه ما كاد يدخل راڤنا حتى أظهر ما كان يضمره من الخيانة . وأسقط فى يد القوط ولم يعد فى إمكانهم أية مقاومة بعد ذلك . واقتيد ويتيچيز وحاشيته أسرى إلى بيزنطة . وأضاف چستنيان إلى ألقابه ، لقب ملك القوط (Gothicus) أيضا ، وأرسل من قبله والياً پرايتوريا ليتولى الحكم فى الإقليم الذى استرده ، على حين نقلت معظم القوات إلى الشرق .

وكان ما عقب ذلك من أحداث يعد فى رأى بيزنطة مجرد عصيان . بيد أنه كان عصياناً عارماً جداً . واحتاج رد إيطاليا إلى الطاعة إلى أربعة عشر عاماً من الحرب الشعواء . إذ إن القوط بزعامة توتيلا المشهور بصلابة الإرادة استطاعوا أن يجعلوا سلطان بيزنطة فى شبه الجزيرة الإيطالية ، ظلا لا يتجاوز

ما كان لهم من حاميات بالمدن الساحلية والمعاقل المتفرقة . وكان هدفهم هو بسط سيطرتهم على السهول ، وبهذه الطريقة يضمنون لأنفسهم الحصول على الجزية التى تؤدى إلى الخزانة البيزنطية . وفى الحين نفسه عمد القوط بمهارة إلى الإفادة من كراهية الشعب لليونانيين وتحويله إلى جانبهم ، فساندوا صغار الفلاحين على سادتهم . وكان أصحاب الأملاك الذين تجردوا من أملاكهم ورجال الدين الكاثوليك الذين كانوا يؤيدون نظام الطبقات ، يعدون توتيلا طاغياً وزنديقاً . أما الفلاحون الذين تخلصوا من كثير من أعمال السخرة الإقطاعية (Corvées) التى كانت تناط بهم ، فإنه هبط عليهم كمنقذ أرسلته العناية الربانية . ولم يكن بوسع الجيوش البيزنطية الصغيرة أن تلتقى به فى ميدان القتال ؛ وتعرضت روما للسقوط والاسترداد مرتين . وبعد قتال يائس لم يشتبك فيه الرومان إلا بوسائل ضئيلة حدث آخر الأمر أن تقرر استدعاء بليساريوس ، فكان ذلك اعترافاً صريحاً بالإخفاق . وفى (٥٤٩) رأس توتيلا رسمياً حفلة ميدان السباق بروما ، وبدأ فى تجديد مبانى العاصمة ، بينما أغارت أساطيله على شواطىء دالماتيا للنهب والتخريب . « فأضحى الغرب بأكمله فى قبضة البرابرة » . على حد قول بروكوبيوس .

وإذ بلغ الأمر هذا الحد قرر جستنيان أن يرسل المرة الأخيرة ، من القوات ما يكفى فعلا للقيام بحملة حربية ، ولعل الذى حفزه على ذلك ، المهاجرون الرومان أصحاب النفوذ القوى فى بلاطه . واستطاع القائد المحنك نارسيس الخصى بعد أن تعطل فى دالماتيا أن يتجنب فى سهولة ويسر ما أقامه توتيلا من استحكامات دفاعية ، بأن اتخذ الطريق الساحلى إلى رافنا . وكان الجانب الأكبر من جيشه مؤلفاً من البرابرة اللومبارديين

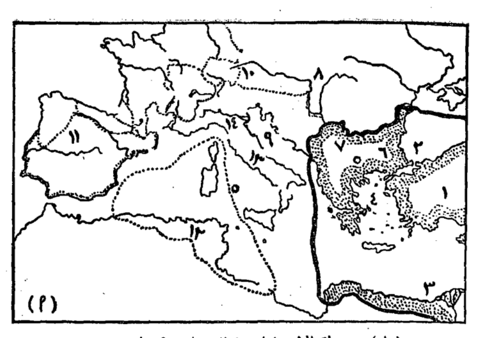
والهيرول والهون ، وكانوا من وفرة العدد ما يكفى لمواجهة العدو فى الميدان ، بل امتازوا على العدو بما كان لنارسيس من دراية بالفنون العسكرية . وعند ذلك أصبحت المعركة الفاصلة وشيكة الوقوع . وسارع توتيلا من روما للقائه ، فهزمت القوات القوطية هزيمة ساحقة فى معركة كبرى قرب بوسطا جاللوروم (٥٥٢) بجبال الأپينين . ولقى توتيلا مصرعه . ووقف القوط وظهورهم إلى السور واستماتوا فى القتال ، غير أن حاميات جنوب إيطاليا استسلمت فى (٥٥٥) ؛ وصمدت برسكيا وڤيرونا حتى (٥٦٣) بفضل مساعدة قوات من الفرنجة .

ويقول مؤرخ ساذج إن نارسيس أعاد إلى إيطاليا « سالف مرحها وسرورها Pristinum Gaudium » . وإن « القرار التنظيمى » الذى أصدره جستنيان فى (٥٥٤) إنما هو محاولة متعمدة منه لرد عقارب الساعة إلى الخلف ، فإن لم يكن الرد إلى (٤٧٦) فهو على الأقل إلى ما قبل المدة التى انتزع فيها توتيلا أملاك أصحاب الأراضى وحرر من لديهم من موالى الأرض (Serfs) . ومنذ تلك اللحظة استقر فى راڤنا نائب إمبراطورى Exarch له القيادة العليا على الإقليم كله ؛ وتقرر الاستغناء عن كل الموظفين والمدنيين وتعيين غيرهم ، واعتقد جستنيان أنه بفضل جهوده قد تم إرجاع البلاد نهائياً إلى سيرتها الأولى . غير أن ما فعله كان فى الواقع شيئاً يختلف عن ذلك اختلافاً بليغا . ذلك أنه بتدمير قوة القوط أزال الحاجز الوحيد الذى يمكنه الوقوف فى وجه حشـود اللومبارد البرابرة ، الذين تدفقوا على إيطاليا بعد موته ببضع سنوات .

بيندكت أسقف نورسيا

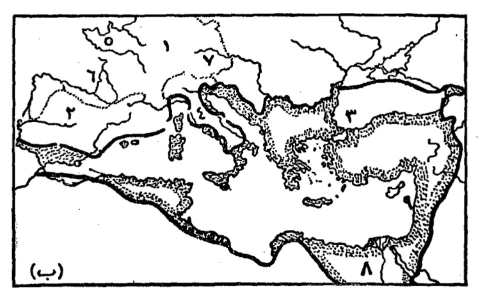
على أن عمال الخراج عند چستنيان أتموا ما حل بالبلاد من الخراب والدمار . إذ خلت المناطق الريفية من سكانها وتداعت المدن . وصارت روما بعد أن سقطت خمس مرات فى أثناء هذه الحروب مكاناً قفراً ، انتشرت به الأطلال والخرائب . وولت تجارة روما ، فصار لزاماً على سكانها منذ ذلك الحين ، أن يعتمدوا فى معاشهم على صدقات الحجاج وإحسانات البابوية . وتوقفت السقايات ، وبطلت الحمامات العامة ، على حين أن سهل كامپانيا الخصيب لم يلبث أن تحول إلى ربوع موحشة ومباءة للملاريا ظلت تحيط بالمدينة حتى الأزمنة الحديثة . وزال كل أثر لما كان معروفاً فى الماضى من «الخبز والملعب» . إذ إن آخر ما جرى من الألعاب كان فى عهد توتيلا . وقرر چستنيان آخر الأمر منع إرسال الميرة المجانية من القمح إلى روما . واختفى القناصل ومجلس السناتو رويداً رويداً . وهاجر كثير من النبلاء إلى بيزنطة ، تاركين قصورهم للخراب والأطلال .

وزحفت على إيطاليا كلها ظلال الاستسلام والتبلد . ولم يبق للرجل الذى يأنس إلى الحياة الهادئة ما يأمله فى هذا العالم . ولم يعد له من ملاذ يلجأ إليه غير الدير ، وسرعان ما انتشرت ببلاد الغرب قاعدة الديرية التى وضعها بيندكت النورسى والتى سدت هذه الحاجة ، فحلت محل القاعدة القديمة التى سبق انتقالها من مصر إلى أديرة جنوب فرنسا . ومع أن قاعدة بيندكت نقلت من القواعد السابقة لها قدراً كبيراً ، فإن ما انطوت عليه من روح إذلال النفس ، والحياة المعتدلة المنظمة ، جعلها شديدة الاختلاف عما كان سائداً



(ا) خريطة الإمبراطورية الرومانية فى عام ٥٢٦ م

١ ــ الإمبراطورية الرومانية ٢ ــ القسطنطينية ٣ ــ الإسكندرية
٤ ــ أثينا ٥ ــ سالونيكا ٦ ــ أدرنة
٧ ــ نيش ٨ ــ اللومبارد ٩ ــ مملكة القوط الشرقيين
١٠ ــ البفاريون ١١ ــ مملكة القوط الغربيين ١٢ ــ الوندال
١٣ ــ روما ١٤ ــ رافنا



(ب) خريطة الإمبراطورية الرومانية من ٥٣٣ ــ ٦٠٠ م

١ ــ مملكة الفرنجة ٢ ــ مملكة القوط الغربيين ٣ ــ القسطنطينية
٤ ــ مملكة اللومبارديين ٥ ــ بريتانى ٦ ــ بوردو
٧ ــ الآلامان ٨ ــ مصر ٩ ــ بيروت

---

(٧) فتوح جستنيان

بإقليم طيبة من التنسك الفردى ، الذى اتسم بالحماسة وروح المنافسة . إذ أجازت قاعدة بنيدكت للمريدين قدراً كافياً من الطعام والنوم والرياضة واللباس ، ولم تستلزم جهداً مفرطاً من الناحية الفكرية أو الجثمانية . ولم تكن ظهرت بعد صنوف الخدمات التى قدمها البنيدكتيون المتأخرون[١] فى حقول التعليم والزراعة والبناء . ومع ذلك فقد أدخل كاسيودوراس نسخ الكتب فى دير أسكويلاس الذى أنشأه فى أواخر أيامه ، ولا شك أن شغفه الشديد بالأدب الكلاسيكى وحبه للسان اللاتينى النقى الآخذ نقاؤه فى الزوال ، قد احتفظ للأجيال القادمة بشعر فرچيل وهوراس، وشيشرون وكوينتليان ، فضلا عن ذلك المزيج الممتاز من الفكر والأدب العتيق الذى قدمه لقراء العصور الوسطى كل من لاكتانتيوس وچيروم وأمبروز وأوغسطين . والظاهر أن أتباع بنيدكت قد عادوا بعد وفاته بقليل إلى نسخ الكتب ؛ وإن لم يكن بنيدكت نفسه وهو الملقب بالعالم بالفطرة والعاقل بالموهبة (Scienter Nescius et Sapienter ind octus)[٢] ممن يشجعون القيام بذلك . إذ الواقع أن جوهر قاعدته هو السكوت المطلق (Summa Quies) . وهى حقيقة يمكن العثور عليها (نقلا عن الإيقاعات اللغوية الفائقة التى اختتم بها نيومان فقرته الذائعة الصيت) فى قول بنيدكت لا شىء يستحق الإعجاب (Nil admirari) ؛ وفى إغفال كل ما فى الدنيا من الخوف والرجاء ؛

---

(١) إن الدوم كثبرت بتلر يميز فى O.S.B. بوضوح بين فكرة بنيدكت الأصلية وبين التطورات التالية التى ألمت بها فى (Benedictine Monachism) الطبعة الثانية فى ٣ لندن ١٩٢٤ .

(٢) Greg. Dial. ii. Praef.

وفى الصلوات اليومية وفى القوت اليومى وفى العمل اليومى ، إذ لا يختلف يوم عن آخر ، إلا فى كونه أقرب من سابقه بخطوة إلى ذلك « اليوم المشهود » الذى سوف يبتلع الأيام جميعا ، وهو يوم « الراحة السرمدية » .

اضمحلال روما

على أن نجاح جستنيان فى مغامرته بالغرب اكتنفته بعض ظلال قاتمة . فإن الفتوح الباهرة التى أحرزتها قوات لا تتناسب وإياها مطلقاً ، كانت تقف قبالتها وتغض من شأنها ضروب شديدة من الضعف والمخاطر . وجملة القول ، إن قبضة بيزنطة على البحر المتوسط الغربى كانت قبضة دولة بحرية . فإن الدولة وإن تخلت عن الولايات الغربية بإفريقية ، لم تبرح تسيطر على المدن الساحلية التى فى يدها حتى مضيق جبل طارق . واستردت من القوط الغربيين المدن البحرية الواقعة بجنوب أسبانيا . وكان إقليم بروڤانس عند ذاك فى أيدى الفرنجة ، واقتصرت ولاية إيطاليا على شبه الجزيرة وحده ، فلم تعد رايتيا (Raetia) ونوريكوم فى أيدى الرومان . وترتب على الفتوح الوندالية أن انضمت جزيرتا كورسيكا وسردينية إلى إفريقية ، بينما صارت صقلية تحت سلطان الإمبراطور مباشرة . ودل سير الحرب القوطية على ما سوف يحيق بأجزاء إيطاليا الداخلية من مصير ، إذ لم تكن القوات الإمبراطورية كافية لحماية تلك الأجزاء من غارات أهل الشمال ، ولذا لم يلبث أن تألف منها بعد زمن قصير الدوقيات اللومباردية . على أن المناطق المحيطة بالبندقية وراڤنا ونابولى وروما فضلا عن جنـــوب كالابريا ظلت تابعة لبيزنطة ، كما أن الحكومة الإمبراطورية (الأرجوانية) فى راڤنا لم تزل من الوجود

إلا بعد قرنين من الزمان[١] . ومما يدل على ازدياد أهمية هذه المدينة ما حفلت به من كنائس رائعة يعود تاريخها إلى تلك المدة . على حين أن نتائج الأحداث التي استمرت نصف قرن ، والتي حولت روما ، أعظم مدن الغرب مجداً إلى مدينة إقليمية مضمحلة متداعية ، وإلى تابع ذليل لمنافستها الشرقية بيزنطة ، تتجلى بقوة في التباين الشديد بين ما في الفسيفساء في حنيات كنيستي القديسين كوزماس وداميان (حوالى ٥٣٠ م .) من رسوم بالغة الروعة وشديدة الأثر ، وهي تعتبر الصورة النهائية للفن الروماني في قرون عديدة ، وبين ما في فسيفساء القديس لورنزو فيوري لومور (حوالى ٥٨٠) من مناظر مستوية مجردة من الحياة . والراجح أنها من إنتاج صناع بيزنطيين يقلون رتبة ومهارة . أما البابوية نفسها فإنها فقدت كل استقلال . فقد عوجل أحد الأحبار بالعزل ؛ وحمل آخر إلى القسطنطينية قسراً ليلقى الإهانة والسجن[٢] . ذلك أن خلفاء جستنيان واصلوا العمل بخطة « السيادة الدينية للقيصر Caesaropapism » التي رسمها ذلك العاهل ، حتى إن البابا جريجوري الكبير ألفى نفسه مضطراً إلى المبالغة في مداهنة الطاغية فوقاس . ومع ذلك فإن سلطة الكنيسة كانت في ازدياد مطرد ؛ إذ تزايد ما كان يمارسه أساقفتها من سلطة دينية ؛ وتوافرت الأموال والضياع المحبوسة عليها . وكان للكنيسة نظام دائم ، فكان بوسعها أن تنتظر حتى يكتمل إعداد الوسائل اللازمة لبسط النفوذ البابوي في أوربا الغربية ، وهو العمل الذي تم على يد البابا جريجوري .

---

(١) قيل « إن ممتلكات الإمبراطورية واللومبارد بإيطاليا بلغ من تداخلها أنه لم يعد في الإمكان قيام وحدة قومية » . ومن هنا كان الفتح البيزنطي مسئولا إلى حد ما عن ضعف الشعور القومي ، الذي كان له أثر كبير فيما تلى ذلك من تاريخ إيطاليا .

(٢) انظر ص ١٩٩ ، بعنوان مذهب الطبيعة الواحدة .

الفصل السادس

جستنيان والشرق

الإصلاحات الإدارية

من المعلوم أن جستنيان اتبع فى الغرب سياسة هجومية ؛ بينما حرص على أن تكون أهدافه دفاعية فى الشرق . وكان يرى ضرورة صيانة الاستقرار على الحدود بإنشاء مجموعات هائلة من الأسوار والقلاع ؛ فإن أعيته الحيل مع البرابرة وجب شراء رحيلهم بالمال . أما الاستقرار فى داخل الإمبراطورية فكان فى رأيه لا يتحقق إلا بالإصلاح الإدارى . فإن هذا الإجراء فضلا عن تقليله من فرص الفوضى ، لا بد أن يحقق لجستنيان موارد مالية بالغة الأهمية ، بازدياد رضاء السكان وتحسين الجهاز المالى . والواقع أن جستنيان لم يقصد التضحية برفاهية رعاياه فى سبيل سد حاجياته المالية . وتقوم فلسفته على ما يلتزمه الإمبراطور (الحاكم) والشعب نحو الإمبراطورية من واجبات متعادلة ، بوصفهما الركنين اللذين تتألف منهما الإمبراطورية ، فالإمبراطور يتولى الغزو والفتح ، بينما يلتزم السكان مساندته فى ذلك .

وقد بدأ جستنيان إصلاحاته بإصدار مرسومين عظيمين فى (٥٣٥ م) . فصدرت تعليمات تفصيلية عن تنظيمات كل ولاية بمفردها ؛ والمقام لا يتسع هنا لغير المبادئ الأساسية . ومن أبرز المساوى فى عهده رسوم التوظف (Suffragia) التى كان على الموظفين أن يدفعوها لكى يحصلوا على وظائفهم والتى هى فى الواقع رسوم للوظيفة أو ثمن مدفوع . وكانت نتيجة ذلك

اضطرارهم إلى تعويض أنفسهم عما دفعوه بابتزاز الأموال وقلة الأمانة بجميع أنواعها . وكان كل الجهاز الإدارى ، ابتداءً من الوزراء الكبار بالعاصمة إلى أصغر شرطى وجندى بالأقاليم،طافحاً بالرشوة والفساد . فهرع إلى القسطنطينية حشود من أصحاب المظالم . ولم يكن الموظفون المركزيون يستطيعون الحصول على أية معلومات صادقة عن الحكومة المحلية بالأقاليم ، فإذا جرت محاسبة الموظفين على تصرفاتهم التمسوا العذر فيما يتطلبه تأدية رسوم الوظائف من مقتضيات . والآن أبطل الإمبراطور هذه الحجة ؛ فلم يعد الموظف يؤدى عند الالتحاق بالوظيفة إلا رسوماً خفيفة . وصدرت أوامر صارمة لتطهير النظام الإدارى . وصار لزاماً على الولاة أن يكونوا ذوى « أيد طاهرة » — وهذه العبارة تردد ورودها كثيراً كأنما هى لزمة ثابتة (Leit - Motif) فى كل ما صدر من مراسيم . وتحتم عليهم توفير العدالة المتكافئة للناس جميعا ، وحماية رعاياهم من عنف العسكريين أو مما يبتزه صغار الموظفين من الأموال ؛ وحفظ التوازن بين الغنى والفقير ، والتزام العدالة فى احترام حقوق الكنيسة والدولة بدرجة متساوية . غير أن واجبهم الأول هو « أن يعملوا على زيادة إيرادات الخزانة ، وأن يبذلوا كل جهدهم فى الدفاع عن مصالحها » . وكانت الأوامر تعزز بيمين رهيبة ، كان على كل حاكم جديد أن يقسمها ؛ فإن أخفق فى أداء واجبه ، تعرض « لشدائد يوم الحساب الرهيب ، واستحق مصير يهوذا ، وبرص جيجزى والفالج الذى أصاب قابيل » . وأُدخلت تبسيطات هامة فى الجهاز الإدارى ببعض أجزاء الإمبراطورية . وضمت الأقاليم حتى جعلت وحدات أكبر واختفت الأقسام الإدارية (Dioceses) . وكانت السلطات العسكرية والمدنية توحد فى بعض الحالات—وهو تغيير يعد إرهاصاً بالألوية (الثيمات Themes) التى ظهرت فى التاريخ البيزنطى . وتقرر أيضاً

تبسيط الإجراءات القانونية ؛ فتيسر تقديم الالتماسات إلى حاكم الإقليم ، غير أن التقدم بالشكوى رأساً إلى القسطنطينية أحيط ببعض الصعوبات . وقد كفلت هذه الإجراءات تحقيق السرعة فى القضاء المحلى ، على حين منعت اشتداد الضغط على محاكم العاصمة .

وكان چستنيان يرجو بهذه « الأفكار الفاخرة » أن يكون هيأ للدولة « عصراً جديداً زاهراً » . غير أن أحداث السنوات التسع والعشرين التالية أثبتت خطأ ظنونه . وأكبر شاهد على ذلك معاودة تجديد المراسيم سنة بعد أخرى طوال تلك المدة وتكرار ما بها من التهديدات والاتهامات بلا نهاية . لقد كان الوضع ميئوساً منه جملة وتفصيلا . ويعود السبب فى ذلك إلى النظام نفسه من ناحية ، وإلى السياسة الإمبراطورية من ناحية أخرى . فإن جهاز الحكومة الهائل المعقد ، الذى تغلغل فيه الفساد قروناً عديدة ، كان بمثابة مقاومة شديدة لكل إصلاح ، كما أن ازدياد حاجة چستنيان المستمرة إلى المال ، كان من القوة بحيث يمنع كل إصلاح .

وتفيض كتابات المعاصرين بذكر ألوان الشقاء التى كان يقاسيها رعايا چستنيان التعساء . فإن لكل ولاية قصصها التى ترويها عما حل بها من مظالم ، وعن الظالمين المعروفين بالسمعة السيئة . وكانت تدور فى الأسواق حول هؤلاء الرجال مجموعات لا آخر لها من الحكايات والقصص . فمنها أن يوحنا « المنتفخ الأوداج » حاكم آسيا أهان الأسقف ، وما زال برجل شيخ حتى دفعه إلى الانتحار واغتصب أبناء الأعيان . واشتهر يوحنا « المقص » بإيطاليا بمهارته فى قرض العملة . وفى العاصمة نفسها استحدث يوحنا القبادوقى ، حينما كان رئيسا للإدارة المالية ، غرفة للتعذيب فى سراديبه

مقره الرسمي يزج فيها كل ممتنع عن دفع الضرائب ، على حين أن تريبونيان، وهو وزير العدل ، كان يتجر علناً فى أحكام المحاكم . وكلما زادت الحاجة تقرر فرض ضرائب جديدة ؛ وأضيفت الاحتكارات والتعريفات الجمركية إلى الأعباء التقليدية المتمثلة فى ضريبة الأرض ، فضلا عن الضرائب المتعلقة بنقل الجنود وإمدادهم بالطعام[1] . على أن مدن آسيا الصغرى التى استقرت أحوالها ، وازدهرت تجارتها فى أثناء القرن الماضى ، فهيأت للإمبراطورية فى الشرق أن تتجنب الإفلاس الذى اجتاح الغرب ، — أخذت تحس الآن بالوطأة التامة لمطالب جستنيان : — ذلك بأن بلاد البلقان تعرضت للخراب والنهب على أيدى الصقالبة والهون ، وألحقت غارات الفرس الخراب بسوريا ؛ فلم يعد بوسع الحكومة أن تبتز مزيداً من الخراج من هذين الإقليمين . وعلى الرغم من كل شيء لم تكن الموارد كافية : حتى لقد انتهى الأمر بذلك الحكم الطويل إلى إهمال القلاع وتأخير أعطيات الجند ، وإلى تخفيض حاميات الثغور* ؛ ثم تم إغلاق حلقة الفساد المفرغة على عنق الدولة ، حينما التزمت الإمبراطورية ، وقد تجردت من كل وسائل دفاعها أن تؤدى لجيرانها البرابرة من الجزيات والإعانات المالية ما زاد فى خراب اقتصادياتها الزائفة .

قوانين جستنيان

على أن ما اشتهر به جستنيان من الميل إلى النظام والاتساق ، وجد فى مجال التشريع منفذاً صالحاً . وكان الواجب المطروح بين يديه ضخماً هائلا ، كما أن العمل الرائع المنجز كان جليلا حقاً مع وضع مالقيه من الصعوبات

---

(١) انظر ص ٢٦ بعنوان دقلديانوس وقسطنطين .

* الثغور : كما ورد فى المعاجم : هى المواضع التى يخاف العدو منها ، أى هى مناطق الحدود . [المترجم]

موضع الاعتبار . وكان القانون الرومانى يتشكون من مجموعتين تعرفان عادة باسم القانون القديم (Ius vetus) والقانون الجديد (Ius novum) . وكان القانون القديم يتألف أساساً من قوانين ولوائح الجمهورية والإمبراطورية الأولى، ومن مراسيم السناتو فى أثناء الفترة نفسها ، ومن شروح الفقهاء المعاصرين . واجتمع من كل ذلك خليط هائل : وكان بعضها بعيد المنال لا سبيل إلى الوصول إليه ، وبعضها الآخر قد أصبح مهجوراً ، ومن ثم كثر ظهور التضارب والتناقض وصار من اليسير الاستناد إلى رأى فقيه آخر ، ومن هنا لم يعد القاضى ولا المحامى يشعر بالاطمئنان إلى أن رأيا غريباً قد لا يظهر أمامه فى المحكمة فيقلب حججه رأساً على عقب . أما القانون الجديد فاحتوى على أوامر الأباطرة فى الأزمنة التالية . وهنا أيضاً يفتقر الأمر إلى الصدق واليقين، فربما صح أن يبطل مرسوم مرسوماً آخر ، إذا لم تجتمع حتى وقتذاك مجموعة كاملة من المراسيم . غير أن هذه المشكلة أكثر يسرا من المسائل الأخرى . ففى السنة التالية لتولى جستنيان العرش (٥٢٨) ، بدأ عمله العظيم بتعيين لجنة مؤلفة من عشرة أعضاء لمراجعة القانون الجديد (Ius novum) ، وإزالة ما فيه من متناقضات وزيادات ، وجمع أثمن ما تبقى فى مجلد واحد مؤلف من عشرة كتب — وكان هذا هو المعروف « بمجموعة جستنيان القانونية » (Codex Justinianus) الشهيرة ، وكان نجاح اللجنة مشجعاً للإمبراطور على المضى إلى القانون القديم (Ius vetus) . فتألفت لجنة جديدة فى (٥٢٠) لمعالجة ما يدخل فى دائرة عملها من قدر هائل من الدراسات القانونية ، التى تتألف مما لا يقل عن ألفى بحث . وكان على اللجنة أن تختار من بين كتابات جميع الفقهاء المعترف بقدرهم نصاً واحدا للقانون عن كل نقطة ؛ وكان عليها أن تغير عبارات المؤلف كلما تطلب الوضوح ذلك أو دعت إليه مقتضيات

الزمان . ومن نتائج هذه العملية ظهور الخمسين كتابا التى تحوى ما يسمى الموجز القانونى (Digest or Pandects) ، وهو أهم كتب القانون التى شهدها العالم ، لا فى حد ذاته فقط بل فى الأثر الذى خلفه فى جميع التشريعات التالية . على أنه معرض للنقد من وجوه عدة . ذلك أن العمل تم فى سرعة ، ولم يكن الترتيب والتنظيم مثالياً . وهو ليس فى الواقع تقنيناً أى إخضاعاً للقوانين السابقة لقاعدة منتظمة . وإنما هو أقرب إلى بعض مبانى ذلك العصر ، التى كانوا يعمدون فيها إلى ما اشتهر به عصر متقدم من الرسوم الدقيقة الغائرة أو البارزة ، فيزجون بها بين الأحجار الخشنة ومبانى القرميد التى غلب عليها طابع العجلة ، لكى تكون أحجارا عادية بحتة فى مبنى قبيح . ولا شك أن أجمل ما عبرت به روما عن نفسها وعن عظمتها يصح التماسه فى فن التشريع . فما اتسمت به صيغها القانونية من الرشاقة ، وما اتشحت به حلولها من الروعة والجمال ، أشياء لا سبيل إلى مباراتها . ولكن علماء القانون فى القرن السادس لم يكتفوا بتلخيص ما أورده أسلافهم المشهورون ، بل أغفلوا كل ما استعصى عليهم فهمه من تفسيرات حاذقة ، وتعرضت العبارات الجوهرية للحذف والتشويه ودخل فى النظام الرومانى أفكار هللينستية وشرقية .

وربما لم يكن هناك مفر من وجود هذه المعايب . إذ لا سبيل إلى أن يتحقق فى زمن جستنيان وأحوال عهده ، ما يفوق القوانين التى صدرت . على أنها بحالتها الراهنة ، إنما هى تعبير كامل عن الحقبة . وهى فى إصرارها على استخدام اللغة اللاتينة والإفادة من التراث اللاتينى وفيما تضمنته من مبادئ عن الحكم الاستبدادى للإمبراطور ، إنما تنظر إلى ما خلفه القياصرة

من قبل من سجل حافل . وهى بما يتجلى فيها من زيادة السمات الإنسانية ، ومن اعترافها بحقوق الفرد وما تفرضه من قيود على السلطة الأبوية (Patriapotestas) ، إنما تسجل الشوط الطويل من التقدم الذى قطعه التفكير القديم وظهر تأثير الكنيسة واضحاً فى ازدياد صرامة القوانين المتعلقة بالطلاق والاعتداءات الجنسية .

ولكى يتم جستنيان عمله التشريعى أصدر « الشرائع Institutes » ، وهو كتاب تعليمى ابتدائى وضع ليستخدمه الطلبة . وتقرر أيضاً إعادة تنظيم دراسة القانون ، فصدرت لوائح تنظيمية تفصيلية للجامعات الكبرى الثلاث فى روما والقسطنطينية وبيروت . فلم يترك الإمبراطور شيئاً تتحكم فيه الصدفة أو يلم به التغير . وحذرت السلطات الأفراد من إصدار شروح جديدة للقوانين ؛ وحتمت أن تكون جميع الترجمات حرفية . ولم يعد التشريع مباحاً إلا للإمبراطور نفسه . ومن سخريات الدهر العجيبة ، أنه على الرغم من الإصرار على أن تكون اللاتينية هى اللغة ، فإن معظم هذه القوانين الأخيرة صدرت باليونانية ، حتى « يحسن الأهالى فهمها » ، على حين أن العقوبات مهما اشتدت ، لم تستطع الحيلولة دون ظهور فيض من الشروح والتفسيرات اليونانية للموجز القانونى (Pandects) والدساتير التى لا سبيل الى تبديلها .

وفى الغرب ، لم يكد الناس يحسون بالأثر المباشر لمجموعة قوانين جستنيان . إذ لم يكن القانون الرومانى معروفاً إلا عن طريق القانون الذى أصدره قبل ذلك بقرابة ثلاثين سنة ألاريك ملك القوط الغربيين ، ولم يكن إلا مصنفاً عملياً وضع ليستخدمه رعاياه فى غالة وأسپانيا، وفيه وفق المشرع بمهارة بين المفاهيم القانونية الرومانية البسيطة وبين ظروف الزمان والعرف القبلى

لدى القوط . ولم يشرع الناس فى دراسة مجموعة قوانين چستنيان دراسة منتظمة فى بروڤانس ولومباردى وراڤناو بولونيا إلا فى أثناء القرن الحادى عشر. على أن القانون الرومانى لم يقتصر تأثيره فحسب على المناطق التى يغلب على سكانها الطابع الرومانى ، بل امتد أيضاً إلى ما استلزمه نمو التجارة ودعاوى الكنيسة وانتعاش الفكر القانونى من فروق بالغة الدقة ، ومن أنماط منطقية أكثر . وقد أصبح القانون فى الأزمنة التالية سلاحا قوياً فى يد كل أمير طموح أو أسقف جشع ، يحاول الاعتداء على قيود الإقطاع باتخاذه لنفسه ما كان لإمبراطور كچستنيان من الامتيازات الاستبدادية .

الوثنيون والهراطقة

ولعل الاستبداد الذى عنه نتحدث قد تجلى فى أعظم صورة فى فلك الكنيسة ، حيث أدى إلى ما يسمى أحياناً باسم « الاستبداد الروحى الدنيوى » . ولم يقنع چستنيان بتنظيم الكنيسة بما أصدره من تشريعات مفصلة؛ إذ كان يعمد فى المنازعات المذهبية إلى أن يستخدم إلى أقصى حد حقوقه كإمبراطور فى عقد المجامع الدينية وتعيين الحدود العقائدية وكان وزراء الإمبراطور يرأسون الجلسات ، وكان الرسل ينطلقون من القصر وإليه ، وإذا كان بالقرار شىء من الشك ، لجأ الإمبراطور فى بعض الأحوال إلى التدخل بشخصه . ومع أن الكنيسة والدولة كانتا منفصلتين من الناحية الرسمية[1] ، فالواقع أنهما كانتا شيئاً واحداً ، هذا إلى أن الاعتبارات السياسية كانت الرائد الأساسي لچستنيان على طول الطريق الذى قادته فيه من قبل مصالحه

---

(١) القانون الجديد ٦ ، Praef (عام ٥٣٥ الميلاد) .

اللاهوتية . وكانت « وحـدة الإمبراطورية » فى المقام الأول بين هذه الاعتبارات ؛ ولا تتحقق الوحدة إلا بوسيلتين : القوة والمصالحة . ولو تأملت المعاملة التى كان يلقاها الهراطقة لوجدتها تجمع بين الطريقتين ، وتعتبر فى الوقت ذاته مثالا للوسيلة التى اختلطت بها الأمور السياسية والاعتقادية فى السياسة الإمبراطورية . فالمعروف من الناحية النظرية أن المتهرطق إنسان فقد كل ماله من حقوق ، العامة منها والخاصة . قال الإمبراطور : « من العدل أن نحرم من متاع الدنيا كل من لا يعبد الإله الحق » . ولـكن الواقع المعمول به ، هو أنه كان هناك كثير من الفروق والدرجات . فمن اليسير سحق كل الهرطقات التى ليس لها أهمية سياسية . فـكان الموت هو العقوبة الوحيـدة للمانويين ؛ وكانت العادة فى شأنهم أن يحرقوا أحياء . أما الوثنية وهى ، فى جل شأنها ، بقايا ضئيلة لخرافات متناثرة ، فـكانت تؤخذ بالشدة . على أن المعتقدات القديمة كانت لا تزال متوطنة فى الأودية المنعزلة والمدن المنقطعة على التلال ؛ ففى بعلبك مثلا كانت مناسك عتيقة سحيقة القدم لا تزال تقام بمعبدها ، كما أن أمون المشترى كان لا يزال يدلى بنبوءاته فى الصحراء الليبية ، على الرغم من تراجعه إلى واحة صعبة المرام ، حيث كان يعبد فيها مع الإسكندر الذى أضحى آنذاك إلهاً . وقد حول هذا المزار المقدس إلى كنيسة القديسة مريم ، وتحول أيضاً معبد إيزيس بجزيرة فيلة إلى كنيسة مسيحية . ولم يبرح للوثنية أنصار بين الطبقة المتعلمة ، ولذا تعرضوا للقوانين الصارمة . فلم يعد يجوز لهم الميراث ، أو إبرام العقود ؛ وحرم عليهم تولى أى منصب ، إلا ما يعد توليه عقوبة فى حد ذاته مثل عضوية مجالس المدن (Curia) . وأسفرت التحريات بالقسطنطينية عن كثرة الوثنيين بين ذوى المـكانة ، كالأطباء وأساتذة الجامعات ، فتعرض كثير منهم للجلد والسجن .

وفى فلسطين كان اليهود قد فقدوا مركز عصيانهم . وخضعوا رغم احتجاجهم للمراسيم التى أصدرها الإمبراطور بتنظيم متون كتبهم المقدسة ؛ على أن السامريين — وقد أثارتهم الضرائب الباهظة ، وفدحتهم اضطهادات المسيحيين لهم — عمدوا إلى إشعال الفتنة فوق رءوس تلالهم ، فاتخذت حيالهم من الإجراءات التأديبية القاسية ما كاد يفنيهم . وفى الغرب ، كانت الاعتبارات السياسية أبرز من هذا قليلا . إذ تقرر حرمان الدوناتيين بإفريقية من ممتلكاتهم وكنائسهم ؛ فكانوا من ثم صفاً واحداً متحالفاً مع القوى المناهضة للإمبراطور . وكان رجال الكنيسة الأريوسية منظمين تنظيما قوياً ، وكان جستنيان ميالا إلى الإبقاء عليهم على شريطة أن يعتنقوا العقيدة السليمة المقررة ، ولكن كراهية الكاثوليك لهم كانت حادة لا تلين بعد الذى لاقوه منهم من شديد العناء ، خاصة وأن البابا كان يؤيد هؤلاء الكاثوليك . ولذا استجاب جستنيان لمطالبتهم بالانتقام من الأريوسيين . وفى إيطاليا ساعدت عوامل أخرى على الاستيلاء على كنائس الأريوسية . واتخذت ميولهم نحو القوط ذريعة يتعلل بها أعداؤهم ، كما كانت ثرواتهم الضخمة حافزا لحسام الناهبين .

مذهب الطبيعة الواحدة

وكان لأنصار مذهب الطبيعة الواحدة (Monophysites) وضع مختلف تماماً . فإنهم كانوا يسمون حتى (٥٤١) باسم « المترددين » ، وكان جستنيان يناقشهم بالمنطق بوصفهم إخواناً خاطئين . ثم وافاهم بعد ذلك بإجراءات بالغة الشدة ، غير أنه كان دائما يلوح لهم بالوفاق . وكانت المشكلة جوهرية الأهمية لسلامة الإمبراطورية . فمن جهة كانت مدن الطبيعة الواحدة القوية الموفورة الرخاء تقع بمصر وآسيا الصغرى ، اللتين تعتبران العمود الفقرى

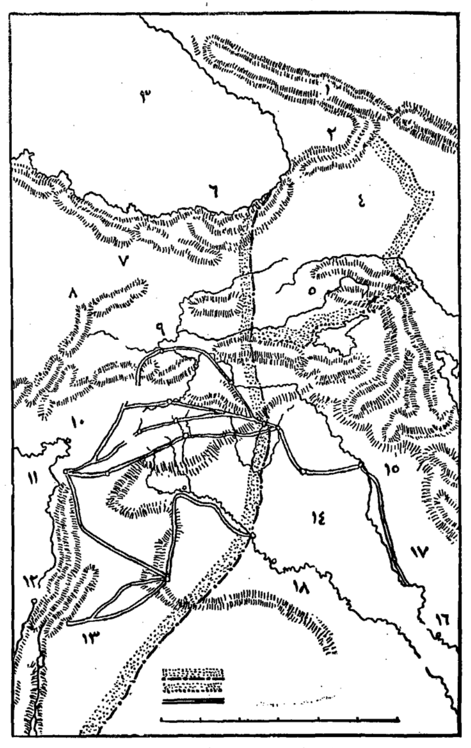
لميزانية الإمبراطورية . ومن جهة أخرى استقرت المعارضة الكاثوليكية بالقسطنطينية ، ويتزعم الجميع البابا — تؤيده الغالبية العظمى من أساقفة الغرب . على أن الاحتفاظ بولاء الشرق وتبعيته ، بعد أن تهددته فعلا المصالح المتضاربة والعداوات القومية ، دون ضياع تأييد الغرب الذى تم فتحه حديثاً ، كان يعتبر عملا عسيراً ، ربما كان لا رجاء فيه . ومهما تكن الحال ، فإن سياسة جستنيان المعقدة لم تكن غير جديرة بإمبراطور عظيم . ولقى جستنيان فى هذه السياسة مساندة صادقة من ثيودورا المعروفة بميولها نحو مذهب وحدة الطبيعة . وأظهرت السنوات الأولى من حكمه أنه كان على استعداد للتراجع عن الموقف الكاثوليكى المتطرف الذى اتخذه جستين . وتوقف اضطهاد أنصار الطبيعة الواحدة (Monophysites) فى (٥٢٩) وأعيد المنفيون . وفى (٥٣٢) انعقد مؤتمر فى بيزنطية . غير أنه أخفق فى التوفيق بين الفئتين ؛ ولكن جستنيان لم يفقد الأمل ، وإن شعر أن الحكمة تقضى بإصدار مرسوم يعلن تمسكه بالعقيدة الرسمية السليمة رغبة منه فى طمأنة البابا . وفى (٥٣٥) كان نجم أصحاب الطبيعة الواحدة فى صعود . وتعين أحدهم وهو أنثيميوس أسقفاً للقسطنطينية ، فبادر إلى الاتصال ببطريركى الإسكندرية وبيت المقدس . وفى تلك الأثناء كان يوحنا من تلاس (Tellas) ، وهو مبشر شديد الحماسة ينشر مبادئ وحدة الطبيعة فى أثناء طوافه بآسيا الصغرى . وهرع رهبان وحدة الطبيعة إلى العاصمة ، وأقبل الناس على تعميد أطفالهم فى كنائس وحدة الطبيعة ، وفى تكريم قسوس مذهب وحدة الطبيعة الذين يحلون بهم ضيوفاً . على أن السنة التالية شهدت تغييرا كبيرا . ذلك أن البابا أجابيتوس وصل إلى بيزنطة فى سفارة من قبل القوط الشرقيين . فلم يلبث حتى أصدر قرار الحرم على أنثيميوس ، وتمكن بمناصرة الحزب الكاثوليكى من عقد مجمع دينى تقرر

فيه خلع أنثيميوس وبعض الأساقفة ، ثم حمل جستنيان بعد ذلك على التصديق على القرار . ومن ثم بدأ الاضطهاد للمرة الثانية . وطورد رهبان وحدة الطبيعة فى سورية وأرمينية وأرض الجزيرة وحرموا من الطعام وضربوا بالسياط وأحرقوا أحياء فى الأسواق . وقبض أفرايم أسقف أنطاكية على يوحنا التلاسى وأمر بإعدامه بالتعذيب البطىء . ثم مات البابا بعد ذلك بقليل ، ولكن قاصده الرسولى القدير بيلاجيوس كان يحظى بنفوذ ضخم فى البلاط البيزنطى . وحتى مصر نفسها فرض فيها الخضوع مؤقتاً لقرارات خلقدونية على الأهالى الذين مس الوجل قلوبهم .

وعندئذ قامت ثيودورا بحركة انتقامية درامية . إذ إن روما التى احتلها وقتئذ بليساريوس ، أجبرت على قبول تعيين الشماس اللين العريكة فيچيليوس مرشح ثيودورا بابا جديداً عليها . وانتعشت من جديد آمال جستنيان فى وحدة الشرق والغرب . واسترد حزب الطبيعة الواحدة فى بيزنطة مركزه . وقام يعقوب بارادائيوس الراهب المونوفيزيتى الدءوب ، وهو الذى تنتمى إليه الكنيسة اليعقوبية — بالدعوة التبشيرية التى سبق أن قام بها يوحنا التلاسى بآسيا الصغرى ، وفاق سلفه فيما ظفر به من نجاح . ومنذ تلك اللحظة حالف الحظ أتباع الطبيعة الواحدة وازداد نفوذهم حتى وفاة ثيودورا فى (٥٤٨) . وبلغ الكفاح ذروته فى المسألة الشهيرة المسماة « بالفصول الثلاثة » التى دامت من (٥٤٣ — ٥٥٤)[1] . وبغض النظر عن المؤامرات التى ارتبطت بها هذه المسألة ، فإنها تعد مرحلة جديدة فى سلسلة الجهود الطويلة المبذولة للتوفيق بين الشرق والغرب ، والتى ابتدأت برسالة الاتحاد لزينون وانتهت بالحل الذى

(١) أنظر التذييل ب فى آخر الكتاب .

اقترحه هرقل وهو نظرية « تجدد الروح القدس Monergism » . ولم تلبث الأقاليم المونوفيزتية أى المؤمنة بوحدة الطبيعة أن انتقلت بعد ذلك إلى سيطرة المسلمين ، وبذلك لم يعد ثمة ما يدعو إلى مناهضة النزعات الانفصالية فى سوريا ومصر . ولا شك أن ما اتبعه الإمبراطور من وسائل لتحقيق سياسة اتحاد الدولة سياسياً ودينياً ، والتى لابد لكل إمبراطور أن ينتهجها ، يعد شيئا جديرا بالاهتمام . واستهل جستنيان النزاع بقرار أصدره فى (٥٤٣) بإبطال « الفصول الثلاثة » . وكان يرجو موافقة البابا على تصرفه ، غير أن البابا ڤيچيليوس وقد استقر فى الكرسى الرسولى ، لم يكن ليقبل المذلة . فكان لابد من اختطافه وحمله إلى بيزنطة وتعريضه لأنواع مختلفة من التهديدات والإهانات حتى رضى فى (٥٤٨) بإنكار « الفصـــول الثلاثة » . وكان إصداره حكمه (Judicatum) على هذا النحو سبباً فى إثارة عاصفة من الاحتجاج بين أساقفة إفريقية ودالماتيا وإاليريا ، وفى (٥٥٠) أذن له جستنيان بسحب « حكمه » على أمل النجاح فى هـذا السبيل بوسائل أقل عنفا . فلما أن حبط رجاؤه ولم يتحقق منه شىء عاد فلجأ إلى القهر فعذب الإفريقيين وأساء معاملة ڤيچيليوس الذى لم يكن فى الحقيقة إلا سجيناً فى بيزنطة ، وكان ذلك عاراً وفضيحة عنـــد المؤمنين . واشتدت العلة بالبابا ڤيچيليوس فلم يلبث فى (٥٥٤) أن أذعن ، فأعلن آخر الأمر بطلان « الفصول الثلاثة » . وعندئذ حاول جستنيان أن يفرض إرادته على الأسقفيات الغربية ، ولكن إيطاليا أظهرت العناد . وخلف ڤيچيليوس على الكرسى البابوى پيلاجيوس ، القاصد الرسولى ببيزنطة ، الذى كان تزحزح قليلا عن موقفه الكاثوليكى ليهدئ من ثائرة جستنيان.



(٨) خريطة الحدود الشرقية للإمبراطورية الرومانية

١ ــ جبال القوقاز   ٢ ــ لازيكا (كولخيس)   ٣ ــ البحر الأسود

٤ ــ أيبريا   ٥ ــ أرمينيا   ٦ ــ طرابيزون

٧ ــ بنطش الكبادوكية   ٨ ــ أرمينيا الصغرى   ٩ ــ كوماجينى

١٠ ــ كيليكيا   ١١ ــ أنطاكية   ١٢ ــ بيروت

١٣ ــ دمشق   ١٤ ــ أرض الجزيرة   ١٥ ــ الموصل

١٦ ــ اكتيسفون (طيشفون) المدائن   ١٧ ــ دورا   ١٨ ــ الفرات

على أن أساقفة شمال إيطاليا ، وقد امتلأت قلوبهم بالغيرة والحمية لما صدر من الكرسي الرسولي بروما من اعتداءات ، اغتنموا الفرصة ، فقطعوا ما يربطهم به من علاقات ، ودام هذا الانشقاق الصغير حتى نهاية القرن السابع .

وجملة القول أن جستنيان قد أخفق . فظل الشرق منشقاً عليه ، أما الغرب ، فإنه على الرغم من خضوعه ظل غاضبا متذمراً . وأخذت الهمسات المنذرة بالثبور تعلو وترتفع في الآذان . وصرح فاكوندوس بإفريقية قائلا : « إن المسيح وحده هو الملك والقسيس . أما الإمبراطور فينبغي له أن ينفذ قانونات الكنيسة (Canons) وليس من شأنه أن يتبناها ولا أن يتعداها » . ومع ذلك فإن ما اتخذه جستنيان من مثل أعلى للوحدة كان عظيما ؛ وينبغي ألا يغرب عن بالنا عند تقدير سياسته نحو الكنيسة ما يعتبر فيما يبدو أروع مظهر لها ، وهو البعثات التبشيرية في الخارج ، التي حملت عقيدة بيزنطة وثقافتها من وسط أوربا إلى الشرق الأقصى ، وأقامت التقاليد التي استمرت طوال العصور الوسطى ، ووهبت صقالبة روسيا ودول البلقان من تراث الفن والعلوم ما يضارع في أهميته ما أسدته روما للأمم الغربية من العلوم والفنون .

البعثات التبشيرية والديبلوماسية البيزنطية

ومن آثار سياسة جستنيان وتدبيره ، الإفادة من التجارة والتبشير والديبلوماسية مجتمعة . وأكثر ما يظهر ذلك في بلاد الغرب حيث تصادف قيام أوجه شبه عجيبة بين السياسة البيزنطية وبين السياسة التي تنتهجها الدول العظمى في الشرق الأدنى في العصور الحديثة . إذ امتد من دمشق إلى خليج

العقبة خط طويل من الأسقفيات ، كانت فيها بصرى والبتراء حاضرتين لمطرانيتين . ثم تجيء بعد ذلك الصحارى وساحل البحر الأحمر وبلاد الحجاز ، وإلى الجنوب من ذلك بلاد حمير ، وكانت تقيم بها جاليات يهودية كثيرة ، وقد تخلى معظم الحميريين عن عباداتهم البدائية واعتنقوا العقيدة اليهودية . ورسخت قدم المسيحية فى الخليج الفارسى بعد أن انتشرت من فارس التى ازدهرت بها أسقفيات عديدة ، بل لقد تغلغلت إلى اليمن وإلى نجد داخل الجزيرة العربية . وتصادمت المصالح الفارسية والبيزنطية فى هذه المناطق بعضها ببعض ، وذلك لاهتمام كل منهما بالتجارة الساحلية والهندية . وحدث قبل انتهاء القرن الخامس بفترة طويلة ، أن بيزنطة عززت جهودها الديبلوماسية . وشجعت حاكم أكسوم (الحبشة) على المطالبة بمملكة حمير ذاتها . ثم اعتنق المسيحية ، ويرجع إلى هذا التاريخ قيام الكنيسة الحبشية التى لا تزال باقية إلى اليوم . وبفضل مساعدة بيزنطة ، امتد سلطان أكسوم على حمير سنوات عديدة ، على أن هذه البلاد كانت من البعد عن بيزنطة ما يجعل مساندتها لها ضئيلة الأثر . وفى قريب من (٥٧٠) سئمت فارس من مؤامرات بيزنطة فاستولت على تلك المنطقة (بلاد حمير) ، وظل يحكمها حتى ظهور الإسلام مندوب فارسى . ولعب المبشرون المسيحيون بصعيد مصر دوراً لا يقل عن هذا أهمية . ذلك أن بعثة مونوفيزيتية حملت النوباد وهم قبيلة بدوية شرسة على اعتناق المسيحية حوالى سنة (٥٤٠) ، ثم استخدموا لكبح جماح جيرانهم البليميين الذين هم أشد شماسا ، حتى طردوا إلى الصحراء ، فحل محلهم النوباديون على الحدود . ويبدو أن لونجينوس ، وهو شخصية جديرة بالإعجاب ، قد اجتاز تلك المناطق حوالى عام (٥٧٨) فى أثناء رحلاته التبشيرية وأوغل حتى بلغ مياه النيل الأزرق العليا . وغنى عن البيان ، أن الإحساس بالفوارق الطائفية لا يكون بالغ الشدة فى معاقل الإمبراطورية الأمامية ، وعرف جستنيان كيف يختار خير الرجال ، وكان

يبذل لأنصار مذهب وحدة الطبيعة (المونوفيزيتيين) الذين يعملون فى مجال التبشير من التأييد ما لعله كان يتردد فى منحه لهم لو كانوا أقرب إلى دياره .

لقد كان الراهب جزءاً أساسيا فى ديبلوماسيته . فكم فى بلاط بربرى أضحى فيه القسوس البيزنطيون مستشارين موثوقا بهم لدى الملك ، ومسيطرين على النساء الحريصات بفطرتهن على اعتناق دين ينطوى على الأسرار ، على حين أنه جاء فى أعقاب المسيحية ثقافة جديدة ودنيا جديدة من الأفكار . ولم تكن الديبلوماسية تعوزها أيضا الوسائل المادية. فإن شيوخ البربر كانوا يفخرون بارتداء البرانس زيا للاحتفالات الرسمية وبالتيجان والقلادات والأوسمة وأحذية الأرجوان التى ينعم عليهم بها جزاء ولائهم . ولأسباب من هذا القبيل ، تقرر تعيين ملك لازيقا ببلاد القوقاز ، قائدا بالحرس الإمبراطورى . وأنعم على حكام آخرين بزوجات من العائلات البيزنطية النبيلة وكثيرا ما كان أبناؤهم يرسلون لتلقى تعليمهم فى البلاط الإمبراطورى. ثم إن الوسائل الرومانية التقليدية لم تغب عن بال القوم . فإن المنفيين السلبيين والأفراد المتنافسين والمطالبين بالعروش والمغامرين كانوا يشجعون على زيارة العاصمة ، ويزودون الدولة بحجة حاضرة تتذرع بها بيزنطة للتدخل فى الشئون الداخلية لبلادهم . وكانت الأراضى والإعانات المالية تمنح بسخاء وسرف ، ودأبت بيزنطة على أن تمارس السياسة المجربة التى تقضى باتخاذ لص للقبض على لص[1] ، فكانت الدولة تؤلب شيوخ المغاربة بعضهم على بعض . وكانت تناصر الفرنجة على القوط ، وكانت تستعين باللومبارد لكبح جماح الجيبيد ، وبالهون لمناهضة البلغار ، وبالآفار للتغلب على الهون .

---

(١) انظر ص ٩٠ ، ٩٨ ، ١١١ .

الحدود الشرقية

على أن الدفاع عن الحدود الشرقية الطويلة هيأ الفرصة لاستخدام هذه الوسائل جميعا . ومن خلف تلك الحدود كانت تقع الإمبراطورية الفارسية العظيمة ، وهى الدولة الوحيدة التى كانت بيزنطة تعاملها معاملة الند . وقد أثمرت الخصومة الطويلة الممتدة أجيالا بين الدولتين تفاهما متبادلا ، بل لقد أدت إلى نشوء اقتراحات بإقامة ضرب من « السياسة العالمية المشتركة Weltpolitik » . وقد صرح سفير فارس فى إحدى المناسبات بأن « الإمبراطوريتين الرومانية والساسانية كانتا أشبه بمنارتين تهديان العالم . ومن ثم فقد وجب عليهما أن يتآزرا بدل أن يتهاجما » . وكتب كسرى إلى الإمبراطور موريقيوس يقول : « هما للعالم بمثابة العينين للإنسان » . ويتضح للقارئ من عرض مختصر لجغرافية هذه المنطقة أن التضاريس الطبيعية قد قامت بدورها فى الإبقاء على خط الحدود بين الدولتين ثابتاً إلى حد ما ، وأسهمت أيضاً مثلما تفعل اليوم فى تنظيم الوسائل الكفيلة بالدفاع عن هذه الحدود . ففى الشمال كانت بلاد القرم مفتاح نظام الدفاع الذى أقامه جستنيان إزاء ما يصدر عن السهوب من تهديد ، فأمعن فى تحصينها وشحنها بالحاميات . ومن هذا الموضع تفرعت خطوط التجارة ومارست بيزنطة نفوذها على جنوب الروسيا . وكان القوط بقبائلهم الأربعة (Tetraxite Goths) النازلون إلى شمال القرم مباشرة حول بحر آزوف ، قد اعتنقوا المسيحية من زمن بعيد ، وربطهم الخوف من الهون ربطاً وثيقاً بالإمبراطورية . وإلى الغرب ، بين نهرى الدون والدانوب ، ينزل الهون الكوتروجوريّون ، الذى تنصر ملكهم جرود (Grod) ، بينما كان جستنيان نفسه يقف إلى جوار حوض المعمودية عرّاباً له . على أن نزولهم على البحر الأسود كان مصدر خطر ، ومن ثم لقى الهون الأوتريجوريون الذين أقاموا شرق الدون ،

ويعدون أقل خطراً لأنهم أكثر بعداً ، — التشجيع من بيزنطة على مهاجمة ذوى قرباهم . وعند نهاية الطرف الشرقى للبحر الأسود ، تقع بلاد كولخيس التى رحل إليها جاسون (Jason) يوما ما طلبا للفروة الذهبية . وقد فسرت هذه الأسطورة على أنها رواية شعرية عما يجلب إلى البحر الأسود عند تلك النقطة من الهند والصين من تجارة غالية الثمن . وسواء أكان طريق القوافل مستخدماً عبر آسيا الصغرى فى ذلك التاريخ المبكر أم لم يكن معروفا ، فإنه حدث فى القرن السادس الميلادى أن لازيقا ـ وهو اسم ذلك الإقليم وقتذاك ـ كانت ذات أهمية قصوى لحراسة رأس الجسر عند أقصى نقط الاتصال شمالا بين أوربا والشرق الأقصى . وكانت تحسدها فارس التى لم يكن لها فى تجارة الحرير الضخمة إلا دور الوسيط بل إنهـا أدركت أن دورها تعرض لتهديد طريق آخر يمر فى شمال ممتلـكاتها . ولأسباب مشا كلة لهذه عزم جستنيان على المحافظة على ما كان له من نفوذ حاسم على « لازيقا التابعة لنا » ، كما أسماها سبقاً منه للحوادث . إذ إن قيمتها التجارية كانت عظيمة الأهمية : لأنها كانت تزود الإمبراطورية بالفراء والجلود والرقيق وتحصل منها على الملح والخمر والقمح . وكانت من الناحية العسكرية ذات موقع يناسب الدفاع أبلغ مناسبة . وكانت بما قيض لها من جبال مكسوة بالغابات وممرات ضيقة ، تزود الدولة بحاجز يحول دون غارات الهون من الشمال ويمنع فارس فعلا من الوصول إلى البحر الأسود . وحدث فى زمن الإمبراطور جستين الأول أن ملك لازيقا قدم فعلا إلى القسطنطينية يطلب التنصير وتزوج من امرأة بيزنطية وسمح بنزول حاميات بيزنطة فى قلاعه . وواصل جستنيان هذه السياسة ، مؤيداً الملوك على النبلاء المتمردين ومناهضاً نفوذ الفرس ، وعلى الرغم من النكسات المؤقتة استطاع المحافظة على سيطرته لا على لازيقا فحسب ، بل على كثير من القبائل القوقازية الأخرى أيضاً مثل الأباجيـة (Abasgi) والهون

السابيرية الذين كانت بيدهم « أبواب قزوين » ، التى كان أى مغير شمالى يستطيع من خلالها أن يهدد كلا من فارس وبيزنطة . على أنه لم يصل إلى مثل ذلك الحد من التوفيق فى إيبيريا (وهى جورجيا الحديثة) ؛ إذ إن موقعها الجغرافى جعلها تعتمد على فارس . وفى الجنوب منها كانت الإمبراطوريتان الفارسية والبيزنطية تسيران جنباً إلى جنب على امتداد حدود الفرات . وكانت مشكلة الفرات مصدراً لمتاعب روما مدة خمسة قرون ونصف . فهل كان الفرات حقاً خير خط للحدود ؟ الواقع أن مجراه كان بالغ الاختلاف عن مجرى نهرى الراين والدانوب ، اللذين كانا بصورة إجمالية غير مدققة — يحصران ممتلكات روما فى أوربا . أما الفرات فكان لا يجرى حول أرمينية ولا يحميها ، بل الأمر على العكس ، فإن الهضبة الأرمينية تحصر المنابع العليا لكل من الدجلة والفرات ، وبذلك جعلت وجود خط للحدود من أصعب الأمور . ومن ناحية أخرى ، كانت أراضى التخوم على الراين والدانوب مناطق زراعية ، وكانت مفتوحة للنفوذ الرومانى ، كما كان الوصول إليها من العاصمة ميسورا . على حين أن الفرات كان يفصله عن سوريا صحراء مترامية ؛ ومن ثم كان نقل الجيوش إليها أشق وأصعب ، وكانت الميزة كلها فى جانب الدولة الشرقية (فارس) ، التى كانت رحلتها إلى الحدود أقصر وطريقها إليها فى أرض خصبة ، وتوافر لديها من الطرق المؤدية ما يفسح لها مجال الاختيار . يضاف إلى ذلك أخيراً أن الفرات ، كان بدلا من الدوران حول الحدود الخارجية للإمبراطورية الرومانية ، ينساب مباشرة نحو الجنوب فى جوف الممتلكات الفارسية . ومن الجلى أن الهيمنة على النهر من المصب إلى المنبع كانت أمراً مستحيلا ، وأن روما لم تحاول أن تفعل ذلك مطلقاً . على أن الحد الجنوبى قد ثبت فعلا عند ملتقى الخابور (قرقيسيا) ، وهو الموضع الذى يدخل عنده الفرات أرض الصحراء . وبذلت عدة محاولات

للعثور على حلول أخرى للمسألة ، مثل اتخاذ خط دجلة مثلا ؛ ولكن لم يكن ثمة بديل صحيح سوى غزو فارس ذاتها . على أنه لم ينجح فى هذا الأمر من قادة الغرب سوى الإسكندر الأكبر . ويبدو أن أوغسطس راودته تلك الفكرة يوما ما ، كما أن تراچان وچوليان وأباطرة آخرين قد اتبعوا سياسة جادة وجريئة فى تلك الأصقاع . على أن الحد الشرقى ظل ثابتاً على وجه الجملة منذ نهاية القرن الرابع حتى الفتح العربى . وأدركت روما أن النصف الجنوبى من صحراء إقليم الجزيرة ، ليس فى وسع دولة غربية الاحتفاظ به . أما الشطر الشمالى ، فلا محيص من المحافظة عليه ، نظراً لأن هذه المنطقة ، كان يقطعها خط عمودى يمتد من آمد على نهر دجلة إلى قرقيسيا على نهر الفرات . وكانت أرمينية مفتاح الموقف ، كما أن جغرافية البلاد أظهرت فى النهاية أنها العامل الفاصل فى هذه المشكلة . وهنا أيضاً حاولت كل من الإمبراطوريتين عرض حلول منوعة ، تتراوح بين ضم أرمينيا بأكملها إليهما وبين السيادة المقنعة بأن يتولى أمرها قواد وموظفون أو أمراء تلقوا تعليمهم فى العاصمة . ثم اتفق الطرفان آخر الأمر على تقسيمها[١] . ولم تحصل روما من ذلك التقسيم إلا على ربع أرمينية ، غير أنه كان أهم شطر يخدم أغراضها ، لأنه كان يشكل منطقة خلفية تعد ظهيراً قيما لإقليم بونطش القبادوقى . وتؤلف فى الوقت ذاته قاعدة للتحكم فى لازيقا . على أن التقسيم لم يضع حداً لمؤامرات أى من الجانبين ؛ فإن أرمينية بكنيستها الزاهرة وأسواقها العظيمة التى كانت تجتذب التجار من أوربا وآسيا وبشعبها المقاتل ونبلائها الطموحين ، كانت مسرحاً هيأ الفرص الوفيرة للتصادم بين مختلف المصالح وبين دهاء الدبلوماسية .

---

(١) انظر ص ٤٣ . وفى القرن التاسع أصبحت أرمينية مرة أخرى عظمة يتنازع عليها العرب وبيزنطة .

روما وفارس

ومن الجلى أن دواعى الاحتكاك لم تكن تعوز الحدود الشرقية ، كما أن الاضطرابات الداخلية كانت على الدوام مشجعة للإمبراطورية المعادية على تجديد القتال . وقد فقدت فارس هيبتها منذ منتصف القرن الخامس . إذ تنازع على وراثة العرش أمراء كثيرون متنافسون ، على حين أن البيت المالك نفسه كان يتهدده خطر الأرستقراطية ورجال الكهنوت ، هذا إلى أن الاضطرابات الدينية والاشتراكية التى أثارها أتباع مزدك قوضت الاستقرار فى البلاد . كما أن غارات السلب التى قام بها الهون على الحدود الشمالية الشرقية أثارت متاعب خطيرة . ومن ثم اتبع جستين سياسة الهجوم . فأوقف ما كان يؤديه للفرس من أموال لصيانة قلاع القوقاز وإعالتها ؛ وأخذت الدولة تعبث باللازيقيين والإيبيريين ، وقامت بهجوم صريح على نصيبين معقل الحدود الحصين العظيم . ولم يعد مفر من نشوب القتال . وشهد عام (٥٢٧) اندلاع نار الحرب الفارسية الأولى . وعاثت الجيوش الفارسية فى سوريا نهباً وتخريباً ، ولكن أضرار ذلك لم تكن بالغة ، وعندما توفى قباذ ملك فارس فى (٥٣١) وقد بلغ الخامسة والسبعين ، بادر كسرى أنوشروان الشاب الحريص على الظفر بالعرش ، بعقد صلح أبدى مع بيزنطة . ومع ذلك فإن الموقف كان قد تغير تغيراً كاملا ، إذ إن كسرى كان نموذجاً للملك الشرقى الناجح . وبفضل ما اشتهر به من النشاط والميل إلى القتال ، وما اتصف به من ذكاء حاد أعانه على تقدير تفاصيل التنظيم وعلى إدراك الحيل الشرقية الناجحة فى معالجة الأمور ، مد حدود إمبراطوريته فى أثناء مدة حكمه الطويل (٥٣١ — ٥٧٩) إلى نهر جيحون (أموداريا Oxus) بوسط آسيا وإلى اليمن جنوبى بلاد العرب . ثم اغتنم الفرصة التى سنحت فى (٥٤٠) . وذلك أن جستنيان جرد الحدود الشرقية للدولة

من الجند ليؤلف القوة اللازمة لفتوحه فى الغرب ، على حين سئمت لازيقا وأرمينية سيادة بيزنطة عليهما واستمرت الحرب الفارسية الثانية من (٥٤٠ — ٥٤٥) . وأغارت جيوش فارس على سورية ونهبت أنطاكية فى سنوات متعاقبة ، ثم احتلت لازيقا . وأحست كوماچينى (Commagene) وأرمينية وأرض الجزيرة بشدة وطأة الهجوم الفارسى . وأسفرت المفاوضات عن عقد هدنة لمدة خمس سنوات ، على أن يدفع چستنيان تعويضاً ضخماً ، غير أن القتال ظل مستمراً متناثراً فى بعض أرجاء لازيقا وبين أتباعه من العرب فى الشام . ولكن المسألة لم تحسم ، وفى (٥٥٥) عقدت هدنة أخرى ، أعقبها فى (٥٦١) سلام دام خمسين عاما ، تعهد بمقتضاه الفرس بالجلاء عن لازيقا مقابل إعانات مالية طائلة . وعلى الجملة احتفظ الطرفان بما كان موجودا من قبل من الأوضاع القائمة (Status quo antea) .

ومن العجيب أن الأساليب التى تتبعها الدول الإمبريالية بتلك المنطقة لم تتغير إلا قليلا ، فإن خطط روما وفارس الحربية ذات مشابهة عجيبة لخطط تركيا وروسيا وبريطانيا فى العصور الحديثة . ومن الأمثلة الواضحة ، ما اتخذته بيزنطة من أساليب فى معالجة شيوخ العرب بسوريا . فالحارث بن جبلة شيخ الغسانية ، أصبح بمساعدة بيزنطة حاكما على دولة عربية رومانية (ليكون مساويا فى القوة والسلطان لملك الحيرة الذى كان من أتباع فارس) . وقد رفع البيزنطيون قدر الحارث المعروف عندهم باسم أريثاس — فجعلوه من البطارقة الأشراف ومنحوه إعانة سنوية ضخمة ، وصارت عاصمته بصرى مقراً لمطرانية تدخل فى دائرة اختصاصها أجزاء من بلاد العرب وفلسطين . واستخدمت فارس تلك الوسائل عينها ، ولو أنك اطلعت على تواريخ أميانوس أو پروكوپيوس لتحققت أن أوجه التشابه امتدت أيضاً إلى أساليب القتال الفعلى . وإنا لنجد نفس الخطط والحيـــل الحربية وفن الحصار

والاستحكامات ، بل الأسلحة متساهمة عند الطرفين . وتتجلى صنوف التشابه أيضاً فى نتائج الحملات العظيمة . فإن فتوح الأباطرة أمثال تراچان (Trajan) أوچوليان لم تستمر طويلا ، فإذا استولى الفرس على لازيقا التى تنكرها عليهم حتمية الأوضاع الجغرافية ، لا تنقضى بضع سنوات حتى يضطروا إلى إخلائها . ويغير كسرى على سورية ، ويعمل فيها الفساد حتى يبلغ شاطىء البحر المتوسط ، ويحمل معه جزءاً من الصليب المقدس . ثم يضطر إلى رده سريعاً ، وإلى طرد المغيرين من أرض بلاده . لقد تجمد الموقف بين الطرفين ؛ إذ كانت وسائل الدفاع أقوى من الهجوم ، ولم يختل التوازن بين الإمبراطوريتين إلا بعد ظهور الإسلام على مسرح الأحداث .

على أن نهاية حكم چستنيان الطويل كانت عبارة عن فترة شديدة العبوس . إذ إن ثيودورا توفيت فى (٥٤٨) ، فلما حرم الإمبراطور المسن إلهامها ، تخلى عنه ما اشتهر به من الحزم ، فأهمل شئون الإمبراطورية واستبدلها بالمناظرات والمجادلات اللاهوتية . وتغنى كوريپوس الشاعر الأفريقى الرشيد فقال عند الاحتفال بتولى الحاكم الجديد العرش « كل أفكاره كانت تدور حول السماء » فالمرسوم الأخير الذى أصدره فى (٥٦٥) يدور حول شئون الكنيسة ، كما أنه حافل بالاقتباسات من الكتب المقدسة ومن أقوال آباء الكنيسة الأول ، وهو أكبر شاهد على دراسته العميقة المستفيضة . ولم تقع منذ (٥٥٥) حروب منتظمة ، ونظراً للأزمات المالية ، ازداد تناقص عدد الجيش ، وتضاءلت كفايته . وأضحى الحد الفارسى مكشوفاً بالفعل ، ولم يعد يدافع عن بيزنطة ذاتها إلا رجال الحرس الذين ليسوا إلا حلية وزينة . وفى (٥٥٨) أُخليت معاقل الدانوب من الجند ، وأخذ سور أناستاثيوس الطويل يتداعى ويتحول إلى أنقاض . وأثارت مخاتلات چستنيان سخط الهون الكوتروجوريين فانثالوا إلى تراقيا ، وتقدموا إلى أسوار العاصمة . وساد الذعر فى أرجاء المدينة ،

ولم ينقذ الموقف إلا التصرفات السريعة التى بادر بالقيام بها بليساريوس الجندى المحنك . وبعد ذلك بأربع سنوات قام الآفار بهجوم مماثل لهذا فرد بمشقة كبيرة . وذلك أن النفقات الطائلة التى أنفقها چستنيان فى إنشاء المبانى وفيما شن من حروب وفى نفقة بلاطه قد استنزفت كل مافى الخزانة . فانحطت قيمة العملة وزادت الضرائب فى عددها ووطأتها . وزاد فى شقاء السكان أن رماهم الدهر بعدة زلازل خطيرة متعاقبة ، اندلع على آثارها وباء الطاعون فيهم وأخذت الخدمات العامة فى بيزنطة نفسها تنهار . ومرت بالناس فى إحدى السنين أزمة فى المواد الغذائية ؛ وفى أخرى تناقصت مياهها . وعاد الخضر والزرق سيرتهم الأولى من الفساد وبث الاضطراب فى الشوارع ، ودار على الألسن حديث مؤامرة لقتل الإمبراطور ، على حين أن شخصين متنافسين اسم كل منهما چستين أخذا يتآمران علناً على ولاية العرش .

أما چستنيان الذى بلغ وقتذاك الثانية والثمانين من عمره ، فجلس فى قصره ينتظر منيته الدانية ، وهو لا يعبأ بكل ما يدور حوله من أشياء . ففى أعماق الليل ، وبما حبب إلى الشيخوخة من ميل إلى التكرار ، وفى براعة قوية ، طفق چستنيان ومعه بعض القساوسة المسنين يتدارسون ما يشغل الناس من مشاكل مثل دفن العظام ولغز تحلل جسد المسيح وفساده .

الفصل السابع

عواقب حكم جستنيان

لم يتكشف عمل جستنيان ويتبدى انهياره السريع مثلما تبدى فى شمال إيطاليا . فإن اللومبارد انثالوا فجأة بعد وفاته ببضع سنوات فى السهول الممتدة بين جبال الألب ونهر پو، ولم يلبثوا أن امتلكوا المنطقة كلها فى زمن وجيز . والمعروف أنهم اجتازوا أوربا على مراحل من موطنهم الأصلى فى إقليم نهر الإلب . وعند نهاية القرن الخامس أضحوا السلطة الحاكمة فى هنغاريا ، ولم يلبثوا أن أصبحوا جيران روما على الدانوب بعد أن سحقوا الهيرول . وأفضى اعتناقهم للمسيحية على مذهب أريوس واتخاذهم وضعاً أكثر استقرارا ، إلى زيادة قوة الملكية ، كما هو الشأن عادة مع الشعوب الألمانية عندما كانت تتعرض على هذا النحو للمؤثرات الرومانية . على أن الثقافة التى حصلوا عليها فى هذا الموضع كانت طفيفة جداً ؛ إذ تجلى للرومان بعد قرن كامل أنهم لم يبرحوا « برابرة » . فإن ملكهم وإن كان مطلق السلطان لم يكن أكثر من قائد حرب ينتخب للقيام بحملة واحدة . ولم يكن لديهم قضاة (Magistrates) ولا دستور ؛ وكانت عداوات الثأر ومنازعات الدم لا زالت تتحكم فيهم ، كما كانت الرابطة الحقة فى المجتمع هى رابطة العشيرة . ومنذ رحيلهم عن منطقة نهر الإلب ، لم يستقروا بأرض واحدة ما يزيد على جيل واحد ، ومن ثم كانت زراعتهم بدائية بل إنهم حتى فى هنغاريا نفسها تركوا العمل فى الحقل للأرقاء والشعوب الخاضعة ، على حين أنهم هم أنفسهم أخذوا ينهبون أراضى جيرانهم .

الغزو اللومباردى

وكان اللومبارد والچيپيد حتى ذلك الحين هم القوى الأساسية على حدود الدانوب ، على أن چستنيان تمكن من الاحتفاظ بمدينة سرميوم التى تعتبر مفتاح المنطقة ، وذلك باتباعه سياسة روما التقليدية فى تأليب الشعوب بعضها على بعض . ولكن دخول الآڤار الحومة وهم قبيلة شرسة ذات أصول أسيوية هدم هذا الموقف من أساسه . فاتخذوا من اللومبارد مخلب قط ودمروا مملكة الچيپيد ، واستولوا على معظم البلاد ومافيها من غنائم . وعندئذ بات اللومبارد فى محنة مؤسفة . إذ تعرض استقلالهم لتهديد الآڤار ، ولم يتأت لهم الحصول على الزيادة المألوفة فى الأرض . واستبد بهم اليأس فأقدموا على مايعتبر المرحلة الأخيرة فى هجرتهم . ففى (٥٦٨) انطلقت جموع اللومبارد إلى إيطاليا بزعامة ألبوين (Alboin) ، وتزايد بمن انضم إليهم من مغامرين من أجناس مختلفة . وتصادف أن استدعى نارسيس حاكم إيطاليا إلى بيزنطة فى تلك اللحظة ، ولذا لم يبد المدافعون عن الحدود أية مقاومة فعالة فيما يظهر . فسقطت كيفيدال ، ولم تلبث منطقة فريولى أن اجتاحها اللومبارديون ؛ وغادر بطريرك أكويليا مدينته المحتوم مصيرها وفر إلى مستنقعات جرادو . واحتفظت القوات الإمبراطورية بمدينتى پادوا ومانتوا ، حيث صمدوا عند خط نهر پو ، وحالوا دون انثيال اللومبارد إلى الساحل الشرقى ؛ ولكن ضاعت منهم ڤيشنزا (Vicenza) وڤيرونا ، فانعزلت منطقة الحدود فى جنوب التيرول عن راڤنا . وبعد ذلك بسنة دخل ألبوين مدينة ميلانو ، ثم توصل فى النهاية إلى الاستيلاء على پاڤيا بعد حصار طويل فأصبحت عاصمة اللومبارد . فانفصل بذلك شمال إيطاليا عن الإمبراطورية ، ولكن ما خبأته الأيام بعد ذلك كان أسوأ وأنكى . ففى السنوات التالية تعرضت راڤنا وروما لتهديد مستمر ،

ونجح اللومبارد فى القضاء على هجمات بيزنطة وردها على أعقابها ، على حين أن جماعتين مستقلتين من اللومبارد زحفتا جنوبا وأسستا دوقيتى اسبوليتو وبنفنتو .

وتوفى ألبوين وظل العرش من بعده شاغراً مدة تجاوزت عشر السنوات. غير أن الفتح واصله زعماء من أتباعه ، تولوا قيادة الحاميات المرابطة بالمدن الرئيسية . وعلى مر الأيام أخذ هؤلاء « الأدواق » وهم حوالى خمسة وثلاثين دوقا ، يستقرون رويداً رويداً بالجهات التى سبق أن احتلوها فتحولت « الدوقيات » إلى أملاك مستقلة استقلالا كبيراً عن القوة المركزية . ولايخفى أن ضعف الملكية الذى تسبب فى هذا الاستقلال ، هو العامل الفاصل فى التاريخ اللومباردى . فلو أتيح للقوم عاهل قوى لجاز أن يلزم بالطاعة دوقاته الخارجين على إرادته ، بل لقد كان فى وسعه فى حالات نادرة ، أن يسيطر على دوقيات الجنوب القوية . غير أن المرحلة الأولى لما أصابه الدوقات من الحرية ، كان لها أثرها . إذ إن لومبارديا كانت مملكة سادها دائماً الانقسام والانشقاق . ولذلك فإن أعداءها سواء كانوا من الأباطرة أو البابوات أو من المغيرين من الفرنجة ، كانوا يستطيعون دائماً الاعتماد على نبيل لومباردى ثائر . ولذا فإن فتح إيطاليا لم يكتمل على أيديهم بسبب افتقادهم التماسك . ولم يكن فى وسع بيزنطة أن تدبر من الجند من تعزز بهم حامياتها ؛ وكانت البابوية لا تزال ضعيفة حتى ذلك الحين . وكان ضعف الملكية اللومباردية هو السبب الوحيد فى إنقاذ القوات الإمبراطورية من الطرد من سواحل إيطاليا وفى الحيلولة دون انحدار البابا إلى منزلة أسقف لومباردى .

والمعروف أن غزاة إيطاليا السابقين — كانوا كما رأينا — يعدون السكان الرومان شركاءهم فى الإمبراطورية . على حين أن اللومبارد كانوا على العكس من ذلك يعدونهم رعايا ويعاملونهم المعاملة التى كان يلقاها فى هنغاريا الصقالبة الذين كانوا

يفلحون الأرض لسادتهم المقاتلين . وجرد أصحاب الأراضى الرومان من أملاكهم، وأصبحت أرضهم وماشيتهم وبيوتهم وفلاحوهم نهباً وغنيمة للفاتحين . ولكن الذى كان يريده اللومبارد لم يكن الأرض فى حد ذاتها ، وإنما أرادوها لتكون وسيلة للعيش فى تكاسل ودعة ؛ أو أداة تكفل لهم من الحرية الاقتصادية ما يسمح لهم بشن الحروب . وبناء على هذا أبقوا على ما كان عند الرومان من نظام للأرض ؛ ولذا يمكن القول بأن كل ما تغير هو المالك وحده . وأصبح الفلاحون الصغار (Coloni) يقابلون الطبقة شبه الحرة عند اللومبارد ، وهى المعروفة عندهم بالألديونى (Aldiones) وشاركهم فى هذا المصير فيما يبدو الفقراء من أصحاب الأراضى . واستولى الغزاة على ممتلكات الكنيسة دون رادع ، وذلك لأن الغزاة الأريوسيين لم يميلوا إلى احترام حقوق الكاثوليك .

وبهذه العملية أصبح كل لومباردى حر مقاتلا ومالك أرض ، وعلى الرغم من أن مساحة الإقطاعات لم تكن متساوية ، فإن الأدواق احتفظوا بجانب كبير من الأراضى على أنها ضياع خاصة . وترتب على اجتماع عاملى الاستيطان المستمر والتأثر بالنظم الرومانية أن تلاشت العشيرة رويداً رويدا ، وحلت محلها الروابط المحلية التى تترتب على امتلاك الأرض . فأصبحت الدوقية هى الوحدة ، وطابق اتساع هذه الدوقيات إجمالا ، رقعة المناطق التى كان يحكمها فيما مضى الحاكم (Magistrate) والأسقف ، وقد ظلت المدينة الرئيسية هى مقر الإدارة . ومع ذلك فإن دوقيتى اسبوليتو وبنفنتو احتلتا رقعة بالغة الضخامة والاتساع ، كما أنهما كانتا فى الواقع إمارتين مستقلتين ، وذلك بعد أن عزلهما عن اللومبارديين فى الشمال نطاق من الممتلكات الإمبراطورية .

ولم ينته القرن السادس حتى صارت مملكة اللومبارد وطيدة الأركان بإيطاليا . فعادت الملكية على يد أوثارى ، وبفضل هذا الاعتداد بالسلطة المركزية لم يكتف اللومبارد بالمحافظة على أملاكهم ، بل بسطوا رقعة ممتلكاتهم

على حساب بيزنطة . وكان أخوف ما يخشونه من خطر فى تلك المدة هو عدوان الفرنجة ، الذين دأبوا على الإغارة على شمال إيطاليا فى غارات تعززها هجمات الجيوش الإمبراطورية من رافنا . وتمكن أوثارى (٥٨٤ — ٥٩٠) من القضاء على هذا التحالف الفرنجى البيزنطى ، الذى كانت تزلزله فى الواقع الشكوك المتبادلة بين الطرفين ، مذ كان كل منهما يتهم الآخر حقا وصدقا بالعمل لمصلحته فقط. وبفضل هذا العمل الذى حققه أوثارى، تهيأ للومبارديا لمدة قرن ونصف من الزمان من الحرية ما مكنها من تركيز دفاعها على جبهة واحدة .

إيطاليا البيزنطية

على أن الدفاع لم يكن كل شىء . إذ كان مركز الملك يتوقف على عدد أتباعه ، الذى كان يمكنه من منازعة أقوى أداوقه . ونظراً لأن الملك كان يعوزه نظام مالى منظم ، أصبح لزاماً عليه أن يكافىء هؤلاء الأتباع بما يبذله لهم من الأرض ، واقتضى ذلك بدوره المزيد من الفتوح . وكانت كل زيادة فى عدد السكان اللومبارد تدعو إلى العمل فى نفس هذا الاتجاه ، وذلك نظراً لأن كل مقاتل حر كان — مثلما حدث فى إسبرطة — يعتمد من الناحية الاقتصادية على رقعة الأرض التى يملكها والتى يفلحها له الأرقاء . وكانت النتيجة أن شنت سلسلة مستمرة من الغارات على الممتلكات المجاورة ، وتحت هذا الضغط تحول التنظيم الداخلى لإيطاليا البيزنطية إلى نظام عسكرى للدفاع ، فى أثناء القرنين التاليين . وقد حرص جستنيان على أن يرجع لإيطاليا وإفريقية الأحوال الإدارية السارية فى القرن الرابع ، التى بمقتضاها كانت السلطات العسكرية مفصولة فصلا دقيقاً عن السلطة المدنية. على أنه مع ذلك قد آثر فى بعض أقاليم الشرق الجمع بين السلطتين فى يد موظف واحد، وهو تقليد ما لبث حتى تطور فأصبح ما عرف فى العصور التالية باسم نظام « الألوية Theme » .

وكان اتباعه هذه السياسة أمراً لامفر منه ، ثم لم تلبث أن امتدت إلى الغرب . إذ إن تهديد البرابرة أخذ يشتد سنة بعد أخرى ، ولم تقابل ذلك التهديد زيادة فى الجهود والموارد تكفى لمواجهته وكسر شوكته . وترتب على ذلك أن صارت الاعتبارات العسكرية بالغة الأهمية . وأدى استمرار ظروف الحرب إلى الانحراف بجهاز الإدارة المدنية الذى اشتهرت به روما فى العصر القديم إلى النزعات الإقطاعية التى ظهرت بالقرون الوسطى . فالجندى صار أشد أفراد المجتمع أهمية ، والذى حدث فى إيطاليا ، هو أن طبقة عسكرية تبرز فى النهاية بوصف كونها إحدى الطبقات الرئيسية فى السكان الأحرار . وهذا المبدأ نفسه ينعكس أيضاً فى الحكومتين المركزية والمحلية سواء . فإن النائب الإمبراطورى الملقب بالإكسارخ ، وهو موظف يجمع بين السلطات العسكرية والمدنية كان يعين أول الأمر فى حالات الطوارئ الخاصة ، فلم يلبث أن صار حاكم إيطاليا الفعلى ، فحجب بذلك الوالى المدنى (Prefect) ، الذى اقتصرت دائرة اختصاصه على مايتطلبه الإشراف المالى من أعباء . وتلاشى ببطء كل من المجلس البلدى وموظفيه إزاء تزايد سلطة القائد العسكرى التربيون (Tribunus) الذى أضاف إلى سلطته الأصلية أعباء قضائية وتنفيذية .

أصبحت إيطاليا وقتئذ منطقة من ثغور الحدود ، وأصبحت كل مدينة مسورة قلعة يمتنع بها أصحابها فى وجه أعدائهم . وكان الإكسارخ يوجه النظام الدفاعى من مركز قيادته العليا برافنا ، وهو نظام مركزى بالغ الإحكام ، تمكنت بفضله بيزنطة وقد ضغط عليها بشدة كل الآفار والبلغار من ناحية ، والعاصفة المتجمعة — عاصفة الغزو العربى من ناحية أخرى ، — من الاحتفاظ بقبضتها على إيطاليا مدة قرنين تقريبا . وهو عمل عظيم جدير بالتنويه ،

نظرا للصعوبات الخاصة التى تجتمع فى هاته الولاية . ولم تعد مصالحها هى مصالح العاصمة . إذ لم يكن ممـــا يعنى النبيل الرومانى ولا الفلاح الإيطالى فى قليل ولا كثير ، أن تحتاج بيزنطة إلى الجند والأموال للحدود الشرقية . فـكل ما كان يعنيهما مباشرة هو الخطر اللومباردى؛ مع تذكر أن القوات الإمبراطورية كانت غير كافية لمعالجة هذا الأمر ، وأن الدولة كانت ترسل الجند والمعونة المالية بين حين وآخر تنفيذاً لهذا الهدف . ومن ثم أصبح من الضرورى تحميل إيطاليا عبء الاعتماد على مواردها الخاصة ، وتنفيذا لتلك الغاية تحول السكان المدنيون إلى جند من المليشيا المرابطين ، الذين كان يقوى من أزرهم فى البداية فصائل الجند النظاميين البيزنطية، ولـكنهم أصبحوا فيما بعد يؤخذون بأجمعهم من مصادر وطنية بحتة . وكان يلى الإكسارخ — الأدواق (Duces) الذين يهيمنون على الأقسام الجديدة التى كان يتجمع تحتها بقايا إيطاليا الإمبراطورية ، ثم « القواد » العسكريون (Tribuni) الذين تحت إمرتهم حاميات المدن . وكانوا يحتفظون بالجيوش عند النقاط الاستراتيجية مثل : رافنا وروما ونابولى وكالابريا ، على حين أن أساطيل رافنا وصقلية كانت تضمن المواصلات بحرا . فأما على البر ، فإن الشريان الرئيسى للدفاع الذى أصبح عسيراً بسبب الظروف الجغرافية ، هو الطريق الذى يربط رافنا بروما ، وأقيم لحراسة هذا الطريق بعناية تامة خط من القلاع ، وقوة خاصة أنزلت فى پيروجيا لتتحكم فى التقاطعات الموجودة بين ممرات جبال الإپينين .

وسارت المركزية إلى أبعد من ذلك . فبذلت جهود جبارة لـكى تتمثل إيطاليا من كل النواحى فى ولايات الإمبراطورية الأخرى . ونيطت الإدارة بموظفين من اليونان ، واستخدمت مناهج العمل والأساليب اليومية اليونانية . وأنعم بالألقاب البيزنطية على أعضاء الأرستقراطية الإيطالية ، فإذا أثبتت الأيام ولاءهم وكلت إليهم وظائف تنفيذية . وشرعت جموع غفيرة من التجار الشرقيين

والصناع والحجاج والقسوس والرهبان تتجه إلى إيطاليا . وأخذت الآداب والثياب البيزنطية تنتشر بين الطبقات العليا . فإن جريجورى أسقف تور (Tours) يصف نبلاء الرومان الذين رآهم يرتدون ثيابا من حرير مرصعة بالجواهر ، هذا إلى أن فسيفساء رافنا يحدثنا بنفس القصة . ومما يشهد بمحاكاة مافى القسطنطينية وجود الخصيان بالبندقية وتحديد أقسام خاصة بالنساء فى المنازل بها ، كما أن أردية الأرجوان التى يرتديها أدواج البندقية فى الحفلات الرسمية تذكرنا بأصلها البيزنطى . وكان القديسون والشهداء الشرقيون يلقون فى كنائس إيطاليا اهتماماً خاصاً فى ذلك الأوان . ومن أمثلة ذلك شيوع الأشياء التى كانت تنذر للقديس ميخائيل والقديس ثيودوروس والقديسين كوزمارس وداميان ، على حين أن الشعائر والفنون البيزنطية كانت تستخدم بوفرة فى العمائر والصلوات الكنسية . ومن الأساقفة والبابوات المعروفين أيضاً من يحملون أسماء يونانية ، وشاع من جديد استعمال اللغة اليونانية فى روما . وكان الدوق (Dux) الرومانى بقصره المطل على البالاتين والممثل للإكسارخ ولمولاه الإمبراطور عن طريق ذلك الإكسارخ ، يسيطر على المدينة بجنده البيزنطية . وكان بكل مدينة كبيرة حى يونانى ، كان على استعداد تام لمؤازرة أية إجراءات تتخذها السلطة المركزية لإلزام السكان الإيطاليين بالطاعة . وأعجب شىء فى ذلك الزمان إعادة فتح جنوب إيطاليا أمام لغة بلاد اليونان وآدابها ونظمها مثلما فتحتها الهللينستية القديمة قبل ذلك بخمسة عشر قرنا — وتواصلت هذه العملية حتى القرن الحادى عشر وظلت حية حتى فى عهد ملوك النورمان ولا تزال بعض آثارها موجودة إلى يومنا هذا .

الحركة الانفصالية الإيطالية

وعلى الرغم من هذا التنظيم الاستقصائى الدقيق كانت قوة بيزنطة فى إيطاليا تعتمد على أسس غير ثابتة . وقد ظهر أن اللومبارد كانوا هم السبب المباشر فى تقوض سلطانها ، ولكن النظم نفسها كانت تحتوى بذور فنائها . فالواقع أن اكتمال عملية المركزية أسهم فى ظهور قوى محلية برزت حينما تجلى ضعف السلطة المركزية . ذلك أن اليونانيين لم يتلقوا مطلقاً — حتى يوم جاءوا لإنقاذ إيطاليا من القوط الشرقيين — التأييد القلبي من السكان ، كما أن جشع الموظفين البيزنطيين وابتزازهم أموال الناس لم يزدهم إلا مقتاً فى أعين الشعب . وقد زادت الخصومات السياسية من تأجج الخصومة بين الغرب والشرق التى زاد فى أوارها اشتداد التعارض بين مصالح الطرفين . وجعل حكام بيزنطة رائدهم الاحتفاظ بوحدة الإمبراطورية مهما كان الثمن ، لذلك دأبوا فى أثناء تلك القرون على بذل جهود متواصلة فى سبيل فرض ما استطاعوا فرضه من توفيقات وتساهلات فى الشئون الدينية ، وهى سياسة أثارت ألد العداء فى إيطاليا الكاثوليكية ، التى لم تكن تأبه كثيراً بمشاكل السياسة والتدبير التى تواجه الإمبراطورية . وأخيراً كانت نفس نزعات التفكك ، التى ظلت إبان القرون الثلاثة الأخيرة مصاحبة لتمزق الإمبراطورية الرومانية إن لم تكن السبب الفعلى لذلك ، قد أخذت تشتد وتتذاك وتتفاقم بحكم احتياجات الزمان ، التى جعلت الاعتبارات العسكرية فى الأهمية الأولى . لقد انهارت الحياة فى المدينة القديمة وانهارت معها الطبقات الوسطى تحت ويلات الغزو والدمار الاقتصادى التى أنتجتها تلك العوامل . وقديماً قصر الجهاز الضخم الذى اصطنعه دقلديانوس وقسطنطين الطبقات الدنيا على طوائف وطبقات حرفية تعمل فى خدمة الدولة . أما الطبقة العليا فإنها سيطرت على هذا الجهاز لمصلحتها ، كما أن إفلاس الدولة

زادهم قوة . وتولى كبار أرباب الأملاك جميع الاختصاصات المحلية وجباية الضرائب . وأصبحوا مسئولين عن صغار الفلاحين الذين يخدمون في ضياعهم. وعندما أصبحت إيطاليا معسكراً مسلحاً ، وأضحى كل مواطن جنديا ، صار من الطبيعي أن ينتقل التنظيم العسكري إلى قبضة هؤلاء النبلاء . فصار مالك الأرض قائداً لأتباعه ، مثلما كان التريبيون قائدا لكتائب المدن . وعندما غلب العنصر الإيطالي على طبقة الجند ، نظرا للافتقار إلى الأمداد البيزنطية ، صار لزاماً أن تنمو الروح الوطنية المحلية ، وبلغت العملية نهايتها بذوبان الفروق رويدا بين الموظفين البيزنطيين وبين الأرستقراطية الإيطالية ، وذلك لأن هؤلاء الموظفين حاولوا أن يزيدوا من قوتهم باقتناء الضياع في إيطاليا ، واستطاعت الأرستقراطية الحصول على المكانة الرسمية والامتيازات الاجتماعية بوساطة الألقاب البيزنطية والمناصب التنفيذية ، وهكذا نشأ مع اضمحلال السلطة المركزية نظام إقطاعي ، أحل محل الجهاز الإمبراطوري عددا من الحكومات المحلية .

ممتلكات البابا

أما الوظائف الباقية للسلطة المركزية فقد ملأتها الكنيسة ، التي كان نمو قوتها الزمنية آخر العوامل الكبيرة في تكوين إيطاليا العصور الوسطى قبل عهد شرلمان . فإن قانون ثيودوسيوس ومن بعده القرار التنظيمي (Pragmatie Sanction) لم يخول لسلم الوظائف الكنسية امتيازات خاصة فحسب ، بل منحها أيضاً قدراً كبيرا من السلطان السياسي ، ولا سيا في مجال حكومة المدينة ، إذ إن قائد حامية المدينة (التريبون) والأسقف أخذا عند ذاك يتقاسمان معظم ما كان لموظفي المدن من حقوق وواجبات ، وزاد في سلطان الكنيسة مالها من مكانة باعتبارها أكبر مالك للأراضي بإيطاليا . كان الأسقف

هو الذى يهيمن على أبواب المدينة ، وبذا يناط به تزويد أسوارها بالعدد الكافى من الجند ، ويكفل للمدينة توافر الماء والخدمات اللازمة لها . واختصت الكنيسة منذ زمن طويل بالنظر فى شئون البر والإحسان والمستشفيات ، بل إنها استطاعت بفضل ما كان لها من نظام فائق ، ومكانة أدبية ، أن تجعل لنفسها فى أمور القضاء والضرائب ، مكانة مرموقة فى نظام الحكم الإمبراطورى.

ومما يشهد بزيادة قوة البابوية نمو رقعة ما تملكه الكنيسة من الأراضى الزراعية ، وهو أمر لم يؤكد فقط متانة مركز إيرادات كرسى روما ، بل زودها أيضاً بوسيلة تمارس بها نفوذها الأدبى والمادى فى كل أرجاء إيطاليا . إذ كان للكنيسة منذ عهد قسطنطين الحق القانونى فى حيازة الممتلكات ، وظلت هذه الممتلكات فى ازدياد دائم بسبب وصايا أغنياء النصارى لها بالأموال وما كان يهبه لها أشراف روما . وثم سبب آخر ، يتمثل فى تزايد الميل العام عند صغار الملاك إلى وضع أنفسهم تحت حماية مالك قوى ، وبذلك كان الملاك الأحرار يصبحون فى كثير من الأحيان مجرد مستأجرين للأرض مدى الحياة مقابل ما يجتنونه من ميزات الأرض والطمأنينة .

وتزودنا رسائل البابا جريجورى الكبير التى كتبت عند نهاية القرن السادس بمعلومات قيمة عما اشتهرت به روما من الكفاية والدقة فى إدارة أوقافها ؛ وهى تظهرنا كذلك على الدور الذى لعبه جريجورى نفسه فى تنمية الموارد المادية للكنيسة . وقد بذل جريجورى فيما وجهه من تعليمات إلى قسس الأبروشيات ، وهم موظفون كنسيون كانوا يجمعون فى عملهم بين واجبات حكام الأقاليم والقضاة والموكلين بالصدقات فى مناطقهم الخاصة ، بذل اهتماماً كبيراً بأدق تفاصيل تربية الماشية والتأجير وحيازة الرقيق وجميع الأمور التى تهم كل مالك أرض. ومنها نتبين أن السروج يحصل عليها من كامبانيا وعروق الخشب من بروتيوم لتستخدمها كنيسة روما . أما صقلية التى تقع بها أغنى

الأوقاف وأوسعها مساحة ، فكان يرد منها مقادير ضخمة من القمح تفى بتموين روما نفسها — وفى ذلك دلالة على ما حدث من إحلال النشاط الكنسى مكان الحكومة الإمبراطورية فى عاصمة الإمبراطورية السابقة (روما) — وكانت الإيرادات الضخمة التى يحصل عليها بهذه الطريقة تستخدم فى وجوه شتى :— مثل افتداء الأسرى وتخفيف ضائقات المجاعة وصيانة المستشفيات والإنفاق عليها وإعانة مختلف الكنائس التى تعرضت لغارات وتخريب اللومبارد . وأخيراً يبدو أن البابوية لم تكن تضن بالألطاف والرشى السنية على معيار ملكى سخى إلى مختلف الموظفين البيزنطيين الذين يعتبر تعاونهم مع روما أمراً ضروريا ، وذلك فضلا عن الأموال المستخدمة فيما يتخذ بطريق غير مباشر من ديبلوماسية . وإن هذه الرسائل تلقى ضوءا كبيرا على علاقات جريجورى بالهيئات الإدارية الإمبراطورية ، وهى مملوءة بالاتهامات المكتوبة بعبارة صريحة ، حول ما يرتكب فى حق الناس من سلب وظلم . ومن الواضح أن جريجورى كان يتحدث بوصفه شخصاً مسئولا ، وهو شديد الأمل فى أن تحذيراته لن تذهب سدى . وإن جريجورى — وقد سبقه فى منصبه وخلفه عليه أحبار خاملون — ليملأ إلى حد ما المنزلة التى قدر للبابوية أن تحتلها إبان القرون التالية . كان رئيساً لمنظمة مركزية قوية (البابوية) والحَكَم المطلق فى كل الأمور المتصلة بالعدالة ، وقد تسلح بمفاتيح الحل والإبرام التى اختص بها بطرس الرسول — فى السماء والأرض ، وبما كان لروما من مجد غابر ، لذا كانت له شخصية فوق شخصية البشر ، لم يكن الإمبراطور إزاءها فى نظر سكان إيطاليا المعذبين ، سوى سيد بعيد الدار ، ولم يكن الإ كسارخ إلا مجرد قائد ضعيف أو حاكم ظالم .

على أنه ينبغى لنا أن نؤكد أن أهم ما استندت إليه هذه السلطة ، ما كان لجريجورى من هيبة شخصية وسلطان أدبى ، لا إلى ما كان تحت تصرفه من

قوة مادية . وقد اضطرته الظروف أن يعتمد بلا كلل على أفانين الديبلوماسية وأن يعمد بكل حرص وعناية إلى إنشاء الائتلافات وتكوين العُصَب والاتحادات ؛ لكى يجابه المعارضة الكثيرة التى كانت تلقاها مدعيات الكرسى البابوى . إذ حدث حتى فى داخل حدود إيطاليا وإستريا ، أن كبار رؤساء الأساقفة فى الشمال بميلان وأكويليا وراڤنا — رفضوا قبول سيطرة روما ، ومع أن الانشقاق قد التأم أخيراً، فإنهم حافظوا على نزعتهم الاستقلالية بما تلقوه من التشجيع سراً من قبل بيزنطة ، التى رحبت بكل ما يُعوق ازدياد نفوذ البابوية .

على أن أهداف جريجورى تجاوزت حدود إيطاليا ، فقد اتخذ الموظفين الذين يعينهم للإشراف على ضياع الكنيسة بإيطاليا وغيرها من الأماكن ، من رجال الديبلوماسية ورجال المخابرات ، استطاع بفضلهم أن يتصل بجميع القوى الحاكمة فى الغرب علمانية كانت أو اكليروسية . ولم يتردد فى أن يطلب من حكومة السلطة الإمبراطورية أن تسانده فى إلزام أساقفة إلليرية بالطاعة ، وفى قمع حركة الدوناتيين والوثنيين فى إفريقية ، على الرغم من أنه لم يحرز فى ذلك نجاحاً تاماً . وفى أسبانيا حيث اعتنق القوط الغربيون المذهب الكاثوليكى حديثاً ، بادر جريجورى إلى توثيق علاقاته مع البيت المالك فضلا عن هيئة الكنيسة الجديدة . وبذل فى فرنسا محاولة جريئة ولكنها غير مثمرة ، كما يمارس عن طريق القاصد الرسولى البابوى بمدينة آرلس ما كان يدعيه منذ زمن طويل أساقفة روما من سلطة على الكنيسة القومية هناك . والمراسلات المتبادلة بين جريجورى وبين مجموعة منوعة من ملوك الفرنجة ، لاسيما برانهيلدا السيء السمعة، تحض هؤلاء على القضاء على السمعانية[١] وغيرها

(١) السمعانية Simony : هى الاتجار فى المقدسات والمصافقة فى الرتب والوظائف الدينيـة . [المترجم]

من الأعمال القبيحة بالكنيسة ، وتدل على معرفته الوثيقة بالأحوال السائدة في سائر الأبروشيات ، فضلا عن إلمامه بالأحداث السياسية . على أن دعاوى البابا لقيت الاحترام ، وإن لم تظفر بالرضى والقبول . وذلك لأن الميروفنجيين لم يميلوا إلى التنازل عن المزايا التى حققوها من السيطرة على الكنيسة ؛ ولكن النفوذ الشخصى لجريجورى كان معترفا به فى كل أرجاء فرنسا ، وثمة امتداد آخر لنشاطه يتجلى فى بعثة أوغسطين التبشيرية إلى إنجلترة ، تلك البعثة التى قدر أن تكون لها عواقب بالغة الأهمية .

وفى تلك الأثناء أصر الكرسى البابوى بروما أن تبقى له الصدارة ، رغم ما تعرض له من اعتداءات الكنيسة الشرقية ، بعد أن استمرت على طول الزمن خصومة مريرة مع أسقف القسطنطينية،الذى كان يدعى — بوصفه مطرانًا لعاصمة الإمبراطورية — بأن له الحق أن يتخذ لقب البطريرك المسكونى (Oecumenical) . ومما زاد فى توتر العلاقات مع بيزيطة تنافر نظريات كل من البابوية والإمبراطورية . فعند جريجورى ، أن البابا فوق الوالى (الإكسارخ) ، وأن الكنيسة فوق الدولة ؛ على أن خلفاء جستنيان من الناحية الأخرى ، كانوا يرون أن الولاية الإيطالية ، شأنها شأن جميع أجزاء الإمبراطورية الأخرى ، لابد أن تخضع للإمبراطور ومرءوسيه ، وذلك لأن « الدولة لا تقع فى داخل الكنيسة ، بل إن الكنيسة هى التى فى داخل الدولة » . ولما كان جريجورى مقتنعاً أن الطريق الوحيد إلى الجنة لمن دعوا إلى صراطها المستقيم ونزلها الكريم ، إنما هو الكهنوت أو الرهبنة ، فإنه رأى أن مرسوم الإمبراطور موريقيوس الذى يحظر على موظفيه المدنيين أو جنده السيامة قسيسين أو التبتل رهباناً ، جريمة لابد من سؤاله عليها ساعة هول الحساب فى يوم القيامة . ولا مراء أن أسقف بيزنطة الذى يقيم بمنطقة أقرب إلى الحدود الشرقية وهو بالتبعية أشد إدراكا للخطر البالغ المحدق بالإمبراطورية وحاجتها الماسة إلى

كل جندى وشاب يصلح للجندية لو أريد للحضارة النجاة من التدمير ، — كان أحسن تفهماً للوضع من جريجورى. والواقع أن العلاقات بين القسطنطينية وروما قطعت فعلا فى فترة من الفترات ؛ كما أن الفرح الشديد الذى قابل به جريجورى اغتيال موريقيوس يظهر عمق اعتقاده بأن مصلحة الكنيسة قد عرضتها سياسة الإمبراطور الراحل لأشد المخاطر . ومع ذلك لم يخطر بباله احتمال الانفصال عن بيزنطة ، والواقع أن الموقف بإيطاليا كان يحول دون ذلك . فإن العدو كان على الأبواب ، ومع أن جريجورى لم يقدر الصعوبات التى كانت تواجه الوالى (الإكسارخ) ، فإنه كان يدرك تماماً قيمة حمايته له ، وضرورة التعاون لمناهضة اللومبارد — وإن كانت الإيماءات التى صدرت حتى فى هذا المقام نفسه إرهاصاً بمجرى السياسة البابوية مستقبلا .

جريجورى الكبير

الواقع أن ما اتصف به جريجورى من سمات خلقية هيأه لمعالجة هذا الوضع الغريب المحيط به . كان بحكم مولده نبيلا رومانياً وشغل منصب والى المدينة قبل دخوله أحد الأديرة البندكتية . وعين فيما بعد قاصداً رسولياً للبابا بالقسطنطينية ، فحظى بفرص مراقبة السياسة الديبلوماسية الإمبراطورية ، وكانت المدينة لا تزال بعد مركزا للسياسة الأوربية . وليس فى نواحى نشاط جريجورى ما هو أنصع من تلك الواقعة المستشفة التى يفسر بها مجرى الأحداث بكل من الإمبراطورية البيزنطية والممالك المتبربرة ، بل إنه يحولها فى الوقت المناسب لخدمة الكنيسة . فلما ولى البابوية فى زمن كانت فيه إيطاليا بأكملها فى حالة ارتباك مطلق ومحنة تامة ، ألفى نفسه على رأس النظام الثابت الوحيد فى عالم مزعزع متغير . وكان كل ما يحيط به يعزز التعاليم التى تلقاها فى أثناء تدريبه القانونى والإدارى ؛ ولم يكن بوسع الكنيسة أن تتم على أكمل وجه

رسالتها عن الخلاص الروحي إلا باستخدام الوسائل المادية . ولهذا ازداد الاهتمام بالمبادئ العملية المتعلقة بالندم (التوبة) والمطهر وبما لبذل الصدقات للكنيسة من قدرة على التكفير عن الخطايا . ومن المفارقات أن أشخاصاً من التوافه مثل برانهيلدا بفرنسا وفوقاس في بيزنطة ممن تلوث أردانهم جرائم عديدة قبيحة الشنعة — يتلقون التحيات بوصفهم نصراء للكنيسة ، وما ذلك إلا لأن السلطة المدنية مستقرة في أيديهم ، ولا يتأتى تنفيذ العدل إلا عن طريقهم . وتتجلى واقعية جريجوري أيضاً في إهماله للإسلوب الأدبي ، وللتربية الكلاسيكية بل الهجاء السليم . وإنه ليظهر الكراهية لأية دراسات متعمقة قد تعوق مصلحة الكنيسة أو توجد روحاً تنطوي على النقد لها ، وهي التي تقوم قوتها الحقة في طاعة الناس لها الطاعة المطلقة . وقد اعترف جريجوري علناً بجهله باللغة اليونانية . ومن العجيب أن درايته بتاريخ الكنيسة ضئيلة ، وأشهر ما أنتجه في تاريخها ، شرحه لسفر أيوب ، بما حوى من تأويلات شاذة ، وبما حفل من تخيلات رمزية ملتوية.ومن أكبر الأدلة على ماحدث من تدلى معايير الثقافة منذ أيام بوئثيوس وكاسيودوراس ، أن شهرة جريجوري في العصور الوسطى إنما تعتمد أساساً إلى جانب مؤلفه عن قاعدة راعي الكنيسة (Pastoral Rule) على إلمامه بالاعتقاديات[1] .

على أننا لا نزال على عتبات العصور الوسطى.ولم يكن جريجوري إلا آخر شخصية كبيرة في فترة الانتقال بالغرب . ولم يتوافر الدليل على أنه كان يدرك ما سوف تسلكه البابوية من الطرق الجديدة . إذ كان حسبه أن يعالج كل أزمة متى طرأت رغبة في المحافظة على العقيدة الكاثوليكية من التعرض للخطر

---

(١) هذا الكتاب المعروف باسم (Liber Regulare Pastoral) هو الذي ألفه جريجوري حوالي سنة ٥٩١ ، وهو يتناول التعاليم اللازمة للأسقف في حياته الكنسية ، نظرا لما للأسقف من مكانة باعتباره مرشدا وداعيا للناس . (المترجم)

أو الوقوع فى الخطأ ، وحرصاً منه على وقاية سكان إيطاليا المعذبين ، وأن يحافظ فوق كل شيء على سلامة سلطات أسقف روما (البابا) وامتيازاته . فهو أشبه بشخصية جانوس[1] ذى الوجهين ؛ ينبيء أحدهما (فى أعين المتأخرين على الأقل) بما حدث فيما بعد من تسلط البابا على الغرب وبما كان للكنيسة من من سلطة زمنية ، وبما اتسم به الفكر فى العصور الوسطى من مزيج عجيب من الصفة القانونية ومن مذهب التصوف . أما المظهر الآخر ، فيدل على ماحدث من تحول أكبر نبلاء الرومان إلى أساقفة ، قادوا فى غالة وإفريقية وإيطاليا وبين أنقاض الإمبراطورية وخرائبها الأتباع ، فاستماتوا فى قتال مع السيل الجارف من غزو البرابرة ولم يرجع ما أحرزوه من انتصار إلى ما تحت تصرفهم من القوة المادية ، بقدر ما ترتب على ما أظهره أعداؤهم راغمين من الاحترام والتبجيل نحو قوة الخلق ونبالتها ، ونحو سحر حضارة قديمة .

ويعلن شاهد قبره أن جريجورى : « ولى الله » وأنه سياسى رومانى وآخر عترته .

خلفاء جستنيان

ولقد أورث جستنيان خلفاءه إمبراطورية مثقلة بالديون ، منقسمة على نفسها بالخصومات الدينية يتولى حكمها طبقة من الموظفين بلغت من الفساد وابتزاز الأموال ما لم تبلغه حكومة من قبل ، ويتكفل بحمايتها جيش ، لم يكن من وفرة العدد ما يكفى لدرء الأخطار التى تهدد أطراف الإمبراطورية . وزاد السوء تفاقماً أن جستين الثانى حاز مع هذا الإرث المخرب (Damnosa herediras) ما يضارع إن لم يفق ، ما حازه جستنيان من الأفكار الإمبريالية

---

(١) جانوس : إله رومانى يعتبر راعيا لابتداء اليوم أو الشهر أو السنة . وتمثله الفنون ذا وجهين ينظران فى اتجاهين متعاكسين . [المترجم]

التى حفزته للتوسع . فإن ما فرضه على الآفار والفرس من طلبات وقحة ، لم تساندها قوة عسكرية أو مالية ، لم تكن تنتهى إلا بالانسحاب المهين أو ما هو شر منه مما قد ينشب من حروب مدمرة . وعلى الرغم من رغبة كسرى فى السلام ، فإن چستين أجج نار الحرب مع الإمبراطورية الفارسية (ولم يكن يعوز القوم مبرر للحرب Casus belli على تلك الحدود الطويلة) ، وسرعان ما أعقب النجاح المؤقت الذى أحرزته الجيوش الرومانية سقوط دارا (٥٧٣) ذلك السقوط الكارث ، وهى من أهم نقط الدفاع على خط حدود أرض الجزيرة . وترتب على ذلك أن اكتمل ما اشتهر به چستين من جنون العظمة فأضحى جنوناً كاملا . وخلفه فى العرش تيبريوس وهو جندى كفء ، فبدأ عهداً جديدا لسياسة أكثر تناسباً مع الموقف .

وأدرك تيبريوس مركز الإمبراطورية الحرج ، فتهيأت نفسه للتنازل عن بعض الأراضى للآفار النازلين بمنطقة الدانوب ، ولم يحرص إلا على الاحتفاظ بسرميوم لما لموقعها من أهمية جوهرية . ولكن الأمور سارت أشواطاً بعيدة جداً حتى اضطر قبل موته بزمن قصير أن يسلم القلعة العظيمة لخاقان الآفار ، على حين انهمر فيضان من مغيرة الصقالبة على شمال بلاد اليونان. فكأن الإجراء الذى اتخذه تيبريوس كان توقعاً لمجرى الأحداث فى المستقبل. إذ تحتم على بيزنطة بعد أن فصلتها عن غرب أوربا كتلة صلبة من البرابرة ، أن تركز اهتمامها منذ تلك اللحظة على ولاياتها الأسيوية ، وأن ترسم سياسة محددة تقوم على الوفاق فى الأمور الدينية وتخفيف وطأة الشدائد المالية ، حتى يطمئن رعاياها الذين استبدت بهم الحيرة والتردد . وفى الحين نفسه ، استمرت الحرب مع فارس على الرغم من كل الجهود التى بذلت لإيقاف نارها ، وراحت تجر ساقيها ببطء شديد ، جالبة على الإمبراطورية الدمار دون أن تنتهى إلى نتيجة حاسمة حتى عهد موريقيوس الذى خلف تيبريوس فى (٥٨٢) . وكانت

فرصة سعيدة لوضع حد لها فى (٥٩١) ، عندما اضطر حاكم فارسى جديد تولى الملك بثورة فى القصر ، أن يلتمس العون من الروم [١] ليثبت أقدامه فى عرشه. وكان السلم هو الشرط الذى فرضه موريقيوس ثمناً لإيقاف الحرب ، وعلى الفور بدأت الجيوش البيزنطية حركة انتقال نحو الغرب بقصد استرداد تخوم الدانوب . وبدا الحظ كأنما أخذ يتحول إلى صف الإمبراطورية ؛ لولا أن ألم به انقلاب آخر قدر له أن يهبط به على الفور إلى أوهد حضيض. ذلك أن موريقيوس وقد اشتد به الشوق إلى مواصلة ظفره على الآفار ، أبى أن يسمح لجنده بالعودة إلى العاصمة لقضاء فصل الشتاء . فتمرد الجند عليه على الدانوب . ونادوا بفوقاس — وهو قائد مئة غير متعلم — إمبراطوراً للبلاد ، وزحف العصاة من ثم على القسطنطينية . وكانت إجراءات موريقيوس الشديدة نفرت منه قلوب الناس عامة ، ولم يجد فوقاس أدنى صعوبة فى دخول المدينة . وتلى تتويجه مذبحة عامة فى البيت المالك السابق .

وعندئذ ارتفعت قبضة موريقيوس القوية ، ولاح شبح الفوضى من جديد فى ظل حكم خلفه المجرد من كل هدف . وإذا بالنزاع يشتد بين أحزاب السرك بالمدن الكبرى ؛ وأخذ اضطهاد أصحاب مذهب وحدة الطبيعة واليهود الذى صدر به أمر صريح من فوقاس ، يعجل بتنفير الولايات الشرقية منه وانسلاخها عن الدولة ، على حين راحت الجيوش الفارسية تتقدم باطراد على خط الحدود بأكمله من أرمينية إلى فلسطين . حتى بلغت فى (٦٠٨) مدينة خلقدونية التى تواجه القسطنطينية من وراء شقة البحر الضيقة . وأخذ الطاعون يفتك بالناس فى العاصمة ، وأخذت قلة الطعام تزيد فى شقاء السكان ألوانا . وبلغ الأمر أن الخضر أنفسهم ، وهم حزب الإمبراطور ، أخذوا يندددون به فى

---

(١) الروم هو الاسم الذى يطلقه العرب والقرآن الكريم على الدولة البيزنطية . (المترجم)

السرك ، ويقاومون قواده ، وترتب على ذلك أن تقرر حرمانهم من الحقوق السياسية .

وجاء الخلاص من حيث لم يتوقع أحد . فإن هرقل كان يحكم وقتذاك فيما يبدو إفريقية ، التي لعلها كانت أكثر ممتلكات الإمبراطورية ازدهاراً ، وهو قائد اشتهر بالذكاء وبالتوفيق فى تجاربه . فراسله نبلاء القسطنطينية الساخطون على إمبراطورهم ، فقبل آخر الأمر أن ينفذ حملة تتولى تنصيب ابنه واسمه هرقل أيضاً على العرش الإمبراطورى . وفى (٦١٠) أقلعت العمارة البحرية من قرطاجنة ، وعندئذ ظهر فى الأمور جو جديد ، قوامه ما اقترنت به الحملة من روح مغامرة جديدة ، وما احتشد من السفن ذات الأبراج ، وصورة العذراء التى أقامها قائد الأسطول فى رأس سارية سفينته ، تلك الصورة « التى لم تصنعها يد إنسان » . ولم تعد المدينة المطلة على البسفور « السُّرة » الحقة لعالم البحر المتوسط . إذ ضاقت رقعتها فلم تتجاوز المناطق المحيطة بها : آسيا الصغرى وتراقيا ومقدونيا . أما أسبانيا فقد طردت الحاميات الإمبراطورية . وأخذت سلطة بيزنطة فى إيطاليا تتضاءل باستمرار ، إزاء ما حدث من نمو وتطور التنظيم اللومباردى والبابوى . ولم تعد بدالماتيا بعد (٦٠٤) أية جند رومانية . خاصة وقد دق الغزو الصقلبي إسفينا بين الشرق والغرب ، سيما وأن الفتق كان يزداد على الأيام اتساعا . وهنا أخذت دول البلقان تظهر إلى الوجود رويدا رويدا . فالآن تتلفت الإمبراطورية نحو الشرق ، وتتركز قواتها على الجبهة الفارسية .

الإمبراطور هرقل

ولم يلق هرقل مشقة كبيرة فى خلع فوقاس الطاغية المكروه ، الذى لم يلبث أن لقى مصرعه عقب سقوطه . ولكن ذلك لم يكن إلا بداية عمل هرقل.

ولم يكن بد من انقضاء اثنتى عشرة سنة قبل أن تتمكن الإمبراطورية من استرداد قواها بالدرجة الكافية التى تمكنها من القيام بعمليات عدوانية من أى حجم على أعدائها الشرقيين . إذ لم يكن بد من إعادة النظام إلى نصابه مثل إصلاح الموارد المالية للدولة ، ومثل تهدئة الصراعات الدينية بين الولايات ، قبل أن يستطيع هرقل تخليص القسطنطينية من التهديد المزدوج من قبل الآفار والفرس ورد الولايات إلى الإمبراطورية . وفى الحين نفسه تواصل تقدم الفرس . فسقطت دمشق فى (٦١٤) ؛ ولم تلبث بيت المقدس ذاتها أن سقطت بعد ذلك بقليل ، وأن حمل الصليب المقدس — وهو أقدس آثار المسيحية — إلى بلاد فارس . وعندئذ أصبحت مصر إيالة فارسية مدة عشر سنوات ، وبذلك فقدت بيزنطة مواردها الثمينة فى المواد الغذائية . وليت الأمر اقتصر على ذلك ، إذ خبأت الأيام ما هو أسوأ ، إذ إن القوات الفارسية تقدمت للمرة الثانية مخترقة آسيا الصغرى ، وأقامت معسكرها عند خلقدونية ، وأخذت تواجه المدينة من وراء مياه البوسفور ، على حين حدث فى الحين نفسه فى ناحية البر الأوربى من المدينة، أن الآفار هبطوا عليها بقواتهم ونهبوا ضواحيها الشمالية . واستبد اليأس بهرقل ففكر فعلا فى نقل عاصمة الإمبراطورية إلى قرطاجنة ، لكى يبدأ بها بداية جديدة فى بيئة جديدة ، ليس للسوابق فيها أدنى وزن . على أن الفكرة الرائعة لم تتحقق ، ولكن مجرد دورانها بخلده يدل على عبقرية صاحبها ، وهى أصالة أوحت بالحل الذى وفق إليه أخيرا .

كان هرقل أحرز الكثير عند (٦٢٢) . فإن التدقيق وحسن الاختيار فى المناصب الهامة أحاط الإمبراطور برجال من أفراد أسرته أو من التابعين المأمونين . وأفضى الاقتصاد فى الشئون الإدارية وإعادة تنظيم من بيده من جند إلى إرجاع الجهاز الإمبراطورى سيرته الأولى من النظام العامل . ولكن الخلاف الدينى كان ينطوى على مشكلة أعقد وأعند . فلم يكن التسامح الدينى

كافياً فى حد ذاته، وذلك لأن التسامح فى تلك العصور، كان من الضرورى فرضه بالقوة الجبرية. واستطاع الإمبراطور أن يجد صيغة من التوفيق يسوى بها ما كان من الاختلافات المذهبية بين الكاثوليك والمونوفيزيتيين، غير أن ما بذله هرقل من جهود، اقتضت زمناً طويلا لحمل الناس على قبولها، لم يلق إلا الفشل الذريع.

على أن جميع من بالعاصمة واجهوا الخطر المشترك برأى واحد، فاتخذت الحملة الموجهة على فارس صورة الحرب الصليبية. ذلك أن هذا الاتجاه أخذ يستقر ويزداد رسوخاً طوال قرن من الزمان، إذ صارت حروب بيزنطة تتخذ شكل الحرب المقدسة، التى تضطرم دفاعاً عن العقيدة المسيحية، التى كان وجودها مرتبطاً ارتباطاً لا انفصام له بوجود الإمبراطورية الرومانية. وكانت عبقرية هرقل العجيبة داعياً لشحذ الشعور الدينى لدى رعاياه؛ وعندئذ اجتمعت كلمة الكنيسة والدولة على تزكية ذلك المسعى العظيم. وسمح سرجيوس البطريرك بإقراض نقود الكنيسة كيما تستخدم فى تمويل العمليات الحربية. فصهرت المواعين المقدسة المصنوعة من الذهب والفضة لتقدم رصائد مالية إضافية. وأصلحت ذات البين بين الزرق والخضر لهذه البغية، وبلغ الأمر إلى حدّ أن توزيع الخبز مجاناً — وهو حق العاصمة وامتيازها منذ أيام آل جراكوس — قد أمكن إيقافه دون حدوث اضطرابات خطيرة.

وكانت خطة هرقل الاستراتيجية بالغة الجرأة. إذ إن القسطنطينية كانت مهددة من جانبين. فعزم هرقل على أن يؤدى للآفار أتاوة مقابل رحيلهم عن القسطنطينية. وفوق هذا فإنه بدلا من محاولة استرداد ولايتى مصر وسورية المفقودتين منه، صمم أن يضرب فارس فى سويداء قلبها، وأن يدفع جميع الشعوب المسيحية التى تقطن بأرمينية وما وراء القوقاز، نحو الجنوب إلى وادى دجلة. وقد تمكن من تنفيذ مشروعه الجرىء فى أقل من ست سنوات (٦٢٢ — ٦٢٨). وكان الهدف الرئيسى من الحملة التالية (٦٢٢ — ٦٢٣)

تخليص آسيا الصغرى . ونزل هرقل بجيوشه فى « إسوس » قرب « البوابات القيليقية » التى يدخل بواسطتها من سورية إلى آسيا الصغرى . ثم تقدم إلى «قبادوقيا وبنطش » ودفع بالجيوش الفارسية من مركزها الذى يتهـدده عند خلقدونية ، وهزمها فى معركة فاصلة . وشهدت السنتان التاليتان (٦٢٣-٦٢٥) تقدماً آخر. ففيهما احتل هرقل أرمينية وشغل نفسه بتجنيد القبائل الكولخيسية والإيبيرية . وقام بغارات ناجحة على المناطق الشمالية . وانصرف إلى تجنيد قبائل كولخيس والكرج (إيبريا) . وعلى الرغم من الغارات الموفقة التى شنها على المناطق الشمالية ، فإن الجيوش الفارسية رغم ما تعرضت له من هزائم متكررة ، استطاعت أن توقف كل غزو فعلى .

وكان عام (٦٢٦) نقطة التحول فى الحرب . إذ صمم كسرى على حشد قواه جميعاً لسحق ذلك الخصم الخطر . وكانت خطته أن يجعل أحد جيوشه يستوقف هرقل ، بينما يزحف جيش آخر على خلقدونية ويهاجم العاصمة . وفى تلك الأثناء حشد خاقان الآفار جيشاً ضخماً ، استعداداً لمحاصرة بيزنطة فى نفس الحين من الشمال . وكانت بين الطرفين محالفات مفككة عقدت فى مناسبات سالفة . ولكن هذه كانت الحالة الأولى لقيام جهد حق متآزر بين الطرفين ، وكان التهديد المزدوج جارفاً وقوياً . واستمسك هرقل بخطته بشجاعة نادرة . فأرسل إلى القسطنطينية شطراً من قواته ، حيث وكل الدفاع عنها إلى النبيل البطريق بونس والبطريرك سرجيوس . وكلف شطرا آخر بمقاومة قوة الفرس المحدقة بالعاصمة ، على حين تمسك هرقل نفسه بأرمينية ، وواصل استعداداته للهجوم على الأراضى الفارسية . واستمر حصار بيزنطة شهر يوليو بأكمله . وكان الأعداء يشنون فى كل يوم هجوماً جديداً على أسوارها ، على حين كانت السفن الصقلبية فى الميناء تهدد وسائل الدفاع البحرى . وامتلأ

السكان بالحماسة الدينية فقاوموا مقاومة المستيئس. وتآزر الأعداء وشنوا هجوماً متكاتفاً فصده السكان منزلين بهم خسائر فادحة ؛ وذلك أنهم اكتشفوا الخطة قبل تنفيذها ، فخادعوا الصقالبة حتى أوقعوا الكثيرين منهم فى أسر السفن الرومانية ، ودب الرعب فى الآفار لما حل بقواتهم من كوارث ، فانسحبوا من الحصار . وفى تلك الأثناء انهزم الجيش الفارسى الآخر ، بينما أوشك هرقل على الفراغ من إتمام استعداداته . فوجه هرقل ضربته القاصمة فى أواخر السنة التالية ، إذ هبط إلى وادى دجلة ، وشتت شمل آخر جيش لدى الفرس ، ففر نحو الجنوب مضعضع النظام ، ثم استولى على قصر كسرى ، وهو على مسافة سبعين ميلا من شمال العاصمة ، وبذلك انتهت مقاومة الفرس . وعندئذ شقت الجيوش عصا الطاعة وخلع كسرى عن عرشه ، ولقى مصرعه بعد تعذيب طويل ، وعقد ابنــه صلحاً مع هرقل ، وبذلك انتهت الحروب الفارسية مع الإمبراطورية الرومانية إلى الأبد . وبمقتضى شروط الاتفاق استردت روما كل ما فقدت من أقاليم ، وعاد إليها جميع من بيد فارس من أسرى . على أن أبرز رمز للنصر كان عودة الصليب المقدس الذى كان له دور بارز ضخم فى مواكب السرور التى حيت هرقل عند عودته إلى القسطنطينية . لقــد تساير القديم والجديد جنباً إلى جنب فى هذا الحفل الختامى لعــالم زائل . على أن انتصار الإمبراطور الرومانى الذى حياه شعبه باسم سكيپيون[١] ، اختتم فى كاتدرائية القديسة صوفيا ، حيث رفع البطريرك الأثر المقدس للصليب عاليا ليبارك الإمبراطور المسيحى ، رأس الكنيسة والمدافع عن المدينة المقدسة .

وكان ذلك الحفل البهيج احتفاء بما أصاب مجد روما وهيبتها من انتعاش

---

(١) سكيپيون هو بطل الحرب البونية الثانية . انظر للمترجم المجلد الثانى (ط ٢) من « معالم تاريخ الإنسانية » تأليف هـ . جـ . ولز (المترجم)

حقيق رائع . ففى الشمال والغرب ازداد تداعى سيطرة الآفار بعد الصدمة التى نالتهم أمام أسوار بيزنطة ، وانقلب الصقالبة والبلغار على الآفار وسيادتهم ، وشهدت السنوات القليلة التالية قيام أول دولة صقلبية فى مورافيا ، ولم يلبث أن تلاها إنشاء إمارة كرواتية مستقلة فى دالماتيا . وفى الشرق حيث كانت الإمبراطورية الفارسية عدو روما التقليدى قد تلقت أثقل ضربة وجهها إليها إمبراطور رومانى ، فانتزع منها كل ما ملكته حديثا ، وانغرست بأرضها فى ثنايا ذلك بذور حرب أهلية دائمة . وللمرة الثانية زعمت حضارة البحر المتوسط لنفسها انتماء سكان آسيا الصغرى وسورية ومصر إليها . وبذا تمت كتابة الفصل الأخير من التاريخ اليونانى الرومانى .

والواقع أن ذلك كان آخر نصر أحرزه العالم القديم . فالدولتان الفارسية والرومانية اللتان ظلتا تتقاتلان زمناً طويلا ، أصابهما الدمار بعد هذا الصراع الأخير الذى أودى بهما . ورقدت ولاياتهما الضعيفة النازفة والثائرة المتمردة مفتحة الفجاج للفتح الإسلامى ، الذى قدر له أن ينبجس من الصحارى العربية فى بضع سنين . ومن وراء حاجز دول البلقان التى أخذت تنضم بعضها إلى بعض بسرعة فائقة — كانت أوربا الغربية تتشكل أشكالا جديدة ، ولن يفوتنا أن نميز جيدا دلائل نمو الإقطاع بإيطاليا وفرنسا ، كما أنه لن يعوزنا أن ندرك علائم اتساع قوة البابوية مستقبلا . وقد حمل مبشرو روما رسالتها إلى أقصى الغرب ، وأخذت إنجلترة تدخل فى دين المسيح رويداً رويداً . ومن بين أنقاض الفوضى الناجمة عن الحروب والغزوات ، شرع عالم أوربا العصور الوسطى يتخذ شكله ويتجمع فى مادته .

القسم الثالث

ظهور الإسلام

العقيـــدة

كان الإسلام فى مراحله الأولى عقيدة محدودة فى الجزيرة العربية ، أما اليوم فإنه بوصفه قوة عالمية ـ قد صار عقيدة وثقافة توحدان بين شعوب أشد ما تكون تباينا ؛ والإسلام بوصفه شريعة ، هو همزة الوصل بين هاتين الناحيتين : أعنى بهما العقيدة والثقافة . ومن ثم يمكن أن نستخلص فى إيجاز ثلاثة مظاهر للإسلام : — (ا) العقيدة (ب) الانتشار (ج) الثقافة ولعل من الأوفق—إن لم يكن من الأدق — أن تطلق هذه الأسماء على أدوار ثلاثة فى التطور التاريخى للإسلام .

ولم يكن مفر من أن يدور حول الأمور الثلاثة شيء من سوء الفهم الذى ألم بالآراء التى كونت عنها .

ولا يزال أتباع محمد (ص) يتهمون بالكثير من التهم الباطلة . ويعانون إلى اليوم مما أذاعه عنهم خصومهم فى العصور الوسطى من تخرصات أساءت إلى سمعتهم ، كما أن أوربا تنظر إليهم اليوم بالعين التى كانت تنظر بها إليهم أيام الحروب الصليبية . وقد بذلت فى الحقبة الأخيرة جهود يقصد بها استكشاف ماقد يكون متجمعاً من الحقائق تحت مجموعة الروايات والمأثورات التى نجدها فى المصادر المسيحية أو الإسلامية حول التاريخ المبكر لتلك الحركة الجديدة وأعنى بها الإسلام . والإسلام عقيدة جديدة ، وديانة عربية أصيلة . وذلك رأى صحيح . ولعمرى إن الجزيرة العربية مهد العقيدة ومنبتها ، وإن العقيدة احتفظت ببعض تقاليد العرب وسننهم الاجتماعية التى أثرت فى بعض مناسكها .

ولم يكن الإسلام عقيدة جديدة فقط ، بل كان أيضاً تأكيدا لاستمرار الوحى لأهل الكتاب . فإن سلسلة الأنبياء لاتنقطع : وفيها إبرهيم وموسى وعيسى ومحمد . وتعاليم الإسلام إن هى إلا توكيد جديد ، وتعديل موحى به لأسمى ماتحتويه المسيحية واليهودية من عناصر . تلك العناصر التى غطت عليها المؤثرات الهلينستية[١] . وقد اعتقد كثير من المؤرخين أن الفتح الإسلامى مظهر لحرب صليبية أو دينية عامة يشنها مقاتلة متعصبون حالمون ، يشهرون السيف فى يمينهم ويحملون القرآن فى شمالهم ، وقد وطدوا العزم على إدخال الكفار كرها فى دين الله وهو قول لاينطبق إلا على موقف الإسلام حيال المشركين من أهل الجزيرة . إذ الواقع أن الاسلام فضلا عما جبل عليه من تسامح شديد مع غير أبناء دينه لم يكن إلا حركة دينية عاصرت الحركة القومية ببلاد العرب[٢] ، وكانت هذه حركة تقودها أرستقراطية من العسكريين شديدة الأخذ بالنزعة الواقعية ، وترى أن اعتناق الشعوب المقهورة للإسلام كرها ليس من حسن السياسة فى شىء . أما الثقافة الإسلامية فلم تكن كما ظن كثير من الناس حضارة أسيوية شديدة المناقضة للحضارة الأوربية . بل هى على العكس من ذلك بنت بيئتها ، فهى إحدى ثمار تلك العناصر التى صيغ منها مجتمعة الأساس الذى قام عليه أيضا الفكر المسيحى فى عصوره المبكرة . وهو اتحاد

---

(١) وهنا نشير إلى آراء كتاب العصور الوسطى تلك الآراء التى ظل الإسلام يقاسى منها إلى اليوم والتى ظلت تحجب عيون أوربا عن رؤية الإسلام على حقيقته . وهم وإن لم يرموه بالوثنية فقد اعتبروه فرقة خارجة (كذا ! ؟ ! . . .) انظر مقارنات يوحنا الدمشقى فى القرن الثامن . وانظر دانتى فى الكوميدية الإلهية ؛ (Historie de Byzance (فاسيلييف ج ؛ ص ٢٧٤) (Seminator di scandaloedi scisoma)

(٢) وسواء أجاز لنا تقبل نظرية كاتيانى التى تذهب إلى حدوث عملية متواصلة من الجفاف (inaridimento) فى شبه الجزيرة العربيه أم لم يجز تقبلها فالواقع أنه لا يمكن إغفال أهمية العامل الاقتصادى بين أسباب الهجرة العربية .

الثقافتين الهللينستية والسامية . ذلك الاتحاد الذى شمل الشرق الأدنى بأكمله. وعندى أن هذا الأساس المشترك إنما هو إلى حد كبير ، السبب فيما أحرزه الإسلام من أثر قوى على ثقافة أوربا فى العصور الوسطى . ولا شك أن الخصومة الدينية أفضت إلى إسدال ضباب الإبهام والغموض على المصدر المشترك لثقافة الإسلام والمسيحية : وأعنى بذلك اشتراكهما فى التراث الذى وهبته للبشرية فتوح الإسكندر . على أنه يمكن تتبع هذه المشاركة على امتداد التاريخ الإسلامى بأجمعه ، على الرغم من تفوق العناصر الشرقية وازدياد بروزها ، نتيجة انتشار الإسلام فى الأقاليم الشرقية ، وانتقال العاصمة من الشام إلى العراق . وسنبحث الآن عن تفسير لهذه المفارقات الظاهرية .

بلاد العرب قبل ظهور محمد (ص)

إن الحركة المباغتة التى أطلقت على العالم فى القرن السابع الميلادى شعبا عربيا فاتحا ، إنما هى من المفاجآت المثيرة فى التاريخ . إذ إن بلاد العرب من البلاد التى لم تهيئها طبيعتها لتكوين حكومة موحدة ، وهى حقيقة لم تفت كلا من روما وفارس وتركيا وبريطانيا العظمى ، كل واحدة منها بدورها على كر التاريخ . ومن المعلوم أن الشطر الأكبر من أراضيها صحارى ورمال ، يجوبها البدو الرحل ، الذين تأصلت فيهم النزعة الفردية بحكم السليقة والتدريب ، وهى نزعة لا تعترف بأية رابطة ولا تدين بأى ولاء إلا فى حدود القبيلة ، أو حتى العائلة فى بعض الحالات . على أن العربى المتحضر النازل على الأطراف الخصبة والذى ألف حياة المدن ، واشتغل بالتجارة أو الزراعة ، وكان له اتصال دائم بالأمم المتحضرة ، والذى عمل وسيطا فى التجارة المتبادلة على الطرق التجارية الكبرى بين الشرق والغرب — ذلك العربى كان نقيضا

لإخوانه البدو الرحل . ومع ذلك لايكاد يحق لنا أن نتوقع العثور هنا على وجهة نظر قومية . على أنه حدث فى أقصى الجنوب العربى ، أن أفاد سكان اليمن من تجارة البحر الأحمر وبلغوا بفضلها قدراً من الوحدة ، كما تشهد بذلك آثارهم ونقوشهم — تحت حكم ملوك سبأ . ومع أن الغزو الحبشى قضى على أهميتهم السياسية قبل ذلك بقرن[1]، فإنه لم يستطع أن يغير الأحوال التى هيأت لليمنيين نصيباً ضخما من التجارة مع الشرق الأقصى . أما فى الشمال ، فقد أدركت روما وفارس أن مصلحتهما تقضى عليهما بتشجيع قيام سلطة مستقرة بين القبائل المتجولة فى ربوع شرق الأردن والفيافى المترامية التى تمتد من فلسطين إلى نهر الفرات ، وهو نفس الشىء الذى فعلته الدول العظمى فى الأزمنة الحديثة . فقام ملك الغساسنة على أطراف الشام بمؤازرة روما ، على حين اتخذت فارس من مملـكة الحيرة « دولة حاجزة » وهى الدولة الفتية التى تعتبر المركز التجارى على الفرات الأدنى . ومع ذلك ، فإن كلا من هاتين الدولتين التابعتين قد زالت من الوجود قبل ظهور الإسلام بزمن قصير . وإذا انتقلنا إلى الغرب ، وجدنا عرب الحجاز يعيشون عيش الاستقرار وإن لم يتحدوا سياسيا . وقد مارسوا الزراعة بالجزء الشمالى من البلاد ، إذ إن يثرب التى عرفت فيما بعد باسم المدينة ازدهرت بها حرفة غرس النخيل ، وأقام بها عدد ضخم من السكان يتألف من زراع من اليهود والعرب . وعلى مبعدة مائتى ميل جنوبا على طريق القوافل الرئيسى الذى يسير على امتداد ساحل البحر الأحمر كانت تقع مدينة مكة ، التى كانت تدين برخائها كله للتجارة . وكان تجارها يزودون أسواق سورية والمغرب بالبخور وخشب العطور الواردة من جنوب بلاد العرب ، فضلا عما يرد من سلع الهند وأقاصى آسيا ، التى حالت العداوة

(١) انظر ص ٢٠١ بعنوان البعثات البشرية والديبلوماسية .

بين روما وفارس دون اجتيازها طريق الفرات القصير . وكانت مكة أيضاً مثابة دينية تقوم بها « الكعبة » وحجرها الأسود الحافل بالأسرار وهى البيت العتيق الذى يجتذب الحجاج من كل أرجاء العالم .

ولم تكن الديانة فى بلاد العرب بأوفر من السياسة حظاً من التنظيم ، وكانت عناصرها الأساسية المقدسة هى المزارات والأضرحة المحلية والأعمدة والحظائر المسورة المقدسة والشعائر الموروثة وعدد كثير من الأرباب البدائية الغامضة. وقد أدخلت المجتمعات اليهودية والمسيحية النازلة بالمناطق الساحلية عقائدها . على أن عقائدها هذه كثيراً ما كانت فى صورة منحطة أو مبتدعة . غير أن الغالبية العظمى من السكان ظلت متمسكة بعقائدها العتيقة ، التى لم تتجاوز فى معظم الحالات ما كان معروفاً من قديم الزمن فى كريت وفلسطين من عبادة الأحجار النيزكية . ولاشك أن مثل هذه العبادات لم تعش نتيجة لشعور دينى أصيل بل عن استمرار التقاليد والعادات . ولم يحاول أحد من العرب البحث فى اللاهوت ، وإن كان يبدو أنه قد ظهرت حركة تتجه نحو التوحيد . ولعل مكة هى أهم مثابة دينية عند القبائل ، وتحيط بها منطقة حرام مقدسة . وزاد فى مكانتها وأسهم فى رخائها التجارى منسك الحج واحتفالاته التى تقام بها كل عام .

حياة محمد « عليه الصلاة والسلام »

ولد محمد بمكة حوالى عام ٥٧٠ م . وكان ينتمى إلى المجتمع التجارى النازل بها ، ويبدو أنه أدرك عند سن الثلاثين درجة معقولة من الغنى . والوصول إلى بيان مقنع عن خلقه من المصادر التى بين أيدينا ليس بالأمر اليسير . وإن جرت العادة عند الشعوب القديمة أن تكون لنفسها صورة عامة للنبوة . والنبوة

— كما هو معلوم — طراز مألوف فى الشرق — وليس مختصاً بفرد بذاته — وفى أثناء « الفترة المكية » من حياته ، وهى المدة التى كانت دعوته الناس خلالها سراً ، تجمع حوله فئة قليلة من المريدين المخلصين . ولم يكن بد من أن تستثير الموضوعات الأساسية التى دعا إليها ، معارضة قوية من الماديين المحافظين ، الذين تأصل لديهم العرف القديم والأخلاق القبلية . ولم يقابل مذهبه فى وحدانية الله بأى تحد ولا معارضة ، ولكن إنكاره لقيمة الآلهة المحليين كشفعاء ، وتشديده القوى على ضرورة أداء الزكاة والرحمة بالضعفاء ، وأكثر من كل ذلك تأكيده اقتراب يوم القيامة ـ تلك المبادئ التى ظل محمد يدعو إليها بحماسة بالغة مستنداً إلى الوحى ، كل ذلك لم يكن بد من أن يثير مخاوف وشكوك ذوى المكانة من رجال المجتمع القرشى وأن يعتبروها آراء هدامة . فلا عجب أن قوبلت دعوته العاصفة وفكره الثائر على مقدساتهم ، بنقد وزراية من سادة المجتمع هؤلاء ، وهبط عليه الوحى يبررها بالأساليب الجدلية ، أما مبادؤه فقد عززت بالأمثلة والأقيسة المطابقة بصفة رئيسية لما ورد فى الكتب التى يؤمن بها أهل الكتاب من قبله . ولم يعد عليه هذا الاستدلال المنطقى إلا بزيادة عمق الهوة التى تفصله عما كان يعبد قومه ، ومن ثم أخذ الوحى يزداد تنديداً بشرك مكة وعبادتها للأوثان ، على أن حكمة الله اقتضت فيما بعد أن يجيز النبي بعض شعائر الكعبة ويتخذ منها ركناً جوهرياً فى الدين الجديد .

وكانت سنة (٦٢٢) نقطة التحول فى سيرة النبى (ص) . وهى السنة التى تمت فيها الهجرة ، حين غادر محمد (ص) مسقط رأسه مكة واتجه إلى المدينة وكانت بيئتها أكثر ملاءمة للتعاليم الجديدة . وكان كلما زاد أتباعه عدداً اشتدت الحاجة إلى القوانين والتنظيمات . ومن ثم كثر نزول آيات التشريع فى أثناء الفترة المدنية من رسالته . هذا وإن الأهمية السياسية الجديدة التى بلغها محمد (ص) لتنعكس فيما نزل من الآيات العديدة التى تحوى الحدود وتمثل

القانون المدنى والجنائى ، فضلا عن عدد من الشعائر والسنن الدينية . ولم يلبث محمد (ص) على الرغم مما لقى من السكان اليهود من معارضة ، أن بسط سيطرة الإسلام على مجتمع المدينة ، وأن جمع حوله مجموعة ضخمة من المؤمنين ، الذين أسلموا أنفسهم لله ورسوله على نحو ماتدل عليه كلمة « إسلام » . وكانت خطوة هامة تلك التى عول بها محمد (ص) على اعتراض سبيل قوافل مكة بوصف ذلك ضربا من الانتقام الإلهى من الكفار الذين آذوا أتباعه وشردوهم من ديارهم . والحق أنه لم يتهيأ شىء أشد إقناعاً للعرب بصدق دعوة محمد (ص) ، من النجاح الذى أصابته غزواته تباعا. وعقد المكيون وغيرهم ممن أضرت بهم هذه الغزوات ائتلافاً قوياً لمهاجمة المدينة ، بيد أن ذلك الائتلاف لم يفز بطائل ، ومن ثم أصبح السبيل ممهداً لعودة النبى ظافراً إلى مكة (٦٣٠) . وعندما توفى محمد (ص) فى (٦٣٢) كان الحجاز كله يدين بالطاعة لسلطانه السياسى والدينى كما أن الاحترام الذى كانت تلقاه جيوشه بكل أصقاع الجزيرة أكبر شاهد على أن قوة جامعة ومركزية جديدة قد نشأت ببلاد العرب . وبذلك لقى ماقام به النبى من الأعمال الجزاء الأوفى من الله تبريراً وتزكية .

العقيـــدة

من الجلى أن أساس الإسلام كان دينياً محضاً . إذ إن الحاجة الماسة إلى ضم من حوله من الناس إلى عقيدته ، هى الحافز الذى دفع مؤسس تلك العقيدة إلى العمل على اكتساب أتباعه الأولين . على أن العناصر السياسية لم تظهر إلا بعد الهجرة إلى المدينة .

فمنذ تلك اللحظة أضحى انتشار الإسلام مرتبطاً بسيادة المدينة وسلطانها . على أن الجميع كانوا مسلمين طالما اقتصر نمو الإسلام على بلاد العرب . ولكن

عندما انتشرت قوات العرب فى أرجاء الشرق الأدنى وشمال أفريقية ، وهى مهاد الحضارات القديمة ، صار الوضع مختلفاً ، وإذا بالعرب المسلمين يقيمون «دولة» . ولـكنها دولة تتصف بالتسامح المطلق . وبدلا من أن ينشر الفاتحون معتقداتهم بحد السيف ، تركوا رعاياهم أحراراً فى ممارسة عقائدهم على شريطة الاعتراف بسيادة العرب والالتزام بأداء الجزية المفروضة . فاحتفظ العرب بما للبلدان المغزوة من نظم إدارية وتجارية وقامت البواعث الاقتصادية بدورها . وبهذه الوسيلة تحققت المساواة الاجتماعية بين الغالب والمغلوب ، كما أن العناصر المشتركة بين المسيحية والإسلام ، ذللت العقبات التى تحول دون اعتناق الإسلام ـ غير أن عملية اعتناق الإسلام لم تتم إلا رويداً رويداً . ومن ثم فإن الفتح السياسى الذى أنجزته الجيوش العربية سبق طبع ذلك الشرق بالطابع الإسلامى بمدة مائتى سنة أو ثلاثمائة .

الباب التاسع

الفتوح الإسلامية

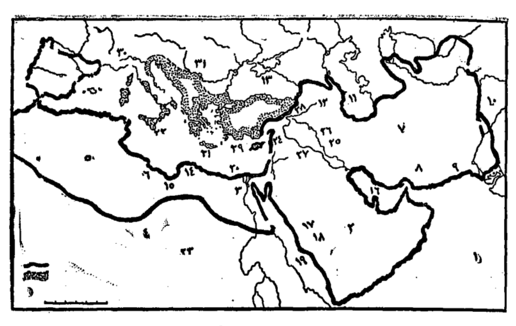
كان للدين الإسلامى — كما رأينا — الفضل فى تنظيم المدينة . وأدى ذلك التنظيم إلى جمع كلمة العرب ودفعهم إلى الفتح العسكرى ؛ ونبتت عن هذا المجتمع دولة . ولاشك أننا نلمس مفتاح هذه الحركة فى صفات الخلفاء الراشدين. فقد أعقبت وفاة محمد (ص) ثورة عامة ببلاد العرب على سيطرة المدينة ، وكأنما قدر للإسلام أن يخر صريعاً فى تلك اللحظة إزاء ما تعرض له من حركة جارفة من الشعور القبلى والنزعات الفردية . ولم ينقذ الموقف إلا القواد المسلمون الذين اشتهروا بالقوة والشدة فقادوا جيوش المدينة لقتال القبائل التى تسكن وسط شبه الجزيرة العربية . والواقع أن هؤلاء القادة ـ هم وحدهم دون المتأملين الذين ملأ الإسلام قلوبهم — هم الذين قادوا حركة قمع المرتدين . فاستطاعوا بما شنوه من حملات سريعة بسط سيادة الإسلام ثانية على الجزيرة العربية ، وتمكنوا من جمع شتات العناصر المتحاربة كلها فى حلف واحد ، وبذلك أعدوها للقيام بأعمال الفتح . ولكن قبل أن يتم إخضاع بلاد العرب ، بدأت الغارات الأولى على الشام والعراق ، التى كانت تشنها جيوش قليلة العدد ، ليس لديها إلا فكرة ضئيلة عن الفتح الثابت المنظم ، واجتاحت كل شىء أمامها ، كما أن ما أحرزته تلك الجيوش من انتصارات جارفة فى اليرموك والقادسية[1] قد أتاح لذلك الحلف الحديث النشأة من التماسك ما جنبه التمزق وتفرق الكلمة بإنفاذه جموع حشوده على البلاد المجاورة. ذلك أن الوقت قد تهيأ فعلا لتلك الغزوات . إذ إن أقرب منفذ لتلك القوات

---

(١) انظر ص ١٠٣

المادرة هو الأرض الواقعة شمال الجزيرة العربيـة مباشرة بين إمبراطوريتى روما وفارس .

ولم تكن الإمبراطوريتان فى مركز يؤهلهما للقيام بمقاومة منظمة . إذ تلت انتصارات هرقل فترة تفشت فيها الفوضى بدولة الساسانيين ، حتى إذا عاد النظام فى آخر الأمر إلى نصابه ، كانت عودته بعد فوات الأوان . على أن مركز دولة الروم (بيزنطة) التى كانت فى ظاهرها عظيمة القوة والازدهار ، يحتاج منا إلى شيء من التوضيح : ذلك أن ما أحرزته من انتصارات لم يقتصر على تحويل فارس إلى دولة ذليلة لا قدرة لها على القتال وحسب ، بل إن تلك الانتصارات استنفدت موارد الروم بشدة أدت إلى ضياع كل ما استردته حديثا بمصر والشام من الأراضى فى مدى سنوات ثمان . ومن أهم الأسباب التى أفضت إلى تحويل كفة الحظ عنها ، ما أصاب قوتها العسكرية من الانهيار . إذ إن الحملات التى استمرت طويلا أفسـدت نظام جندها . كما أن هرقل الإمبراطور الشيخ الذى انصرف إلى الخصومات الدينية ، لم يعد كعهده قديما نافذ الكلمة فيهم . وكان الجيش يتألف من عدة أخلاط من الجند . فانخرطت فيه أعداد غفيرة من الأرمن وسكان جبال القوقاز ، وأسهمت هذه العناصر الشاذة فى بث الفوضى بين صفوف الجيش ، على حين لم يكن قادتهم الذين ينتمى معظمهم إلى النبلاء الإقطاعيين ببلادهم ، أقل منهم تمرداً . وقد أدت هـذه العيوب إلى إنزال أفدح الأضرار بالقيمة العسكرية لهذين الجيشين المرابطين بالشام ، على حين زادت الأحوال بمصر سوءاً . فإن الدفاع نيط هنا بجند من المليشيا من ملاك الأرض ، وهم قوم لا خبرة لهم فى شئون الحرب ، على حين كان يشترك فى القيادة خمسة قواد أنداد ، وهو وضع من اليسير تصور ما ينجم عنه من عواقب . وفضلا عن خطورة الموقف العسكرى ، كان هناك خطر



(٩) خريطة العالم الإسلامى

١ ــ المحيط الهندى	٢ ــ بلاد العرب	٣ ــ مصر
٤ ــ الصحراء	٥ ــ البربر	٦ ــ أفريقيا
٧ ــ فارس	٨ ــ كرمان	٩ ــ مكران
١٠ ــ هندوستان	١١ ــ بحر قزوين	١٢ ــ تفليس
١٣ ــ البحر الأسود	١٤ ــ برقة	١٥ ــ طرابلس
١٦ ــ الخليج العربى (الفارسى)	١٧ ــ الحجاز	١٨ ــ مكة
١٩ ــ البحر الأحمر	٢٠ ــ الإسكندرية	٢١ ــ كريت
٢٢ ــ صقلية	٢٣ ــ القاهرة	٢٤ ــ أنطاكية
٢٥ ــ العراق	٢٦ ــ بغداد	٢٧ ــ نهر الفرات
٢٨ ــ أرمينيا	٢٩ ــ جزيرة قبرص	٣٠ ــ الفرنجة
٣١ ــ الآفار		

أعظم، هو انتشار السخط بين السكان . ولو أن الدولة البيزنطية حزمت أمرها واتبعت سياسة اكتساب رضا الناس وخففت عنهم أعباء الضرائب وانتهجت سبيل التسامح الديني ، فلربما كان من المعقول أن تبقى على ولاء الشام ومصر نحو الإدارة البيزنطية . ولكن ما اتخذه هرقل من إجراءات لم يكن منها بد ، عادت على الدولة بتنفير جميع طبقات السكان منه . فإن جميع ما كان بالخزانة الإمبراطورية من أموال قد استنفدته حروب الفتوح ، كما أن الولايات التى استردت حديثاً سرعان ما ألزمت بتحمل نصيبها كاملا فى أعباء الضرائب وتزويد الدولة بالإيرادات . ومما زاد الموقف ببلاد الشام تفاقما ، ما كان بين اليهود والمسيحين من كراهية متبادلة تفجرت فتناً ومذابح هاجت بالمدن الكبرى . وفى (٦٣٤) صدرت الأوامر بتعميد اليهود كرهاً ، على حين أن أنصار مذهب وحدة طبيعة المسيح المسمون بالمونوفيزيتيين ، رفضوا العمل بما عرضه الإمبراطور من صيغة للتوفيق بين المذاهب الدينية ، فأدى ذلك إلى إنزال الاضطهاد بكل من الشام ومصر على السواء . وتتجلى نتيجة ذلك فيما تشهد به التواريخ المعاصرة وتراجم الرهبان الأقباط ، التى تعبر عن الفرح لكل ما حل بالإمبراطورية من هزائم، وتعدها آية على الانتقام السماوى من « هراطقة خلقدونية » .

فتح الشام

دأب عرب الحدود النازلون على أطراف الشام على الغارة منذ زمن بعيد على مدن تلك الثغور ، ولذا لم تثر غارات المسلمين الأولى عليها أى قلق فى بيزنطة . إذ حدث فى (٦٢٩) قبل وفاة النبي بزمن طويل ، أن البيزنطيين صدوا هجوماً قام به العرب على جنوب فلسطين ؛ غير أن العرب ما لبثوا أن قاموا بعد ذلك بخمس سنوات بحركة أعظم قوة . إذ دخل جيشان من الجنوب

والشرق وأنزلا الهزيمة بقوات بيزنطة . وما وافت السنة التالية حتى كان العرب يعسكرون أمام دمشق . وبذل هرقل جهوداً جبارة باسلة لإنقاذ المدينة ولكنها لم تجد نفعا ، وما لبثت أن اضطرت بعد ستة أشهر أن تفتح أبوابها . ثم أخذت المدن الباقية تخر الواحدة تلو الأخرى صريعة أمام الغزاة ، ولم تحافظ على كيانها إلا بيت المقدس وقيسارية وسائر المناطق الساحلية . واستمد هرقل بشجاعة لا تتزلزل لتوجيه ضربة فاصلة دفاعاً عن الشام . فلما أقبل الربيع ، زحفت على الشام قوات بيزنطية ضخمة جمعت فى أثناء الشتاء بعصبية محمومة . واستردت مدينة دمشق ، وتراجع العرب أمام القوات المتفوقة عليهم عددا إلى الجانب الآخر من نهر اليرموك . ودارت بهذه المنطقة عدة اشتباكات ، بلغت ذروتها فيما حل بالبيزنطيين من هزيمة ساحقة على نهر اليرموك (أغسطس ٦٣٦) تقرر بها مصير الشام . وقد ألقى هرقل بكامل قواته فى تلك المعركة ، لذا أضاع ما أصابها من شامل التدمير كل أمل فى ملاقاة العدو مرة أخرى . ومن ثم لم تلبث الحصون أن سلمت واحدا بعد آخر . وما وافت (سنة ٦٣٧) حتى سقطت فى أيدى العرب المدن الساحلية : وهى عكا وصور وصيدا وبيروت ؛ وشهدت السنة التالية سقوط بيت المقدس وأنطاكية ، وعندما سقطت قيسارية وهى العاصمة الإدارية للبلاد فى (٦٤٠) ، أصبحت البلاد بأسرها تدين للسيادة الإسلامية بالطاعة والإذعان .

وقد ركز العرب على الشام قواتهم الرئيسية المعدة للغزو ، ولم تكن حملاتهم على العراق ذات نطاق واسع ، كما أنها لم تصب نجاحاً ملحوظاً . على أن ما أحرزه المسلمون فى اليرموك من نصر أتاح لهم أن يحولوا اتجاه الفتوح ، بعد أن دارت رحى معركة عظيمة فى القادسية (٦٣٧) ، كان أثرها فاصلا بالنسبة لبلاد الفرس كاليرموك بالنسبة لمستقبل الشام . إذ تراجعت الجيوش الفارسية بغير نظام بعد أن شتت شملها تماماً ، بينما سارع الملك إلى الفرار من عاصمة

ملكه . وعندئذ زحفت القوات العربية على المدائن (طيشفون) فاستولت عليها وانتهبتها . وسرعان ما اجتاحت جيوشهم أرض الجزيرة ، واندفعت جموع المسلمين إلى أعلى الدجلة والفرات ، ومضت فى سبيلها حتى اخترقت سلاسل الجبال الأرمينية . وفى نفس الحين ، واصل الفاتحون حملاتهم فى الإمبراطورية الفارسية حتى دانت ولاياتها الجنوبية والشرقية بطاعة العرب ، أما آخر أكاسرة الفرس ، فإنه واصل الفرار شرقاً أمام الغزاة ، حتى لقى مصرعا غير كريم عند مروعلى تخوم بلاد الترك . ومما هو جدير بالملاحظة أن حضارة فارس الأصيلة التى لا تمت للسامية بأدنى صلة ، استطاعت بفضل تقاليدها الممتازة التى دامت نحو ألف عام ، أن تبدى من عنيد المقاومة للغازين مالم تبده بلاد الشام ولا العراق . إذ إن فتح فارس لم يكتمل حتى بعد انقضاء عشر سنوات ، ونجحت فارس فى الاحتفاظ بلغتها القومية وطرائق تفكيرها .

فتح وسط آسيا

لم يعد للإمبراطورية الفارسية وجود عند عام (٦٥٠) ، ولكن قوة الاندفاع العربى لم تكن تبددت بعد . ومن ثم صار لزاماً على أقاليم آسيا القاصية أن تتلقى آنذاك اندفاعة السيل العربى الجارف . وكما هو الشأن فى الغرب ، كان مما سهل تقدمهم ضعف الإمبراطوريات التى واجهتهم . فقد عمت الفوضى بلاد الترك الذين ظلوا قبل ذلك بحوالى قرن من الزمان سادة لآسيا الوسطى ، وانحلت عرى الإمبراطورية الضخمة لخانهم الأعظم فصارت مجموعة مضطربة من القبائل المتناحرة . وأخذ فرسان المسلمين عند ذاك يزحفون قدماً على هراة وبلخ (٦٥١) . وتوقف الزحف ردحاً من الزمان بسبب ما نشب فى العراق من خلافات ثم لم يلبث أن مضى فى سبيله من جديد ، ولم تنقض عشرون سنة أخرى حتى سقطت أمام الزحف المظفر بخارى وسمرقند . وفى بواكير القرن التالى انسابت

موجة جديدة من الفتوح صوب الشمال الشرقى ، حتى بلغت تخوم الصين ، يوم بلغت أسرة تانج الصينية الباهرة أدنى دركات الانحطاط ، وأوشكت التركستان الصينية على السقوط : لولا أن برزت قوى جديدة فى الصين ، فما وافى القرن الثامن حتى عادت الأمور إلى نصابها . وعنـــد ذلك كانت قدم الإسلام قد توطدت راسخة بكل من بلخ وسمرقند،وسيطرت قبضته على التركستان الغربية، وأمسي متحكماً فى ممرات هضبة البامير ، وفى تلك الأثناء توغل الفرسان المسلمون فى الشمال الغربى من الهند . وكانت إمبراطوريات ذلك الإقليم وهى السند وكشمير والبنجاب تخضع لأمراء الجوبتا النازلين جنوبى تلك الإمبراطوريات. على أن هذه السيادة لم تلبث أن انهارت قرب نهاية القرن السابع ، ولذا فإن المد الـكامل للفتوح الإسلامية الذى بدأ فى مستهل القرن التالى ، حمل راية العرب المظفرة إلى صميم حوض السند ، ووضع أساس العظمة التى بلغها فيما بعد أمراء البنجاب .

فتح مصر وشمال إفريقية

على أن فتح مصر إلى الغرب كانت له أهمية مباشرة بالغة ، وقد جاء على أثر فتح الشام ، وكما هو الشأن فى جميع الحالات السابقة ، سبقت احتلال مصر حملة نهب لقيت من النجاح المفاجىء ما شجع على القيام بعمليات أوسع . على أن القيام بالحملة كان أمراً لا مفر منه . فبالإضافة إلى ما تملـكه مصر من الأراضى الغنية بالقمح ، وما لهـا من مركز عظيم الأهمية التجارية ، فإنها كانت مصدر تهديد مقيم لبلاد الشام الإسلامية ، كما كانت قاعدة بحرية دائمة لـكل ما تشنه بيزنطة من هجمات مضادة . وكانت الإسكندرية هى المركز الرئيسى لبناء السفن فى شرق البحر المتوسط ، ثم قيض لها إبان القرون التالية أن تصير مهداً لقوة الإسلام البحرية النامية .

وعلى الرغم من أن تفاصيل الفتح ليست واضحة ، فقـــد برزت فيه شخصيتان كبيرتان . فكان زعيم المقاومة البيزنطية هو البطريرك كيروس (Cyrus) ، الذى كان يتولى كذلك مقاليد الإدارة المدنية فى البلاد . وكان قائد القوات العربية هو عمرو بن العاص وهو قائد محنك أظهر جدارته فى حروب الشام . ويتركز الفتح فى حصار حصن بابيلون ، وهو يقع غير بعيد من القاهرة الحديثة . ومن العسير علينا أن نصدر تقديراً لسياسة كيروس المعقدة : إذ يبدو أن أهم ما كان يبغيه هو الوصول إلى اتفاق يتفادى به إهراق الدماء بغير جدوى ويحول دون تدمير الممتلكات ، وكانت نتيجة ذلك أن حصن بابيلون سلم فى (٦٤١) بعد أن صمد فى دفاعه عدة أشهر ، ثم فتحت أبواب الإسكندرية فى السنة التالية بمقتضى معاهدة كان الداعى إلى عقدها كيروس نفسه ، ثم تواصل بعد ذلك إخضاع ما تبقى من القطر المصرى ، وقد درت سياسة المسلمين فى تلك الأيام الأولى كما أشرنا آنفاً على عزل العنصر العربى عن باقى سكان البلاد المفتوحة ، وجعل العرب طبقة حاكمة تنعم بامتيازاتها الخاصة . ومن ثم اختيرت عاصمة جديدة قرب حصن بابيلون القديم فظهرت فى الوجود مدينة الفسطاط أو مصر القديمة ، لتكون المركز الرئيسى لسلطان العرب ، مثلما حدث فى بلاد العراق أن مقر الحكم لم يجعل فى المدائن (طيشفون) بل فى الكوفة (بالقرب من الحيرة) ، لتكون قلعة العروبة الإسلامية . وعلى هذا النحو ، يمكن القول إن استكمال فتح شمال إفريقية بدأ بإنشاء مدينة القيروان الضخمة .

فتح شمال إفريقية

على أن فتح شمال إفريقية كان عملية بطيئة يثبطها عاملان رئيسيان : هما مقاومة البربر والنزاع على الخلافة . ومن المعروف أن الحروب العظيمة التى خاضها جستنيان قضت على الوندال ، وأعادت الرخاء إلى المناطق الساحلية ، ولكنها أخفقت دون القضاء على قوة مشايخ البربر وكبح جماحهم : فبقيت فى أيديهم مناطق بأكملها ، ولم يصن الأراضى المزروعة من غارات القبائل سوى اليقظة المستمرة على امتداد شبكة الطرق العسكرية والمعاقل فضلا عن الأساليب الدبلوماسية والأعطيات المالية التى تصرف فى إبانها . على أن موارد الإمبراطورية استنزفتها حروب هرقل مع فارس وهجمات المسلمين ؛ وكانت عاقبة ذلك أن العاصمة (القسطنطينية) أصبحت عاجزة عن مساعدة ولايتها الإفريقية ، فضلا عن ضبطها والهيمنة عليها ، ولذا فإن حاكم قرطاجة شق عصا الطاعة على الإمبراطورية . فكأن الفتوحات العربية التى بدأت حوالى (٦٤٢) لم تلق والحالة هذه إلا القليل من المقاومة المنظمة ؛ ولكن الاحتلال الدائم للبلاد تأخر حتى نهاية القرن السابع . ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى ما اتخذه شيوخ البربر منذ البداية من الروح العدائية للعرب . على أن الموقف لم يلبث حتى تغير بمجرد دخول رجال القبائل فى الإسلام . وقد تركز حكم قرطاجة وروما للولايات الإفريقية فى المدن الساحلية ؛ أما سيادة الإسلام فاستمدت قوتها من البربر سكان المناطق الداخلية ؛ ومن حشود البربر هؤلاء، جاءت جموع المقاتلين الذين تدفقوا على مناطق ساحل البحر المتوسط ، حتى أزالوا بقايا الحكم البيزنطى وانتشروا عبر البحر إلى أسبانيا وصقلية . ولا ريب أن البربر كانوا العامل الحاسم فى هجمات المسلمين على غرب أوربا .

أما العامل الآخر الذى سبقت الإشارة إليه على أنه عقبة فى سبيل تقدم

المسلمين ، فلم يبلغ من الأهمية هنا ما كان له فى الشرق . على أن النزاع على الخلافة قد أخر تماسك مصر ، وبذلك عوّق كل ما وراء ذلك من زحف أو تقدم ؛ يضاف إلى ذلك أن كل قائد يوفق فى حملاته كان يتعرض دائما لإثارة غيرة الخليفة منه ، ولذا فإنه كثيرا ما كان يستدعى أو يعين قائد آخر مكانه . وحرص العرب منذ (٦٤٢) على الاستيلاء على إقليم برقة الساحلى (إقليم المدن الخمسة Pentapolis) الذى يقع غربى مصر مباشرة ، رغبة فى وقاية جناحهم الأيسر من هجمات البيزنطيين ؛ ولكن إنشاء المعسكر العظيم بالقيروان فى تونس لم يتم إلا فى (٦٧٠) ، وكان الغرض من إنشائه اتخاذه قاعدة لمواصلة القتال والتوسع فى فتح ولاية إفريقية البروقنصلية . وحدث بعد ذلك بنحو اثنى عشرة سنة ، أن البربر الذين كانوا لايبرحون ضالعين مع المدن البيزنطية قاموا بعصيان عام ، رد المغيرين إلى برقة ، ولذا فإن الفتح النهائى لشمال إفريقية الذى تم فى السنوات الأولى من القرن الثامن ، لم يكتمل إلا بعد أن خضع البربر النازلون بجبال أوراس ، وبعد تمكن العرب من استرضائهم ، وبعد تركز الامتداد الإسلامى على البلاد الساحلية بفضل نمو البحرية العربية .

على أن مشكلة البربر ظلت على ماهى عليه : فلم تكن الإعانات المالية عاملا كافياً يضمن ولاءهم ، كما أن فتح أسبانيا الذى تلا ذلك مباشرة ، إنما يرجع إلى الحاجة إلى توفير الغنائم للحلفاء الجدد وشغلهم ببعض المشاغل . ويبدو أن الهجوم على أسبانيا الذى حدث فى (٧١١) — لم يكن فى البداية إلا واحدة من الغارات العنيفة التى كانت تهبط طوال العصور الوسطى على سواحل جنوب أوربا وجزرها ، وتعود محملة بنساء المناطق الريفية وبالتماثيل المحلاة بالجواهر والمنتهبة من الأديرة . على أن المغيرين كان ينتظرهم هنا نجاح لم يخطر لهم ببال . ففى أثناء سيرهم على امتداد الساحل ، التقوا بالقوط الغربيين وشتتوا شملهم ، وعندئذ بدأوا حركة تقدم وزحف ظافر . ومهد السبيل للنصر

المؤزر كراهية الشعب للقوط ، وما كان من خيانة اليهود الذين أرادوا الانتقام لأنفسهم على ماحل بهم من اضطهاد . ولم ينقض شهران حتى سقطت قرطبة ثم تبعتها طليطلة بعد بضعة أسابيع . وقد انهارت مملكة القوط الغربيين كبيت مصنوع من ورق اللعب ، إذ أوهنت تقلبات الأسر المالكة على العرش قوتها ، وأضعفتها الخلافات والفتن الداخلية . وما عتمت هذه الانتصارات الرائعة السريعة التى أحرزتها جيوش المسلمين ، أن استقرت وتماسكت فى السنة التالية عندما عبر البحر والى إفريقية بأمداد وتعزيزات وفيرة ، واستطاع بعد معارك عديدة محكمة طرد فرسان القوط إلى جبال أستورياس ، ثم أعلن من طليطلة سيادة خليفة دمشق على البلاد . واستمر الزحف إلى ما وراء جبال البرانس ، ولم تمض سنوات قليلة حتى صار فى حوزة الجيوش العربية البربرية ساحل فرنسا الجنوبى حتى أربونه . ومن هذا المركز ظلوا فى الأربعين سنة التالية يناوئون المدن المجاورة ويرهقونها بالغارات : تولوز وآرل وآفينيون . ولكن الطرف الأيسر من الجيش الإسلامى الزاحف كان قد اقترب من النهاية وبلغ أقصى طاقته . ذلك أن أودو (Eudo) دوق قطانية (أكيتانيا) (Aquitaine) استبسل فى الدفاع عن أسوار تولوز ، وبلغ النضال أقصى غايته فى المعركة الحاسمة المعروفة باسم وقعة تور — بواتييه أو بلاط الشهداء سنة ٧٣٢ ، التى هزم فيها شارل مارتل هزيمة ساحقة الجيوش الإسلامية . على أن الواقع أن شدة الغزو كانت تبددت ، ولذا فمن المشكوك فيه إمكان قيام فتح دائم بجنوب فرنسا . وقد كثرت الأخلاط البربرية فى ذلك الحين فى الجيوش العربية ، كما أن بوادر العداوة بين الجنسين ازدادت عند ذاك وضوحا فى أسبانيا وإفريقية . هذا إلى أن مملكة أستورياس التى تقع فى الطرف الشمالى الغربى من أسبانيا ، والتى اجتذبت إليها جميع العناصر المناهضة للمغيرين ، كانت

تزداد فى كل يوم قوة ونموا ، وإذ صارت حاجزا على امتداد جبال البرانس، حالت دون تدفق المدد من الجنوب .

الخطر على بيزنطة

على أن الحضاوة الأوروبية تعرضت لتهديد أشد وطأة ، أخذ يشتد فى الطرف الآخر من البحر المتوسط ، حيث صارت بيزنطة الهدف الحقيقى الذى يشخص إليه المسلمون ، ولقد كان هذا الهجوم الصادر فى الجناح الأيمن للإسلام أقوى كثيرا من سابقه بصورة مطلقة ، وذلك لأنه كان صـادرا من قلب الإمبراطورية الجديدة ذاته .

ولما وافت (٦٤٢) كانت الكتائب الناهبة تمرح فى قبادوقيا ، ثم بلغوا فريجيا فى (٦٤٦) ، ولم يلبثوا حتى نفذوا إلى أنقره فى (٦٥١ ، ٦٥٣) ، أما الموقف فى أرمينية فكان بالغ الخطورة ؛ إذ تم احتلال البلاد احتلالا منظما بين عامى (٦٤٦ ، ٦٦٦) . لقد كان مد الزحف متجها نحو بيزنطة فى حركات بطيئة متمهلة ، تخللتها هجمات مفاجئة . وبلغ الزحف مدينة خلقدونية فعلا فى (٦٦٨) . وفى تلك الأثناء كانت قوة البحرية الإسلامية فى نمو مطرد . فتسللت أساطيلهم من الموانى الإفريقية وفتحت كريت وليقيا وجزائر بحر الأرخبيل ، ولم تلبث قبرص حتى أصبحت قاعدة بحرية هامة . وكلما زادت أساطيلهم جرأة ، زاد ضغطها على العاصمة (القسطنطينية) ، ومالبثت العمليات الحربية أن بدأت بمنطقة الهللسبونت (الدردنيل) نفسها . ثم تعرضت القسطنطينية فى (٦٧٣) لهجوم بالغ الشدة من البر والبحر ، ولم يصد الروم ذلك الهجوم إلا بأقصى مشقة ، وبما كان للنار الإغريقية من أثر رهيب . ثم هدأت الحملات عشرين عاما تهيأ فيها للبيزنطيين وبيزنطة المرهقة فترة تنفسوا فيها

الصعداء ، وذلك لما وقع بين المسلمين وقتذاك من الفتن الداخلية ، فانتهز البيزنطيون الفرصة واستردوا أرمينية برهة قصيرة . على أن العرب ماعتموا أن عاودوا الزحف فى (٦٩٣) ، وتعرض البوسفور مرة ثانية للتهديد . وأخيراً حدث حصار القسطنطينية الكبير فى (٧١٧) ، وهب للدفاع عنها الإمبراطور ليو (لاوون) الأيسورى دفاعا بطولياً مجيداً أحرز من الانتصار الرائع ماأوقف تقدم المسلمين [١] مدة ثلاثة قرون بعد ذلك .

وربما أمكن اعتبار هذه المعركة إحدى المعارك الفاصلة فى التاريخ . وعندما ولى الغزاة وجوههم شطر بلادهم بعد حصار طويل دام عاماً كاملا أحرقت فيه وسائل نقلهم أووقعت بأيدى أعدائهم ، وفت فى عضد جندهم برد قارس ، وفتك بهم الوباء والمجاعة فتكا ذريعاً ، تخلوا لعدة قرون بعدذلك عن آخر مغامرة جدية لهم على عاصمة الإمبراطورية الرومانية . ذلك أن الأباطرة الأيسوريين أقبلوا على الدولة ينظمونها من جديد ، فشدوا بذلك من قوة الموارد الداخلية للمتلكات البيزنطية ، وبذلك قضوا على احتمال للقيام بعمل مشترك على هذا المعيار الضخم . وآية ذلك أن العمليات البحرية بشرق البحر المتوسط أصبحت منذ تلك اللحظة مقصورة على غارات صيفية ، حتى شاركهم فى ذاك عرب المغرب الذين ملكوا صقلية وكريت . على أن ماانعقد لبيزنطة من مجد ، إنما يرجع إلى صمودها منفردة أمام قوة الإسلام الكاملة ، فى اللحظة التى بلغت فيها قوة المسلمين ووحدتهم ذروتها ، لا باعتبارها منقذة للتقاليد الإمبراطورية القديمة فحسب ، بل باعتبارها أيضاً صاحبة الفضل مستقبلا فى تخليص أوربا فى العصور الوسطى .

---

(١) عاود الإسلام تقدمه للمرة الثانية على يد الأتراك السلاجقة بعد معركة مانزيكرت (١٠٧١)

الفصل العاشر

الحضارة الإسلامية

لم يترك محمد (ص) للمسلمين من بعده أية خطة لولاية الحكم ، كما أن وفاته حرمت الحركة من ينبوعها الرئيسى - ذلك أنه كان مرجعهم فى كل شىء ؛ فإن كلمة الله التى تصدر على لسان رسوله كانت هى العليا . ولم تلبث المناقشات حتى نشبت بين صحابته وهم أتباعه المباشرون ، واقترن ذلك بثورة تمرد قامت بها القبائل العربية التى لم تألف بعد سيادة المدينة عليها ، على حين نهض بجهات مختلفة من شبه الجزيرة العربية ، جماعة من المتنبئة . على أن حروب الردة الدامية التى أفضت كما رأينا آنفاً إلى إلزام بلاد العرب كلها بالطاعة ، كانت لها نتيجة مباشرة هى فتوح الإسلام الخارجية . بيد أنها كانت لها مع ذلك نتيجة أخرى هى قضاؤها على ما كان بين أحزاب المدينة من مناقشات لمواجهة الخطر المشترك . فاختير أبو بكر خليفة للنبي ، لما له من وقار وهيبة واحترام ، ثم تولى الخلافة من بعده عمر بن الخطاب ، وهو سياسى عبقرى من الطراز الأول ، وهو الذى وضع أساس الإمبراطورية الإسلامية بما أبداه من براعة فى توجيه حملة فتح بلاد الشام . على أنه اغتيل فى (٦٤٤) بيد مجرم من الروم أو الفرس ، فتولى الخلافة من بعده عثمان أحد أفراد بنى أمية .. وبدأت حركة انتقاض على الحكومة المركزية بين جند الكوفة ومصر الذين غلبت عليهم البداوة وزكاها باسم الدين خصوم عثمان - وبدأت فى الخفاء مفاوضات مع مسلمى المدينة انتهت بمقتل عثمان على يد جماعة من جند مصر .

على أن عليا ابن عم النبي ، جانبه الصواب ، حينما رضى بأن يتولى الخلافة بعد عثمان ، وذلك بعد أن انسحب إلى مكة جميع المطالبين بها . ولما كانت البصرة هي التي تناصر هؤلاء المطالبين ، كان طبيعياً أن تناصر الكوفة علياً على منافستها ، وحقق له انتصار الكوفة على البصرة سيادة مؤقتة على العراق . وعند ذلك صار لزاماً على علي أن يلتقي بجيش معاوية والي الشام ، ومع أن النتائج الأولى للقتال لم تكن حاسمة ، إلا أن ميزان القوة العسكرية والرأى العام مالبث أن تحول رويداً رويداً إلى جانب معاوية . ولكن قبل أن يستطيع الطرفان الوصول إلى نتيجة حاسمة ، لقى على مصرعه فى أوائل (٦٦١) على يد أتباع حزب ثالث . وأعلنت خلافة الحسين[١] بالكوفة ، ولكنه تنازل عنها لمعاوية بعد ذلك ببضعة أشهر — ومنذ تلك اللحظة استتب الأمر للبيت الأموى الذى قدر له أن يحكم الإمبراطورية حتى (٧٥٠ م) .

وفضلا عن الأخذ ببدعة نظام الوراثة فى الحكم ، التى لم يكن فرضها على العرب من الأمور الهينة ، فإن هناك تغييرات هامة أخذت تدخل على نظام الحكم[٢] .

وجعلت دمشق عاصمة للبلاد ، وحلت السلطة السياسية محل ما كان للمدينة من سلطة دينية ، وهى سلطة سياسية استمدت أجهزتها من النظام الإدارى البيزنطى . وبلغت قوة الأمويين أوجها فى مطلع القرن الثامن . وعلت كلمة الشام واستقرت سيادتها ، وقام على تنفيذ أوامر الخليفة بمختلف الأمصار ولاة أشداء . وجددت حملات العرب على بيزنطة بعنف زائد . وفى الغرب أضيفت أسبانيا إلى ممتلكات الإمبراطورية ، على حين تقدمت الجيوش الإسلامية شرقا

---

(١) الحقيقة أن الذى تنازل عن الخلافة هو الحسن . [المترجم]

(٢) انظر ص ٢٦٥ — ٢٦٦ من هذا الكتاب .

حتى بلغت البنجاب ، وتوغلت فى أواسط آسيا . وقام بدمشق بلاط رائع ، ازدهر فى ظله الشعر وتقدمت العلوم ، كما أن المسجد الأموى بدمشق ومسجد عمر ببيت المقدس يعدان مظهرا لازدهار ثان أصابه فن العمارة البيزنطى ، بفضل ما اجتمع للعرب من الثروة .

سقوط الدولة الأموية

وهنا أخذ الانهيار يتطرق إلى الدولة . إذ إن الفترة الأخيرة من تاريخ الأمويين ، ليست إلا فترة تعاقب فيها على الخلافة خلفاء قصار العهود ، ونشبت فيها المنازعات الشديدة وشبت فيها الثورات العديدة . وانبعثت المعارضة للبيت الأموى من جهات كثيرة . ولم يحدث قط أن أئمة المدينة المؤمنين بالحكم الدينى (الثيوقراطى) الانتخابى أظهروا فى أى يوم رضاهم عن العظمة التى بلغتها بالشام جماعة القواد والساسة الوطنيين ، ولذا لم يكن بد من أن تواجه الدولة مؤامرات مستمرة فى ذلك البلد . وتطورت المنازعات المحلية حتى غدت تنافساً بين القيسية عرب الشمال وبين اليمنية أو القحطانية عرب الجنوب ، ومالبثت أن انتشرت بكل أرجاء الإمبراطورية . كما أن ما أحدثته الفتن الداخلية من التمزق والانقسام فى إفريقية وأسبانيا لايقل عما أحدثته فى العراق وخراسان ، بل إن أصداء التنافس ترددت داخل البيت الأموى نفسه وتمخضت عن كثير من الاغتيالات داخل القصر وعن عزل العديد من الخلفاء . على أن ألد أعداء تلك الدولة كانوا هم الشيعة ، الذين استقرت قيادتهم العليا ببلاد العراق . ومن المعلوم أن الكوفة جعلت عاصمة للدولة أيام خلافة على القصيرة الأجل . ولذا لم تبرح لتلك الذكرى الذهبية صورة ماثلة تزيد فى حدة الشعور بالكراهية والامتعاض نحو أهل الشام الذين تفوقوا فى القوة والحضارة . ولم تلبث حركة الشيعة أن اتشحت رويداً بتلك الألوان العاطفية الحادة التى تتخذها كل نحلة

دينية . فرفع على وابنه الحسين اللذان سقطا دفاعاً عن قضية أهل الكوفة إلى مصاف الشهداء والصديقين . وصار صهر رسول الله وسبطه الحسين شهيدى الإسلام . وأصبح لسلالتهم أو لفئة معينة منها على الأقل (وهى مسألة أثارت خلافاً جديداً) الحق الشرعى دون غيرهم فى تولى الخلافة . على أن الثورة لم تنبعث من العراق ، بل من فارس . فعلى الرغم من أن فارس ظلت على الجملة موالية لبنى أمية أيام رفعتهم ، كما بقيت بعد سقوطهم أشد إخلاصاً لذكراهم من أية ولاية أخرى عدا الشام ، إلا أن أطرافها الشمالية الشرقية كانت مسرحاً لثورة غيرت وجه العالم الإسلامى بأكمله .

وقد ظهرت فى خراسان حركة قوية مناهضة لأهل الشام والأمويين يؤيدها عرب الجنوب القحطانية ويسيطر عليها النفوذ الفارسى ، وتولى مرشحها أبو العباس الملقب بالسفاح ومؤسس الأسرة العباسية خلافة المسلمين ، فأمعن فى سفك الدماء إمعاناً يبرر إطلاق اللقب عليه . وراح يطلب أفراد البيت الأموى ويقتلهم الواحد بعد الآخر ، ولم ينج منهم إلا واحد لاذ بالفرار غربا حتى بلغ أسبانيا ، وهناك استتب له الأمر واستولى على مقاليد السلطان . وفى تلك الأثناء أحرقت رفات الأمويين السابقين وذريت فى الريح ودمر كل ماشيدوا من قصور وقناطر سقاية تدميراً شاملا . ذلك أنه قد حانت بداية عصر جديد ؛ وذلك هو الشعار الذى اتخذه الفاتحون .

الإمبراطورية الإسلامية

وكان الفاتحون فى ذلك على جانب الصواب . إذ يسجل انتصار العباسيين تغييراً شاملا فى الإمبراطورية الإسلامية ، كما يتبين ذلك فيما بعد فى كل مايتعلق بالأمور الإدارية والاجتماعية . فمنذ تلك اللحظة تخلى الفاتحون العرب عن مكانتهم السامية الانعزالية . فقد ظهرت أهمية ما كان من تزايد عدد من اعتنقوا

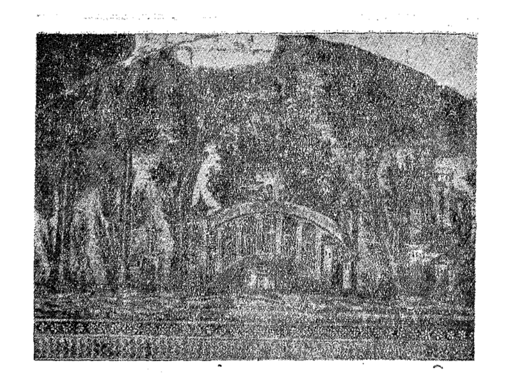
الإسلام ، وضرورات الحكم والإدارة والتجارة ، وتفوق الشعوب المغزوة في الكثرة والحضارة . فلم يعد الإسلام دين السيد الأعلى العربي ؛ بل أصبح القوة التي يرتبط بها المسلمون من جميع الأجناس . والخليفة هو رمز تلك القوة . فلم يعد ذلك الخليفة كشأنه في عهد الأمويين المدير لخطط الفتح والاستغلال ، يساندہ في ذلك جنس ملكي إمبراطوري . وعلى الرغم من ازدياد أجهزة الحكم وتعقد النظام الإداري ، فإن أقاليم الإمبراطورية الإسلامية نجحت في تحرير نفسها مما للسلطة المركزية من هيمنة سياسية ، على حين ظلت على ولائها لسلطة تلك الحكومة الدينية — وكانت أسبانيا أولى البلدان التي انفصلت عن الدولة . ففي (٧٥٦) نودي بعبد الرحمن ، آخر من بقي حيا من الأمويين ، أميرا وأخذ يحكم البلاد بوصفه أميرا مستقلا . ولم تلبث ولاية إفريقية أن حذت حذوها . ففي (٧٨٨) أسس إدريس بن عبدالله ، وهو من سلالة علي إمارة مماثلة بمراكش ، هي إمارة الأدارسة التي جعلت فاس عاصمة لها . وهنا أيضا لم ينتقض أحد على السلطة الدينية للخليفة ، وإن كان الأمير مستقلا بالفعل — واستقرت في القيروان بأرض تونس إمارة أهم من إمارة الأدارسة . إذ إن إبراهيم بن الأغلب حوالي (٨٠٠) أسس أسرة الأغالبة ، الذين سيطرت قوتهم البحرية طوال القرن التاسع على الحوض الأوسط للبحر المتوسط . وواصل المسلمون فتح صقلية حتى تم لهم ذلك في (٩٠٢) . ولم يكفوا عن الغارة على جنوب إيطاليا وإعمال السلب فيه ، وفي (٨٤٦) كانت روما نفسها مسرحا لإحدى مغامراتهم الجريئة . وحوالي (٨٧٠) وقعت في أيديهم مالطة التي تعتبر مفتاح التجارة الغربية على حين أن مدن البحر الأدرياتي ، ظلت آنذاك على الدوام تحت رحمة القراصنة المسلمين المغيرين عليها . ولم يتم دفع العرب إلى إفريقية إلا بعد قدوم النورمان في النصف الثاني من القرن الحادي عشر . على أن مصر لم تنفصم روابطها نهائيا بالسلطات العباسية إلا عند الفتح الفاطمي لها في (٩٦٩) ، وعندئذ تحولت

مواردها التى كانت فيما سلف تنصب فى خزائن بغداد إلى تجميل القاهرة ، وأصبحت فى أثناء القرون التالية من أزهى عواصم العالم الإسلامى وأفخمها .

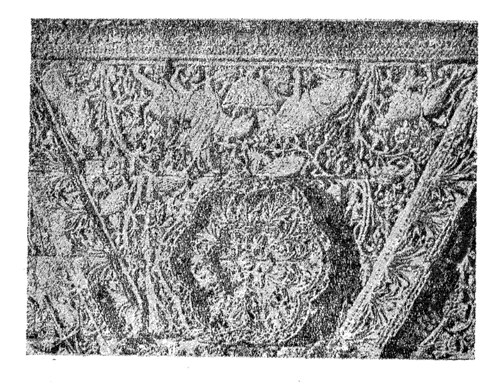
وأخذت الأقاليم فى الشرق والغرب تنسلخ ويستقل الواحد منها بعد الآخر ، حتى إذا وافى القرن العاشر الميلادى ، لم تعد الإمبراطورية الإسلامية وحدة سياسية . على أنه ساد أرجاء الإمبراطورية الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها وحدة من نوع آخر ، لا تقل أهمية عن الوحدة السياسية ، غير أنها لا تضارعها من الناحية المادية . فلم يكن عبثا أن نفس الأذان الداعى إلى الصلاة ، كان ينطلق فى نفس الوقت من مآذن قرطبة والقيروان والقاهرة ودمشق وبغداد ، وأن كل الوجوه كانت تتجه كل يوم صوب مكة ، وأن كل القلوب كانت تهفو إلى الذهاب إلى تلك البقعة المقدسة أداء لفريضة الحج . وثمة رابطة أخرى اجتمعت إلى وحدة العقيدة هى وحدة اللغة ، ذلك بأن العربية أصبحت فى كل مكان لغة الدين ووسيلة العلم الصحيح ، وأكبر آية على ما بلغته بغداد من مكانة وفخامة مسارعة جميع الأقاليم إلى محاكاة نظام الحكم فيها وتقليد عرفها وعمارتها ؛ كما أن فيض التجارة الدافق الذى ينساب برا وبحرا من أقاصى أرجاء آسيا إلى المحيط الأطلسى ، أحاط مختلف شعوب الإسلام بشباك حضارة خصبة متعددة الجوانب .

النظام الإدارى فى حكم العباسيين

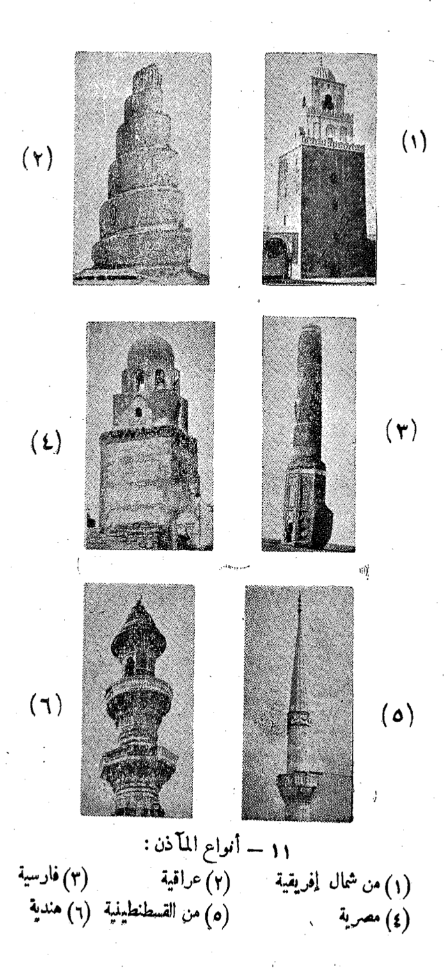
وفى أيام الإسلام الأولى التى تقدم محمد (ص) فيها أتباعه فى المدينة للالتقاء عسكريا بالقوافل ، كان كل ما يحتاج إليه الأمر من التنظيم المالى هو تقسيم بسيط للغنائم . واستمر هذا الأمر طويلا فى المرحلة التالية ؛ وذلك لأن الإمبراطورية الأموية فى عهدها الأول كانت فى واقع الأمر تقوم على نظام الغنائم . فكان



١٠ — (ا) صورة فسيفساء من المسجد الكبير بدمشق



١٠ — (ب) صورة نقش محفور من المشتى



١١ — أنواع المآذن :

(١) من شمال إفريقية (٢) عراقية (٣) فارسية

(٤) مصرية (٥) من القسطنطينية (٦) هندية

الفاتحون العرب ينزلون فى معسكرات حربية ضخمة ، ويأخذون الجزية التى كانت تفرض على الشعوب المقهورة . ثم يرسل فائض الدخل إلى بيت مال المسلمين بالمدينة ، فيوزع منه الخليفة الأعطيات على الناس .

وسرعان ماتجلى للقوم أن هذه الخطة لاتكفى للقيام بحاجات الإمبراطورية . وكلما زادالإسلام انتشارا بين الناس، تضاءل ماتحصله الدولة من الخراج ؛ وذلك لأن الذميين وحدهم هم الذين كانوا يدفعون الجزية — وعندما زادت هذه الطبقة نفوذا وصوتا ، لم يكن بد من أن تثير شكاياتها المتاعب ، وتبين آخر الأمر أن هـــذه الطبقة كانت من أهم العوامل التى أدت إلى سقوط الدولة الأموية . وأخذت الأنفس تضيق رويدارويدا بالنظرية القائلة بشعب أو عنصر ممتاز مسيطر يرتهن فى يمينــه شعوبا ومناطق مترامية . وتتجلى إحدى مراحل تلك العملية فى الحل الوسط الذى تم به إلزام جميع أصحاب الأراضى ، بدفع الخراج (أى ضريبة الأراضى) إلى بيت المـــال ، بغض النظر عن عقيدتهم ، بينما التزم الذميون بدفع ضريبة الرءوس (الجزية) ، لتــكون آية واضحة على تفوق المسلمين .

ولم يكن انهيار هذا النظام القائم على الاعتزال والسيادة العنصرية إلا واحدا من التغيرات العديدة التى آذن بها قيام الدولة العباسية . إذ إن الممتلــكات الإسلامية قد انتزعت من قبضة إمبراطوريتين عريقتين فى الحضارة : هما فارس وروما . ولم يكن للعرب من الخبرات السابقة ما هيأهم للنظم الإدارية المعقدة التى اقتضتها ضرورات أحوالهم الجديدة . وكانت النتيجة أن الفاتحين احتفظوا فى كل من مصر والشام بالجهاز الحــكومى البيزنطى ، كما أن البرديات المــكتشفة حديثا تشهد بمواصلة الغزاة الاحتفاظ بالنظم المالية والإدارية بهذين القطرين . ولما انتقلت العاصمة إلى بغداد ، كان لنفوذ الفرس

أثر محسوس فى الحكومة المركزية . إذ لم تكن العاصمة الجديدة لتبعد أكثر من ثلاثين ميلا عن طيشفون (المدائن) ، وهى العاصمة القديمة لملوك الساسانيين. ولم تلبث الأسرة الجديدة (العباسية) أن حاولت مزج العنصرين الفارسى والعربى ، وإقامة توازن متكافئ بين الطرفين . وأشد مظهر لهذا التغيير إنما يتصل بمركز الخليفة نفسه . فقد كانت السلطة الصادرة عن المدينة تتخذ طابعا روحيا فى عهد أبى بكر الذى ولى الخلافة بعد النبى مباشرة . على أن ساسة بنى أمية فى دمشق حولوا هذه السلطة فيما بعد إلى سيطرة سياسية منظمة ، وإن بقيت آثار من أصلها العربى فيما عرف عن الحكم الأموى من التمسك بأساليب القومية العربية . أما الخلافة العباسية فإنها تعد بمعنى ما ، عودة إلى مبادئ الإسلام الأصلية . وذلك لأن الحركة التى أوجدت تلك الخلافة قد غلب عليها الطابع الدينى إلى حد كبير ، وهى تعتبر رد فعل طبيعى للطابع الدنيوى الذى اشتهر به الأمويون ، وكانت النتيجة المنطقية أن الحكام الجدد حرصوا على دعم سلطتهم بنظريات فقهاء المدينة ، وهى نظريات اقتبسوها من نصوص القرآن واستندوا فيها إلى بعض الأحاديث النبوية ، وتجلت فيها الاستفاضة والمعاناة فى البحث والدرس ، وذلك لأن فقهاء الحجاز المؤمنين بالحكم الدينى (الثيوقراطى) ، ظلوا نيفا وقرنا من الزمان نافرين ومبعدين عن كل مشاركة فى حكم المسلمين القائم بدمشق . وكان حكم الخليفة العباسى مطلقاً من الناحية النظرية. غير أن هذا الحكم المطلق كان مقيدا من نواح عديدة. فإن سيادة الخلفاء على مختلف الإمارات كانت كما أسلفنا إليك سيادة ظاهرية لا حقيقية ، بل إن سلطة الخليفة فى العاصمة نفسها كثيرا ما طغت عليها سلطة الوزراء . وكان الخلفاء الضعاف يقنعون بالانسحاب من مشاهد الصراع فى الحياة العامة وينصرفون إلى إشباع رغباتهم بمعزل عن الدنيا ، تاركين لموظفيهم شئون

الحكم فى الإمبراطورية ، وموكلين بجنـــدهم الخراسانية أمر حراسة أشخاصهم . ولم يفت قواد الجيش أيضاً أن يحرزوا نصيبهم من السلطان السياسى ، إذ كثيراً ما كان رجال الجيش ينصبون الخلفاء ويعزلونهم .

وكانت تتبع الوزراء سلسلة معقدة من الإدارات الحكومية وهى المعروفة بالدواوين ، التى تتولى شئون بيت المـال والقضاء والجيش والديوان الخاص وما إلى ذلك . ومن أهم هذه الدواوين ديوان البريد ، وهو مثال طريف للطريقة التى ورث بها الخلفاء تقاليد كل من روما وفارس . فإن لفظة « البريد » منقولة عن اللفظة اللاتينية (Veredus) ، أى الحصان المخصص لنقـل الوسائل ، ولا يختلف نظام البريد عما كان معروفاً باسم (Cursus pudiicus) أى المراسل العام فى أنه نظام حكومى ، الغرض منه تحقيق سيطرة الحكومة المركزية ، وضمان سرعة انتقال الجند والموظفين . ومن مظاهر نظام البريد ما يرجع أيضاً إلى النظام الفارسى فى عهد الأخمينيين ، الذى وصفه هيرودوت ؛ وكان من بين أغراض نظام البريد العباسى كسلفيه الأقدمين ، مباشرة الجاسوسية التى كانت تمارس على نطاق واسع فى كل طبقات المجتمع . على أن ما بلغته هذه الجاسوسية من نمو متزايد جعلها من أهم أجهزة الحكم ، يعد نموذجاً لما ساد بغداد من طرائق الحكم الشرقى . فلم يكن للحكومة ثقة بأى موظف ، حتى أسرة الخليفة نفسها كانت موضع رقابة شديدة . وكانت الشرطة تؤلف جزءاً هاماً من إدارة المخابرات ، وتشمل واجباتهم التدخل فى أدق تفاصيل الحياة اليومية ، ومما زاد فى تقييد حرية الرعية ، ما زخرت به كل مدينة من عدد ضخم من الموظفين المحليين والقضاة وجباة الضرائب والقائمين على أملاك الخليفـة .

وكان للتغير الذى أحل حكم العباسيين ذا الطابع العالمى ببغداد محل حكومة دمشق القوميـــة ، نتيجة أخرى هى التعجيل بامتزاج الغالب

بالمغلوب . فمنذ تلك اللحظة ، صار الجميع يخضعون لحاكم واحد ، على أن الواقع أن عملية التسوية بين الجميع بدأت فى عهد بنى أمية . فطالما كان العربى — وهو القليل العدد والمحدود علماً — يحتفظ لنفسه بفضل امتلاك العقيدة الحقة ، ويعيش فى عزلة شديدة كأنه من أهل إسبرطة ، ويتباعد عن القطيع العام من الناس بمعسكره المسلح ، ويحصل على عيشه من أعطيات الخليفة ، فإنه بفضل ذلك كله كان مستطيعاً الاحتفاظ بمركزه الأمين الممتاز . ولكن هذه الامتيازات لم تدم طويلا . وكان من العوامل التى أفضت إلى ذلك ، أن الحدب على المصالح المادية وإغفال الاهتمام بالدين ، أديا إلى تزايد عدد من اعتنقوا الإسلام من غير العرب ، فنقصت بذلك الجزية المجبية من الذميين ؛ كما أنه حدث من ناحية أخرى ، حينما انتهت حروب الفتح ، أن لم يعد العرب يعيشون على الأعطيات التى يتقاضونها من الدولة ، وصاروا أصحاب أرض وفلاحين أو تجاراً صغاراً يخضعون للقوانين الاقتصادية والصفات الاجتماعية السائدة فى البلاد التى يتصادف استقرارهم فيها . وكان لابد له من التعليم والقدرة الفكرية إن هو شاء الاحتفاظ بمكانته . ذلك أن الحضارة المعقدة التى استقرت ببلاد الإسلام أيام بيزنطة ظلت ماضية فى سبيلها دون تغير كبير ، وظلت كدأبها فى الماضى تحتاج إلى المحنّكين فى الشئون الإدارية . وقد دعت الحاجة المسلمين حتى فى أيام الفتح إلى استخدام المسيحيين فى أعمال تتطلب الثقة وبخاصة فى الشئون المالية؛ كما أن تسامح بنى أمية إزاء غير المسلمين ، أفسح لهذه المجتمعات مجال اليسار المادى على شريطة تسديد الضرائب المقررة ؛ وهى ضرائب لم تكن فى جملتها أثقل بأية حال من تلك التى كانت تبتزها الحكومة البيزنطية . ومنح المسيحيون نصيباً كبيراً من الحكم الذاتى ، فزخرت البلاد بالكنائس والأديرة . ومما له دلالته ، أن هذا الزمان امتاز بما بذله النساطرة من نشاط تبشيرى تغلغل فى آسيا حتى بلغ الصين نفسها .

ومع ذلك ، فقد مرت أوقات كان للتعصب الدينى فيها سلطان غالب على النفوس. ولم تجد نعرة الكبرياء العربية متنفساً تعبر فيه عن نفسها خيراً من المراسيم التى تحرم على النصارى امتلاك أرقاء مسلمين وتنكر عليهم أنواعاً منوعة من الامتيازات القانونية ، بل حتى تصر على ارتدائهم زياً خاصاً . على أن الاتجاه الرسمى ظل فى جملته ينزع إلى التسامح ، كما أن تناقص عدد المجتمعات المسيحية لا يرجع إلى الاضطهاد الدينى بل إلى أسباب أخرى . فإن الطبقة المتعلمة من أبناء العقيدتين كانت تكتشف أن بين الديانتين أسساً كثيرة مشتركة ، كما أن تطورات الفكر الإسلامى بكل من مصر والشام تشهد بتأثير الفكر المسيحى . وكما هو الشأن فى أيامنا هذه بذلت محاولات للتوفيق بين الدين والعلم الحديث ، ولذا فإن الأساس الفلسفى للعالم القديم الذى يمثل خلفية تم التوفيق بينها وبين المسيحية إلى حد ما ، قد وجب آنذاك اللجوء إليه لشرح شعائر الإسلام وعقائده ، حتى يلقى الدين الجديد قبولا لدى المفكرين . على أن غير المفكرين كانوا فى الحين نفسه يرون أن التوفيق الرائع الذى أصابته الجيوش العربية تتجلى فيه رعاية الله وصنيعه ، فلم يسعهم إلا الإذعان للأمر الواقع . وثم عامل أخير كان له أثر عظيم فى أخيلة الناس ، هو ما ذاع فى الآفاق من سنا العظمة من العواصم الإسلامية الكبيرة ، التى كانت تتشكل بها حضارة زاهرة متأثرة بجميع العوامل حديثها وقديمها . فقد حدث فى أسبانيا مثلا ، أن لاتينية المؤرخين وعلماء الدين (اللاهوتيين) ذات الطابع المتبربر لم تستطع أن تصمد تلقاء ما للشعر والأدب العربى من جمال فاتن ؛ فإن كاتباً من أبناء القرن التاسع شكا مر الشكوى من أنه يوجد بين المسيحيين أنفسهم من يقدرون جمال اللسان العربى تقديراً يفوق كثيراً تقديرهم لكتاب الآباء الأولين .

التجـــارة

وكان اتساع التجارة العظيم التالى لقيام الإمبراطورية الإسلامية ، من التطورات الرئيسية التى فرضت عليها تلك الوحدة السابق الإشارة إليها . فبالإضافة إلى أن صناعات مصر والشام وهما أغنى أقاليم الإمبراطورية البيزنطية ، واصلت كسابق عهدها إنتاج المصنوعات الزجاجية والمنسوجات وغيرها من السلع المصنوعة ، فإن العهد الجديد حقق للتجارة مزايا خاصة . ذلك أن العربى ما يكاد يستقر حتى يتجه بطبعه إلى الاشتغال بالتجارة . وكان رخاء مملكة الحيرة يقوم على أسواقها العظيمة ، وذلك هو الشأن فى رخاء اليمن القائمة فى الطرف الأقصى من الجزيرة العربية ، ومرجعه إلى البضائع الأسيوية التى كانت تمر بعينائها ، بينما كانت أسواق مكة وقوافلها تشكل الصناعة الرئيسية فيها . وكان النبي نفسه تاجراً ، والقرآن يجعل للتاجر منزلة كريمة . ولذا فإن أحوال الحياة الاجتماعية الإسلامية تفوق فى ملاءمتها للنشاط التجارى أحوال العالم اليونانى بما اشتهر به من احتقار لكل صاحب حرفة . ولا تنس أن التركيب الجغرافى للعالم العربى كان يوائم تلك الغاية بصورة خاصــة . فقد انتهى عند ذاك ما كان بين روما وفارس من عداوات أوقفت تدفق التجارة بين الشرق والغرب ، وبذا أصبحت تخضع لأمير واحد كتلة متماسكة من الأرض ، تمتد مترامية من المحيط الأطلسى إلى سهوب آسيا الوسطى . ولم يعد البحر الأحمر والخليج الفارسى خصمين متنافسين ، بل أصبحا طريقين متبادلين ، وبذا أصبح كل ما يصل إلى أوربا من ذهب وعاج من وسط إفريقيا ، ومن توابل وعطور من الشرق الأقصى ، لا مندوحة له أن يمر على أيدى المسلمين . ومما يجدر ملاحظته أن المدن الكبرى بالإمبراطورية إنما تقع عند التقاء طرق المواصلات الطويلة . فمدينة

دمشق التى تقع عند نقطة تقترب فيها القوافل القادمة من وسط آسيا من البحر المتوسط ، كانت تتلقى كذلك تجارة مصر والشام وما يرد من السلع عن طريق البحر الأحمر . أما القاهرة فكانت سوقا للمنتجات الخام الواردة من آسيا وإفريقيا ، كما أنها كانت مركزا صناعيا ، وكانت تنتشر من مصر على ساحل البحر طائفة من المدن التجارية الزاهرة تؤدى إلى عواصم شمال إفريقيا وأسبانيا . وقد بنيت البصرة على نهر الفرات بعد فتح فارس بزمن وجيز ، وذلك بقصد السيطرة على الخليج الفارسى وتجارته الشرقية . ولكن سرعان ماطغت بغداد على أهميتها . وشقت بين دجلة والفرات قناة ربطت بين بغداد وبين الطرق البرية القادمة من آسيا الصغرى والشام ومصر، على حين أن القوافل المقبلة من آسيا الوسطى كانت تهبط عند أبوابها قادمة من مرتفعات فارس وبخارى . بيد أن التجارة البحرية كانت أرحب مجالا . وتروى قصص السندباد البحرى التى تصور ذلك الرجل مقيما فى أوائل القرن التاسع فى عهد الخليفة العباسى هرون الرشيد ما يشير إلى أن جميع رحلاته تبدأ من بغداد ، كما أن كثيرا من الأحداث والأماكن المذكورة فيها ، يمكن تحقيقها من مصادر أخرى . وتصف كتب الأسفار العربية التجارة فى سيلان وملبار ومدن السواحل الهندية . وتشير السجلات الصينية إلى ما كان بالصين من تجار العرب فى عهد أسرة تانج . بل إن منهم من بلغ كوريا . وفى الغرب ، أظهرت موانى مصر وشمال إفريقية نشاطا مشهوداً ، كما أن السفن المصرية والإفريقية كانت تربط مدن الساحل الجنوبى من البحر المتوسط حتى أسبانيا غربا . على أن تجارتهم مع فرنسا وإيطاليا كانت ضئيلة لاتكاد تذكر ، إذ كان المسلمون يهبطون هذه الشواطىء قراصنة لاتجارا . وظلت بيزنطة مركزاً للتجارة الأوربية ، ولم يلتق المسلمون والمسيحيون لتبادل السلع إلا فى القرن العاشر ، حيث بدأ العرب يجوسون خلال أسواق بيزا وأما لفى تجاراً آمنين .

على أن تأثير التجارة الإسلامية كان محسوسا فيما وراء حدود الإمبراطورية الإسلامية بآماد شاسعة . ففى الشمال كانت طرابيزون مركزا هاما للتجارة ، لا يؤمه التجار من أجل سوقها فحسب ، التى اجتذبت إليها التجار من كل أرجاء الشرق الأدنى ، بل لأنها أيضاً كانت نقطة الحدود التى تلتقى عندها تجارة الروم والعرب . وبهذه الوسيلة كانت المنسوجات والمصنوعات المعدنية وغيرها من المنتجات تتخذ طريقها إلى القسطنطينية ، ومن الممكن ترسّم أثرها فى الحضارة البيزنطية . وكان سيل من التجارة يتدفق فى مجرى الڤولجا وغيره من الأنهار ، ويصل إلى وسط الروسيا واسكنديناوه عن طريق مملكة الخزر . وآية ذلك أن مقادير ضخمة من العملة الإسلامية معظمها من خراسان والجهات الشرقية للخلافة الإسلامية ، اكتشفت بجهات نائية مثل ألمانيا وأقاليم البلطيق ، ويدل مصدرها واتساع توزيعها على ضخامة حجم التجارة بين الأقاليم الأسيوية وشمال أوربا ، وهى تجارة بلغت ذروتها فى السنوات الأولى من القرن التاسع .

ومما زاد فى حجم التجارة ونشاطها داخل العالم الإسلامى ، رحلات الحج التى تدعو إليها العقيدة الإسلامية والتى كان الخلفاء يشجعونها . وعنيت الدولة بتحسين المواصلات بما احتفرت من آبار وما شادت من فنادق القوافل (المسافر خانات) ، وأقيمت الأسواق الكبيرة بمراكز الحج . وكلما فقد الحكام العرب المثل العليا التى استنها لهم نبيهم ، والأخلاق البسيطة التى أورثها لهم أسلافهم ، نقلوا عن الإمبراطوريتين القديمتين اللتين حلوا محلهما صاحب الترف والمظاهر ، فأحاطوا أنفسهم بأبدع المبانى وأفخر الرياش ، فازداد بذلك الطلب على المنتجات الدقيقة والسلع المستوردة .

الأدب الإسلامى

إن التطور الذى نالته حضارة الإسلام الروحية قد سار جنبا إلى جنب مع حضارته المادية . وكما أن الفاتحين العرب أدركوا أن من الضرورى لهم تكييف عاداتهم وفق النظم القديمة التى هى أعلى تطوراً وقد وجدوها عند الشعوب المقهورة ، فقد حدث أيضاً أن الفقهاء أدركوا ـ وقد واجهتهم فى الخارج فلسفات متضاربة متناحرة واصطكوا فى الداخل بنزعات متشعبة ـ أن عليهم أن يوضحوا القرآن ، بأن يقيموا على أساسه السهل صرحا ضخما من التعقيبات والشروح . ولما كان القرآن لديهم المصدر الأعلى للدين والشريعة والأخلاق ، صار من الضرورى لهم التوفيق بين آياته وعمل تصنيف لتلك الآيات ووضع ترتيب لها. والتماساً للقواعد والأحكام حاولوا باستخدام القياس والاستنباط أن يجعلوا أحاديث الرسول تنطبق على أحوال لم يكن يتوقعها . ومن ثم فإن الأصل فى شطر كبير من الإنتاج الأدبى الرائع الذى ظهر فى العهد العباسى ، إنما يرجع إلى دراسة القرآن . بل إن أول دراسة علمية للنحو العربى ، لم تتم فيما تقول الروايات ، إلا بقصد المحافظة على نص القرآن . ومهما يكن الأمر ، فإن تطور اللغة العربية كلغة أدبية مرتبط ارتباطا وثيقاً بما أحسه أتباع العقيدة من حاجة إلى الشرح والتوضيح . واقتضت الرغبة فى تتبع تعاليم النبي ، إجراء دراسة حول حياة النبي وتقاليد أسرته. فإذا اجتمع ذلك بدراسة حياة الأبطال الأوائل للإسلام ، تهيأ الباعث لكتابة التاريخ ، التى جعلها المؤرخون المسلمون تنطوى على قدر كبير من التراجم والنوادر . وعلى هذا النحو ظهرت طائفة ضخمة من المصادر التى تعالج الفقه ، واستندت أساسا إلى القرآن ، باعتباره الينبوع الأول والمرجع الأصيل .

أما من حيث علم أصول الدين ، فإن المفكرين المسلمين أخذوا يواجهون من المشاكل ، ما يماثل ماسبق أن كدر صفو الكنيسة فى مستهل أيامها .

وبتأثير مدارس الفلسفة اليونانية بدأ القوم يستخدمون الاستدلال المنطقى فى موضوعات من أمثال وحدانية الله وصفاته ومسألة الجبر والاختيار . وفى أثناء النصف الأول من القرن التاسع بلغ التحدى للسنيين الذين يلتزمون حرفية التقاليد الذروة فى تلك المحاولة المنظمة التى بذلت للتوفيق بين العقل وسلطان الدين. وفازت الفلسفية الكلامية الرسمية بالظفر فى تلك المعركة، ومنذ تلك اللحظة لم يكن سبيل للهرب من جدب تلك الفلسفة الكلامية «المدرسانية» وجفافها إلا باللجوء إلى طريق التصوف . وانتهجت الفلسفة المحضة ذلك الطريق نفسه. وبذل ابن سينا (المتوفى ١٠٣٧) محاولة قاطعة للتوفيق بين مذاهب أرسطو وبين الفكر الإسلامى ، وواصلت القيام بعمله مدرسة المفكرين الأندلسيين الضخمة التى كان لها أثر بالغ القوة على أوربا فى القرون الوسطى . فإن العقيدة الإسلامية السنّية احتفظت بمكانتها فى الشرق ولا سيما فى فارس ، وعلى الرغم من أثر الغيبيات (الميتافيزيقى) وعلم النفس اليونانى فى الشرق ، فإن العنصر التصوفى سيطر على الفكر الفلسفى الذى تطور بتلك المنطقة . وكان للترجمة من اليونانية كذلك الفضل فى كثرة ماظهر من مؤلفات فى الطب ، وازدهرت مدرسة كبيرة من الأطباء فى عهد الدولة العباسية . وكان احتذاء حذو اليونان دافعا للمسلمين على إنشاء دوائر المعارف ، كما أن ترجمة نظريات اليونان والهنود فى الفلك والرياضة أدت إلى وصول علماء الإسلام بعد ذلك بزمن غير بعيد إلى مكتشفات تتصف بالأصالة. وفى تلك الأثناء ازدهر الأدب فى البلاط العباسى — على أنه والحق يقال أدب «تهرب» لا أدب تعبير ، ولكنه يتميز بما يترقرق فيه من فتنة ساحرة وأستاذية فنية باهرة . وازدهر النثر فتشكل أخيلة رائعة ومفاتن دقيقة خلابة ، على حين كان الشعر يتراوح بين الغزل الرفيع والخمريات المرحة وبين ماغلب على شعراء الزهد والتصوف من التأمل السوداوى .

الفن الإســـلامى

أما الفن الإسلامى فإنه هو أيضاً يقوم بتمثيل الأوضاع المحيطة به ، إذ يستطيع المتأمل أن يشهد فى تطوراته بوضوح لا بأس به ، المؤثرات الكبيرة التى تكاثفت لإنتاج حضارة عظيمة . فهو خلاصة لتاريخ الإسلام فى كل نواحيه . على أنه نظراً لسرعة ازدهاره يعطينا لأول نظرة نلقيها عليه مظهر أسلوب جديد أصيل انتشر منذ القرن التاسع إلى القرن السابع عشر حتى شمل أصقاعاً مترامية : تمتد بين آسيا وشمال إفريقية ومصر والشرق الأدنى وفارس والتركستان وشمال الهند ، بما حفلت به من المدن الضخمة والمساجد الفخمة والقصور المتألقة ، وجميعها تتسم بالتجانس فى البناء والحلية ، على الرغم من بعض التنويع الراجع إلى المؤثرات المحلية . على أنه ينبغى ألا يغيب عنا أن هذا المهر خداع . فلابد للمرء من الرجوع إلى المصدر الأصلى لكى يتبين أن الطراز إن هو إلا خليط صيغ من العناصر القديمة ، هو عملية انتقاء ولدتها الظروف الخاصة التى هيأت لجنس فاتح أن يستثمر مختلف الطرائق والتقاليد الفنية عند مجموعة من أقوى الأجناس روحاً فنية . فإذا تجاوزنا عن ثروة الأقاليم المفتوحة ورغدها ، والأموال الطائلة التى سخرتها سلطات الخلفاء المطلقة للإنفاق على أغراضهم الشخصية ، فإن التطورات الاجتماعية والسياسية للإمبراطورية شجعت على نمو الفن الإسلامى وازدهاره . وتمخض قيام عدد من الإمارات المستقلة عن ظهور مجموعة من العواصم المتألقة ، حرصت كل منها جاهدة على منافسة بغداد فى فخامتها ، على حين أن تغير الأسرات الحاكمة وقيام ثورات بالقصور طالما أفضى إلى قيام عواصم إمبراطورية جديدة . ويتجلى ما طبع عليه الحكام من خلق شرقى فى كراهيتهم للمبانى القديمة الموروثة عن السلف ، وتباطئهم فى إصلاح القديم ، حيث كان التبرم يدفعهم على الدوام

إلى اختيار أماكن جديدة لدورهم . وكان ما اشتهر به المسلمون من ميل إلى القيام بالأعمال الخيرية والمنافع العامة،هو السبب فى إقبالهم على تشييد المدارس والعيون والحمامات (والبيمارستانات) المستشفيات وفنادق القوافل ، فضلا عن المؤسسات الدينية البحتة كالمدارس والمساجد والرباطات (التكايا) .

ومنذ البداية ، اقترن اتساع رقعة الإسلام بنشاط عظيم فى العمارة . فبعد وفاة النبي بخمسة أعوام شيدت البصرة على الفرات الأدنى وأقيمت الكوفة جنوبى مدينة بابل ، لتكونا مركزين للنفوذ الإسلامى بأرض الجزيرة . ومن النتائج الأولى التى ترتبت على فتح مصر بناء مسجد عمرو الذى سمى باسم القائد المظفر العظيم ، على حين أن ما يسمى « بمسجد عمر » فى بيت المقدس ومسجد سيدى عقبة بالقيروان يجمعهما أصل واحد متشابه . أما مسجد دمشق الكبير فقد جددت عمارته ليزيد فى أبهة بنى أمية وعظمتهم ، وفوق هذا فإن تركيز الحكم بتلك المدينة صحبه إزدهار الفنون جميعاً . وانتجت فترة عظمة العباسيين عمائر بغداد وأمجادها الرائعة ، فشيدت فيها القصور الفاخرة أثناء القرنين الثامن والتاسع ، ولكن غارات التتار محت معظمها من الوجود . والواقع أن كل العصور التى ازدهر فيها الفن الإسلامى ترتبط على هذا النحو بالأحداث السياسية . إذ إن تألق سلطان بنى مرين بفاس وازدهار نفوذ الفاطميين بالقاهرة ، يتجليان فيما زينت به عاصمتاهما من مونق المبانى ؛ كما أن ما حدث فيما بعد من سيطرة الأتراك والسلاجقة فى أرمينية ، وتيمور فى سمرقند أو المغولى الأعظم فى جنوبى الهند ، إنما يسجلها جميعاً تلك العمائر التى خلفوها وراءهم والتى تعتبر دليلا جلياً على وحدة الفن الإسلامى وقوة حيويته فى مراحل اكتماله ونضجه ، وما له من تأثير على الغزاة الأسيويين غير المتحضرين . ثم إن تأسيس الدولة الأموية بأسبانيا كان مؤذناً بعصر لا نظير له فى الفخامة والازدهار ، بلغ الذروة فى أوائل القرن العاشر . فازدحمت جامعة

قرطبة بالطلاب الوافدين من كل أرجاء الإمبراطورية الإسلامية ، على حين أن المدينة نفسها أثارت إعجاب زوارها القادمين إليها من ألمانيا وفرنسا . وغصت ضفتا نهر الوادى الكبير بالدور المترفة ، وينهض قصر الزهراء دليلا واضحاً على ميول الأمير الحاكم ، وهو مدينة من مدن الخيال حافلة بغريب المباهج . ولم يبق من عمائر تلك المدة إلا النزر اليسير ، مع أنها عمارة لعلها كانت تنافس بجدارة ما بلغه القصر (الكازار) والحمراء من روعة وفخامة ، إن لم تبزهما ، وهما المبنيان اللذان زين بهما أمراء المغرب مدينتى أشبيلية وغرناطة بعد ذلك بأربعة قرون .

عنصر الانتقاء فى الفن الإسلامى

وكما أن قيام الأسرات المالكة وسقوطها يحدد الأزمنة التى ازدهر فيها فن العمارة الإسلامى ، فكذلك الشأن فى الأحوال الاجتماعية للإمبراطورية التى أسلفنا إليك خلاصة لها ، فإنها تتجلى فى تطور ذلك الفن من الداخل . ذلك أن حظ العرب فى الجاهلية من فن العمارة كان ضئيلا ، ومن ثم لم يكن محيص من أن تنهج العمارة الإسلامية فى العصر الأول على نهج تقاليد البلاد المقهورة . فاستولى الفاتحون فى مصر والشام على الكنائس (الباسيليكات) المسيحية وحولوها إلى مساجد بعد إدخال تغييرات طفيفة عليها ، بل الواقع أنهم حتى عندما كانوا يبنون مبانى جديدة ، عمدوا إلى الكنائس القديمة المخربة فسلبوها أعمدتها وتيجانها . وقد أكثر العرب من استخدام الفسيفساء البيزنطية والأخشاب القبطية المحفورة فى تزيين مساجدهم ، ولا يكاد يكون لديهم ظاهرة من البناء أو الزخرفة لا يمكن إرجاعها إلى ما سبقها من تقاليد أو آثار . ومن الأمثلة الشائعة للتأثيرات الإقليمية المآذن بأشكالها المختلفة . ففى بلاد العراق كانت المئذنة ذات المنحدر شبه الحلزونى بما يعلوها من قبة

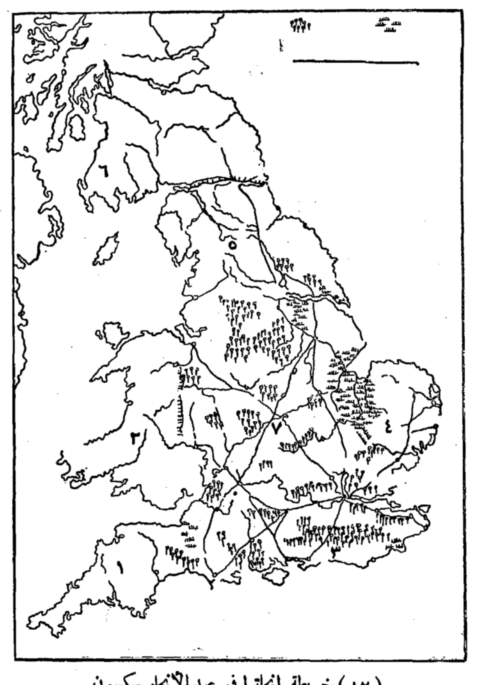
صغيرة تبنى على نسق زيجورات[1] بابل القديمة : أما مآذن دمشق ذات الجوانب الأربعة ، والتى ترتفع فى شكل منشور ، فإنها تذكرنا بما كان معروفاً فى الأزمنة الوثنية والمسيحية من آثار جنائزية ، وهذا الطراز نصادفه أيضاً فى أسبانيا والمغرب . وقد حمله إلى تلك الأصقاع النائية ، النفوذ الدينى والسياسى لعاصمة الأمويين . ولعل المآذن المصرية ترجع فى أصلها إلى فنار الإسكندرية الشهير (Pharos) ، بما فيه من طبقات متداخلة من المناشير ومن مصباح يتوج هامته ؛ ثم إن فارس بتقاليدها القائمة على الشكل الرشيق المتوازن تبنت فى مآذنها هيئة الأبراج المرتفعة المستديرة . على حين أن الهند أرض الوفرة ، استخدمت التصميمات الفاخرة فى عمارة مآذنها . ثم إن المدرسة العثمانية التى لعلها قد راعتها أعمدة النصر القائمة بالقسطنطينية ، قد رفعت مآذنها كالشموع السامقة المنتهية بالمخاريط المدببة الحادة والمحوطة بالشرفات على ارتفاعات مختلفة ، التى تشرف حتى اليوم على مدينة إستانبول .

ومن هنا يتبين أن الفن الاسلامى ليس ابتكاراً فجائياً لطراز جديد ، بل يرجع أصله شأن سائر مظاهر الحضارة الإسلامية إلى ما كان لمدنيات العصور القديمة من مظاهر عريقة فى نضجها . والشىء الجديد هنا هو امتزاج هذه العناصر المستعارة وانصهارها معاً . إنها عناصر أذابتها طاقات العرب وفتوحهم ، فانصهرت معاً وخرجت فى النهاية مادة جديدة . وكانت جماعات من المعماريين والبنائين وجيوش من الفعلة والأرقاء ، تنتقل من قطر إلى آخر ، فتحمل معها أساليبها الفنية المنوعة إلى بيئة أخرى . وطبقت على الحجر طريقة حفر الخشب ؛ على حين أن ما اشتهرت به فارس من المنسوجات الجميلة قد نفذ طرازه فى الآجر والرخام ، أما مؤثرات الحفر البارز والغائر والتصميم ، فحلت محلها

---

(١) الزيجورات (Ziggurat) كلمة آشورية معناها قمة الجبل أو البرج . وهى فى العمارة تدل على برج هرمى الشكل تقريبا [المترجم]

المواد والألوان المتضادة . وهناك فوق كل ذلك عامل آخر ، هو الروح الداخلى للإسلام ، الذى له أثره فى توحيد هذه العناصر المرنة . فإن للشعائر الإسلامية مقتضيات لا مفر من مراعاتها : فالقبلة (المحراب) التى تتجه نحو مكة التى يولى إليها المسلمون وجوههم فى صلواتهم تلقى من المعالجة المعمارية ما يتفق مع أهميتها . أما صحن المسجد والبئر فيفرضان صفة خاصة على بنائه . وينسب إلى النبى (ص) حديث ينهى عن تمثيل أشكال الناس والحيوان ، ولهذا الحديث أثر جذرى فى الزخرفة الإسلامية ، غير أن بنى أمية بالشام ، وأمراء فارس تجاهلوا ذلك الحظر ، لأنهم حرصوا على الإبقاء على ما كان بأقاليمهم من قبل من فنون التصوير والتشكيل . أما سائر البلاد الإسلامية فإنها لا تستخدم الزخرفة الشكلية ، ومن ثم فقد اتخذ القوم من نبات السنط (Acanthus) ومن خيوط عساليج الكرم ومن موضوعات أخرى فى الفن الكلاسيكى والأسيوى «وسطاً» لفنهم تطور فأصبح ما يعرف باسم فن الزخرفة العربى (Arabesque) . وذلك الفن هو الإطار الذى يتكرر فيه رسم الأزهار والفاكهة ، التى تصحب عادة الأفاريز المؤلفة من كتابات عربية جميلة . ثم تمضى عملية التجريد شوطاً أبعد . إذ أدخل على الأشكال الطبيعية من التعديل والتغيير ما جعلها تختلف عن شكلها الأصلى . ومن ثم أصبح الاتزان والسيمترية (التناسق) مظهرين رئيسيين فى التصميمات الفاخرة عند المتأخرين من الفنانين المسلمين . ثم صارت النماذج الهندسية المتشابكة ذات الخطوط المستقيمة أو المنحنية ، وهى تعد فى إطار تنوعها رموزاً للوحدة ، — صارت تلك النماذج تشبع ما للعربى من نزعة إلى التصوف ، كما تعرض علينا — على حد تعبير بعضهم — « حقيقة قوامها منطق خفى وتماسك رياضى تجلوها فى زى خيال وميل » .



(١٢) خريطة إنجلترا فى عهد الأنجلو سكسون

١ ـ ويلز الغربية　　٢ ـ ويلز　　٣ ـ السكسون

٤ ـ أنجل الشرق　　٥ ـ نورثمبريا　　٦ ـ البكتيون

٧ ـ آنجل الوسط

القسم الرابع

عصر شرلمان

الفصل الحادى عشر

الأوضاع الأوربية

١ ـ الغزوات الأنجلوسكسونية

إن المدونات التاريخية والسجلات المكتوبة عن تاريخ الجزر البريطانية بين ٤٠٠ و ٥٠٠ للميلاد تكاد تكون معدومة تماماً . فهى حقبة تغشاها الظلمات ، كما تنسدل عليها غمامات أساطير الملك آرثر. على أن ما تم فى السنوات الأخيرة من دراسة إقليمية لأسماء الأماكن،ومن التنقيب عن المساكن والجبانات وعن خطوط الحدود واستحكامات الدفاع الترابية ، والمسح الجوى للأرض وما بذل من جهود لإقامة موازين يعتمد عليها لتحديد تواريخ الفخار والعملة والمصنوعات المعدنية ، قد جمع بين أيدينا من المواد ما يصلح لإعادة تكوين صورة للطريق الذى سلكته طوائف المغيرين المختلفة ، وعن طبيعة استيطانهم ومصير السكان الرومان البريطانيين. وربما أمكن فى النهاية تركيب هذه النتائج على حال يؤلف صورة لهذه القرون المعتمة . على أنه يمكن فى الحين نفسه ملاحظة بعض العوامل الهامة .

وقد تعرض ساحل إنجلترة لتغيرات كبيرة منذ أيام العصور الوسطى[١]. فإن الساحل الشرقى والجنوبى الممتد من مصب نهر فيرث إلى جزيرة ويت ، تناثرت عليه عند ذلك على التعاقب مرتفعات صخرية وعرة ومستنقعات متخلفة عن المد . وكان الدفاع عن الشواطىء الصخرية سهلا ميسوراً ، فلم يكن فيها ما يحتاج إلى حراسة إلا ما يتخلل تلك الصخور من ثغرات تجرى فيها

---

(١) انظر الخرائط المساحية لبريطانيا الرومانية

مصبات الأنهار ، وأكبر شاهد على ذلك بقايا محطات الإرشاد والقلاع الساحلية التى ترجع إلى العصر الرومانى المتأخر ، وكلها توضح تلك الحقيقة . على أن مناطق المستنقعات الضحلة كانت مفتوحة لزوارق المغيرين . وكان مصب نهر همبر وهو الذى يمتد طويلا إلى الداخل يكوّن منطقة طينية مشبعة بالماء ، كما أن الظروف نفسها كانت تتكرر على معيار أكبر حول منطقة الواش (The wash) حيث امتدت منطقة البطائح حتى وصلت إلى ستامفورد وكمبريدج. «وكان المغير الناهب ... يجد القنوات الراكدة خير معين له على حمل زورقه إلى جوف البلاد ، وكان مستطيعاً أن يتخذ لنفسه على كثير من الجزائر القائمة بالمستنقعات مخيمات يستجم فيها من متاعب القتال ويجمع فيها غنائمه دون أن يكدر عليه أحد صفوه[1] » .

جغرافية بريطانيا

أما فى داخل البلاد فإن لطبيعة الأرض صورة أشد استرعاء للنظر . فإن صرف مياه المستنقعات وإزالة الغابات قد غيرت وجه مناطقها الريفية ، وذلك أن شطراً كبيراً من إنجلترة كانت تغطيه فى عصر الرومان والسكسون غابات كثيفة، على حين أن الوديان غالباً ما كانت مستنقعات لا سبيل إلى اجتيازها . ومن هنا تحكمت طبيعة الأرض وجغرافية البلاد إلى حد كبير فى تاريخ المستوطنات الأولى وتكوين ممالك السكسون . وكان مصب الهمبر الذى تتصل به المستنقعات من الجانبين تحف به من الغرب غابة إلمت (Elmet) ، التى كانت تمتد إلى منحدرات تلال بينين (Pennine) ؛ ومن ثم فإن المصب والمستنقع والغابة كانت تؤلف على هذا الوجه حاجزاً يحول دون الاتصال بين الميدلاند (وسط إنجلترة) والشمال . وكانت منطقة فن (Fen) تفصل بين آنجليا الشرقية وبين المنطقة

(١) انظر ج . ا . وليمسون فى : « The Evolution of England » (أكسفورد ١٩٣١) ص ص - ٢ ع ع .

الوسطى ، وذلك مثلما كان نطاق الغابات الكبير الذى يمتد جنوباً بغرب من الفنز (Fens) إلى إبنج ، يعزل إيسكس (Essex) ويحول دون التوغل غرباً . وكانت غابة أندردسويلد (Andredsweald) هى أضخم هذه الغابات وتغطى شقة عريضة من الأرض تمتد فى الواقع بين ونشستر وهاستنجس ، غير تاركة سوى شقة من الأرض لا يتجاوز عرضها بضعة أميال تمتد فيها تلال الساوث داونز (South Downs) محاذية للبحر . ويقول ولمسون إنه : « فى عهد متأخر هو القرن الثامن عشر نفسه ، يوم تم قطع معظم غابات منطقة ويلد ، كان من العسير بلوغ ساحل ساسكس من لندن فى أثناء الشطر الأكبر من السنة[1] » . وفى أقصى الغرب ، كان نطاق الغابات الذى تتبقى منه إلى اليوم غابة كارنبورن تشيس (Carnborne Chase) ـ يسد الطريق إلى وست دورست وساوث ثومرست فى وجه المغيرين الزاحفين شمالا من ساوثهامبتون واتر (Southampfon Water) . فإذا لم يغب عن بالنا انتشار المستنقعات والغابات على هذا النحو المذكور ، يتجلى لنا أهمية السدود الترابية مثل بوكرلى دايك (Bokerly Dyke) ، التى كانت تحمى المستوطنات الرومانية البريطانية بمنطقة كارنبورن تشيس . ومع أنه لم يبق من السور المقام بداخل الريف سوى بضعة أميال ، فإنه كان فى تلك الأزمنة يحرس المدخل المؤدى إلى منطقة تحميها من الجهات الأخرى موانع طبيعية .

والحق أن مصائر مختلف الممالك يفسرها موقعها ويحددها إلى حد كبير . فإن ممالك ساسكس وكنت وباسكس وإيست آنجليا حرمت الأهمية السياسية ، وذلك بسبب توقف اتساع رقعتها ، بينما استطاعت نورثمبريا ومرسيا وويسكس بسط رقعتها على حساب البريطانيين الرومان ، فكسبت بذلك اتساعاً فى رقعتها فضلا عن زيادة فى تنوع ثقافتها وسكانها ، وبذا برزت كل منهن على

(١) جـ . ا . ولمسون بالموضع السابق .

التعاقب بوصفها أقوى وحدة بإنجلترة فى أثناء القرن السابع والثامن والتاسع. ولكن ويسكس كانت الدولة الوحيدة التى أحرزت تفوقاً سياسياً حقا، على أن سيادتها تتجاوز بنا مجال هذا الكتاب . أما نورثمبريا فإن الخلافات بين برنيكيا وديرا مزقتها من الداخل، على الرغم من أنها كانت تضم وهى فى أوج عظمتها شرق اسكتلندة جنوبى نهر فورث وشمال إنجلترة حتى نهر ريبل ونهر يوركشير أوز ، كما أنه حدث أكثر من مرة أن زعماء مرسيا الوثنيين تحدوا ملوكها المسيحيين . ومما عجل باضمحلالها الذى بدأ بقوة فى أثناء القرن الثامن، غارات النهب المخربة التى قام بها السكندناويون القدماء المسمون أهل الشمال (Northmen) . وكانت مرسيا منذ البداية دولة مختلطة، فكانت خليطاً من عصابات الحرب والمغامرين الذين ينتمون إلى أصول مختلفة ، كما أنها شغلت المناطق المترامية بالميدلاند الغربية التى كانت مدار نزاع دائم ، والتى لا شك أنها كانت فى أثناء السنوات الأولى من الغزوات مسرحاً لامتزاج الكلت والسكسون ومشهداً للتوفيق بين حضارتيهما . وإذ سيطر عليها من تامويرث، مركز إنجلترة الجغرافى الواقع على واتلنج ستريت، زعماء أكفاء قساة أشداء، فإنها بشرت فى لحظة من اللحظات بقيام تقسيم ثلاثى لإنجلترة يمتد إلى عصور مستقبلة، وتكون فيه تامويرث فيما يحتمل فضلا عن لتشفيلد، عاصمة للميدلاند ومستقراً لكرسى الأسقفية بها . وقد انبسط سلطانها فى بعض الفترات على سكان منطقة پيك فى الشمال وعلى سكان تشيتشير وجنوب لانكشير وعلى ورسترشير هويكاس فى الجنوب ، على حين أن الحدود الطويلة التى كانت تفصل بين سكان ركن (Wre kin) وبين ممالك ويلز كان يكملها سد أوفا ، وهذا السد من صنع أوفا أشهر ملوك مرسيا ، وهو الذى تبادل الرسائل مع شرلمان، كما أنه أهم شخصية بإنجلترة عند نهاية القرن الثامن .

على أن زوال حكم الرومان من إنجلترة ، لا يزال حتى اليوم من أعوص الأسرار التاريخية . وربما جاز لنا أن نذهب إلى أنه متى اجتمعت لنا معلومات أوفى ، فإن ذلك قد يقلل من أهمية التواريخ الفعلية لزوال الحكم الرومانى بهذه الجزيرة سواء حدث ذلك فى ٤٠٧ أو ٤٤٠ م . والراجح أن إعادة استيليكو تنظيم التحصينات الساحلية حوالى نهاية القرن الرابع هى آخر محاولة جدية قامت بها الإمبراطورية للاحتفاظ بولايتها النائية . وتدل الأحوال المماثلة التى سادت بلاد الغالة ، أن الانتقال إلى حكم البرابرة لم يكن حادثة مفردة بل عملية تدريجية تمت رويداً رويدا . ذلك أن ما أصاب الحكومة المركزية من الضعف البطىء أفضى إلى ذيوع الارتباك والفوضى الداخلية بإنجلترة ، وهو وضع دعا أصحاب الأملاك والموظفين المحليين إلى تسليح أتباعهم دفاعاً عن النفس ، كما دعا الأهلين إلى هجران الريف المكشوف والالتجاء إلى المدن المسورة ، ومن المعروف أن هجمات البرابرة الأولى كان يعقبها فى العادة فترة هدوء نسبي يتسرب فيها البرابرة فى هدوء يختلف شدة وضعفاً بحسب الأحوال . وهناك من الدلائل ما يشير إلى حدوث هذه الأحوال فى بريطانيا. فمنذ عام ٢٥٠ للميلاد تعرضت السواحل لغارات النهب من الشرق والغرب ، من قراصنة من السكسون والإرلنديين ، ولم تكن غارات الجرمان فى القرن الخامس إلا القمة التى بلغتها تلك الغارات ، التى كان يعقبها فيما بعد هجرات العائلات إلى البلاد . ومن جهة أخرى لا تعوزنا الشواهد على تداعى الحضارة الرومانية بتلك الجزيرة إلى حد ما ، منذ زمن مبكر يرجع إلى القرن الثالث الميلادى . وآية ذلك تدهور فن البناء وتقنياته . وقد حدث حتى فى الأراضى المنخفضة نفسها ، وهى من المناطق التى اكتملت بها الصبغة الرومانية ، أن اشتداد الشعور بالافتقار إلى الأمن والطمأنينة ، يدل عليه تحصين المدن ، على حين أن ما قام على الساحل السكسونى من قلاع مرتفعة مشيدة من الحجارة ،

يغلب عليها طابع العصور الوسطى ، يؤكد الأخطار التى تعرض لها سكان المناطق الساحلية على الدوام . على أن الضربة القاصمة التى وجهت إلى كيان الحياة البريطانية فى العصر الرومانى ، هى الغارة الضخمة التى حدثت فى ٣٦٧ . ففى تلك السنة اجتاحت البلاد قوة مؤلفة من البيكتيين والسكسون والإرلنديين ، فدمرت دور الضياع ، وألحقت بنظام الزراعة فى إنجلترة من الضرر والأذى ما لا سبيل إلى إصلاحه . ويشهد بخط سيرهم سلسلة متصلة الحلقات من الدور الريفية المحروقة . وأكبر دليل على النتائج الثابتة المترتبة على تلك الغارة أن ما اكتشف من كنوز المال فى المواضع الرومانية المنعزلة، انخفضت قيمتها بعد هذا العهد . ولاشك أن القرن التالى ظل يشهد الاضمحلال يدب فى حضارة الجزيرة متواصلا ، وإن كان ذلك بصورة متقطعة ، فقد هجرت الدور الريفية ، على الرغم من أن معظم المدن المحصنة استمرت فيها الحياة بصورة ما حتى صميم القرن الخامس . وفى المناطق الريفية عادت المتاريس الترابية والخيمات المنصوبة فوق أعالى التلال (التى ترجع إلى عهد ماقبل الرومان) فاتخذت للمرة الثانية ملتجأ للسكان . وتمخض ضغط الغارات الخارجية والنضال الداخلى ، عن ظهور الزعماء المحليين كما هو الشأن فى جهات أخرى من الإمبراطورية ، وعندئذ يتعرض زحف المغيرين البرابرة فى الجهات المتفرقة لنكسة مؤقتة .

على أنه لا يصح هنا القياس بما يسود القارة الأوربية من أحوال . ذلك أن الأنجلوسكسون كانوا شعباً يختلف اختلافا ملحوظاً عن القبائل الجرمانية ، الذين تعرضت أفكارهم بل حتى لغتهم لتأثيرات بالغة نتيجة لاتصالهم بروما طوال أربعة قرون على امتداد خطى حدود الراين والدانوب . هذا إلى أن بريطانيا التى خربها المغير وسلبها كل نظام ، ما كانت تستطيع أن تقدم للوافدين إليها تلك الآثار الرائعة ، التى تعتبر قواماً صلباً للحياة المتمدينة ،

والتى يصادفونها فى جنوب فرنسا وشمال إيطاليا . هذا إلى أن زعماء السكسون كانوا يفتقرون إلى ذلك الإحساس بالإعجاب الذى استشعره زعيم مثل ألاريك أو ثيودوريك نحو النظم الرومانية ، وإلى براعة كلوفيس فى التلاؤم معها ، وإلى إخلاد الدوقات اللومبارديين إلى حياة المدن . وتشير شذرات من الشواهد المتناثرة إشارات تغشاها الريب إلى ردود أفعالهم إزاء الأقواس المخربة والأعمدة المتبقية عن المبانى الرومانية. إذ أثارت فيهم إحساساً بالخوف والنفور المقترن بالقلق ، فخيل إليهم أنها يكمن بها أشباح من الموتى بل قوى أشد خفاء حتى من الأشباح ، مما يستشعره الإنسان فى القاعات الحجرية والقبور التى ترجع إلى العصور الخالية : وفضلا عن ذلك فإن ما أقامه السكسون من مستقرات كان يتجنب فى العادة المواضع الرومانية . وكأنى بالشعور العام فى مجمله ليس إلا شعور نزلاء هبطوا إقليماً مهجوراً تجرد من معظم سكانه ، وهو أمر تشهد به الأدلة الوفيرة بمقاطعات إنجلترة الشرقية والجنوبية ، التى يظهر أن ما كان لدى الكلت فيها من أسماء أماكن وديانة وعرف قد توارت من الوجود إلى حد كبير عند نهاية القرن السادس . أجل إن جيوبا ويلزية محصورة بين أملاك السكسون كانت توجد فى هذه المنطقة ، حيث تعيش بين الغابات أو وسط المستنقعات ، إما لأن الفاتحين أبقوا عليها ، وإما لأنهم لم يستكشفوها ، كما أنه حدث فى روسيا ونورثمبريا وويسكس ، أن السكان السابقين قد توصلوا على التدريج إلى الاتفاق مع المغيرين المنتشرين غرباً ، على الرغم من أن دية البريطانى تقل عن دية السكسونى الذى ينتمى إلى أدنى فئة من الأحرار ، شأنه فى ذلك شأن الغاليين الرومان فى ظل حكم الفرنجة . وهناك سبب آخر يدعونا إلى الظن أن مهارة الصانع البريطانى بمقاطعة كنت وغيرها من المقاطعات لم تفلت من يده نهائياً فى أثناء فوضى الغزو ومحنته وبعدهما .

حضارة نور ثمـــبريا

وتبدو أمامنا على أرض القارة الأوربية صورة مماثلة عندما نتأمل التطورات التالية التى ألمت بالممالك الأنجلوسكسونية ، ذلك أن ممارسة طرق الرومان فى الإدارة أسهمت فى نمو الروح الاستبدادية عند زعماء القبائل الجرمانية النازلة بداخل الإمبراطورية[1] ، وشجعت على تطوير تدوين القوانين . وكانت الكنيسة هى التى تقوم بهذه الجزيرة (يعنى بريطانيا) بوظيفة روما وعملهـــا ، وكان لها أثر فى تشكيل النظم الأنجلوسكسونية أقوى من أى أثر آخر . مثال ذلك أن قانون كنت لم يظهر إلا عقب قدوم أوغسطين ، كما أن سلطة كل ملك سكسونى ناجح كانت تدعمها مشورة رجال الكنيسة لديه وتعاونهم معه ، وقد أدركوا أن قيام حكومة مركزية قوية ضرورى لمصالح الكنيسة . ودام الاتصال بين الجزيرة وبين القارة ، ومن ثم بينها وبين المجرى الرئيسى للحضارة ، بفضل رجال الدين إلى حد كبير ، حيث لم تكن للتجارة والدبلوماسية فى تلك الأيام إلا أهمية ضئيلة ، على حين أن الأديرة الكبيرة التى وهبها الملوك الأتقياء الأراضى والضياع ، قامت بدور كبير فى نمو العوامل الإقطاعية التى تتمثل فى ازدياد الاختصاصات المحلية والإعفاء من الأعباء العامة .

ولا شك أن أهم مظهر لفتح بريطانيا على أيدى الإنجليز السكسونيين من وجهة النظر الأوربية ، ما بلغته نورثمبريا فجأة من التفوق الأكيد فى حضارة العالم الغربى على الرغم من أنه كان تفوقا قصير الأمد . ومن المعروف أن بريطانيا زمن الرومان ظلت دائماً تعد معقلا أمامياً للإمبراطورية ، وتعتبر إقليماً متخلفاً متأخراً فى حضارته بالقياس إلى غالة وأسبانيا وإفريقية . ثم تنقطع

(١) انظر ما سبق ص ٧٧ .

صلتها بحاضرة الدولة ومركزها منذ (٤٠٠) ، ثم تدنو الجزيرة شيئاً فشيئا من دائرة وعى روما وبيزنطة . على أن بعثة أوغسطين التبشيرية إلى الجزيرة البريطانية أعادت اتصالها بالقارة ، كما أن عودة الاتحاد بين الدراسات والعلوم الكلتية وبين ما للعلوم فى الغرب من تقاليد أصيلة أورثت نورثمبريا نهضتها فى الفنون والآداب . إذ لم يحدث قبل ذلك ولا بعده أن تبوأ الإنجليز مثل هذه المكانة فى المدنية الأوربية . وبلغ الأمر بتقدمها أن روما نفسها اضطرت أن ترسل فى طلب المخطوطات من المملكة الشمالية ، وهناك يبرز بيده (Bede) أكبر علماء الغرب دون منازع لتفوقه فى كل فروع العلم ، كما أنه من حيث القوة الفكرية الخالصة يسمو محلقا فوق العصر الذى عاش فيه ، على أن ما أصاب نورثمبريا من الاضمحلال ، وما قابل ذلك من ازدياد قوة مرسيا ، قوض الأسس الاقتصادية التى تقوم عليها هذه الثقافة المتألقة ، ثم لم يلبث كل ما تبقى منها أن زال فى أثناء غارات الفيكنج ، يوم نهبت الأديرة الكبرى وأضرمت فيها النيران ؛ ولكن ألكوين ورفاقه حملوا من قبل مشعل إلهامها إلى آخن وتور ، حيث صارت أساساً للنهضة الكارولنجية . ثم سدد جانب من هذا الدين حوالى نهاية القرن التاسع ، بعد أن زال الإرهاب الدانيمركى ، حينما أسهمت مؤثرات من القارة فى زيادة ثروة مدرسة ونشستر العظيمة للتصوير والرسم فى عاصمة مملكة ويسكس الزاهرة . كما أن النماذج المعمارية فى بلاد الراين استوحاها فيما يبدو فن العمارة السكسونى المتأخر ، على الرغم من أن تقاليد الجزيرة البريطانية المتصلة الحلقات ، تستطيع تحدى كل موازنة بينها وبين مختلف أنواع الفن الرومانسكى . وقد زال من الوجود كل أثر لكاتدرئيات درهام وونشستر الفخمة ؛ وكل ما تبقى لنا عن روائع العصر الإنجليزى السكسونى المتأخر ، ما نستشفه عن قلة ضئيلة من الكنائس القروية استخرجت دلالاتها من شواهد هزيلة حوتها تلك الوثائق . على أن تلك البقية

والدلالات كافية لإثارة بعض الأسف فى أنفسنا على زوال كل أثر للطرائق الوطنية تلقاء عمائر البناء الفخمة التى خلفها النورمان والتى كثيراً ما تكون جامدة النمط . وذلك كله متى وازناها بما بقى عن السكسون من نحائت ، وبالفنون الصغرى التى كانت تمارس بإنجلترة فى تلك الأزمان .

٢ — المد الصقلبى

كانت حركة انتشار الصقالبة آخر حركة عنصرية بأوربا ، بلغت ذروتها قبل نهاية العصور المظلمة . وهى عملية لا تقل فى خطورتها بالنسبة لمستقبل السلالات البشرية بالقارة الأوربية عن كل ما سبق وصفه من العمليات ، بما كان لها يوم بلغت أقصى مداها من تأثير على كل الأراضى الواقعة شرق خط يمتد على وجه التقريب من رأس البحر الأدرياتى إلى مصب نهر الإلب ، وتختلف هـذه الحركة عن غزوات وهجرات سائر البرابرة ، مثلما يختلف مد يرتفع دون أن يحس به أحد عن شلال شديد الانحدار، أو عن نهر يتلوى جامعاً بين المنحدرات السريعة والروافد الهادئة . إذ إن أهل ذلك العصر لم يلحظوا تسلل الصقالبة فى هدوء إلى مسرح التاريخ الأوربى . لم يكن عملهم غارة رائعة تقودها شخصيات بارزة شأن غارات القوط أو الوندال . وما كان اندفاعة سريعة انبعثت من آسيا كاندفاعة الهون . وإنما الذى تم هو توسع مطرد قام به عنصر من الفلاحين ، كان يشكل فى بداية الأمر الطبقة الدنيا والأساس الاقتصادى لجماعات يقودها حكام مقاتلون من الجرمان أو الأسيويين ، ولكنها كانت تزداد فى كل يوم عدداً وتمتص فاتحيها ؛ لم يقم بينها تماسك وما كان لها مطمع سياسى ، ولذا كانت تنتزع من هنا إلى هنالك فى المنطقة الممتدة من بحر البلطيق إلى البحر الأدرياتى لخدمة أغراض الخاقانات المستبدين ، وهى مدٌ طامٍ من السكان طغى على شرق ألمانيا وانساب إلى بلاد اليونان ، وكان

يجتاز فى مسيره شرقاً سهول جنوب الروسيا ، حين يمنحها البدو الرحل من طلاب النهب فترة وجيزة من الهدوء .

على أن أعماق مستنقعات البريبيت التى يخيم عليها الضباب والتى يميل غالبية العلماء فى الوقت الحاضر إلى اعتبارها الموطن الأصلى للصقالبة ، كانت تقع فى ذلك الحين على مسافة بعيدة من مرمى أبصار الإغريق والرومان لا تقل عن بعد السهوب الأسيوية النائية ، التى كان فى إمكان الناظر أن يتبين فيها بصعوبة شخوصاً صغيرة راكبة مع قوافلها تسير فوق منبسط هائل من السهول . والواقع أن الصورتين متكاملتان تتمم الواحدة منهما الأخرى ، وذلك لأن سكان المستنقعات فى پوليزيا ، وهو الاسم الذى اشتهرت به هذه المنطقة الصقلبية البدائية فى العصور الوسطى ، — يمكن اعتبارهم أحد تلك الأجناس المتعسة التى وضعها سوء حظها على حوافّ منطقة السهوب والتى جعلتها نزعتها السلمية وحياتها المستقرة فريسة للحشود البدوية الشرسة[١] . وهناك من الإشارات المتناثرة عند بعض المؤلفين القدماء ما يصورهم لنا شعباً شكلته المتسعات الصامتة من المستنقعات المملوءة بالقصب والبرك الراكدة ، وتمثلهم أسرابا وعائلات منعزلة من صيادى السمك والمزارعين ، وهم ينزلون مناطق متناثرة أخلوها مما كان بها من مستنقع أو غاب ، وتجعلهم شعباً بدائياً أصهب الشعر وأناساً خجولين يتجرون فى الفراء والشهد وعليهم القليل من الثياب ، وهم يفرون من مطارديهم بالاختفاء فيما يجاورهم من ماء أو غياض ؛ وهم إلى ذلك مهرة فى الرماية وحرب العصابات وجند ممتازون متى كانوا فى خدمة الأجانب .

ومن الغريب أنهم أمة مجهولة بصورة تبعث على الدهشة . وليس لهؤلاء

---

(١) عن تحديد هـــذا الرأى ، انظر ماكتبه ل . نيدرلى فى Revue des Etudes Slaves) مجلد ٢ ص ص ١٩ ع ع .

الصقالبة الأصليين تقاليد مأثورة ، ولا أنساب ميثولوجية . ومن عجب أن ما يرجع إلى عصورهم المتأخرة من مأثور شعبي (Folk - Lore) ، يحتفظ أساساً بذكريات شعوب أجنبية استولت على أخيلة الصقالبة . وفيها يبدو شعب الآفار الرهيب فى صورة المردة أو الوحوش ، على حين أن الإمبراطور تراچان فاتح داكيا (ترنسلڤانيا ورومانيا) فى القرن الثانى للميلاد صار فى أساطير البلقان القيصر تراچان العظيم ، الذى يفيض إليه الذهب الوهاج والفضة الصافية من سبعين عيناً . والواضح من هذا ومن غيره من الشواهد ، أن الصقالبة بدءوا فعلا ينسابون من منطقتهم البدائية الأولى قبل القرون الأولى للميلاد حيث شرعوا يتسربون جنوبا نحو الدانوب على كل من جانبى جبال الكربات ، واتجهوا غربا مجتازين السهول التى تمتد بين نهرى الإلب والڤستولا وساروا شرقاً متجهين نحو حوض الڤولجا وبحر آزوف . ولاشك أن الموقع المتوسط لموطنهم الأصلى — الذى يقع على برزخ شبه الجزيرة الأوربية (إن جاز مثل هذا التعبير)، وهو العنق الذى كونته الطرق المائية الكبرى بمنطقة غرب الروسيا — قد جعلهم يتعرضون لما كان لبحر البلطيق أو البحر الأسود من مؤثرين حضاريين بالغى التناقض ، على حين أن الاختلاط العنصرى بين الدماء التيوتونية من جهة والأجناس الأسيوية من جهة أخرى قد ساعد على زيادة الفروق التى قدر لها فيما بعد أن تميز القوميات السلاڤونية المختلفة بعضها من بعض وتفرقها أقساماً .

على أن المد الصقلبى ظل يتزايد دون أن يلحظه أحد من مؤرخى الحوليات (Ammalists) . حتى استيقظت بيزنطة قبيل زمن جستنيان ، وانتبهت إلى ما يتهددها من خطر صقلبى . ذلك أن غارات الصقالبة ظلت تزداد شدة طوال القرن السادس وتنزل الخراب والوبال بمناطق تراقيا وتساليا ومقدونيا ، بعد اختراقها لخط القلاع المحكم الذى أقامه جستنيان بقصد الدفاع

عن الدانوب وحماية الطرق الحيوية التي كانت تربط بين أجزاء إمبراطوريته الغربية والشرقية . على أن مركز إعصار عاصف ما لبث أن استقر في هنغاريا في صورة الآفار ، فانطلق يعصف بأمواج الصقلبي ويحيلها إلى تيارات عنيفة ، بما وهبها من قوة دافعة جديدة خطيرة ، وبما نثره منها وبدده في صورة رشاش تطاير منتثراً فوق وسط أوربا . ويبدو أن هذه هي الفترة التي تم فيها صبغ بلاد اليونان بالصبغة الصقلبية ، وما ترتب على ذلك من شطر روما القديمة عن روما الجديدة (بيزنطة) . وعلى الرغم من الهجمات الباسلة التي بذلها القادة البيزنطيون لرد اعتداءات الصقالبة ، فإن حد الإمبراطورية من جهة الدانوب لم يعد له أهمية تاريخية بعد (٦٠٠) . وقد صدق المؤرخ إيزيدور الآشبيلي حين قال : « إن الصقالبة انتزعوا بلاد اليونان من الرومان » . وذلك لأن السكان الرومان والناطقين باليونانية دفعوا إلى حافتي شبه الجزيرة المطلتين على البحر الأدرياتي وبحر إيجة . أجل إن مدينة سالونيك التجارية العظيمة التي كانت تحميها أسوارها الضخمة ومجانيقها القوية وتقيها الذراع القومية للقديس ديمتريوس الذي هو قديسها الحارس ، قد صمدت في وجه الغزاة ، ولكن الصقالبة احتلوا رغم ذلك منطقة مقدونيا[1] المحيطة بها ، وأخذ فيض الصقالبة يتدفق إلى شبه جزيرة البيلوبونيز (المورة) ، ظلت مراكز للحضارة والحياة الهلينية ، وحافظت على استعدادها للمشاركة في الفتوح البيزنطية التي تمت بعد ذلك بثلاثة قرون . ولكن حدث في أقصى الغرب أن هرع سكان مدينة سالونا الرومانية عاصمة دالماشيا من مدينتهم التي تعرضت للنهب والتخريب ، فهبطوا الى أسفل التل ، يلتمسون ملاذاً في داخل أسوار قصر دقلديانوس الضخم في أسبالاتو . بينما فر آخرون إلى

---

(١) بلغ من شدة ازدحام هذه المنطقة بالصقالبة عند حلول القرن السابع الميلادي ، أنها أصبحت تعرف باسم « اسكلافينيا » .

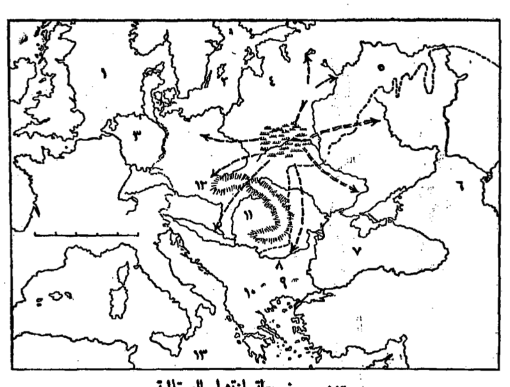
الجزر والخلجان الأدرياتية فأقاموا بذلك حافة منعزلة من اللاتينية ظلت قائمة حتى العصور الحديثة . إذ لم يمت آخر ناطق « باللغة الغريبة» إلا فى ١٨٩٨ـ ولم تكن لغته إلا سلالة منحطة من اللسان الرومانى القديم[1] ، والظاهر أن مجتمعات ناطقة باللاتينية ، ظلت تعيش فى داخلية البلاد بنفس الولايات السابقة بكل من شمال الدانوب وجنوبه ، وأنه يرجع إلى تأثيرها ظهور اللغة الرومانية الحديثة .

انتشار الصقالبة

وفى تلك الأثناء كانت الزوبعة الآفارية فى دورانها اللولبي من مركزها بهنغاريا تقذف بالجموع الصقلبية فى جميع الاتجاهات ، وتشتت قبائلهم وتنزل شراذم منهم بالأطراف النائية ، فاستقر بعضهم غرباً فى كارينثيا والتيرول ، وأقام بعضهم الآخر فى الشمال على امتداد نهر الإلب والسال ، واستخدمت رجالهم جنداً على محيط الدائرة الآفارية مسلطة إياهم على جند الباڤاريين واللومبارد والسكسون والفرنجة . على أن مدى سلطان الشعوب البدوية ، الذى كان يمتد بين حين وآخر من البيلوپونيز إلى البلطيق ، إنما يماثل ما كان للإمبراطوريات الألطائية بآسيا من نفوذ ، وهو قريب الشبه أيضاً بنفوذ أسلافهم فى أوربا ، وأعنى بهم الهون . وكان حكم الآفار يتمشى تمشياً صادقاً مع أصولهم فى بلاد السهوب ، إذ ينطوى على الاستبداد والنهب ويعتمد على القوة الوحشية ويقوم على غارات الرعب والإرهاب، ويتعرض للانهيار الفجائى . وعند مستهل القرن السابع ثارت عليهم الشعوب الخاضعة . فإن تاجراً من الفرنجة اسمه سامو قام بتنظيم الصقالبة النازلين بوادى نهر مين وتأليبهم على

---

(١) انظر ل . نيدرلى فى (Manuel de L'antiquite Slave) ، ج ١ ص ٦٨ (باريس ١٩٢٣) .



١٣ ــ خريطة انتشار الصقالبة

١ ــ بحر الشمال
٢ ــ بحر البلطيق
٣ ــ السكسون
٤ ــ اللتوانيون
٥ ــ شعوب فنلندية
٦ ــ الخزر
٧ ــ البحر الأسود
٨ ــ البلغار
٩ ــ تراقيا
١٠ ــ مقدونيا
١١ ــ الآفار
١٢ ــ نهر الدانوب
١٣ ــ البحر المتوسط

الآفار واستطاع الإبقاء على مملكته بنجاح إزاء كل من الآفار والفرنجة . وما لبث الكروات والصربيون أن حذوا حذوه ، وأخيراً كون البلغار على الدانوب الأدنى مملكة مستقلة . على أن الآفار ظلوا فيما عدا مملكة سامو مسيطرين فى كل مكان على جميع الفلاحين الصقالبة حتى امتصهم السكان المحيطون بهم . وتتجلى فى تنظيم هذه الدول البلقانية إبان العصور الوسطى شواهد واضحة تنبىء بوجود النظم الأسيوية .

وتعد بلغاريا مثالا بارزاً على تلك الأوضاع ، إذ إن شعبة غربية من البلغار ، وهم شعب وثيق الصلة بالهون نزلوا أول الأمر فيما نعلم على نهر الدون ، قد بلغت حوالى نهاية القرن الخامس سواحل البحر الأسود الشمالية الغربية فوق مصب الدانوب . فلما أن حرروا أنفسهم من نير الآفار حوالى ٦٤٠ ، اجتازوا الدانوب فبسطوا بذلك رقعة ممتلكاتهم جنوبا ، حتى أصبحوا على مسافة تقارب مائة وخمسين ميلا من أسوار بيزنطة ، وأخذوا يحكمون ، بوصفهم طبقة محاربة ، الصقالبة المشتغلين بالزراعة وينتزعون منهم الجند اللازمين لإنشاء إمبراطورية قوية البأس ، لم تلبث عند نهاية القرن التاسع أن امتدت إلى البحر الأدرياتى فى الغرب ، وبلغ طرفها الجنوبى جبال البيندس (Pindus) . وكانت هذه الإمبراطورية البلغارية الأولى عاملا فاصلا تحكّم فيما تلا ذلك من تاريخ البلغار . فلولا خاقانات البلغار الأشداء وأرستقراطيتهم المقاتلة لما استطاع المهاجرون الصقالبة بهذه المناطق المضى فى مقاومتهم المنظمة للجهود الدائبة التى بذلتها الإمبراطورية الرومانية قرناً فى إثر قرن بمالها من جيش محترف وخطط حربية بارعة ، لاستعادة خط حدودها القديم على الدانوب والمحافظة عليه ، والإبقاء على ما يقع على شاطئيه من الأقاليم ، ولولاهم أيضاً

ما ظهر إلى الوجود ما كان لبلغاريا وكرواتيا والصرب من أمجاد إبان العصور الوسطى .

زوال إمبراطورية الآفار

وقد تمخض تداعى قوة الآڤار ، التى تواصل اضمحلالها حتى تم تدميرها النهائى على يد شرلمان ، عن آثار سيئة فى كل مجموعة الدول الآڤارية الصقلبية. إذ انحسر مد مملكة الصقالبة المتجه غرباً ، وارتد منسحباً من أعالى النمسا ، كلما اندفع إلى الأمام جرمان باڤاريا[1] . وإلى الشمال من ذلك ، استقر ما يزيد على ثلاثين قبيلة صغيرة من الصقالبة فى خط يمتد من الدانوب إلى مكلنبرج ، وهم على حال من التفرق والعيش فى مواطن متناثرة بين المستنقعات والغابات . وقد أصبحت بوهيميا التى تحيط بها الجبال من كل الجهات مملكة قوية الشأن ، غير أن الصقالبة النازلين على نهر الإلب قد تعرضوا للإبادة أو تحولوا إلى جرمان ، ولم يكن استيلاء شرلمان على سكسونيا الغربية إلا تمهيداً لتقدم جديد قامت به دولة غربية ، ثم تواصل الفتح عنيفاً عاتيا على امتداد عدة أجيال . ودأب الڤيكنج من اسكنديناوة قراصنة كانوا أو تجاراً، على الإغارة على مناطق الصقالبة على شواطىء البلطيق ، فأقاموا بها معاقل دائمة . واستطاعوا أن يضعوا أيديهم رويداً رويدا على طريق التجارة العظيم الذى يتألف من شبكة الطرق المائية الروسية التى تربط بين بحيرة لادوجا وبين البحر الأسود (Euxine) ، ثم توغلوا جنوباً حتى أسسوا بعد (٨٠٠) بزمن قصير مستعمرة كييف ، وهى نواة الإمبراطورية الروسية فى المستقبل .

---

(١) انظر الفصل الرابع عشر بعنوان حملات الآفار .

٣ — بيزنطة والبحر المتوسط

كان لأحداث القرن السابع آثار كبرى غيرت تماماً مركز بيزنطة فى أوربا فى ذلك الزمان . إذ سرعان ما أعقب النصر النهائى ـ الذى أحرزته روما على فارس فى (٦٢٨) والذى يعد من أعمال هرقل الباهرة — موجة الغزو العربى الذى هز أركان كل من هاتين الإمبراطوريتين العالميتين السابقتين روما وفارس . ولم تنقض على وفاة هرقل عشر سنوات حتى ضاعت مصر والشام من يد الدولة . حتى إذا فتح المسلمون الولايات الإفريقية ، وتقدم اللومبارد فى إيطاليا ، واصطبغ البلقان بالصباغ الصقلبى ، نظرت دولة الروم عند نهاية القرن السابع فإذا رقعتها قد انكمشت انكماشاً شديداً من جميع أبعادها . ولم تزدها الثورة الإيطالية والفتح الفرنجى لإيطاليا إلا ضعفاً وانتقاصاً لنفوذها فى الغرب ، ومنذ تلك اللحظة يمكن اعتبار تاريخ بيزنطة شيئاً مستقلا عما يجرى من تطور فى دول غرب أوربا التى لم تعد تتأثر تأثراً شديدا ـ كما لاحظ المؤرخ بيورى — بما كان يحدث فى شرق إيطاليا وجنوب الدانوب .

على أن السنوات التى سبقت ارتقاء ليو الإيسورى (٧١٧ — ٧٤١) العرش تعتبر من أحلك الساعات فى عمر بيزنطة الطويل . إذ إن حيويتها أخذت فيما يبدو تتداعى بسبب انكماش حدودها . فاضمحلت الآداب والفنون وهبط مستوى التعليم ، وازدادت الخزعبلات انتشاراً بين جميع الطبقات . ونظراً لما كانت تعانيه بيزنطة من مركز قلق ، الأمر الذى اقتضى اشتداد سلطة الإمبراطور الأوتوقراطية استبداداً ، رغبة فى الإبقاء على وجود بيزنطة نفسه ، فقد قوبل ذلك بتحدٍّ عنيف من المعارضة الأرستقراطية تدل عليه سرعة تعاقب الأباطرة على العرش — حيث تولى الملك ما لا يقل عن سبعة منهم فى عشرين سنة . وكان الكثير منهم يدين بارتقائه العرش إلى مؤامرات النبلاء ملاك الأراضى بالإمبراطورية .

إصلاحات الأسرة الإيسورية

إن قيام البيت الإيسورى القوى ليسجل بالفعل اتجاهاً جديداً فى شئون بيزنطة . إذ يتوارى عن الأنظار الصراع على الملك بكل مايورث البلاد من فوضى ، ولا يعود إلى الظهور إلا فى مستهل القرن التالى . أما العاصمة التى هددها الأمويون بكل مايملكون من قوة فى أثناء الحصار العظيم الذى ضرب عليها فى (٧١٧ــ٧١٨) ، فقد دافع عنها ليو ، وهو الجندى المحنك المجرب دفاعاً مجيداً وكان ذلك فى نفس اللحظة التى استهل فيها حكمه [١] ، ومنذ تلك اللحظة وقفت الإمبراطورية على قدميها على امتداد الجبهة الإسلامية ، حتى تراجع مركز الاضطراب قليلا فى آسيا ، عند انتقال مقر الملك من دمشق عاصمة الأمويين إلى بغداد عاصمة العباسيين (٧٥٠ م) . ومما ينبغى أيضاً إضافة الفضل فيه إلى الإيسوريين قيامهم بإصلاح مالية الدولة على أسس سليمة وتشجيعهم التجارة وإجراؤهم تطويرا صالحاً للنظام العسكرى بالولايات ، لدرء ماتتعرض له الثغور (الحدود) من أخطار . وهى إصلاحات ومنجزات يمكن مقارنتها بما أتاه آل هرقل والمقدونيون وغيرهم من منقذى بيزنطة فى ساعة العسرة . ولذا فإن الأسرة من هذه الناحية يمكن اعتبارها متمشية مع مادرجت عليه الأسرات الإمبراطورية من تقاليد . على أن أوجه التشابه تنتهى عند هذا الحد. إذ الواقع أن الإيسوريين ينسب إليهم فضل اتخاذ سياسة ثورية ، وأنهم مبتدعون بارعون ، استطاعوا بفضل قوة مثاليتهم الأسيوية الأجنبية أن يغيروا مجرى الحياة فى بيزنطة فترة قرنين من الزمان . ثم قدر لتلك الحياة أن تنساب مرة أخرى فى مجاريها المعتادة . إذ إن الفلسفة الكلية العامة (Weltanschauung)،

---

(١) انظر ماقبله ص ٢٥٧ بعنوان الخطر على بيزنطة .

الحضارة بأكملها ، إنما هى تيار أقوى من أن يستطيع بضعة أفراد تغييره ، وذلك لأن ماتحداه الحكام الإيسوريون لم يكن سوى تراث البحر المتوسط بأجمعه .

ومن أهم عناصر ذلك التراث ، النظام القانونى الرومانى ، الذى كان يتحكم فى وجوه كثيرة جدا من حياة بيزنطة الاجتماعية . فقانون الأكلوجا ، الذى أصدره الإمبراطور ليو الثالث ، وهو مجمل لكل القوانين البالغة الأهمية ، يدل على تغيير خطير فى القانون الرومانى . وبصدور هذا القانون لم يعد فقهاء القانون من الرومان مصادر موثوقا بها ، بل صار التشريع والفقه قائماً على «الوحى» ، والتمست النظرية القانونية مبرراتها من نصوص مستمدة من الأناجيل. وزالت الفكرة القائلة بأن الزواج عقد مدنى ، يمكن فسخه بالتراضى المتبادل بين الزوجين ، وحل محلها ماقررته المجالس الكنسية من أن الزواج يعتبر من الأسرار المقدسة ، فتعذر بذلك الحصول على الطلاق . ويتجلى نفوذ الكنيسة ورجالها فى أمور أخرى أيضاً ، منها مثلا زيادة العقوبات على الجرائم الجنسية وإحلال عقوبة التشويه وبتر الأعضاء محل عقوبة الإعدام بوصفها أقصى عقوبة فى القانون ، رغبة فى منح المذنب فرصة للتوبة . ومما له مغزاه أن إضفاء الصبغة المسيحية على الدولة بهذه الصورة قد توقف قبيل نهاية القرن التاسع الميلادى ، وحل محله الرجوع إلى اتخاذ مبادئ قانون جستنيان . فعندئذ تتجلى بيزنطة المدينة المقدسة وحامية العقيدة السلفية الصحيحة فى صورة أخرى بالغة الأهمية : هى أنها وارثة ومستودع تقاليد روما الإمبراطورية الوثنية .

وعن هذا المصدر تجىء كذلك فكرة عميقة الجذور فى العالم البيزنطى ، وهى فكرة عدم إمكان الفصل بين الكنيسة والدولة [1] . وذلك أن سلامة

---

(١) انظر ص ١٦٤ بعنوان « الحياة فى العاصمة البيزنطية » .

الإمبراطورية ورخاءها كانا يتوقفان على مالها من موارد روحية فضلا عن المادية ، وأن نفوذ السلطات المدنية كان يعززه إقرار رجال الدين له . على أن بعض الأباطرة من أمثال الإيسوريين المناهضين لعبادة الصور ، والذين تدخلوا فيما شاع بين السكان من معتقدات — كالمقدسات الدينية والأيقونات وتبجيل هيئات الرهبان — إنما كشفوا عن وجود ازدواج فى السلطات : أى إمكان حدوث صراع بين السلطتين العلمانية والإكليركية ، وهو وضع كان يخالف صراحة سياسة بيزنطة العامة ، ولذا كان محتوم الفشل نتيجة لذلك . وهذا الضرب من رجحان كفة الميزان فى صالح الدولة ، تمخض عن حركة مضادة بين أتباع ثيودور رئيس دير ستوديوم (مات فى ٨٢٦) ، الذى طالب بأن يكون للكنيسة استقلال داخلى تام ، بل إنه أيد البابا على إمبراطوره . على أن هذه الأفكار كانت غريبة أيضاً عن التفكير البيزنطى ، ولم يلبث هذان الرأيان المتناقضان أن اختفيا من الوجود فى النهاية ، فتهيأت الفرصة مرة أخرى للإمبراطور كيما يمارس سيادته على شئون الكنيسة ، وهى مع ذلك سيادة يلطف منها استعمال الحكمة والأناة فى معالجة حساسية الشعب وميله بطبعه إلى الاستثارة السريعة .

نضال مناهضى عبادة الصور

وكان آخر تحد لقيته المعايير البيزنطية هو حركة تحطيم الصور (Iconoclast) ومناهضة عبادتها . فعلى الرغم من أن هذه الحركة تؤلف فى بعض مظاهرها جانباً من إصلاحات الإمبراطور العلمانية ، فإن الدافع الجوهرى إليها هو الاعتقاد الدينى [1] ، ولذا فإن المعاصرين كانوا ينظرون إلى المسألة بأسرها بوصفها مسألة

(١) من المعلوم أن الدين والسياسة لا يمكن فصلهما فصلا تاما كما رأينا من تونا ، ولا شك أن سلامة الدولة من الزلازل والأوبئة والغزو كانت فى نظر مناهضى عبادة الصور تعتمد إلى حد عظيم على قيام مايعتبرونه العقيدة الصحيحة ، خاصة وهم قوم لم يكونوا « عقليين Rational » فى تفكيرهم — بالدرجة الشديدة التى يصورهم بها بعض الناس أحياناً .

دينية بحتة . فقد ادعى خصوم التحطيم أن إنكار إمكان تمثيل مرئى ، هو إنكار لحقيقة التجسيد وبالتبعية إنكار لأس العقيدة المسيحية . ولا سبيل إلى تقدير المرارة الشديدة التى اتصف بها الكفاح إلا إذا وضع القارئ هذا الاختلاف الأساسى نصب عينه [١] . على أن معركة تحطيم الصور ومناهضة عبادتها ، ليست إلا نزاعا اجتمع فيه من الاختلافات والدوافع السياسية والفلسفية والجمالية ، بل العنصرية أيضاً ، مايرجع أصول كثير منها إلى الماضى البعيد . وما من صيغة عصرية تستطيع أن تعرض علينا من جديد ما تنطوى عليه هذه الحركة من مشاكل معقدة . فقد نشبت الحرب فى جميع المستويات ، وتحولت الآراء من النقيض إلى النقيض ، وتشعبت فى كل شكل من أشكال الحلول الوسط . ومن اليسير على المتصفح أن يستكشف ما ارتكبه الجانبان من سخافات وحماقات ، فهناك من ناحية أولئك الأباطرة الذين تمادوا فى تلك الحملة حتى لقد اعترفوا «بتطويب» يهوذا الأسخريوطى وتلقيبه قديساً وعمدوا إلى إزالة لفظة « القديس » من أسماء الأماكن . على أن الواقع من الناحية الأخرى ، أن إقامة عبادة سحرية للصور يرجع سخفها إلى أنها فى أحط صورها تعتبر ضرباً من الإيمان « بالفتيشة » لحالة مرضية . ومع ذلك فإن الفارق الفلسفى كان هاماً وحقيقياً ، وإن جاز لنا أن نشك من خلال مايحيط بالأمر كله من سحب سوء العرض وتأجج المشاعر ، — فى أن المتخاصمين كانوا يرون بوضوح الأشكال التى كانوا يوجهون إليها طعناتهم . فالصعوبات الكامنة فى علاقة الصور بما تمثله ، ليست إلا قصة قديمة ترجع إلى الأزمنة الوثنية ، ثم تواصل الجدل فى شأنها طوال عصور المسيحية جميعاً . من هنا يتبين أن كلا من الجانبين كان وراءه معين من السوابق لاينضب يستطيع أن ينهل منه ، بالإضافة

---

(١) انظر التذييل ب .

إلى الفقرات المنتزعة من نصوصها الأصلية فى الكتب المقدسة وكتابات الآباء الأولين ، والتى شكلت لتكون قذائف فى الحرب الكلامية الناشبة .

كان معظم أفراد حزب تحطيم الصور ينتسب إلى آسيا الصغرى موطن الأباطرة الإيسوريين ومنبت الشطر الأكبر من جندهم وكثير من موظفيهم. وفى هذه المنطقة ازدهرت عدة طوائف متشددة في التطهر والتعفف، ولم تتولد الكراهية لعبادة الأوثان عن هذه المذاهب التطهرية فحسب، بل أسهم فى ذلك أيضاً عقائد المسلمين المجاورين . ولكن الأباطرة أنفسهم لم يكونوا من الهراطقة . إذ كان فى وسعهم أن يعتمدوا هم وخصومهم على السواء على التقاليد الصحيحة للكنيسة . وينبغى لنا أيضاً ألا نشدد التأكيد على التناقض بين ما لدى آسيا من الرمزية التجريدية وبين الفن التشكيلى اليونانى الرومانى . فالمعروف أن البحر المتوسط تعرض طوال قرون عديدة لمؤثرات شرقية ، وأن الفن البيزنطى فقد بالفعل كثيراً من خصائصه التقليدية (الكلاسيكية) . وأثارت مساجد وقصور الخلفاء الآسيويين وقتئذ من الجاذبية القوية ، ما لا بد أن يثيره كل فن خصيب رائع . على أن الراجح أن النزاع حول التحطيم ومناهضة عبادة الصور ، لم يكن له تأثير جوهرى على تطور الطراز البيزنطى ، الذى استقرت مبادئه الأساسية من قبل فى عهد جستنيان .

وقد بدأ ليو فى (٧٢٥) حملته لتحطيم الصور . إذ ارتقى الجند السلالم وأزالوا التمثال الكبير للمسيح المنصوب فوق باب القصر بالساحة الرئيسية بالقسطنطينية . فاحتشد جمهور غاضب وعقبت ذلك الفتن وقتل الدهماء أحد الجند . وأحدثت المراسيم الإمبراطورية فى هذا الصدد طائفة من الاضطرابات نشبت فى العاصمة وبلاد اليونان وجزر بحر الأرخبيل ، بل لقد نودى بأحد الأفراد إمبراطورا ، ولكن المؤامرة أحبطت ، وكانت الغلبة فى النهاية لسياسة ليو ، الذى كانت تؤازره على الجملة الطبقات المتعلمة . وازداد الكفاح مرارة

فى عهد قسطنطين الخامس ، ولم يلبث ما قام به الرهبان من النشاط السياسى ، الذى سبق أن تنبأ ليو بخطورته على الدولة ، أن تطور إلى المطالبة بأن يكون للكنيسة استقلالها . على أن قسطنطين الخامس الذى كان يضارع أباه فى العبقرية الفكرية ويفوقه فى البراعة السياسية والتدبير ، التقى بخصومه على أرضهم ، وآزر حركة التحطيم بكل ما توافر له من موارد . وفى (٧٨٧) انتهزت إيرينى فرصة اندلاع فتنة شعبية فأعادت عبادة الصور ، على أن حركة التحطيم ومناهضة عبادة الصور لم تلبث أن عادت فى (٨١٥) نتيجة لرد فعل آخر . ومع ذلك فإن قوتها ما لبثت أن تضعضعت رويدا رويدا ؛ إذ فقد الجيش ما كان له من سلطان فى البلاط ، وفاز رهبان دير ستوديوم بالغلبة . وفى (٨٤٣) تمكنت الإمبراطورة ثيودورا وهى وصية على ولدها ميخائيل ، من الجمع بين تنفيذ رغباتها وبين مقتضيات السياسة بإعادتها للأهلين عبادة الصور التى لم يكفوا عن التعلق بها .

والظاهر أن هناك شيئاً من المبالغة فى تقدير الأثر الذى ولدته فى الغرب حركة مناهضة عبادة الصور . أجل إنها قد تأججت بسببها المشاعر ، وذلك نظراً لأن الصور والآثار المقدسة كانت تلعب دوراً جوهرياً فى عقائد الناس ، ولكن أحداً لم يستطع إدراك النقاط الفلسفية التى كان الموضوع يدور حولها . على أن الواقع أن أقوى أسباب الثورة التى شبت فى إيطاليا كانت كراهية الناس للموظفين البيزنطيين والضرائب البيزنطية ، وتأجج الوطنية ودوافع السياسة المحلية ، ولم يحمل الفرنجة على التدخل إلا ضعف بيزنطة العسكرى . ومن ثم فإن النزاع حول عبادة الصور لم يكن إلا حدثا واحدا فى شقة الخلاف والتنافر بين روما البابوية والقسطنطينية الإمبراطورية . وآية ذلك أن العودة إلى عبادة الصور لم تصلح ما فسد ، وذلك لأن الخلافات السياسية لم تكن تدور حقاً حول المسائل العقائدية . على أن فترات الانشقاق بين الكنيستين

الشرقية والغربية التى أخذت تزداد طولا وتتكاثر عدداً بلغت ذروتها فى الصدع النهائى الذى حدث فى (١٠٥٤) ، ومع ذلك فقد كان فى الإمكان حتى بعد هذا التاريخ الوصول إلى اتفاق حول المسائل الاعتقادية . ومن هنا يتضح أن السبب فى عدم الوفاق بين الطرفين لم يكن فقرة : « والابن أيضاً Filioque » ، بل مدعيات البابا فى السيادة وخطط الإمبراطورين الشرقى والغربى . وثم فاصل آخر كان يزداد فى الحين نفسه على الأيام علوا وقوة ، هو فاصل اللغة والعرف والتقاليد . وعمد ليو الإيسورى إلى توجيه ضربة مضادة لتحدى البابا ، فضم صقلية وجنوب إيطاليا ودالماتيا إلى البطريركية البيزنطية ، ولم يلبث أن شاع بهذه الجهات عناصر عديدة للعقيدة الشرقية نتيجة تقاطر الرهبان اليونانيين اللاجئين . على أن فتح المسلمين لصقلية فى القرن التالى أضعف قبضة البيزنطيين على الغرب ، على حين أن الشعوب الصقلية الوثنيين بالبلقان ، أقامت عقبة أخرى حالت دون الاتصال المباشر بين الجانبين . ولكن بيزنطة تمكنت من ضم بلغاريا إلى حظيرة المسيحية فى القرن التاسع ، بعد أن ترددت طويلا بينها وبين الولاء لروما[1] ، وأخيرا ظلت على مذهبها الأرثوذكسى ، والواقع أن أطرافها الغربية (وكانت تضم آنذاك الشىء الكثير من صربيا العصرية) كانت تحدد دائرة نفوذ بيزنطة الدينى والثقافى . وبذلك أضيف سبب جديد للانقسام إلى ما يقوم بالبلقان من أسباب الشقاق التى لا يحصيها عد ، والتى لا تزال آثارها باقية إلى يومنا هذا .

---

(١) انظر استيفن رانسيمان فى كتاب (A History of the First Bulgarian Empire) ص ص ٩٩ ع ع (لندن ١٩٣٠)

الفصل الثانى عشر

الفرنجة

عندما توفى كلوفيس فى (٥١١) انقسمت مملكته بين أبنائه الأربعة ، « كأنما كانت مزرعة خاصة » . وهذه العادة فى اقتسام الإرث عند الفرنجة تعتبر من الحقائق الأساسية فى تاريخ الميروفنجيين ، إذ يرجع إليها قدر كبير من التفكك والفوضى التى سادت هذه الحقبة من التاريخ . فكلما مات ملك تواصلت التجزئة ، التى كثيرا ما كانت تستند إلى اعتبارات شخصية بحتة . مثال ذلك أن شرق فرنسا ضم عقب وفاة كلوفيس إلى الأوفرن ، دون مراعاة للأجناس أو القوميات . ولكن المملكة لم تزل على الرغم من هذا التقسيم تعد وحدة ، كما يدل على ذلك اسمها الذى اشتهرت به وقتذاك ، وهو مملكة الفرنجة (Regnum Francorum) ، واعترف أبناء كلوفيس الأربعة ، بأن من واجبهم المشترك ، أن يتموا مابدأه أبوهم من الفتح . وفضلا عن ذلك ، فإن العواصم الأربعة : ريمز وأورليان وباريس وسواسون ، كانت تقع فى أطراف الإمارات ، وكلها على قرب وثيق بعضها ببعض ، وبذلك ألفت بمجموعها مركزا للنفوذ الجرمانى .

ولا تنطوى قصة تلك الأسرة فى أثناء نصف القرن التالى إلا على سلسلة طويلة من جرائم القتل واستلحاق الأرض والثورات والتقسيمات الجديدة فى الإرث . ولكن الوحدة عادت مؤقتاً فى (٥٥٨) ، يوم لم يبق من جميع سلالة كلوفيس سوى كلوتار . فعلى الرغم من الحروب الأهلية تواصل الربط بين أجزاء فتوح كلوفيس واستمر توسيع رقعتها . فأخضعت برجنديا نهائياً

فى (٥٣٤)[١] وأصبحت تؤلف جزءاً من ممتلكات الفرنجة ، وإن عاد عليها القرن الذى قضته مستقلة بنوع من وحدة الثقافة ، لم تذهب عنها آثاره بعد ذلك أبدا . أما بروفانس التى كانت تابعة فى يوم من الأيام لثيودوريك ملك القوط الشرقيين بإيطاليا ، فقد تخلى عنها خلفاؤه فى قريب من ذلك الوقت . على حين أن سبتيمانيا ، وهى المنطقة الواقعة بين الرون والبرانس ، كانت لاتزال بأيدى القوط الغربيين ، ولم تعترف بريتانى للفرنجة إلا بسيادة اسمية . ويمكن القول إجمالا بأن فتح غالة قد اكتمل حتى حدودها الطبيعية . ولم تظفر الجيوش الفرنجية بهذا المبلغ من النجاح خارج هذا النطاق . إذ إن حملاتهم على شمال إيطاليا وأسبانيا لم يترتب عليها نتائج ثابتة كهذه ، على الرغم من أن ضعف القوط الغربيين والقوط الشرقيين قضى على كل احتمال أمامهم للثأر لأنفسهم . وكان ثيوديبرت أشد أبناء كلوفيس إقداما ، وقد دبر ذات يوم خطة رام بها أن ينحاز إلى الجپيد واللومبارد للقيام بهجوم مشترك على تراقيا ، بل تشير الرواية إلى أنه فكر فى شن هجوم على بيزنطة ذاتها . على أنه ينبغى لنا ألا نغلو فى تقدير هذه الأمور أكثر مما يجب . فما كان ثيوديبرت رجلا يضارع شرلمان أو أوتو ، وليس ثمة دليل على أن وراء هذه الخطط الطنانة بصيرة سياسية نافذة .

ولكن الواقع أن التقدم الحق فى أثناء تلك المدة كان فى اتجاه الشرق . إذ اكتملت فتوح الفرنجة على يد كلوفيس فى صورتها الصحيحة . فقدمت باڤاريا فروض الطاعة والولاء ، وأخضعت ثورنجيا . ولكن قبائل السكسون بالسهول العظمى فى وسط ألمانيا أظهرت فى القتال عنادا أشد ، وردت الغزاة

---

(١) انظر ص ١٣٧ بعنوان ثيودوريك والكنيسة .

على أعقابهم بعد أن كبدتهم خسائر فادحة . على أن هذا يعد ابتداء للعملية التى كتب لشرلمان أن يصل بها إلى خاتمتها ، كما يعد تمهيدا لطريق المبشرين المسيحيين الذين قاموا فيما بعد بتنصير ألمانيا .

الميروفنجيون الأوائل

على أن نصف القرن التالى يتصف بصفة مناقضة تماما . إذ حلت الحرب الأهلية فى أثنائه محل الفتح . وعلى الرغم من تواصل الحملات على شمال إيطاليا ، فإنه لم يترتب عليها إضافة هذه الجهات إلى الفرنجة نهائياً . أجل بذلت بعض الجهود لانتزاع سبتيمانيا من القوط الغربيين ، وشهدت كل من كركاسون ونيم الاشتباك المسلح بين الطرفين ؛ غير أن المنطقة ظلت خاضعة لحكام أسبانيا ، ثم انتقلت فيما بعد إلى أيدى المسلمين . ولم يبرح البريتون والباسك (الباشكنس) يحافظون على استقلالهم ، وفوق هذا فإن غارات الآفار على ثورنجيا التى حدثت فى ذلك الوقت حالت دون أى مزيد من التوسع على الحدود الشرقية.

لقد استنفدت موجة الفتح قوتها ، كما أن قوى الانحلال داخل مملكة الفرنجة كانت تعمل عملها بأقصى قوة . والصفحات التى كتبها جريجورى أسقف تور تروى لنا قصة ذلك الزمان . إذ إنها تسجل الوباء والمجاعة والقتل والموت الفجائى . وتذكر امتلاء الطرق بالشحاذين وقطاع الطرق ، بل إن الكنائس نفسها لم تكن بنجوة من النهب . ولما استشرت العداوات الضارية بين أمراء الميروفنچيين ، التمسوا المساعدة من النبلاء فى ممالكهم ؛ وتتجلى نتيجة ذلك فى زيادة استقلال النبلاء ونمو الإقطاع واستشراء الخروج على القانون ، وفى العداوة التى نشبت بين أوسترسيا ونوستريا وبين برجنديا وأكيتانيا ، التى بدا أنها تتجه نحو تكوين إمارات مستقلة . وتوفى كلوتار آخر من بقى حيا من أبناء كلوفيس فى (٥٦١) تاركا وراءه أربعة أبناء . ولكن لم يعش

من هؤلاء الأربعة إلا كاريبرت ملك باريس حتى (٥٦٧) ونشب بين سيجبرت ملك متز وشلبريك ملك سواسون نزاع طويل مرير من أجل السيادة ، على حين أن الأخ الرابع وهو جنترام ملك أورليان وبرجنديا حاول أن يحفظ التوازن بينهما . ثم تفاقمت حدة العداوة بين سيجبرت وشلبريك عندما تزوجا أميرتين شقيقتين ، هما برانهيلدا وجالسوينثا — وهما من بلاط القوط الغربيين الذى اشتهر بالأبهة والتمدن . على أن جالسوينثا زوجة شلبريك لقيت مصرعها خنقاً فى ظروف مريبة ، وعندئذ عاد شلبريك إلى خليلته الأولى فريديجند . ولم يلبث سيجبرت أن خرّ صريعا غداة انتصاره على شلبريك ، بطعنات الخناجر المسممة التى سددها إليه عملاء فريديجند . ووقعت برانهيلدا فى الأسر ، غير أنها تمكنت من الهرب إلى مملكة ابنها ، حيث دبرت الانتقام من أعدائها على هذه الجريمة المزدوجة . ومنذ تلك اللحظة تسيطر على هذه الفترة شخصية برانهيلدا ملكة أوستراسيا والوصية على عرشها — وأوستراسيا هى مملكة الفرنجة الشرقية — كما تسيطر على تاريخ الحقبة أيضاً بما شنته من حرب على نوستريا ، وهى مملكة شلبريك فى الشمال والغرب (التى هى آخر الفتوح وأحدثها niust) . ويعتبر شلبريك طراز الطاغية الميروفنجى . إذ إن الشهوتين اللتين سيطرتا عليه هما زيادة ثروته وتوسيع رقعة مملكته . ولتحقيق هاتين الغايتين صار يبيع الأسقفيات ، ويجبى ضرائب باهظة ، وينزل الغرامات على رعاياه الأغنياء ، وذلك على حين أنه لم يكن يرى فى الخيانة ضعة ولا فى القسوة وحشية ، مادام يحقق بذلك خططه ومآربه ضد خصومه من الأمراء الميروفنجيين . وكان جريجورى أسقف تور يعده نيرون زمانه وهيرودس عصره . ولاشك أن هذه الصفات كانت شائعة بين معاصريه . ولكن شلبريك كانت له مواهب أصيلة . فإنه لاحتقاره اللسان الجرمانى ، كان يقرض التراتيل

والقصائد باللغة اللاتينية ؛ وصدر عنه مرسوم أضيفت بمقتضاه أربعة حروف إلى الأبجدية . وبأمره تقرر إنكار الأقانيم الثلاثة وبطلانها باعتبارها حماقات تشبيهية ، بل لقد بلغ الأمر بتحرره الفكرى أن تحدى قانون الساليين ، الذى يعتبر الحصن الحصين لتقاليد الفرنجة ، وذلك فيما حاوله من إجازة الإرث للنساء فى أحوال خاصة . ثم إن لبرانهيلدا عدوته اللدودة شخصية بالغة القوة هى الأخرى . فقد ظلت أكثر من ثلاثين عاما مسيطرة على مصائر أوستراسيا وصامدة فى وجه هجمات شلبريك ، كما أنها تمكنت بفضل مساعدة أتباعها المخلصين ، وعقد تحالف مع برجنديا فى الوقت المناسب ، من القضاء على النبلاء الخونة . فهلك أحدهم فى لهيب قلعة أضرمت فيها النيران ، بينما لقى آخر مصرعه بإلقاء الآجر عليه من خلال سقف كنيسة الأسقف بفردان . ونصب حفيداها على عرشي برجنديا وأوستراسيا ، ولكن برانهيلدا ظلت مع ذلك قابضة على زمام السلطان . وعندما شق أمير أوستراسيا عصا الطاعة على طغيانها ، ألبت عليه أخاه ، ولم تزل به حتى هزم وأعدم . ولكن خاتمة حياتها الطويلة كانت اقتربت . فقد مات حاكم برجنديا فى (٦١٣) ، ولم تنجح برانهيلدا فى محاولتها ضم عرشي أوستراسيا وبرجنديا تحت حكم ابن حفيدها . فإن نبلاء أوستراسيا بزعامة أرنولف أسقف متز وبيبين ناظر القصر وهما مؤسسا البيت الكارولنجى ، استصرخا ملك نوستريا لمساعدتهما ، وأخذت برانهيلدا أسيرة على شاطىء بحيرة نيوشاتل . وعذبت مدة ثلاثة أيام ثم ربط جسدها فى النهاية فى ذيل حصان جموح ، أطلق له العنان ، وضرب بالسوط حتى جمح وأفلت زمامه .

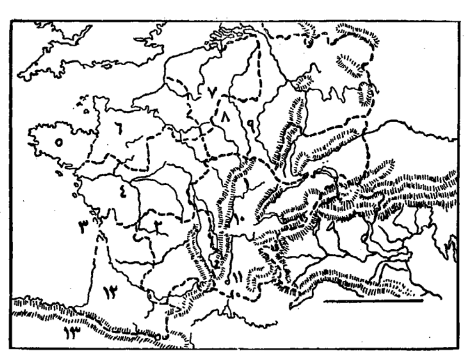
برانهيلدا وشلبريك

وقد عرفت برانهيلدا كيف تحكم الهيمنة على مايمملكتها من قوى . وعلى الرغم من التزامها خطة الحزم الشديد فى معاملة الكنيسة ، لم يفتها فى الوقت ذاته بذل المنح والهبات العديدة للأسقفيات والأديرة . وتشهد المراسلات التى دارت بينها وبين البابا جريجورى الأكبر بمدى إدراكه لسلطانها على الكنيسة والدولة ، وتقديره لأهمية نفوذها فى فرنسا . ويبدو أن النبلاء كانت لهم اليد العليا فى عهد كلوتار الثانى الذى تولى عند ذاك عرش المملكة بأجمعها. وكان تعاونهم فى أوستراسيا بوجه خاص حاسماً فى تحقيق النصر ، ويتجلى الثمن الذى انتزعوه واضحاً فى مرسوم (٦١٤) . فإن الكنيسة حرصت فيه على إبراز استقلالها ، وطالبت بحرية الانتخابات الأسقفية وزيادة سلطات المحاكم الكنسية ، على حين انتصرت الأرستقراطية صاحبة الأراضى الزراعية على موظفى البلاط ، حيث أصبح محتما منذ تلك اللحظة أن يكون انتخاب الكونتات [1] قاصراً على أبناء النواحى الذين سيتولون الحكم فيها ، وبذلك تزايد النفوذ المحلى والوراثى . ومنحت أوستراسيا وبرجنديا نصيباً موفوراً من الاستقلال الذاتى ؛ وبذا صار لكل من المملكتين طابعها الخاص المميز ونظامها الإدارى المنفصل ، وأصبح يرأسها نظار القصر ، الذين صاروا يمثلون مصالح النبلاء المحليين بقدر مايمثلون مصالح الملك . على أن المملكتين تجزأتا فى حد ذاتهما إلى إقطاعات كبيرة ، بل لقد مضى التفكك إلى أبعد من ذلك .

ومع ذلك حدث فى تلك اللحظة أن توقفت العملية برهة وجيزة ، ومن ثم يشهد حكم داجوبرت (٦٢٩ ـ ٦٣٩) آخر الأقوياء بين الملوك الميروفنجيين

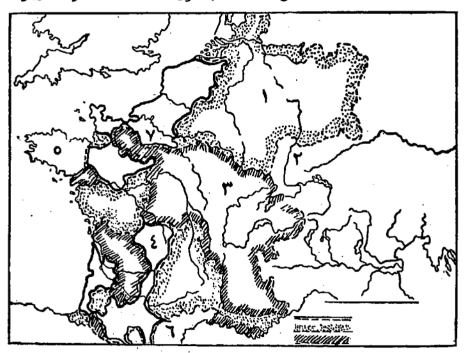
---

(١) انظر الفصل نفسه بعنوان حكم الرومان والجرمان .



(أ) من ٥١١ — ٥٦١ م

١ — برجنديا ٢ — أكيتانيا ٣ — بوردو ٤ — پواتييه
٥ — بريتانى ٦ — نوستريا ٧ — أوستراسيا ٨ — ريمز ٩ — متز
١٠ — فيينا ١١ — بروفانس ١٢ — جسكونيا ١٣ — القوط الغربيون



(ب) ٥٦٨ م

١ — أوستراسيا ٢ — مانيا ٣ — برجنديا
٤ — اكيتانيا ٥ — بريتانى ٦ — سبتمانيا ٧ — باريس

(١٤) خريطتا فرنسا فى عهد الميروفنجيين

الملوك الميروفنجيين ، انبثاقا نهائياً لمظاهر القوة والجبروت من جانب السلطة المركزية . فإنه ظل عشر سنوات يحكم فرنسا بأجمعها ، بعد أن تمكن فعلا من إبعاد أخيه بتعيينه حاكما على إقليم منطقة الحدود ببلاد الباسك . وازدهرت الفنون ببلاطه المتألق الحافل بالفضائح . فإنه أولى صناعة الذهب اهتماماً خاصاً. وتأسست فى عهده الأديرة ، وقام المبشرون بنشاط عظيم . وأرغم البريطونيون والبشكنس (الباسك) على أداء يمين الولاء ، وأصبح نفوذ الفرنجة ملموساً فى شئون إيطاليا وأسپانيا . بل لقد حدث أن داجوبرت عقد محالفة مع هرقل ، تقضى بالقيام بإجراء مشترك لمناهضة الصقالبة والبلغار بوسط أوربا ، الذين كانوا يهددون حدود كل من فرنسا وبيزنطة على الراين والدانوب .

وقعة تير ترى

وعندوفاة داجوبرت انقسمت المملكة شطرين ، وعادت عملية اللامركزية والتفكك سيرتها الأولى. ومن المعروف أنه حدث فى أثناء حياة داجوبرت أن طلبت أوستراسيا أن يكون لها حاكم مستقل ، وهو ابن الملك . وعندئذ ازداد ظهور نزعات الانفصال فى الأجزاء الثلاثة التى تتألف منها فرنسا . والواقع أن تاريخ القرن التالى لايدور إلا حول قصة أطماع نظار القصور ومنافساتهم . وصار الأمراء الميروفنجيون يولدون ويموتون ، وليسوا سوى أشباح قصيرة العمر ، قد أهلكها انغماسها فى الفجور (Rois fainéants) فى سن مبكرة ، دون أن يظهر بينهم فى أحسن أحوالهم إلا الورع الضعيف أو الظريف المستسلم. أما القوة الحقيقية فأصبحت فى أيدى كبار موظفى الدولة ، الذين كانت المنازعات التى تنشب بينهم من أجل السيادة الشخصية ، هى التى تقرر مصائر المملكة . على

أن مركز نظار القصور [١] كان متناقضاً من بعض الوجوه . فإنهم كانوا فى نفس الحين كما سبق أن أشرنا نواب الملك الممثلين له وزعماء لطبقة النبلاء المحليين . وعندما تعارضت هذه المصالح المتضاربة ، انحاز بعض محافظى القصر إلى جانب الملك ، بينما انضم بعضهم الآخر إلى جانب النبلاء . على أن جريموالد ناظر القصر فى أوستراسيا أنس فى نفسه من الجرأة والإقدام ما حمله على إعلان مناهضته للجانبين جميعاً . ولم يلبث حتى نفى الأمير الميروفنجى إلى إرلندة فى (٦٥٦) ، وأجلس ابنه على العرش . غير أن الوقت لم يكن مناسباً للقيام بهذه المغامرة ، فتغلب عليه النبلاء ، وأسلموه إلى ملك نوستريا فأعدمه . ولم يجد سلالته من الكارولنجيين فى أنفسهم من القوة ما يكفى لممارسة السلطة الملكية باسمهم إلا بعد مضى مائة سنة . على أن الحروب الأهلية لم تتوقف قط فى تلك الأثناء ، حيث كان كل ناظر قصر يحرص على رفع شأن إقليمه ، إما بقصد إرضاء الملك الذى يقوم على خدمته ، وإما بالحد مما طبع عليه رفاقه النبلاء من رغبة جشعة فى انتهاب الأراضى .

على أن مملكة نوستريا صارت لها اليد العليا فى (٦٥٧) بفضل ما اشتهر به محافظ القصر إبروين ، ولكن أوستراسيا طالبت بأن يكون لها محافظ قصرها وملكها الخاص ، أما برجنديا التى تولى قيادتها أسقف أوتون ، الذى رفع فيما بعد إلى مرتبة القديسين باسم القديس ليجير ، فإنها طالبت بالاستقلال . ووقع ليجير فى الأسر وأعدم بعد أن حل به من التعذيب والتنكيل ، ماجعله يظفر فى الأزمنة المتأخرة بتاج الشهداء ، واستعادت نوستريا سيادتها مرة أخرى . وقد ظل إبروين محتفظاً بسلطانه حتى وفاته (٦٨١) ، ولكن نجماً جديداً سطع فى الأفق فى ذلك الحين . فإن بيبين الثانى زعيم النبلاء الأوستراسيين قد لقى

---

(١) ناظر القصر أو حاجب القصر (Mayor of the Palace)

الهزيمة على يد إبروين ، ولكنه عاد بعد ذلك ببضع سنوات فانتهز فرصة الشقاق الذى دب بين أهل نوستريا ، فزحف على المملكة المنافسة له ، وتمكن فى معركة تير ترى بالقرب من پيرونّ من التغلب على كل مقاومة ، ونصب نفسه حاكما فعلياً على فرنسا (٦٨٧) . ولم تكن معركة تير ترى نصراً لجرمان الشرق على جرمان الغرب ؛ وذلك لأن پيپين ظفر بتأييد فريق كبير من النوستريين . على أن تلك المعركة كانت فى ظاهرها نصراً للنبلاء على السلطة الملكية التى كان يؤيدها جريموالد وخليفته ؛ ولكنها لم تكن فى الواقع إلا انتصارا شخصياً لپيپين . ومنذ تلك اللحظة أصبح پيپين سيدا على فرنسا ، وصار هو الذى يهب منصب محافظ القصر لمن يشاء من أفراد أسرته ، ويحكم البلاد حكم ملك حقيقى لا يعوزه إلا اللقب . وبذلك يكون ما فعله فى الواقع نهاية حكم الميروفنجيين ، وبداية عهد الأسرة الكارولنجية .

وتمكن فى المدة بين (٦٨٧ ، ٧١٤) من فرض سلطانه على البلاد ، واستطاعت قبضته القوية أن ترفعها مكاناً علياً فى سياسة غرب أوربا . على أنه عند وفاته ، صارت مصائر أسرته ووحدة فرنسا فى كفة القدر . ذلك أن ولديه الشرعيين توفيا فى أثناء حياته، ولمّا يبلغ أحفاده سن الرشد بعد. فانفصلت برجنديا ونوستريا إحداهما عن الأخرى ، وانتشرت الفوضى والاضطراب بكل أرجاء البلاد . ففى الشمال الشرقى عاث الفريزيون فسادا فى المنطقة المحيطة بمدينة كولن ؛ وحذا حذوهم السكسون فى أقصى الجنوب ، على حين اغتنمت أكيتانيا الفرصة للمرة الثانية فأعلنت استقلالها . بيد أن البيت الكارولنچى عثر عند ذاك على بطله الذى وهبه ذلك الاسم . إذ إن شارل مارتل الابن الثالث لپيپين تغلب على جميع العقبات التى صادفته الواحدة بعد الأخرى . وقد استخدم قوة أوستراسيا كما فعل أبوه من قبل وقضى على جميع العصاة النوستريين وألزم أهالى أكيتانيا الطاعة واستعاد الأطراف الشرقية بمجموعة

من الحملات المظفرة ، كما استطاع فى (٧٣٢) تشتيت شمل الجيوش العربية فى معركة بواتييه [١] ، متبعاً نصره بعد ذلك بحملته التى شنها على پروڤانس . ومع ذلك فقد أظهرت الأيام أن استقلال أكيتانيا قد خدش ولكن لم يقض عليه ؛ وظل العرب محتفظين بمدينة ناربونة ، التى اتخذوا منها ملاذاً حصيناً يخرجون منه لمباغتة مدن وادى الرون .

على أن پيپين بن شارل هو الذى أتم نهائياً إخضاع أكيتانيا . إذ إن فتحه لها اتسم بالاستقرار والنجاح والثبات . كان يفوق أباه فى البراعة السياسية والتدبير ، وشاهد ذلك أنه حرص على استرضاء الكنيسة بمنحها الهبات التى تقوم على دراسة وتمعن ، وعنى بتأسيس حزب موال له بين أهالى أكيتانيا أنفسهم . وقد تجلى منه الحرص فى سياسته منذ وقت مبكر ، وكانت آية ذلك حادثاً صدر عنه . ففى (٧٥١) اتخذ پيپين لقب ملك فرنسا بعد أن حصل على موافقة البابا على مشروعه ، وبعد أن أمر بحلق رأس آخر الميروڤنجيين وإدخاله حياة الرهبنة . وبعد ذلك بثلاث سنوات توج پيپين رسمياً بكنيسة سان دينيس ، وقام بمراسم التتويج البابا استيفن الثانى ، الذى كانت الظروف قد اضطرته إلى اجتياز جبال الألب يلتمس مساعدة الفرنجة على اللومبارد . وكان التتويج من الشعائر الجديدة على الفرنجة ؛ فإنه كان بمثابة الخاتم الذى مهر به انتخاب پيپين لعرش المملكة ، ذلك الانتخاب الذى أقرته من قبل جمعية الشعب (المجلس الوطنى) وقد قدر لنظرية « الحق الإلهى » فى الحكم الذى تنفرد به أسرة معينة ، أن تزداد أهمية فيما عقب ذلك من تاريخ فرنسا ؛ ومع ذلك فإنه حتى فى هذه الفترة كان قيام الكنيسة بمسح الملك بالزيت المقدس ، مسحا يقترن بالسوابق المستمدة من الكتب المقدسة ، أمراً لابد

---

(١) انظر الفصل التاسع بعنوان فتح شمال إفريقية .

منه ، لموازنة ما جرى من انتهاك حرمة الميروفنچيين الذين يعتبرون من سلالة إله البحر الأسطورى ، والذين احتفظوا ، حتى فى إبان اضمحلالهم ، بما كان للوثنية فى الأزمنة السحيقة من قداسة خفية .

البابوية والكارولنجيون

ولم يكن من الأحداث العارضة تحالف البابا وأسرة الكارولنچيين ، الذى قدر له أن يغير مجرى التاريخ الأوربى بأجمعه . وعلى الرغم من أن الشكل الذى اتخذه ذلك التحالف إنما يرجع إلى سياسة بعض الشخصيات البارزة ؛ فإن المؤثرات المتلاقية المتجمعة التى جعلت تلك السياسة شيئاً مرغوباً ، كانت ثمرة تطورات بطيئة . ويذكر القارئ أن كاوڤيس أنشأ كنيسة يصح اعتبارها قومية أو تكاد . وقد واصلت الكنيسة الاحتفاظ باستقلالها فى ظل أحفاده ، حتى أن البابا جريجورى الكبير نفسه لم يستطع رغم تعيين نائب له فى آرل ، تنفيذ مدعياته فى السلطان ، بل اضطر إلى أن يكتفى بأن يمارس عن طريق أمثال برانهيلدا نفوذا غير مباشر . وانعكس على الكنيسة الارتباك والبلبلة اللذان يتولدان عن الحروب الأهلية ؛ فإن انقسام المملكة لم يهيء الفرصة لعقد المجامع الكنسية العامة ، كما أن الأساقفة تورطوا فى النزاع السياسى . واختلطت السلطات الزمنية بالكنيسة ، ولم يكن صوت البابوية مسموعاً بين فرقعة الأسلحة . فلما أن أعيد النظام إلى نصابه فى عهد الكارولنچيين ، صار من الضرورى إتمام الوحدة السياسية لفرنسا ، بزيادة العناية بتنظيم إدارة الكنيسة . إذ إن شارل لم يسهم إلا فى زيادة الاضطراب ، وذلك لأنه كافأ أتباعه بما بذله لهم من الأسقفيات والأديرة ؛ ولكن پيپين وأخاه كارلومان اللذين انسحبا فيما بعد إلى الدير ، أقرا مشروعات الإصلاح التى عرضها عليهما بونيفاس ، وصدرت على أثر ذلك طائفة من القرارات ،

التى تنظم السلطة الكهنوتية وإدارة الكنيسة وآدابها . وكان بونيفاس مبشراً إنجليزياً ، قام بخدمات جليلة فى ألمانيا ، حيث أدخل فى الدين المسيحى عدداً كبيراً من الوثنيين . وسنعود إلى الإشارة إلى أعماله الجليلة فيما بعد ، بيد أن أهمية عمله فى هذا المقام إنما ترجع إلى علاقته الوثيقة بالبابوية . وكان بونيفاس من رجال البابا المخلصين . وقد طلب من كل أسقف يتبعه أن يقسم يمين الولاء لكنيسة روما وللقديس بطرس وقسيسه الأكبر وهو البابا . وعلى الرغم من أن پيپين وكارلومان احتفظا بما لهما من حقوق السيادة على الكنيسة ، فإنهما كثيرا ما كانا يستشيران البابا ، ومن ثم أخذت العلاقات بين السلطتين الكبيرتين فى الغرب تتوثق رويدا رويدا . وحدث بالفعل أن شارل مارتل تلقى استغاثة من البابوية تستصرخه لنجدتها ، وقد اشتد بها الضيق فى أثناء كفاحها مع اللومبارد . غير أنه لم يستجب لذلك النداء ، وذلك لأن مركزه لم يتوافر له من الاستقرار ما يسمح له بخوض حملات خارجية محفوفة بالمخاطر ؛ يضاف إلى ذلك أن اللومبارد كانوا الحلفاء الطبيعيين للفرنجة وأنهم انحازوا إلى شارل فى أثناء قتاله مع المسلمين . ولم يجد شارل كذلك بدا من النظر بعين الاعتبار إلى مركز أباطرة بيزنطة الذين كانوا بوصفهم أباطرة روما لا يبرحون يطالبون بالسيادة على إيطاليا . غير أن الأحداث كانت تتحرك بسرعة نحو خاتمة فاصلة . ففى (٧٥١) قذف ملك اللومبارد بقواته على راڤنا . ففر الأرخون (النائب الامبراطورى) البيزنطى وفقدت بيزنطة إلى الأبد أملاكها فى شمال إيطاليا . وفى السنة ذاتها وبتشجيع من البابا ، اتخذ پيپين لنفسه التاج بعد أن نحى عن العرش آخر ملوك الميروڤنجيين . وعندئذ أصبح تهديد اللومبارد للبابوية خطرا محدقا ؛ وكان الموقف يتطلب منها الخضوع التام ، كما أن سقوط روما بدا شيئا لا مندوحة منه . ولم يبرح پيپين مترددا ، حتى عبر البابا بنفسه جبال الألب فى مهمته الخطيرة ، التى أدت إلى

جلب قوات الفرنجة إلى إيطاليا ، وتوطيد اتحاد البابا والبيت الكارولنجى فى الإمبراطورية الرومانية المقدسة .

حكم الرومان والجرمان

بالغ المؤرخون فى قيمة بقاء فكرة الإمبراطورية فى أثناء القرون التى انقضت بين سقوط روما وتتويج شرلمان . حقاً أن جذور الإمبراطورية الغربية كانت تمتد طويلا فى الماضى السحيق ، وأنها تستمد بقاءها بطبيعة الحال من السوابق العتيقة ؛ يضاف إلى ذلك أن تأسيسها لم يحدث انقلابا ثورياً فى الموقف السياسى بالغرب ؛ وكل مافعله أنه كان تعبيرا رسمياً لما كان قائماً فعلا من الأمور . غير أن مااقترن بأصلها من ظروف عجيبة والفروق الضخمة التى كانت تباعد مسافة الخلف بينها وبين الإمبراطورية الرومانية القديمة ، أنموذجها الأول المحتذى ، إنما ترجع إلى حد كبير إلى اندماج الحضارتين الجرمانية والرومانية ، الذى تميز به سكان ممتلكات الفرنجة . وكل مايمكننا إيراده هنا عن ذلك الأمر هو مجرد الإشارة العابرة . ذلك أن ماحدث إنما هى عملية معقدة دامت ثلاثة قرون ، واختلف أثرها بين منطقة وأخرى ، وبين مدة زمنية وأخرى ، كما أن معرفتنا بها ضئيلة ومستمدة من سجلات متقطعة متناثرة ، وهو وضع يحول دون الوصول إلى قواعد وتعميمات وثيقة .

فمن حيث المظهر ، يبدو أن التنظيم الإدارى والسياسى بفرنسا لم يختلف إلا قليلا عما كان عليه حاله فى غالة الرومانية . إذ إن مااتخذه ذلك التنظيم من الطرائق والمصطلحات مستمد من روما ، وكانت اللاتينية هى اللغة الرسمية . ومما هو جدير بالملاحظة فى هذا الصدد ، أن عدد الكلمات ذات الأصل الجرمانى فى الفرنسية الحديثة لايتجاوز العشرة فى المائة من اللغة الفرنسية ذاتها . أما فيما يتعلق بالوضع القانونى ، فلم يفترق الفرنجة عن سائر السكان إلا فى قيمة

الدية (Wergild) ، على حين أن مناصب كبار رجال الدين ، فضلا عن المناصب المالية ، كان يشغل معظمها الرومان الفرنسيون . ولكن لو فرض أن أوضاع هذه النظم بقيت دون تعديل ، فلا شك أن روحها كانت تعرضت فعلا لتغيرات عميقة ، لا عن طريق المؤثرات الجرمانية المباشرة فحسب بل أيضاً نتيجة ما ترتب على الغزوات من أحوال جديدة . وقد استندت الإمبراطورية الرومانية إلى الفكرة التجريدية عن الدولة ، وإلى جعل القوانين والحكومة للجميع بدرجة متساوية ، وبصورة مستقلة عن أولئك الذين يمثلونها . فالفرد ليس إلا مواطنا بالإمبراطورية لا رعية للإمبراطور . أما المملكة الفرنجية فكان اعتمادها فى فى بقائها على العلاقة الشخصية بين الرجل والرجل . وكانت سلطة الملك شخصية بحتة ، فهى من ثم تختلف باختلاف شخصية شاغل العرش . وكان رعاياه يرتبطون به بيمين الإخلاص - التى هى رابطة شخصية - وهى يمين تحتم عليهم اتباعه فى الحرب . وظهرت عند ذلك طائفة جديدة من النبلاء ، اعتمدت فى البداية على الملكية ، ثم أخذت بعد ذلك تظفر بالقوة عن طريق النفوذ الوراثى المحلى ، والإعفاءات التى كانت تغدق عليها . وكان العنصر الشخصى ظاهراً أيضاً فى المجال القانونى . فإن الرجل من هؤلاء كان يحاكم بمقتضى قوانين الجنس الذى ينتسب إليه ، سواء كان من الغاليين الرومان أو الساليين أو الريبواريين أو البرجنديين . وكانت طريقة الأخذ بالثأر ، وهى ذلك المبدأ الجرمانى القديم ، لاتزال قائمة لم يتم القضاء عليها ، ولذا حفلت صفحات تاريخ جريجورى أسقف تور بقصص الثأر والانتقام . ومن ثم فإن ما اشتهر به نظام الوظائف فى غالة الرومانية من بالغ التخصص فى الأعمال لم يعد له وجود ؛ وذلك لأن ظهور الأحوال الجديدة البدائية الساذجة أزال كل فائدة له . فأحاط بالملك «التشريفاتى الحاجب» و «الصنجيل» و «الكندسطبل» ، وقام بالمهام الخاصة

أفراد من رجال البلاط لم يجر اختيارهم وفقاً لنظام خاص . وأصبحت المناطق المختلفة تحت حكم الكونتات الذين يختارهم الملك من بين جميع الطبقات ، بينما نيطت حكومة الثغور بأدواق عسكريين ، كثيرا ما أصبحوا حكاما وطنيين ومستقلين فعلا ، شأن ماحدث من دوق باقاريا وثورنجيا . وكانت بوابات العشور ومعديات الأنهار لاتزال تدفع مكوسها ، وإن حدث فى كثير من الأحيان أن أفرادا كانوا يغتصبون تلك المكوس لأنفسهم ، على أن نظام الضرائب المحكم الذى تميزت به الإدارة الرومانية قد أغفل وأصبح مهملا ؛ إذ لم يعد له مكان فى خطة أمير ليس لديه خدمات عامة يحرص على صيانتها والمحافظة عليها ، ولا يعد المال إلا شطرا من ثروة مدخرة تحول عند اللزوم إلى صحاف ذهبية أو حلى مرصعة بالجوهر . وبلغ بهم الأمر أنهم كانوا لايعدون الجيش من الأعباء العامة بالدولة ؛ إذ تحشد « الجموع » حشدا جديدا لكل حملة من الحملات . وكان رجال الجيش يعتبرون أتباع الملك ، ويؤدون الخدمة على حسابهم الخاص . أما القوات الدائمة الوحيدة فهى الحرس الملكى الخاص (Antrustions) ، فضلا عن بضع كتائب قليلة ترابط على التخوم .

على أن فئات نظام الدية[1] تقسم المجتمع ابتداء إلى غالب ومغلوب ، وتضع الغالبين الرومان دون أقل الفرنجة مرتبة . غير أن هذا الوضع لم يستمر طويلا. إذ إن الميزات الشخصية قد أبرزت نفسها ، فبينما ظلت طبقة السناتوريين تمد الحكومة بالأساقفة والموظفين ، حاز أغنياء الفرنجة قسطا ضئيلا من الثقافة الرومانية . واختلطت الطبقتان إحداهما بالأخرى ، وحذاحذوهم الأرقاء والعتقاء وصغار الفلاحين من كل من الجنسين . وهنا أيضا يكون ولاء الفرد للفرد هو القوة الرابطة . فالأسقف أو رئيس الدير والموظف فى البلاط أو

---

(١) انظر الفصل الثالث بعنوان فرنسا فى عهد كارنيس ص ١٢٠ .

الحاكم المحلى كلهم رجل الملك (Leud) ، وكلهم مرتبط به برباط خاص ، وكلهم موضوع تحت حمايته . وكان هذا المبدأ نفسه معروفا فى كل إقليم (pagus). فالكونتات ينتظمون تحت إمرة الأدواق ، ويلتمس حماية الكونت الرجال الذين يقلون عنه مكانة . فكأن السلسلة الإقطاعية قد تشكلت فعلا ، وإن لم يعترف بها القانون بعد ، وهنا أخذت كلمة « رجل (Leud) تختفى ليحل محلها مصطلح : «تابع Vassus » . يضاف إلى ذلك أن هذه التبعية الشخصية قد عززها وزاد فى قوتها نمو المزارع الضخمة . فكما حدث فى القرون المتأخرة من الحكم الرومانى ، كان المالك الصغير يسارع إلى وضع نفسه تحت حماية سيد قوى بأن يتنازل له عن حيازته الحرة مقابل الحصول على وعد بكفالة سلامته وأمنه . وكانت الأديرة والأسقفيات تضيف إلى أملاكها الحقل بعد الحقل ، وذلك لأنه متى انتقلت الأملاك إلى يد الكنيسة ، لم يعد ممكناً انتقالها من حوزتها ، وكانت نتيجة ذلك أن انتقل إلى ملكية الكنيسة بفرنسا مايربو على ثلث الأراضى . ويتجلى ضعف السلطة المركزية أيضاً فيما ارتكبه صغار موظفيها وتابعيها من الأخطاء والأضرار ، على أن كبار الملاك حصلوا على الامتيازات والإعفاءات تجنباً لما يقوم به هؤلاء الموظفون من ابتزازات . وبذلك أبعد موظفو الملك عن تلك الأراضى منذ تلك اللحظة ، وانتقل إلى ملاك الأراضى كل مايتصل بالضرائب والشئون القضائية من حقوق ومزاياوأرباح . والواقع أن الملكيةوالسيادة أخذتا بالفعل تتوحدان وتتقمصان . ومن ثم جردت الملكية (العاهلية) الوهمية نفسها من كل ماتبقى لها من سلطات قليلة . ومن هنا أخذ ما كان لدى الرومان من حكومة مركزية وآفاق عريضة للدولة يقترب من نهايته ، ويتحول إلى خصائص العصور الوسطى ومالها من الحكم المحلى والنظرة الضيقة المحدودة .

الفن والأدب والخرافات

لقد ولت حياة المدينة القديمة . وأصبحت المعابد ومدرجات الألعاب (Amphitheatres) خرائب وأطلالا ، وصارت الحدائق تشغل المناطق الخالية داخل المدن المسورة . وتكدس سكان القرى حول مسكن مالك الأرض الكبير بما يحوى من كنيسة وطاحون ودكان حداد ومخابز وإسطبلات إلى غير ذلك من الوسائل التى تكفل الاكتفاء الذاتى . وفى بعض الأحوال كانت أكواخ الأتباع تقع فى أطراف الضيعة ، على أنها تقوم فى معظم الحالات فى شوارع متجاورة ، وهى أسلاف معظم قرى فرنسا الحديثة . ولا تزال بيوت الأغنياء تحوى السقائف والأعمدة ، ولا تزال بها الحمامات والينابيع . وقامت الكنائس فى كل مكان ، منها ما اتخذ طراز الباسيليكة القديمة ومنها ما هو على شكل الصليب ، يتوسطها برج بأعلاه منور ، ومنها ما بنى من الخشب على الطريقة التيوتونية . ويتألق داخلها بما رصع فيه من رخام ملون وما أسدل فيه من أستار الحرير الفاخرة الموشاة ، على أن الرخام قد انتزع أصلا من بعض العمائر القديمة ، كما أن الأستار الحريرية مصدرها بيزنطة . ويغلب الطابع المتبربر على فن النحت ، وقد اندثر نهائيا ما اشتهرت به النواويس الآرليسية من تقاليد النحت الأصيلة . فلم يبق على ازدهاره القديم سوى صياغة المعادن ، لأنها كانت تحظى بتشجيع خاص من البلاط الميروفنجى ، ومن هنا تأسس حى الصاغة فعلا فى ظل كنيسة نوتردام بباريس .

وأخذ التغير السريع يلم بلغة الحديث . ولم يعد الفرق كبيرا بين اللغة السوقية الدارجة ولغة الأدب ، وأخذت اللهجات المختلفة تسير فى عملية التشكل بفعل ضغط القوانين الصوتية . فاستخدمت لفظة (Flumina de sanguine) للدلالة على « أنهار الدم » واستخدمت عبارة (promissum habemus)

للتعبير عن قولهم « لقد وعدنا » . واستعيرت ألفاظ ألمانية كثيرة ، ولكن اللسان الجرمانى لايفتأ يحتفظ بمكانته فى المناطق الشرقية . وباستثناء كتاب التاريخ الذى ألفه جريجورى أسقف تور ، فإن الأدب اقتصر أو كاد على تراجم القديسين ، وهى مؤلفات تكرر فى تشابه ممل سرد المعجزات التى أتاها بطلها المترجم له . وفيها تتعاقب العبارات الرتيبة والجمل السقيمة بعضها وراء بعض ، وليس بين الكتاب واحد متمكن من لغته . وليس فيهم من ألم بأية حال بالدراسات الكلاسيكية ، بل إن الاعتقاديات اللاهوتية نفسها قد أقفل رتاجها دون معظم رجال الدين من أهل غالة . وتشربت ديانة سواد الناس بالتقاليد الوثنية ، بل الحق أن الوثنية نفسها لم تخمد نارها ولم تختف نهائياً . فإن ماذاع عند الكلتيين من عبادة إلـه البحيرة وإلـه الجدول ، كان لها من يعبدها سراً ، كما أن الإلـه أودن كان لايزال له مقره فى غابة الأردن . على أن دعوة الكنيسة التى تعززها الرهبة من السلطة الدنيوية ، قدر لها أن تجرد الآلهة القديمة من سلطانها ، غير أن الصياد الأسود واجتماع الساحرات عند منتصف الليل ، وكل مايصدر عن صنوف العفاريت من الفيرى والأقزام والوحوش من ضجيج ، قد ظلت تلاحق خيال العصور الوسطى وتستثيره . ومنذ ذلك العصر أصبح الشيطان (وهو « العدو » كما أخذوا يسمونه ـ وهو لفظ يجمع بين الخوف والخفاء) بارزا مشهورا فى المعتقدات الشعبية ، وأخذ الدين يتشح برداء معتم قاتم . فإن أحداً من الناس لن يستطيع فى اعتقادهم درء انتقام الله أو مكر الشيطان إلا بإقامة الشعائر الدينية . ويظهر القديسون فى الحقول عياناً ، وتصبح المعجزات وندر السوء من خبرات الحياة اليومية . وترهق الأحلام والفأل عقول الرجال ، وتكتسب الأضرحة والمقدسات الدينية قدرات سحرية على النفع والمضرة .

فهل يوجد فى مثل هذا العالم شىء طبيعى ومعقول أكثر من أن الإمبراطور قسطنطين ، وقد شفته المعجزة من البرص ، قد اعتنق المسيحية ، جالباً معه الإمبراطورية الرومانية بأجمعها ؛ وأنه بادر من فوره بالإنعام على البابا سلفستر بتولى الحكم الإمبراطورى فى الغــــرب منسحباً هو نفسه بغاية التواضع إلى بيزنطة ؟ أو هل هناك شىء طبيعى أكبر من أن تتناقل الألسن أن القديس بطرس بشخصه قد دعا القوات الفرنجية للدفاع عن مدينته المقدسة ؟ وكيف يمكن فى حمأة مثل تلك الأشكال والنظم أن تحمل ألفاظ مثل الشريف (البطريق Patricius) والإمبراطور والجمهورية بما لهن من تاريخ قديم ومعقد أى معنى أو أهمية دستورية مضبوطة إلى عقل رجال السياسة فى ذلك الزمان ؟

الفصل الثالث عشر

البـــابوية

١ ــ نفوذ البابوية فى إنجلترة وألمانيا وفرنسا

لقد شهد القرنان اللذان أعقبا وفاة جريجورى الـكبير ، تطور النفوذ البابوى بأوربا الغربية ، ذلك النفوذ الذى مضى متمهلا مضطربا وخفياً غير مدرك حتى عند أصحابه أنفسهم . وقد كان لما اتصف به جريجورى من خلق ومكانة شخصية ، أثره فى رفع مكانة كرسى القديس بطرس إلى مستوى لم يستطع خلفاؤه المحافظة عليه ، ولم تـكـد شخصيته القوية تتوارى عن الأنظار ، حتى تجلى عدم استقرار مدعياته . أجل إن بعض المشاكل التى أثارتها ممالك البرابرة قد حلت ، ولـكن مصاعب جديدة بالغة الضخامة صارت ملموسة . وقد أخذ الاضمحلال يدب إلى المذهب الأريوسى . وتحول اللومبارد إلى العقيدة الـكاثوليـكية ، واقتفت أسبانيا آثارهم عندما اتخذ ريكارد (٥٨٦ـ٦٠١) الـكاثوليكية عقيدة قومية . على أن الخطر كان وقتذاك بالغ الاختلاف وشديد الخطورة . فلم يكن فى وسع الأمراء الجرمان ، وقد انصرف كل منهم إلى إنشاء حكومة مركزية قوية ، أن يتخلوا عن أى من عناصر سيادتهم . فلوحدث أن أنشأ هؤلاء الحكام مجموعة من الـكنائس القومية لاتدين للبابوية إلا بولاء لفظى مجرد من الإخلاص ، لـكان ذلك ضربة مسددة إلى قلب روما ذاته . والواقع أن الجوكان ينذر بنشوء ذلك الوضع السيىء . ذلك أن كاوڤيس وخلفاءه لم يكونوا يطيقون مطلقاً أى تدخل فى سيطرتهم على الـكنيسة ، ولذا ظل منصب القاصد الرسولى (نائب البابا) بمدينة آرل مركزاً شرفياً ، لايقوم بعمل النائب

عن أحبار روما. ولم يتوقف اللومبارد عن العدوان حتى بعد اعتناقهم المسيحية. وربما جاز فعلا أن تخاف البابوية وهى واقعة بين سيوف اللومبارد (Inter Gladios Lombardorum) قيام مملكة جرمانية فى إيطاليا . على أن نشاط جريجورى أوتى فى أسپانيا حظاً أوفر من النجاح . إذ توثقت بفضله العلاقات بين روما وبين الأساقفة الأسپان ، ولذا تميز القرن الأخير لحكم القوط الغربيين بنمو نفوذ الأساقفة ، الذى بلغ من سيطرته على الشئون العلمانية أن طغى على سلطان الملكيات نفسها . وعلى الرغم من أن أحكام البابوية وقواعدها أرهقت الروح الاستقلالية للكنيسة الأسپانية ، فإن هجوم الجيوش الإسلامية عرض سلطان الكاثوليكية لضربة أشد خطورة .

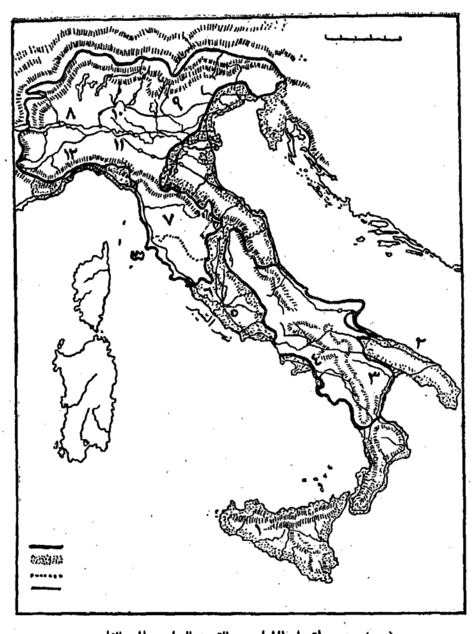
على أنه لم يكن بد من أن يعدل التوازن عن طريق جهة أخرى . ذلك أن بقايا المسيحية البريطانية كانت تراجعت إلى المناطق الغربية أمام زحف السكسون . وقد حملت العقيدة قبل ذلك إلى إرلندة ، حيث نشأ مركز جديد للمدنية ، يجتذب إليه القديسين والعلماء من أرجاء العالم . وفى هذه الجزيرة المنقطعة عن العالم القديم والتى لم تمسها أسنة المغيرين الجرمان ، بقيت تقاليد الحضارة القديمة حية فى الأديرة الكبيرة ، وإن أصابها الهزال ومسها التبربر . ولا شك أن الجو الخاص الذى يريم على هذا العالم الأجنبى الغريب ، إنما يتجلى فيما صدر عنهم من قصائد لاتينية نلمس فيها طريقة الكلتيين فى مراعاة الإيقاع والوزن فى حروف العلة بالكلمات المتتالية فى مخطوطاته الفائقة التى تفرد بينها كتاب المشبّكات (Book of Kells) بما حوى من الحليات والحروف الكبيرة[1] . بيد أن الكنيسة الإرلندية لم ترض بالبقاء فى عزلة . إذ إن كولومبا نشر الإنجيل فى اسكتلندة والجزائر الغربية ، كما أن أيونا أصبحت

(١) انظر ص (١٥٦ — ١٥٧) والحروف الكبيرة هى المستخدمة فى بدء الجمل والأعلام فى اللغات الأجنبية . [المترجم]

مركزاً شهيراً للمسيحية . وعبر كولومبان البحر إلى فرنسا ، حيث أقام أديرته التنسكية بمنطقة القوج . وتولى جال فى سويسرا وكيليان فى باقاريا نشر المثل العليا الإرلندية (الهيبرنية) .

روما والكنيسة الكلتية

وانطوى هذا النشاط التبشيرى على بعض الأخطار التى تهدد سلطان روما . وفيما خلا ما نشب من فروق صغيرة ، كان لها طابع جدلى بحت مثل الاختلاف على تحديد موعد عيد الفصح وطريقة قص شعر الرهبان ، فإن الكنيسة الكلتية احتفظت بكل من إرلندة وغرب بريطانيا بتقاليد بدائية كثيرة ، وأبدت نفورا من الاعتراف بقيمة نظام الهيئة الكنسية وترتيباتها ، التى تطورت فى الأقاليم التى قطعت فى المدنية شوطاً أبعد ، والتى أنشئت على غرار النظام الإدارى فى الإمبراطورية الرومانية .كان هناك الأبروشية والأسقفية والأسقف والمطران والمجالس والقوانين الكنسية ، وفوق هذا كله السلطة المركزية بروما — ولكن هذا النظام المنطقى لم يثر حماسة بين مجتمعات الأديرة القبلية بإرلندة . ومع أن بعض الحالمين المتحمسين من « جزيرة القديسين » (إرلندة) هذه ربما تجرأوا على توبيخ الملوك ، بل ربما كانوا غرضة فى بعض الأحيان لحنق برانهيلدا الرهيبة ، إلا أن أرباب السياسة والتدبير من البابوات مثل جريجورى أدركوا أن توطيد سلطان الكنيسة على المجتمع العلمانى لن يتحقق إلا باستخدام أساليب بالغة العلمانية ، وبإنشاء قوة مدربة منظمة . ولذا فكر هؤلاء الساسة فى أن يتخذوا من هيئات الرهبان عونا عظيم القدر فى تحقيق هذا المبدأ ؛ ويجعلوا منها قوة يركن إليها فى دعم سلطان البابوية والقضاء على كل أسقف متمرد ، ولم يكن الأساقفة فى العادة سوى نبلاء أقويا انتزعوا مناصبهم كرهاً من ملك ضعيف أذعن لإرادتهم . ولكن الفئة التى تمت الاستفادة منها على



(١٥) خريطة إيطاليا من القرن السابع إلى الثامن

١ - صقلية
٢ - كالابريا
٣ - بنيفنتو
٤ - كامبانيا
٥ - روما
٦ - نهر التيبر
٧ - توسكانيا
٨ - نوستريا
٩ - أوستريا
١٠ - ميلان
١١ - بارفا
١٢ - ليجوريا
١٣ - نابولى

هذا الوجه ، لم تكن فئة الرهبان الإرلنديين ذوى النزعة الفردية ، ممن يتحدون الملك والأسقف بل البابا نفسه ، وإنما هم طائفة الرهبان البندكتيين الذين عمدوا إلى إفناء شخصياتهم فى الإذعان لقادتهم الروحانيين .

وكان إيفاد البابا جريجورى للقديس أوغسطين فى مهمته التبشيرية ببلاد الإنجليز نقطة التحول فى هذه العملية ، وإن بدت مهمة ضئيلة الشأن فى ذلك الزمان . وتم تنصير إنجلترة رويدا رويدا واستغرق الشطر الأكبر من القرن السابع ، بيد أنه انطوى على سلسلة من الانتصارات والهزائم ، التى كان مردها تقلب الحظ بالممالك من ناحية ، والعداء الناشب بين الكنيستين الرومانية (الكاثوليكية) والكلتية من ناحية أخرى . وظلت كنيسة كانتربرى معقلا حصينا لنفوذ روما وكنيستها ، على أن مرسيا قد ظلت مملكة وثنية ، كما أن نورثمبريا ترددت بين الإخلاص لحليفتها الكنتية (Kentish) وولائها لما تبشر به « أيونا ولنديسفارن » على المذهب الكلتى . وكان مجمع هويتبى فى (٦٦٤) وهو المجمع الذى أكد ظفر كنيسة روما ، أول علامة سجلت ما يمكن تسميته باسم تنظيم الكنيسة الإنجليزية اللاتينية . وفيه قسمت البلاد إلى أبروشيات ، وأصبح القس المركز الفعال لكل أبروشية . وأخذت الكنائس الحجرية تحل محل الكنائس التى كانت تبنى فى الماضى من الخشب ، ثم ظهر نظام الأبروشيات بعد فترة من الزمن . وأصبحت المجامع تعقد بانتظام ، وأخضع الرهبان والقسس على السواء لحكم رؤسائهم . ومنذ تلك اللحظة تحولت إنجلترة رويدا رويدا إلى إقليم موال لسيادة روما الروحية . وازدهر التعليم فى المدارس الكبرى ، واستجلبت موسيقى الكنيسة وزخارفها من وراء البحار رغبة فى زيادة فخامة وبهاء هكسهام وويرماوث . ونفذت الحماسة الدينية إلى قلوب الطبقة الحاكمة . فدخل الدير سيدات من الأسرة المالكة ،

وأخذ الملوك يظهرون اهتماماً شديداً بالمخلفات المقدسة أو يتشحون بأردية الحجاج ، وينطلقون ابتغاء قضاء أيامهم الأخيرة فى روما .

وافتتح ولفريد اليوركى سلسلة الحملات التبشيرية الأنجلوسكسونية بألمانيا والأراضى المنخفضة ، وهى سلسلة بلغت ذروتها بفضل اسم بونيفاس العظيم . ولن نفى النتائج السياسية التى ترتبت على عمل بونيفاس حقها من التقدير مهما بالغنا فى الإشادة بها . وكان مسرح معظم ما بذله من جهود إقليما يقع خارج حدود الإمبراطورية الرومانية ، وكان من المستحيل أن يعتنق سكانه غير المتحضرين المسيحية لولا مساندة شارل مارتل ، الذى كانت فتوحه بدورها تدين بالشىء الكثير لمعاونة بونيفاس وأتباعه . وفى (٧٣٢) أنعم البابا على بونيفاس بلقب كبير الأساقفة ، ونظمت كنيسة ألمانيا تحت زعامته بوصفه عضواً مخلصاً يدين بالولاء والطاعة لروما . وفى هذه الآونة تم إقناع الباڤاريين والألامان الذين سبق أن اعتنقوا المسيحية على أيدى رهبان من الإرلنديين ، بالاعتراف بالسيادة البابوية بفضل مساعدة الفرنجة وسلطانهم . على أن عمل بونيفاس لم ينته عند هذا الحد . فإنه أقبل بناء على دعوة من پيپين وأخيه على إصلاح كنيسة الفرنجة . فأزيل كثير من الأخطاء والعيوب ووضعت الأسس لعقد المجامع الكنسية بانتظام وإلزام الأساقفة بالاعتراف الصريح بسلطة البابا .

لقد أدخل بونيفاس المسيحية والحضارة إلى وسط ألمانيا ؛ فيسر بذلك تقدم شارل مارتل بتلك المنطقة ، كما مهد السبيل لما حدث فيما بعد من ضم شرلمان لتلك المنطقة إلى ملكه ، وبذا أسهم بونيفاس فى وضع أسس السيادة الكارولنجية . كما أنه أخضع لسلطان البابا الكنيستين الكبيرتين بفرنسا وألمانيا ، ووثق أواصر التحالف بين البابا وبين كبير الفرنجة ، ذلك التحالف الذى أصبح عاملا فاصلا يتحكم فى تاريخ أوربا الغربية . هذا وإن القوى السياسية

التى تمخض اندماجها عن قيام الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وأعنى بذلك بسط النفوذ البابوى ورسوخ دولة الـكارولنجيين ، إنما تدين للمسيحية الأنجلوسكسونية بدين لا يقل عما أسداه فيما بعد ، إحياء العلوم والفنون الذى وضع بذرته وطوره فى بلاط شرلمان تقاليد بسكوب البندكتى وبيده الجليل (Bede) ، التى شجعها ونماها ألـكوين وأتباعه .

٢ ـ توازن القوى فى إيطاليا

اللومبارديون

كانت ظروف اللومبارد داخل الإمبراطورية مختلفة تماماً عن الظروف التى صحبت دخول معظم الأجناس الجرمانية الأخرى . ذلك أن هذه الأجناس كانت تعد جندا محالفة (Foederati) — أى أنهم كانوا من الناحية النظرية مدافعين عن الدولة الرومانية — كما كانوا بصورة ما يؤلفون الشطر المقاتل والقوة الضاربة من السكان . أما اللومبارد فإنهم احتلوا الديار الإيطالية بوصفهم أعداء علنيين وفاتحين فعليين . ولم يكن يحق لملاك الأراضى الرومان أن يشتركوا فى ملـكية أملاكهم مع « الضيوف »[1] البرابرة . إذ جرت العادة على الإجمال بنفيهم منها وحرمانهم من كل شخصية قانونية ـ وذلك فى مراحل الغزو الأولى على الأقل . ومن ثم لم يكن هناك أى احتمال لقيام تنظيم مزدوج كالذى حدث فى مملـكة ثيودوريك[2] ، كما أن اللومبارد المنتصرين نزعوا فيما يبدو إلى الاحتفاظ بوحدتهم العنصرية وتقاليدهم سليمة مبرأة من كل شائبة ، والحيلولة دون تسرب الفـكرات والنظم الرومانية إليها .

على أنه قدر لطبعهم بالطابع الرومانى أن يتم فعلا ، ولـكن بوسائل أخرى ،

---

(١) انظر ص ١١٦ بعنوان الممالك الجرمانية الرومانية .

(٢) انظر ص ١٢٤ بعنوان إيطاليا فى عهد ثيودوريك .

حتى إذا وافى عهد تدخل الفرنجة ، كان اللومبارد وقد قضوا قرنين مستقرين بقطر متشبع بالمؤثرات الروحية والمادية لحضارة البحر المتوسط مدة تربو على الألف سنة ، ـ قد تعرضوا لتغيرات عظيمة فى طريقة عيشهم . فلم يعد اللومباردى يعد المدن المشيدة من الأحجار أماكن جديدة يجوز له نهبها . فإن تلك المدن أصبحت محلا لإقامة ملوك اللومبارديين أو نبلائهم ، ومراكز عسكرية وإدارية للمناطق التى تمد الطبقات الحاكمة بكل ماتحتاج إليه من وسائل العيش . فاتخذ عاهلهم مقر إقامته فى القصر (palatium) المشيد فى پاڤيا على الطراز الرومانى القوطى ؛ وقد بادر البرابرة إلى تقدير ألوان الترف فى عيشة الحضارة والرفاهية بسرعة أصبحوا معها لايستغنون مطلقا عن خدمات حشد كبير من الصناع والتجار الرومان ـ أمثال المهندسين المعماريين والبنائين وتجار الجواهر وصناع الدروع والسلاح ، والموردين لـكل ماتحتاجه حياة المدينة من مطالب . ويتجلى التغير فى أوضح صوره فى صفحات كتاب پول الشماس ، وهو لومباردى سطر تاريخ قومه فى أثناء النصف الثانى من القرن الثامن . ويستفاد مما كتبه أن ثياب أسلافه التى كانوا يرتدونها عند أول ظهورهم بإيطاليا ، قد أصبحت من عجائب التاريخ ، وأنه لم يعرفها إلا من صور المناظر فى قصة اللومبارد التى أمرت الملكة ثيودليندا حوالى (٦٠٠) للميلاد بتصويرها على جدران قصرها الذى شيدته فى مونزا . وهو يلاحظ أن الصور تمثل بوضوح[١] المظهر العام للومبارد فى ذلك الزمن ، وأزياءهم فى الثياب وقص الشعر . فقد كانوا يحلقون مؤخر الرأس تماما ، ولـكنهم يتركونه طويلا فى مقدم الرأس ، ويفرقونه فى الوسط فينهدل على الخدين . ويستطرد الـكاتب فيقول ، إنهم كانوا يلبسون ثيابا فضفاضة معظمها من الـكتان مثل ثياب الأنجلوسكسون ولهـا خطوط عريضة مختلفة

Paul. Diac. iv. 22 (١)

الألوان ، وقد انتعلوا أحذية طويلة الرقبة تكاد تكون مفتوحة حتى أطراف أصابع القدمين وتربط بشريط مستعرض. ثم شرعوا بعد ذلك يرتدون السراويل الضيقة ، ويجعلون عليها فى أثناء ركوبهم أغطية خشنة من الصوف ؛ غير أنه يضيف إلى ذلك أن هذه العادة قد نقلت عن الرومان .

ولم يقف أثر الرومان عند حد الأزياء الجديدة فى الثياب والأسلحة . فإنه على الرغم من أن قلة منهم كانت تستطيع التحدث باللاتينية عند دخولهم إلى شمال إيطاليا لأول مرة ، فإن تغير الأحوال واشتداد التعقيد فى الحياة اليومية كانت فى جانب اللسان الأكثر تمدنا ، ولم يلبث استخدام الألفاظ اللومباردية حتى أصبح يعد أمرا حوشيا مبتذلا فى نظر النبلاء . ثم أتم هذه العملية ما حدث من المصاهرة والاختلاط المستمر بين الفاتحين وبين سكان يفوقونهم عددا ، وكانت نتيجة ذلك أن الإيطالية ظلت إلى يومنا هذا أنقى لغات الرومانس . وينبغى لنا أيضاً ألا نغفل الأثر الثقافى للكنيسة بما كان لها من مراكز تعليمية مثل دير بوبيو القائم فى الأراضى اللومباردية ذاتها ـ هذا إلى أن العقود وغيرها من المستندات القانونية كانت تصاغ على الدوام فى صيغة رومانية ، ومع أن القانون اللومباردى كان جرمانيا ، فإنه لم ينج من تسرب الأفكار الرومانية إليه ، وتلقى استبداد الحاكم باعثا قويا كما حدث دائما فى حالة القبائل التيوتونية كلما اتصلت بالإمبراطورية وأساليبها ووسائلها ، وإن اختلف مركز الأدواق متقلبا بين منزلة الموظفين المرءوسين وصغار الملوك المستقلين فعلا تبعاً لما يبديه الملك من صلابة الخلق والقوة الشخصية . مثال ذلك أن دوقيتى بنيفنتو واسپوليتو زادتا فى تحررها بتقدم الزمن بالقرن الثامن ، غير أن دوقيات شمال إيطاليا أخذت على التدريج تزداد خضوعا للسلطة المركزية .

ومما له دلالته أن ملك اللومبارديين ظل يتخذ لنفسه لقب ملك الشعب

اللومباردى (Rex Gentis Lombardorum) . إذ إن قومه ظلوا مختلفين على الدوام فى وضعهم القانونى عن سكان إيطاليا الرومان ، ولا يغرب عن البال أن جميع وسائل الحضارة وأدواتها التى سبقت الإشارة إليها ، كانت إلى حد كبير فى أيدى التجار والفنانين والصناع الرومان . وفضلا عن ذلك فإن الملاحين الذين يعملون على صفحة نهر پو وصناع الدروع والزرد فى لوكاو كريمونا ومنتجى الفاكهة والخضر اللازمة لقصور نبلاء اللومبارد ، كانوا فى الأغلب الأعم من الرومان، كذلك بقايا نقابة الصناع المعروفة باسم (Maestri Comacini)، وهى تلك النقابة الغامضة التى عفى عليها النسيان المكونة من الفنانين ، الذين يرجح أنهم بقوا بعد اندثار نظام التعليم[١] الجامعى فى العصر المتأخر من الدولة الرومانية ، والذين كثيرا مايتردد اسمهم فى المناقشات التى تدور حول أصول الفن الإيطالى ومصادره . والواقع أنه لا يوجد أى شاهد حقيقى يصح أن يستند إليه فى ادعاء قيام طراز لومباردى خاص فى هذه الفترة ، سواء فى فن العمارة أو البواعث الزخرفية (Motifs) .

السياسة الإيطالية

إن تاريخ إيطاليا منذ (٦٠٠ إلى ٨٠٠) للميلاد يمكن تلخيصه فى أنه تاريخ نضال بين قوى خمسة لاتتفق أهدافها بعضها مع بعض . على أن دولتين من هذه القوى الخمسة هما مملكة اللومبارد والإمبراطورية البيزنطية فقدتا أثرهما الحاسم الفعال فى السياسة الإيطالية عند نهاية تلك الفترة . أما القوة الثالثة ، وهى دولة الفرنجة ، فلم يكن تدخلها إلا فجأة وعلى فترات ، ولكنها تلعب دورا قويا فى أثناء نصف القرن الأخير ، وهو دور بلغ ذروته بتألق نجم شرلمان . أما القوة الرابعة وهى البابوية فازدادت على الأيام نفوذا ، وهو

(١) انظر ص ٥٥ بعنوان اضطراب شئون الزراعة .

نفوذ حقيقى لاشك فيه على الرغم من استتاره وراء ماتراءت فيه البابوية من سمة العجز . فأما القوة الخامسة ، وهى دوقيتا بنفينتو واسپوليتو ـ فتمثل « الفرسين » على لوحة الشطرنج الإيطالية ،فعلى الرغم من ضآلة شأنهما فى حد ذاتهما ، فإنهما كانتاتقبضان على خطوط داخلية ، وغالبا ما كانتا العامل الفاصل فى مشاكل ضخمة بما تقومان به من حركات غير منتظرة وهجمات غير متوقعة[١] .

وكانت السياسة الثابتة لكل ملك لومباردى قوى هى إخضاع إيطاليا[٢] برمتها لسلطانه . ومن الجلى أن تقصى الملوك لهذا الهدف الذى تمليه عليهم الحاجة إلى مكافأة أتباعهم بإقطاعهم الأراضى بقدر ماتمليه عليهم الحاجة إلى سلامة الملك الشخصية والمحافظة على هيبته وكرامته ـ كان يلقى بطبيعة الحال مقاومة من القوى الأربعة الأخرى . بيد أن نواب الإمبراطور البيزنطى فى راڤنا ، لم يترددوا فى استخدام القوات اللومباردية لمناهضة البابوات المتمردين بينما استعانت البابوية أكثر من مرة بالملك اللومباردى ، لقمع مايصدر من بنفينتو واسپوليتو من حركات .

وكان الغرض الذى ترمى إليه بيزنطة الاحتفاظ بما فى قبضتها من المناطق البحرية بإيطاليا ، والإبقاء على موظفيها لوقف نمو قوة النبلاء من أصحاب الأراضى ، فضلا عن القضاء على قوة البابوية التى هى أكبر أرباب الأملاك جميعاً ، ثم يأتى أخيراً الحصول على الجزية المطلوبة للدفاع عن ممتلكاتها بالأقاليم الشرقية التى تتركز بها فى ذلك الأوان مصالحها الحقيقية ـ ولم يكن الإمبراطور يرى فى ازدياد نفوذ البابا إلا مصدر قلق وكدر له ، ومن ثم لم يكن ليرضى

---

(١) نسجل هنا أن هاتين الولايتين اللومبارديتين التابعتين لم تعملا متحدتين .

(٢) إن الذى يعبر عمليا عن تلك الفكرة هو الأسطورة التى تمثل أوثارى (٥٨٤) يركب منطلقا إلى غمار البحر فى الطرف الجنوبى الأقصى لإيطاليا ، ويلمس بحربته عمودا منفردا يبرز من بين الأمواج ، وهو يقول « ليكن هذا حد مملكة اللومبارد ! » .

بذلك النفوذ إلا بوصفه وسيلة لدعم وحدة الإمبراطورية سياسياً ودينياً .

أما الكرسى البابوى ، فلم يكن له من غرض فى تلك الأثناء ، إلا مجرد المحافظة على بقائه . وعلى الرغم من اختلاف صنوف السياسة التى اتبعتها البابوية فى سبيل ذلك ، فإن هدفها النهائى ظل ثابتاً لا يتغير . على أن الزمن ونمو الأمم الغربية كانا يعملان فى جانب البابوية . والراجح أن ذلك لم يكن واضحاً تماماً للمجلس البابوى ، ولكن الشيء الذى كان الجميع يشعرون به ، هو أنه مهما يكن الأمر ، فإنه لا ينبغى إذلال البابا والحط من قدره حتى يتساوى بأى أسقف لومباردى من جهة ، ولا بأى موظف بيزنطى من جهة أخرى ، ومن ثم اقتضت الحكمة الاعتراف بسيادة الإمبراطور حتى اللحظة الأخيرة ؛ ولكن الباباوات المعروفين ببعد النظر والذين استطاعوا الشخوص بأبصارهم إلى سهول فرنسا وراء ممرات الألب لا يمكن أن تخفى عليهم العواقب النهائية التى تترتب على ما قاموا به من تدبيرات خفية ودقيقة حيال بيزنطة .

وكانت مرامى اسپوليتو وبنيفنتو بسيطة ومباشرة : — وهى الاستقلال المحلى وتوسيع رقعتيهما على حساب جيرانهما ، على حين أن سياسة الفرنجة قبل الفتح ، كانت تحددها بواعث ثلاثة رئيسية ، الضعف الداخلى وصداقة اللومبارديين التقليدية التى تقضى بالامتناع عن التدخل فى شئون إيطاليا ، إلى أن تمكنت الخيوط الدقيقة للدبلوماسية البابوية من اجتذاب القوات الغازية إلى أبواب روما .

على أن هذه العناصر المتحاربة تصالحت فترة من الزمن بفضل مادار بينها من وفاق ومن إقامة توازن مقلقل مضطرب للقوى ، وهى النتائج التى ترتبت على المشاكل الداخلية أو وجود أمراء ضعاف . وقد قصر خلفاء جريجورى الكبير عما أوتى هو من شخصية قوية وبراعة تدبير ؛ كما أن أباطرة الرومان الذين خلفوا هرقل انصرفوا إلى الاهتمام بما تعرضت له الدولة من خطر

الإسلام ؛ واضطربت الأمور بمملكة اللومبارد بالمنازعات على وراثة العرش وتمرد الأتباع الإقطاعيين ، وذلك على حين أن فرنسا لم تبرح تمزق أحشاءها منازعات محافظى القصر (الحجاب) المتنافسين . على أن الفترة الحاسمة فى إيطاليا تقترن بظهور شخصيات قوية تتولى دفة الأمور : أمثال البابوات جريجورى الثانى (٧١٥ — ٧٣١) وجريجورى الثالث (٧٣١ — ٧٤١) وليو الإيسورى (٧١٧ — ٧٤١) وهو الإمبراطور الذى اشتهر بتحطيم الصور وليوتبراند (٧١٢ — ٧٤٤) أعظم ملوك اللومبارد . ولا شك أن التصادم المدوّى بين هذه الشخصيات التى تتمثل فيها السياسات المتطاحنة قد أضاء أرض إيطاليا الحافلة بالعواصف ، بوميض خاطف أظهر لنا ما دار هناك من تغيرات حقة .

وعند حوالى (٧٠٠) للميلاد تعرض مركز بيزنطة للدمار . فعلى الرغم من أن كبار الموظفين لم يزالوا فعلا خاضعين لسلطة الإمبراطور ، فإن السلطة الفعلية كانت بأيدى الأسرات التريبونية الإقطاعية ، التى لم تقتصر اختصاصاتها فى مناطقها على الناحية العسكرية فحسب ، بل تشمل كذلك الولاية القضائية وحق فرض الضرائب . ذلك أن تنظيما جديداً قد ظهر ، ولن تنشب فى إيطاليا ، كما كان يحدث فى الماضى ، ثورة يقوم بها أرخون (Exarch) (أى نائب إمبراطور) متمرد ، بل يقوم بها الموظفون المحليون ، الذين هم أشد خطراً منا لأرخون ، وظهرت فى (٦٩٢) دلائل تنبىء بالأحوال الجديدة ، عندما دعا الإمبراطور جستنيان الثانى ، وفقاً للسياسة الإمبراطورية التقليدية ، إلى عقد مجمع ترولو (أو المجلس التكميلى للمجمع المسكونى الخامس والسادس Quinisextum) رغبة فى تقنين قواعد ومعايير للعقيدة وتوحيد الممارسات الدينية فى الشرق والغرب على السواء . بيد أن البابا رفض الموافقة على قرارت ذلك المجمع ، فأرسلت بيزنطة موظفاً كبيراً يلقب

بالپروتوسپاثاريوس (Protospatharius) إلى روما ، ومعه تعليمات بإلقاء القبض على البابا المتمرد . ولكن ولت منذ زمن بعيد الأيام التى استطاع فيها جستنيان الأول[1] إنزال الإذلال والمهانة بالبابا فيجيليوس . فإن جند الحرس الوطنى الإيطالى (المليشيا) تقاطروا إلى روما ، ولم يفلت البروتوسپاثاريوس من عواقب غضبهم إلا بالتوارى عن أنظارهم تحت سرير البابا .

وتجددت الأزمة بعد ذلك بخمس وعشرين سنة ، يوم تجرأ الإمبراطور ليو على فرض ضرائب جديدة على الغرب بعد أن نجح فى الدفاع عن بيزنطة فى الحصار الشهير الذى ضرب عليها فى (٧١٧ — ٧١٨) ـ فاندلعت الثورة فى إيطاليا وزحف الأرخون على روما متحالفاً مع ليوتبراند ملك اللومبارد ـ وهو اتحاد طريف فى بابه ـ فاستصرخت روما لمساعدتها دوقيتى اسپوليتو وبنيڤنتو . وامتزج الكفاح السياسى والاقتصادى بشىء من الشعور الدينى المتأجج عندما أعلن الإمبراطور ليو فى (٧٢٥) سياسة التحطيم أى مناهضة عبادة الصور المقدسة[2] — فالعقيدة والاعتقاديات (Dogma) لم تكن عند الإيطاليين إلا شيئاً عسيراً يعز على الأفهام ، ولكن الصور كانت تشكل عنصراً حيوياً فى الإخلاص للعقيدة والتعلق بها ، ولذا لم يفت البابا أن يتخذ من النزاع على عبادةالصور سلاحاً قوياً يشهره فى وجه الإمبراطور ، ولم يلبث البابا أن صورليو فى صورة المسيح الدجال نفسه . ويقول أحد المعاصرين إن البابا جريجورى الثانى : «سلح نفسه كأنما يتأهب لمنازلة عدو» ، وأخذ يخاطب الإمبراطور بلغة لم يسبقه إلى استخدامها أحد من رعاياه ـ على أن الثورةالإيطالية أخمدت فى النهاية ، بعد أن لقى أحد نواب الإمبراطور مصرعه ، وبعد أن أنفذ أرخون آخر من بيزنطة لإعادة الأمن إلى نصابه .

---

(١) انظر ص ٢٠١ بعنوان البعثات التبشيرية والدبلوماسية البيزنطية .

(٢) انظر الفصل التاسع بعنوان النزاع حول تحطيم الصور .

تدخـــل الفرنجة

وهنا بدأت مرحلة أخرى جديدة فى انفصال الشرق عن الغرب . فقد قرر الإمبراطور سلخ أبروشيات صقلية وجنوب إيطاليا فضلا عن أبروشيات الساحل الأدرياتى الشرقى من أسقف روما وضمها إلى بطريرك القسطنطينية . وحددت هذه الخطوة الخطيرة تاريخ جنوب إيطاليا فى العصور الوسطى ، إذ زاد اصطباغ ذلك الإقليم فى أثناء القرون التالية بالثقافة والميول الهللينية (اليونانية) ، بل حتى بالسكان اليونانيين ، وكان ذلك نتيجة لتدفق اللاجئين الأرثوذكس بشدة على تلك المناطق فى أثناء منازعات حركة تحطيم الأيقونات . وفى الوقت ذاته ، أضعفت هذه الخطوة نفوذ البابا ، فيما يتعلق بممتلكاته داخل الإمبراطورية ، حتى أصبح لا يتجاوز أسقفاً إقليميا ، يتولى أمر لوائى[1] تخوم (Themes) هما رافنا وروما (وقد تم عند ذاك فصلهما ووضع نظام مستقل لكل منهما على حدة) .

على أن ارتباط البابا بالإمبراطور ، كان شيئاً لابد منه للمحافظة على الوجود المستقل للبابا . وقد رفض شارل مارتل الدعوة التى وجهت إليه للاشتراك فى السياسة الإيطالية ، ولم يكن فى الإمكان ترك مملكة اللومبارد التى بلغت ذروة قوتها فى عهد ليوتبراند ، دون إيجاد قوة توازنها . ولذا فإن البابا تدخل للمرة الثانية لمصلحة سيده الإمبراطور ، وأنقذت رافنا مركز الإدارة البيزنطية بشمال إيطاليا بعد أن أوشكت القوات اللومباردية على الاستيلاء عليها .

وشبت اضطرابات داخلية بعد وفاة ليوتبراند ، حتى إذا ذهبت راتشيز خلفه الورع ، وحل محله فى العرش آيستولف ، صارت هناك دولة مركزية قوية تواصل تحقيق غرضها التقليدى من إخضاع إيطاليا كلها . وجاءت فى أعقاب ذلك تطورات سريعة . ففى (٧٥١) وهى السنة التى اتخذ فيها پيپين

---

(١) ألوية التخوم هى المناطق العسكرية القائمة على الثغور أى الحدود . (المترجم)

لنفسه التاج تلبية لاقتراح البابا ، سقطت رافنا أمام هجوم اللومبارد ، فقضى نهائياً على الحكم البيزنطى بتلك الولاية (الأرخونية) . وأخذ آيستولف يحشد فى السنة التالية كل موارده تمهيداً للهجوم على روما . وفى (٧٥٣) عبر البابا ستيفن جبال الألب ليلتمس المساعدة من ملك الفرنجة ، ولم تنقض سبعة أشهر حتى أعلن پيپين الحرب على المملكة اللومباردية ، وقام بغزو إيطاليا . وحلت الهزيمة والتشتت بجيش آيستولف فى معركة سوسا ، فاعتصم وراء أسوار پاڤيا . وفرض پيپين الملك المظفر على أعدائه المقهورين رد رافنا والممتلكات البابوية إلى حالتهما الأولى ، ولم يكد يعود إلى بلاده ، حتى استدعى على عجل وإلحاح فى (٧٥٦) ليواجه تجدد العدوان . وللمرة الثانية تعرضت پاڤيا للحصار ، واعترف العدو المقهور فى مقابل حصوله على السلام بپيپين سيداً أعلى للمملكة اللومباردية على حين تقرر تسليم « الأرخونية » إلى يد القديس بطرس وخلفائه الجالسين على كرسى روما البابوى .

وتوفى آيستولف فى تلك السنة عينها ، تاركا الموقف فى إيطاليا على حاله من الناحية الرسمية . وتقبل الجميع بالرضا سيادة پيپين على ممتلكات آيستولف على الرغم من أنه لم يفتحها حتى ذلك الحين فتحاً إقليمياً . وبذلك صار البابا صاحب السلطة العليا لا فى روما فحسب ، بل فى الأرخونية أيضاً ، ومع ذلك فإن الإقليمين كليهما لم يزالا يعتبران من الناحية الاسمية شطراً من الإمبراطورية على أن تدخل الفرنجة ظل مع ذلك سنداً غير مضمون ؛ وفى تلك الأثناء كان يبدو محتملا أن ينبعث الخطر اللومباردى من جديد .

وارتقى دسيدريوس العرش بعد آيستولف ، وتضاعفت مخاوف البابا عندما تزوج شارل بن پيپين من ابنة ملك اللومبارد . ولم تنقض بضع سنوات على وفاة پيپين فى (٧٦٨) حتى لاح فى الأفق بوادر قيام كتلة فرنجية مؤلفة من الفرنجة والباڤاريين واللومبارديين ، تخضع لنفوذ الملكة الأرملة برترادا .

ولكن الموقف تغير فجأة عندما انفصل شارل عن زوجته اللومباردية فى (٧٧٢) وبعد ذلك بسنتين أغار شارل على إيطاليا بدعوة من البابا هادريان . واستسلمت پاڤيا بعد حصار طويل ، وحمل دسيديريوس وأسرته أسرى ، وزالت من الوجود مملكة اللومبارد المستقلة عند نهاية (٧٧٤) .

منحة قسطنطين

هذه — بأوجز عبارة — هى الحقائق المتعلقة بتدخل الفرنجة فى إيطاليا . وتتوارى خلف تلك الحقائق صورة معتمة غير واضحة المعالم تتألف من دبلوماسية ملتوية ومطامع شخصية وتفاعل حضارتين : الحضارة الرومانية بمالها من تاريخ طويل من الفكرات التشريعية والدستورية ، وبما استقر فى لغتها من أثر قرون مديدة من الحكم المستقر والخصائص الفلسفية المميزة والحضارة الجرمانية بما تنطوى عليه من الولاء الشخصى وبما لها من ذكريات قبلية وقصور فى فهم المصطلحات التجريدية . ومن المحال علينا فى عالم عجيب كهذا زاخر بالأساطير والخزعبلات وبالصيغ الإمبراطورية العتيقة نصف المفهومة ، أن نؤلف صورة متكاملة من الجذاذات البتراء التى نتلقفها من أفواه السذج من كتاب تراجم البابوات ومن التواريخ التى كتبها الرهبان الأدميون ، لتكون بياناً مقنعاً عن العملية الطويلة الأمد ، التى فصم بها أساقفة روما علاقتهم بالإمبراطورية الرومانية القديمة ووضعوا بها أنفسهم تحت حماية قوة الغرب الناهضة المسيطرة . ولاشك أن كل رمز يقع لنا يمكن إثارة مالا حد له من المجادلات حول أهميته . فماذا كانت طبيعة ذلك « الديكيو Dieio » أى حق السيادة والسلطة التى ادعى البابوات أنهم يمارسونها بالنيابة عن الإمبراطور على الأراضى الإيطالية ؟ وماذا كان آخر مدى « ممتلكات القديس بطرس » وحدود إمارته التى تحولت البابوية بسبب امتلاكها لها حوالى ذلك الوقت

إلى سلطة زمنية ؟ أو ما المقصود بمنحتى پيبين وشرلمان وهباتهما المتتالية ؟

لقد كانت كل حركة تصدر، ترتفع إلى منزلة الأهمية الدستورية ، كما أن ما دار من الجدال فى العصور الوسطى بعد ذلك حول علاقة الإمبراطورية بالبابوية ، كان الأصل فيه إرسال راية وبعض المفاتيح إلى ملك الفرنجة ، أو الإنعام بلقب « البطريقى Patrieian » أو الإمساك بعنان فرس . وكانت الصور والأساطير تتخذ قوة الوثائق . ويبدو أن القصة الشهيرة التى حدثت بين الإمبراطور قسطنطين والبابا سلفستر[1] ، التى ظلت طوال العصور الوسطى تؤلف مظهراً أساسياً من مظاهر الجدل والدفاع عن مدعيات البابا ، قد ظهرت بأوضح صورة فى تلك الفترة ، وربما جاز اعتبارها عملية تبرير أكثر منها تزييفاً مقصودا ، أو عدها ترجمة نقلت مصطلح الفكر الجارى أو مصطلح التقوى السائدة وعبرت عن علاقة البابا السياسية بالإمبراطور ببيزنطة . وتؤكد القصة أن قسطنطين الأكبر لم يتنازل فقط عن قصر اللاتيران الخاص به للبابا ، ولم يعطه فحسب حق السيادة أى الديكيو على الغرب ؛ بل وهبه كذلك التاج والأرجوان ، تمشياً مع وظيفته المقبلة ، على حين أن رجال الإكليروس التابعين له الذين صار لزاماً عليهم منذ تلك اللحظة أن يحلوا محل مجلس السناتو بروما ، مثلما احتل أتباعه من الأساقفة مناصب حكام الأقاليم ، — قد أصبح من حقهم استخدام زخارف الخيول البيضاء واتخاذ أحذية رجال السناتو التى يشتهونها . وبهذه الصورة العجيبة المحرفة للتاريخ تنعكس لدى القارئ بوضوح تام هيئة الأحوال والمنازعات المعاصرة ، ويشهد المنافسة الدائرة بين المجلس البابوى والموظفين البيزنطيين فى إيطاليا ، والتنازع حول صحة الهبات الفرنجية ومشكلة مدعيات اللومبارد فى امتلاك الأقاليم المغزوة .

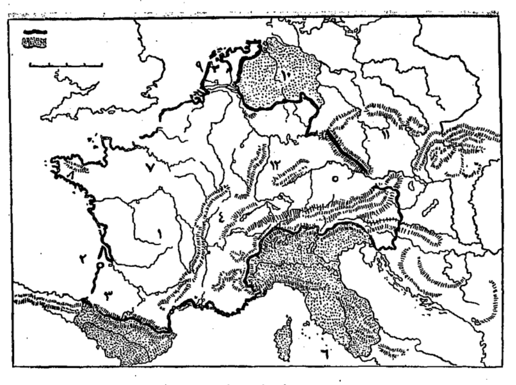
(١) انظر الفصل الثانى عشر بعنوان الفنون والآداب والخرافات .

على أن أهم ماله دلالته هنا إنما هو بقاء فكرة الإمبراطورية حية بوصفها المادة الأساسية التى تشكل عليها رؤى عالم الأحلام ذاك من حيث قيام دولة دينية (ثيوقراطية) بروما . إذ إن إيطاليا ظلت أكثر من خمسة وعشرين عاماً تعد أباطرة حركة تحطيم الصور لاجباة ضرائب وظلمة فقط ، بل تعتبرهم كذلك دعاة انفصال غير أتقياء . وعلى الرغم من ذلك لا نعثر فى أى مكان على لسان يعبر — ولو همساً — عن إمكان قيام وجود مستقل للبابوية خارج ممتلكات الإمبراطور . وليس هناك ماهو أوضح من هذا دليلا على أن عقل القرن الثامن لم يزل يعتبر إمبراطورية روما العالمية التى يرأسها الإمبراطور فى القسطنطينية ، هى الصورة السائغة عقلا والأنموذج الوحيد المقبول عن النظام الأرضى فى هذه الدنيا . وروما هى المركز العريق للإمبراطورية . وهى من وجهة نظر الرومان المركز الأوحد الحقيقى للإمبراطورية . ولن يتيسر لإنسان أن يبرر نظريا تتويج إمبراطور غربى ، إلا بنقل ثورة التركيز من شخص الإمبراطور إلى مركز الإمبراطورية العتيق « روما » ذاتها ؛ ولا يخفى أن مبرر الوجود (Raison d'etre) لإمبراطور غربى من وجهة النظر البابوية كان حماية مصالح الكنيسة بالسلاح فى غرب أوربا ، وكان فوق كل شىء ، حماية العاصمة العريقة عاصمة أوغسطس وقسطنطين ، الكرسى المقدس والمسكونى للقديس بطرس وخلفائه .

البابا والكارولنجيون

وعلى الرغم من أنه بدت فى الأفق مقدمات مبهمة أنذرت بمثل هذه الإمكانات ، فإن الموقف المباشر ظل غامضاً . والواقع أن السنوات الثلاثين التالية شهدت هبوطاً مطرداً فى آمال البابوية التى اشتد ارتفاعها عند سقوط مملكة اللومبارديين . لقد انقلب ميزان القوى فى إيطاليا ، فإن بيبين عبر

جبال الألب بحملتين صليبيتين ليفوز بالخلاص جزاء له على استجابته للاستغاثة البطرسية (Petrine) . أما شارل فإنه استقر بالأراضى الإيطالية وصار سيداً أعلى ثابتاً وكبيراً علمانياً للبلاد . وكان لكفاح اسپوليتو وبنفنتو ومحاولاتهما فى سبيل الاستقلال فضل عظيم فى رفع شأنهما كحليفين للبابا لهما قيمة عظيمة وإن لم تكن محققة . ولكن هاتين الولايتين أصبحتا آنذاك تابعتين إقطاعيتين لأمير الفرنجة ، ولم تعد معاندتهما تعود على البابا بأية مصلحة . ومنذ تلك اللحظة أصبح واضحاً أنه لو اختلف البابا والكارولنجيون ، فلن يجد البابا مدافعاً يستطيع أن يشخص إليه التماساً للعون . ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فكلما تم لشارل فتح جديد رائع ، ازدادت رقعة إمبراطوريته اتساعاً ، وتضاءلت أبعاد مملكة البابا وقلت أهميتها . ثم إن توحيد أوربا الغربية بزعامة سيد واحد ، أبرز العلاقات الدولية وجعل لها أهمية كبيرة ، وصار لزاماً أن تخضع مدعيات البابا فى استيريا وجنوب إيطاليا للعلاقات الدبلوماسية المتبادلة بين آخن وبيزنطة ، وقد جأر البابا بأمر أنواع الشكوى من تمرد كبير أساقفة رافنا واعتداءات دوق اسپوليتو ، ولكن شكواه ذهبت أدراج الرياح يوم كان شارل يقوم بحملاته على التخوم السكسونية . والواقع أن البابا كان يتعين عليه بوصفه زعيما لعالم المسيحية فى الغرب القيام بدور أقرب إلى السلبية من دور نصير العقيدة المسلح ، ولكنه انطلق وقد نقشت على عملته عبارة الديانة المسيحية (Christiana Religio) ، وأضفيت القداسة على أسلحته وبفضل صلوات الكنيسة ودعواتها — انطلق ليبيد الوثنيين فى وسط ألمانيا ويقيم أسقفيات جديدة وراء حدود باڤاريا . وتردد صدى الإشاعات فى الخارج بأراضى الشمال نفسها ، حيث تولى إذاعتها أوفا ملك مرسيا ، بأن شارل عزم على خلع البابا وإحلال أحد رجال الكنيسة من الفرنجة محله . ذلك أن عالم العقيدة نفسه لم يسلم من عبث الأوتوقراطية المستبدة الجديدة فى



(١٦) خريطة إمبراطورية شرلمان

١ - أكيتانيا ٢ - بوردو ٣ - فاسكونيا

٤ - برجنديا ٥ - بافاريا ٦ - روما

٧ - نوستريا ٨ - بريتانى ٩ - فريزيا

١٠ - سكسونيا ١١ - الصقالبة ١٢ - الألامان

الغرب . إذ حدث فى مجمع (سينودس) فرانكفورت الذى دعاه شارل إلى الاجتماع ، رداً على مجمع نيقية الذى انعقد حديثاً فى الشرق ، أن ارتفع صوت لاهوت الفرنجة الفتى وأعلن بنبرات حادة مليئة بالثقة تنديده بكل من حركة تحطيم الصور ومذهب عبادتها بدرجة سواء ، ودمغه للإمبراطور والإمبراطورة بسبّة الهرطقة ، بل حتى اتهام اليونانيين بالافتقار إلى الروح العقلية الناقدة فيما يتعلق بأسطورة سلفستر . على أن البابا الذى وافق على قرارات مجمع نيقية ، لم يستطع أن يقوم بأى احتجاج ذى أثر . بل الحق أنه كان مستعداً لإعلان كفر الإمبراطور الأرثوذكسى إذ أراد شارل ، وذلك فيما لو أصر الإمبراطور على الاستمساك بالأبروشيات اليونانية وإمارات جنوب إيطاليا التى كان البابا يدعى ملكيتها . بيد أن إخضاع الشئون المذهبية للمصالح الدنيوية لدويلة البابا ، ليس أقل أهمية من خضوع البابا واستكانته إزاء أهداف شارل التى انقلبت مؤقتاً على بيزنطة . إذ لم يحدث قط منذ أيام جستنيان أن انحدرت البابوية إلى مثل هذا الدرك الخفيض . ومن العجيب أن سلطة الحبر الأعظم فى روما ذاتها لم تسلم من التحديات . فإن الانتخابات البابوية كان يصحبها على الدوام القتال الذى يدور فى الشوارع عنيفاً عارماً ، ويوجه من داخل القصور المحصنة ، وهو أمر يعتبر ظاهرة مألوفة فى المدن الإيطالية فى أثناء القرون الوسطى ، وكثيراً ما كانت المنافسات بين النبلاء الإقطاعيين وموظفى الكنيسة تجد فرصتها التى تتشفى بها فيما ينشب من المنازعات الدموية بين البابا الشرعى والبابا الخصم .

الفصل الرابع عشر

شرلمان

حدث فى يوم عيد الميلاد من عام (٨٠٠) أنه بينما شرلمان ينهض فى أثناء إقامة القداس ، من ركوعه على ركبته أمام قبر القديس بطرس بروما ، أن وضع البابا على رأسه تاجاً وحياه أهل روما بصيحات مدوية قائلين : « إلى شارل أوغسطس الذى توجه الله ، إمبراطور الرومان العظيم المحب للسلام ، نتمنى النصر والعمر الطويل » . لقد أشعل هذا المنظر خيال المؤرخين ناراً متأججة . فهناك فى الباسيليكة العتيقة التى تتـــلألأ بأنوار الشموع والحلل الـكهنوتية المرصعة بالجوهر ، وقف محارب أوربا الأول ، قاهر العرب والآفار والسكسون ، الذى تمتد مملـكته من البلطيق إلى شاطىء الأدرياتى ، وتترامى من شمال أسبانيا إلى الدانوب الأوسط ، يفرض وصايته الدفاعية على المسيحية الغربية ، بقبوله ذلك التقليد الجليل المأثور عن روما الإمبراطورية ، كما أنه « باتحاد الرومان والتيوتون واندماج ذكريات الجنوب وحضارته مع طاقة الشمال الفتية . . . يبدأ التاريخ الحديث »[1] .

ولا شك فى أن تلك الساعة كانت من أروع اللحظات فى تاريخ البابوية، لا يضارعها من حيث تأثيرها الدرامى سوى ذلك المنظر الآخر الذى حدث ذات شتاء فى يوم عاصف تساقط فيه الجليد بفناء قصر كانوسا[2] ، حيث

---

(١) انظر ج . برايس فى (The Holy Roman Empire) ص ٤٩ (ط ٨ — لندن ١٨٩٢) .

(٢) يشير الـكاتب إلى ماحدث للإمبراطور هنرى الرابع بقلعة كانوسا بالقرب من ريجيو اميليا بإيطاليا ، حيث وقف يطلب الغفران من البابا جريجورى السابع فى ١٠٨٧ على معارضته فى مسألة التعيينات . (المترجم)

وقف إمبراطور ذليل ينتظر ثلاثة أيام ليحصل على غفران البابا . ولـكن أهمية ذلك النصر كشأن أهمية انتصار هلد براند كانت عميقة متغلغلة . فلم يكن الاحتفال الذى أقيم بكنيسة القديس بطرس حلا دستوريا للمشكلات التى تـكمن بطبيعتها فى علاقات شارل بالبابوية . إذ إنه لم يغير من الموقف الفعلى شيئاً ، ولم يسو أية مشكلة من مشكلات المستقبل[1] . ومع ذلك فإنه على حد قول برايس : ـ بداية عصر جديد ، من حيث إنه حدد خطوط ما نشب بين البابوية والإمبراطورية من نزاع لانهاية له ، وهو النزاع الذى تتألف منه خلفية السياسة الأوربية فى العصور الوسطى .

ومنذ أيام ثيودوسيوس ، يوم أصبحت المسيحية الدين الرسمى للإمبراطورية الرومانية ، لم يتم التوصل إلى صلح دائم يوفق بين مدعيات الـكنيسة والدولة . ولم يكن فى الإمكان الوصول إلى حالة الاستقرار إلا بخضوع إحداها للأخرى خضوعاً تاماً . ومما زاد الأمر تفاقماً فى ذلك الحين صعوبة تحديد مصالح الطرفين يوم أصبح نفوذ الـكنيسة الزمنى (الدنيوى) أشـد تنظيما منه فى أى يوم سابق . وتتمثل مدعيات البابوية بأوضح صورها فى خرافة منحة قسطنطين . أما وضع شرلمـان فيمكن أن تعبر عنه كلمات ألـكوين حيث قال : « أيها الملك ... إنى لأدعو الله أن يخضع لعدلك حاكم الـكنيسة ، وأن تحكمك اليد اليمنى للقوى القاهر » . وإن جستنيان نفسه يصح أن يقر هذه العبارة ، وذلك مع التجاوز عما تتجه إليه من الازدواج بين الـكنيسة والدولة . ومن ثم فلن يستطيع حل هذه المشكلة وإيقاف النزاع بين الإمبراطوريتين الروحية والزمنية إلا حلا وسطاً يوفق بينهما مؤقتاً أو سيادة أحد الطرفين على الآخر سيادة جارفة

---

(١) عن الآراء الحديثة المتعلقة بتتويج شرلمان ، انظر ك . هلدمان فى (Das Kaiser-tum Karls des Grossen) (ويمار ١٩٢٨) .

قاهرة . وطالما كان شرلمان على قيد الحياة ، لم يكن أحد ليجرؤ على وضع سيادته موضع نزاع أو جدال ، ولم يستطع أحد من الكتاب أمثال چوناس أسقف أورليان وهنكمار رئيس أساقفة ريمس ، أن يجرؤ على تأييد النظريات التى تجعل لسلطة البابا السيادة على سلطة الإمبراطور (auctoritas sacra pomtificum) ، إلا حينما أخذ الانحلال يدب فى إمبراطوريته فى ظل الحكم الضعيف لابنه وأحفاده . وراحت القرون المتعاقبة بما اجتمع لها من موفور السوابق ، تصوغ بإحكام وتفصيل مسألة العلاقة بين الكنيسة والدولة . وقد لفقت هذه المسألة فى أثواب فلسفة عامة ، استوحيت مما دار بين الفقهاء ، وعلماء اللاهوت من كتابات متنازعة متضاربة ، وكانت القالب الذى صيغت فيه أعظم قصيدة أنشدت فى العصور الوسطى ، ومع ذلك فعلى الرغم من أن أشد البابوات والأباطرة نزوعا إلى السياسة ، ربما ترددوا فى مواصلة الفكرة حتى نهايتها المنطقية ، فإن الصراع بين السلطتين الاستبداديتين لم يكن يحله عمليا إلا الدفع بقوة « الأمر الواقع والظرف القاهر Jorçe maeure

ومع ذلك فإن تلك المتناقضات لم تتم صياغتها حتى وقتذاك بوضوح تام ، حتى ليخالجنا الشك فى أن شرلمان قد تدبر تماما فى المشكلة الدستورية من حيث علاقتها ببيزنطة . إذ كان فى الغرب جماعة زعمت أن العرش الإمبراطورى يعتبر شاغرا ، وذلك نظرا لأن إيرين سملت عينى ولدها الإمبراطور وزجت به فى السجن ، وبذلك انفردت بالحكم امرأة تولت عرش القياصرة . غير أن مفاوضات شرلمان مع بيزنطة التى طال أمرها وانتهت آخر الأمر بالاعتراف به إمبراطورا « باسيليوس » فى (٨١٢) مقابل تنازله عن فتوحه فى دالماتيا ، تدل أنه لم يكن يشارك فى هذا الرأى . ولا شك أن الفكرة التى ظلت قائمة هى

أن هناك إمبراطورية رومانية (Imperium Romanum) واحدة يحكمها فى الشرق والغرب إمبراطوران متعادلان ، بيد أن أحوال أوربا المتغيرة قطعت كل علاقة بينها وبين الحقائق القائمة . ذلك أن الفروق والاختلافات بين الشقين فى القانون والإدارة وفى الدين والثقافة واللغة وفى المصالح الاقتصادية قد فصلت بين الشقين الشرقى والغربى ، اللذين افترقا حتى فى ذلك الحين نفسه افتراقا جغرافيا ، بما اندس بينهما فى شبه جزيرة البلقان من ممالك صقلبية . والواقع العملى أن العلاقات بين الإمبراطورية الغربية (التى يمكن منذ ذلك الحين إطلاق ذلك الاسم عليها) وبين شقيقتها البيزنطية كانت أشبه تماما بالعلاقات بين دولتين أجنبيتين ، لاتحفلان إلا بالحرص على المحافظة على حدودهما والتسوية السلمية لما بينهما من منازعات ، وإن لم تعد تجمعهما بعد نظرة مشتركة إلى المتبربرين .

ولا شك أن المركز السامى الذى بلغه شرلمان فى أوربا الغربية والذى أضفيت عليه الصفة الرسمية بعد تتويجه إمبراطورا فى (٨٠٠) ، لم يتهيأ له إلا بفضل نشاطه المدهش الدائب فى إدارة الحكم داخليا فضلا عن الفتوح الخارجية . فقد تمت فى حكمه الطويل الذى امتد ستا وأربعين سنة مالا يقل عن ستين حملة حربية ، قاد الملك الفرنجى نصفها بنفسه . ففى كل عام ، وبعد عقد الاجتماع السنوى للجمعية العامة فى ميدان مايو ، كان المجندون الوافدون من أقرب المناطق إلى التخوم المتنازع عليها ، يقادون على بلاد العدو فى حملات عاتية مجردة من كل رحمة . فما قرره ألكوين ببساطة تامة فى إحدى المناسبات قوله : « خرج الملك بجيشه لينزل الخراب بسكسونيا » .

على أن عددا كثيرا من هذه الحملات قد أجرى دفاعا عن الحدود ، فإن فتح پيپين لمقاطعة أكيتانيا دعا شرلمان فيما بعد إلى عبور البرانس لتأسيس « ولاية ثغور » أسبانية ، كما أن تحويل باڤاريا من دوقية شبه مستقلة إلى جزء حقيقى من الإمبراطورية اقتضى تدمير مملكة الآڤار الواقعة على نهر الثيس

والتى تنزع دائما إلى العدوان . على أن أعظم فتوح شرلمـان قاطبة وهو فتح وسط ألمانيا وشمالها ، وإن كان الأصل فيه الانتقام من السكسون بسبب غاراتهم على أديرة منطقة الراين ، إلا أنه تجاوز كثيرا هدفه الأول . ولم ينته عهد شرلمان حتى كانت حدود الإمبراطورية قد زحفت من نهر الراين إلى نهر الإلب ، وبذلك تكون المنطقة المترامية الواقعة بين النهرين قد ضمت إلى الإمبراطورية فى أيامه ، كما اتخذ التنظيم الإدارى والكنسى بألمانيا صورته فى العصور الوسطى .

على أن السجلات المعاصرة لاتلقى الشىء الكثير من الضوء على الناحية العسكرية من هذه المنجزات الباهرة ، وذلك لأن تلك السجلات كثيرا ماتتسم بسمة البلاغات الرسمية . وكانت البلاد مليئة بالعوائق الطبيعية الكئود ، إذ كانت مناطق مترامية منها مكسوة بالغابات أو المستنقعات . وكانت ممتلكات السكسون تبدأ على مسافة بضعة فراسخ من الشاطىء الأيمن لنهر الراين ، وتمتد إلى نهر الإلب عبر سهول وسط ألمانيا المكسوة بالغابات ، وهى المنطقة التى نزلها على التعاقب الوستفاليون والأنجراريون والإيستيفاليون . وإلى الشمال الذى هو أعسر مدخلا بكثير ، كانت تمتد منطقة المستنقعات الساحلية الموجودة بين مصبى الويزر والإلب ، ويقوم وراءها عند قاعدة شبه الجزيرة الدانمركية ، موطن النورد البنجيين (Nordalbingians) آخر المدافعين عن استقلال السكسون . ومع أن الحملات التأديبية كانت تجرد فى كل صيف تقريبا بين عامى (٧٧٢و٧٨٠) وهى السنة التى بلغت فيها الفتوح نهر الإلب ، فإنه يبدو أن أحدا لم يفكر قط فى القيام بحملات فتح منظم حتى ذلك الحين ، باستثناء ما كان من إقامة حكومة أطراف بمنطقة الرور ، تدعمها مجموعة مثلثة من الحصون المشيدة فى هرزبرج وزيبرج وكارلزبرج . ومع ذلك فإن تعاون المبشرين الذى شهدناه قائماً فى فترة التحالف بين بونيفاس وشارل مارتل[1] ، قد تواصل ،

(١) انظر الفصل ١٣ بعنوان روما والكنيسة الكلتية .

كما يبدو أن الجمع بين هجمات الإرهابيين والدعاية للمسيحية كان من سياسة شرلمان التقليدية الثابتة التى اتخذها لبث التعليم والثقافة فى سكسونيا . وهى سياسة غير رشيدة ، لم تلبث عواقبها السيئة حتى ظهرت وشيكا . إذ كان العصيان السرى ينتشر فى الغابات الجرمانية . إذ ظهر بوستفاليا زعيم اسمه ويدوكند، وانضم إليه الأنصار فى جميع النواحى الأخرى . وكانت نتيجة ذلك أن كانت الأديرة تحرق ويضطر القساوسة إلى الفرار ، كما أن قوة فرنجية ضخمة كانت تزحف نحو الشرق على الصقالبة ، مزقت على نهر الويزر وتشتت شملها . وعندئذ صمم شرلمان أن يفتح تلك المناطق فتحا فعليا . وهنا لجأ ويدوكند إلى الدانمركيين ، وأعمل الفرنجة الذبح فى ٤٥٠٠ من الأسرى السكسون عند فردان بدون أدنى مبالاة . على أن حملات الصيف العنيفة مالبثت أن أخضعت إيستفاليا خضوعا ظاهريا ، واضطر شرلمان فى (٧٨٤) أن يقضى الشتاء كله فى ألمانيا استعدادا للحملة النهائية . وعند نهاية (٧٨٥) تم إخضاع سكسونيا بأكملها ، فيما عدا منطقة المستنقعات الساحلية فى الشمال والمنطقة الواقعة من وراء الإلب .

على أن النصر لم يكن تاما مؤزرا على الصورة التى تحدثت بها رسائل شرلمان المزهوة إلى البابا . ولا كانت التدابير اتخذت من النوع الذى يتمخض عن توطيد المكاسب وشد أواصرها . ومن ثم فإن مرسوم إعلان تسليم السكسون (Saxon Capitulary) الذى يرجح صدوره غداة الفتح ، يمكن اعتباره دراسة شائقة فى الإكراه والقهر . إذ قسمت البلاد بمقتضاه إلى مناطق يحكمها كونتات ، من حقهم وحدهم بالإضافة إلى مندوبى الملك (Missi) ، توجيه الدعوة لعقد جمعية عمومية . على أن الكنيسة كانت الأداة القوية التى يستخدمها طغيان الفرنجة . إذ يختتم المرسوم بالعبارة التالية : « على القسس أن يراعوا

ألا تعصى هذه الأوامر » . ومعنى هذا أن جرة قلم واحدة كانت فى نظرهم كفيلة بإزالة الوثنية ، وقادرة على إجراء تغيير شامل فى أسلوب الحياة السكسونية بأكملها من المهد إلى اللحد . إذ إن الامتناع عن قبول التنصير كان جزاؤه الموت . وكان أكل اللحم فى أثناء الصيام الكبير يستوجب العقوبة عينها . كما فرضت الغرامات الفادحة على كل من لم يعمد ابنه قبل نهاية السنة ، على حين صار إحراق الجثث الجنائزى على ماجرت به عادة السكسون والنورسيين يعتبر من الكبائر العظمى . ومما يشهد بما تنطوى عليه ديانة السكسون من طبيعة بدائية وتوحش ، ما صدر من أوامر تحرم ممارسة شعائر من أمثال أكل لحوم البشر وتقديم الأضاحى البشرية وتفرض عقوبة الإعدام على مخالفة هذه الأوامر . ومما يزيدنا عجباً أن يظن ولاة الأمور آنذاك أن من الممكن أن تطبق فى هذا القطر العسير القياد وغير المروض أحكام نظام يتولى فيه قسيس الأبروشية الأجنبي الذى يعيش على مايستخلصه من جمهور المصلين من الخدمات القهرية والعشور ، باستخدام شعيرة الاعتراف[١] سلاحاً سياسياً ، يكفل الخضوع والولاء للملك والشعب المسيحى ، أى الفرنجة .

وأدرك ألكوين الخطر ، وعبر عن معارضته لتلك الإجراءات بطائفة لاذعة من الأقوال المأثورة . فهو يصرخ : « يقول الناس إن العشور هى التى قوضت عقيدة السكسون » — ويقول : « وينبغى للمرء أن يدرك فوق هذا أن العقيدة تنبع من الإرادة الحرة ، لا من القهر . فكيف يستطاع إجبار الإنسان على الإيمان بما لا يؤمن به ؟ وربما أمكنك أن تجر إنساناً إلى حوض التعميد جراً ، أما إلى العقيدة فلا » . ولكن أحداً لم يأبه بتحذيراته . وانقضت بضع سنوات بدا فيها أن كل شىء يمضى على خير ما يرام ، حتى لقد

(١) انظر إعلان تسليم السكسون المادة ١٤

استخدم السكسون فى حرب التخوم وُسيِّروا على الصقالبة والآفار . ولكن صدورهم كانت تضطرم خفية بالاستياء الغاضب، الذى اشتعل فى النهاية عصياناً، لم ينشب لهيبه حتى انتشر بسرعة فى كل أرجاء ألمانيا . فتعرضت الكنائس للحريق والنهب ، ولقى الأساقفة والقسس مصارعهم ، وأصبح كل ما أقامه الفرنجة من نظم عرضة للدمار . وأخذ شرلمان على غرة ، فلم يستطع حشد قواته على الفور ، بيد أن مقاومة السكسون لم تلبث حتى قضت عليها فى السنوات التالية قضاء نهائياً حملات جيوش زحفت من جميع الجهات ، وفى (٧٩٧) أُخضع كل شىء حتى منطقة السواحل الشمالية ذاتها ، ملجأ الثائرين الفارين من وجه الدولة . وفى خريف تلك السنة ، صدر فى آخن (ايكس لاشابل) دستور جديد لسكسونيا ، بعد مشاورات لم يشترك فيها فحسب كونتات وأساقفة من الفرنجة ، بل حضرها أيضاً مندوبون عن الأقطار الجرمانية . وبمقتضى ذلك الدستور أُلغيت جميع القوانين الجائرة التى أصدرها الفاتح ، ومنذ تلك اللحظة أصبحت سكسونيا تحكم بطريقة تماثل طرق الحكم الشائعة بالأقطار الفرنجية الأخرى . وكانت المرحلة الأخيرة هى مرحلة ترويض منطقة نورد البينجيا العسيرة القياد ، ولكن ذلك لم يتحقق إلا فى (٨٠٤) ، يوم سيرت عليها آخر حملة نظامية فى حكم شرلمان ، بإرغام السكان على النزوح قهراً إلى شطر آخر من مملكة الفرنجة ، ومنح بلادهم للأبودريين Abodrites ، وهم شعب صقلبى مجاور أظهر ولاءً كحليف للفرنجة .

حروب الآفار ورونسيسفال

كانت منطقة الحدود التى أطلق عليها فيما بعد اسم منطقة « دانيا » ، هى المعقل الشمالى لمجموعة من مناطق « الأطراف العسكرية » التى يتولى ضبطها نخبة منتقاة من القواد أحسن اختيارها ، وقد أطلق عليهم فيما بعد اسم

المـارجريف (Margraves) أى كونتات وحكام (Grafs) الأطراف والثغور (Mark) . ومع أن دولة الفرنجة لم يكن لها إلا سيادة مفككة على الصقالبة فى الشرق ، فإن نهرى الإلب والسال يعتبران فعلا الحدود الحقيقية لمملكة الفرنجة. ثم هناك فى أقصى الجنوب باڤاريا التى ألحقت بالإمبراطورية ، والتى تقع وراءها ببلاد المجر مملكة الآڤار . وقد استولى الآڤار كأسلافهم الهون البدو الرحل ، على موقع ممتاز فى أوربا الوسطى ، على الحافة الغربية لنطاق السهوب الأسيوى العظيم ، وظلوا قرنين من الزمان يلقون الرعب فى قلوب الشعوب النازلة فى المنطقة المترامية بين البلطيق والپيلوبونيز (المورة) ، وقد هددوا بيزنطة نفسها أكثر من مرة . على أن قوتهم أصابها الوهن قبيل تلك الفترة، فتخلص من نير الآڤار كثير من القبائل الصقلبية التى كان الغاصبون يعيشون على كدها . بيد أنهم كانوا لا يزالون من القوة بحيث يهددون الحدود الشرقية للإمبراطورية الغربية ، حتى إذا هدأ السكسون قليلا وأتاحوا للدولة فترة هدوء قصيرة ، بادرت جيوش شرلمـان باتخاذ خطة الهجوم . وتقدم إريك (Eric) دوق فريولى على الدانوب فاقتحم الحلقة الكبيرة ، التى تتكون من متاريس ترابية مستديرة تؤلف المعقل الرئيسى لدى الآڤار ، واستولى على كنوز هائلة من الذهب والمنسوجات النفيسة والأوعية الغالية ، وهى الغنائم التى حصلت عليها أجيال الآڤار المتعاقبة ، التى يرجح أن معظمها قد انتهب من مدن الإمبراطورية البيزنطية وأديرتها وكنائسها . ثم توالت بعد ذلك الحملات التى تم بها القضاء على الآڤار .

وقد أصبحت النمسا تؤلف عند ذاك جزءا من الإمبراطورية ، وشرع مستوطنون من جرمان باڤاريا[1] يستقرون فيها وفى الجزء الغربى من المجر .

---

(١) انظر الفصل الحادى عشر بعنوان انحلال إمبراطورية الآڤار .

وهنا أصبحت المناطق الشرقية نفسها من المجر تعتبر جزءا من الإمبراطورية ، وبذلك عاد إلى الوجود بعد قرون عديدة خط حدود پانونيا المعروف عند قدماء الرومان.

هنا أصبحت الكتلة الضخمة الفسيحة من أراضى أوربا الغربية عدا أسپانيا وجنوب إيطاليا تحت سيد واحد للمرة الثانية ، يبسط سلطانه على طبقة حاكمة من نبلاء الفرنجة والأكيتانيين والألامان واللومبارد ، ويحرك بسرعة مدهشة لا يكاد يصدقها عقل جيوشاً من أحد أطراف ممتلكاته إلى الطرف الآخر ، لكى يدفع إلى الخلف تخوم الوثنية المعادية . ولا شك أن هذا المثل الاتحادى الأعلى للإمبراطورية المسيحية المقاتلة ، هو الذى فرض طابعه القاهر على حضارة القرون الوسطى فى الغرب ، وهو الذى عاش بعد تقسيم المملكة الكارولنجية إلى عدد كبير من الإمارات المقاتلة ، والذى لعله لا يزال يعمل عمله باعتباره ضربا من مجتمع للمشاعر داخل نطاق مجموعة الأمم الأوربية .

ولم يتجل ذلك المبدأ الاتحادى بوضوح أشد من تجليه فى تلك الهالة السحرية الرومانسية التى تحيط بذكريات يوم رونسيسڤال الفاجع . إذ انحدر شرلمان إلى أسپانيا بدعوة من حليفه المسلم حاكم برشلونة العربى ، الذى كان يحاول التخلص من سيطرة الخليفة الأموى بقرطبة . وعندى أن تحالف شرلمان مع ذلك الحاكم المسلم له أهميته التى تعادل فى قيمتها أن أول نصر أحرزه الفرنجة هو استيلاؤهم على مدينة پامپيلونا ، وهى مدينة تابعة لمملكة استورياس المسيحية . على أن الحملة أخفقت فى الاستيلاء على سر قسطة ، وبينما كانت طوابير الجند المتقهقرة تعرج ببطء فى ممرات البرانس الضيقة ، تعرضت مؤخرتهم لهجوم الباسك (البشكنس) ، وهم شعب مسيحى معاد للفرنجة — حتى أبيدت برمتها . ولم يتيسر للفرنجة الانتقام منهم على تلك الكارثة ، غير أن الحملات التالية التى وجهت على ذلك الإقليم الوعر ،

تمكنت في النهاية من إنشاء منطقة الأطراف (الثغور) الأسبانية في المنطقة التي تقع جنوب جبال البرانس مباشرة . على أن الأساطير التي تطلق لنفسها العنان في العبث بالحقائق التاريخية ، تحول غارة (٧٧٨) الفاشلة تلك إلى حملة صليبية مجيدة . أما اشتباك المؤخرة مع الباسك وما أصابها على يديهم من حظ عاثر ، فقد حولته الأسطورة إلى معركة احتشد فيها من جيوش الوثنيين مالم تشهد بلاد لعددهم مثيلا ، وقهروا فرسان الإمبراطور المغاوير الذين سقطوا في ساحة الشهادة دفاعاً عن الايمان والعقيدة . وبعد ذلك بثلاثة قرون تناول الشاعر تلك القصة الشعبية لا في تفاصيلها الحقيقية الدقيقة بل في صورة المثل الأعلى الذائع الانتشار للفروسية المسيحية ، وجعل منها تلك الملحمة الفاخرة التي تسمى « أنشودة رولان Chanson de Roland » ، فأصبحت بذلك قطعة خالدة من تراث أوربا الخيالي .

نظام الإدارة الكارولنجية

كان الجهاز الذي سيطر به شرلمان على شئون إمبراطوريته الضخمة جهازا غلبت عليه السمة الجرمانية ، شأن الجهاز الذي استخدمه الميروفنجيون . فإن معظم النظم كانت لاتزال قائمة ، مثل إدارة الحكم المحلي بواسطة الكونتات ومرءوسيهم من الموظفين ، ومثل نظام القضاء العنصري والمجالس السنوية . هذا إلى أن الطابع الشخصي والمرن غير المحدد الذي يتسم به الحكم لدى الفرنجة ، والذي سبق لنا موازنته بالحكم الروماني الثابت التجريدي[١] ، ظل قائماً ومعمولا به في ظل الحكم الإمبراطوري نفسه . إذ لم يبرح الإمبراطور يعد إلى حدما قائد المقاتلين التيوتون في الحرب ، الذي يحيط به ثقاته من زملائه في السلاح ، الذين كانت خدماتهم له موضع التبادل بين الطرفين دائماً .

---

(١) انظر الفصل الثاني عشر بعنوان الحكم الروماني والجرماني .

ويجوز أن يتولى كونتات القصر قيادة الجيوش على الحدود، كما يقوم «الصنجيل» (Seneschal) بإدارة حركة المطبخ، أو يرسل «القهرمان» فى سفارة دبلوماسية إلى باڤاريا .

وكانت الإدارة المالية بدائية بالمثل . إذ إن نظام الخدمات العامة المحكم الذى كان لدى الرومان قد اندثر فى عهد الميروفنچيين ، وجعل نظام الضرائب فى أبسط الصور ، إذ اقتصر على رسوم المعديات وعلى مكوس الطرق والدخولية فضلا عن المكوس المفروضة على حيازات فردية معينة . وكان يطلب من الناس فى بعض حالات معينة صيانة الطرق والكبارى والتحصينات ، فضلا عن استضافة مندوبى الإمبراطور ومدهم بالمؤن . على أنه ينبغى ألا تضللنا اللوائح والتنظيمات الكثيرة والتفصيلية التى نجدها فى مجموعات الأوامر والمراسيم التى أصدرها شرلمان رغبة فى تنظيم التجارة وضبط الأسعار ، تضليلا يخفى عنا الحقيقة المجردة ، وهى أن المبدأ الذى تقوم عليه مالية الدولة عنده وعند غيره من ملوك الجرمان يقوم على فكرة « الخزانة » الملكية . وكان الأساس فى إيرادات الدولة هو ما يحصل من الضياع الملكية من ريع ، تزيد فى مقداره الغرامات والمصادرات وغنائم الحرب والهدايا الإجبارية . ومن هنا يستبان أن القائد التيوتونى كان يكافئ أتباعه بما يمنحهم من الأراضى ، وما يهبهم من الامتيازات المحلية فى القضاء والضرائب التى ينزل لهم عنها باعتبارها ملكا خاصاً له . على أن الظروف المعقدة الناجمة عن المزج بين الثقافتين الرومانية والجرمانية ، وتولى الجرمان السيادة فى أقطار منحتها روما حضارة متقدمة ، عرضت هذه القرارات إلى مالاحصر له من صنوف التفرقة والقيود . ومع ذلك يظل الفرق والتباين عظيما بين الإمبراطورية البيزنطية التى هى الاستمرار المباشر لروما بمالها من جهاز خدمة مدنية ، وما لها من جهاز للضرائب معقد ومنظم ، وما لها من جيش وأسطول دائمين ؛ وبين الأقطار الرومانية الجرمانية فى غرب أوربا ،

التى كانت السلطة المركزية فيها لا تقوم على موارد مالية مستديمة ولا تستند إلى تنظيم إدارى ، وإنما ترتكز فقط على التزامات من خدمات شخصية وولاء شخصى يؤديان للحاكم مباشرة من كل فرد من أفراد رعيته . على أن هناك سلطة متوسطة نمت بين الملك والرعية ناجمة عن ظهور عوامل النظام الإقطاعى التى بدت بوادرها فى تلك المدة ، ولم يكن بد لنموها من أن تقوض سلطات ملكية من ذلك النوع لا تستطيع فعلا أن تتخلى عن شطر من سلطتها دون أن تضيعها بأكملها .

وتتجلى العملية واضحة فى الجيش الكارولنجى . ولعل الخدمة العسكرية كانت أفدح الأعباء التى تفرضها الدولة على رعاياها ، كما أن نفقات التسلح كانت تبهظ الرجل الحر الفقير ، الذى كان لا يزال عرضة لحمل السلاح طبقاً لما جرت عليه عادة الجرمان . واتخذت بعض الإجراءات للتخفيف عنه ، فلم يعد يدعى للخدمة بأية منطقة سوى الطبقات الغنية إن كانت الحملة موجهة إلى منطقة نائية من الحدود ، وكثيراً ما كان يسمح لاثنين أو ثلاثة من صغار الملاك بالاشتراك معاً فى إرسال رجل واحد إلى « الجيش » ، وتزويده بالعتاد . على أن ذلك لم يكن كافياً . فقد ولت منذ زمن بعيد تلك الظروف التى كانت تيسر فى الأزمان السابقة البدائية حشد مجموعة مسلحة مكونة من جميع الأعضاء الأحرار فى القبيلة الذين يتساوون على وجه التقريب فى الوضع الاقتصادى . إذ تزايد التفاوت فى ثروة الأفراد ، وأخذ القتال يصبح رويداً رويداً الحرفة الوحيدة التى اختص بها السادة الإقطاعيون ، كما يقوم به كل من يملكون الخيل والدروع . وينتمى إلى الفئة الأخيرة كل من وهب إقطاعاً ، أو توصلوا عن طريق « التوصية » إلى الارتباط بعلاقة تبعية مع « السيد الإقطاعى » اقترنت بالالتزام بالقيام بالخدمة العسكرية[1] . هذا وإن التغير الذى تحول بمقتضاه

(١) انظر الفصل الثانى عشر بعنوان الحكم الرومانى والجرمانى .

الجيش ـ وهو فى الأصل مجموعة من الأحرار لا يربطهم بقائدهم فى الحرب إلا رابطة الولاء ـ إلى هيئة مجمعة من الفصائل التابعة لسيدها الإقطاعى التى لا يتولى فيها الملك بوصفه المولى الإقطاعى الأعلى القيادة إلا عن طريق أتباعه من النبلاء ، إنما هو وضع لا ينتمى فى الحقيقة إلا إلى القرون التى أعقبت ذلك . ولكن شرلمان اعترف فعلا بالوضع الرسمى لكبار السادة الإقطاعيين عندما أمر المجندة بالتقدم إلى مواطن الاحتشاد المحددة إما بقيادة الكونت الحاكم الإمبراطورى بالمنطقة ، وإما تحت إمرة سادتهم الإقطاعيين المحليين ، ولم يعد بعيداً الزمن الذى أصبحت فيه التبعية وراثية ، والذى صار فيه ولاء الأتباع مقصورا على سادتهم المباشرين ، والذى يقوم فيه النبلاء فى ظل ملكية ضعيفة كريهة ، بقيادة قواتهم لتدمير السلطة المركزية .

ومع ذلك فقد حدث مؤقتاً أن شرلمان بفضل ما اشتهر به من شخصية قوية وفتوة دافقة ، استطاع أن يحافظ على ما أقامه من وحدة الإشراف والضبط على أملاكه المترامية الأطراف . وكان كل كونت من أتباعه يحكم منطقة من الإمبراطورية ، وقد فوضوا لا فى مراجعة أتباعهم فحسب ، بل فى الرقابة أيضاً على أعمال موظفى السادة الإقطاعيين من الكنسيين والعلمانيين سواء . يضاف إلى ذلك ماحدث من نمو نظام المبعوثين الملكيين رغبة فى حبك أطراف السلسلة التى تربط بين الحاكم وبين كل فرد من أفراد رعيته . وبمقتضى ذلك النظام قسمت المملكة بأجمعها إلى مجموعات تتألف كل منها من عدة كونتيات، يطوف بها اثنان من المبعوثين فى كل عام عادة ، أحدهما من رجال الكنيسة والآخر من العلمانيين ، ويتوليان الشئون القضائية . وكان مجال واجباتهما رحيباً . فلم يكن من واجبهما فقط الإشراف على يمين الولاء الذى تقسمه الرعية للإمبراطور ، وأن يتحققا من انتظام ورود إيرادات غابات التاج وممتلكاته ، وأن المراسيم مفهومة ومنفذة ، وأن المجرم يلقى جزاءه على جريمته

وأن العدالة تجرى مجراها ، وأن الخدمة العسكرية تنفذ على وجهها الصحيح ، بل لقد أمرا كذلك بالتفتيش على الكنائس والأديرة ، « لكى يتأكدا أن القسس يراعون نظمهم ، وأن الرهبان يتبعون بإخلاص قواعد القديس بنيدكت ، وأن ما أصدره الإمبراطور من لوائح عن ترانيم الصلوات ينفذ ، وأن كتب الإيمان مطهرة من كل خطأ ، وأن المبانى تصان ، وأن الشعب يحضر القداس فى أيام الآحاد ، وأنه يعرف عقيدته فيعلم « قانون الإيمان » وصلاة « أبانا الذى فى السموات ... » وأنه لم تضلله الخزعبلات القديمة »[1] .

القوانين الكارولنجية

وقد خلف لنا ثيودولف أسقف أورليان صورة وصفية رائعة لمسير هذين المبعوثين ، وهو أوسع شعراء عصر النهضة الكارولنجية ثقافة ، وكان هو نفسه أحد هؤلاء المبعوثين وإن تصويره الدقيق للتفاصيل ، وما عرف عنه من روح إنسانية رحبة وفكاهة ماكرة ونظرة ناضجة حصيفة ، مختلفة كل الاختلاف عن نظرة رجال الأديرة المشوبة بالبراءة أو التعصب اللذين اتصف بهما كثير من معاصريه ، — كل ذلك يبعث الثقة فى روايته التى تعرض علينا فى وضوح مشرق ، الأحوال فى جنوب فرنسا عند نهاية القرن الثامن . وهى ترسم مرحلة أخرى جديدة فى عملية التحول التى سجلها من قبل أوسونيوس وسيدونيوس وأبولينارس وجريجورى أسقف تور[2] . وتتجلى ذكرياته الشخصية فى رسالته : « نصيحة إلى القضاة » وهى ثمرة الخبرة التى اكتسبها فى أثناء جولاته فى الجنوب. وهو يصف بلمسات من قلمه ضروب التباين بين مناظر بروڤانس — كالتلال الصخرية الوعرة الشديدة الانحدار والسيول المندفعة والخوانق والأخاديد

(١) انظر لافيس فى (Histoire de France) ج ٢ ص ٣١٩ (باريس ١٩٠٣) .

(٢) انظر ما قبله ص ٦١ ، ١٢٠ ، (الفصل ١٢) وخريطتى فرنسا فى عهد الميروفنجيين .



١٧ ـ صورة صليب بيوكاسل ، نقوش على وجهه الشرقي

الراكدة الخانقة الهواء ومستنقعات المناطق الساحلية القاتلة كريهة الرائحة ومنحدرات نهر الرون العريضة والمدن الفاخرة التى تحيط بها الأسوار العالية : مثل آرل وأفينيون ونيم وأورانج ومارسيليا وكثير غيرها مما ورد ذكره فى تلك القصيدة . ثم يحملنا الكاتب بعد ذلك إلى دار المحكمة فى (ناربونة) . وهى لاشك ليست إلا بناء مجلس مدينة رومانيا قديماً ، كان حتى ذلك الحين يزين العاصمة السابقة للإقليم . وقد احتشد حول مدخلها المرتفع جمهور من المتقاضين يعج بالضجيج . ويدخل القاضى إلى قاعة المحكمة بعد حضوره القداس يصحبه كاتب ، ثم يعمد الحاجب بعد إدخاله إلى ساحة المحكمة كل من لهم الحق فى حضور الجلسة ، إلى إقفال الأبواب دون أعين جمهرة من المشاهدين الفضوليين . ويتخذ القاضى جلسته الوقور على الكرسى ذى الأرجل المقوسة يحيط به وجهاء المدينة ، ثم يعمد إلى اختيار مستشاريه القانونيين . وعندئذ يبدأ عمل اليوم . ويتوقف ثيودولف عند هذه النقطة لكى يوجه النصح فى الإجراءات . فيقول: ينبغى للقاضى ألا يتكلم بسرعة شديدة ولا ببطء شديد ، وينبغى له أن يوجه المتقاضين ويساعدهم على شرح قضاياهم أمامه ، فيشجع الخجول والوجل ويشكم الوقح ويسكت الثرثار ويسيطر على ضجيج الصائحين باستخدام صوته القوى ـ على أنه ينبغى مع ذلك أن يلزم مكانه ، وأن يمتنع عن استخدام العصا يقرع بها الأكتاف والرءوس ، كما ذاع عن بعض ضيقى الصدر من القضاة .

ويؤكد المؤلف وهو ينحدر من سلالة القوط الغربيين وممن درج على التقاليد الرومانية القانونية ـ تشديده على عيوب الطريقة الجرمانية فى الإدلاء بالمعلومات ودحضها بواسطة الأيمن ـ وهو يرى أن وسائل حلف اليمين بأجمعها وبكل ما حوت من أساليب إثبات واتهامات يدعمها القسم وتملأ

المحكمة بالصيحات الصاخبة التى تجأر « بنعم وكلا » ليست جميعاً إلا أموراً قاصرة تعوزها الكفاية ، وهو يفضل أن يمضى القاضى فى عمله « بالتحقيق » والاستقصاء ، الذى يتم عن طريق شهود عدول ثبتت أهليتهم ، بعد أن استجوبهم القاضى على انفراد . وإنه ليأبى كذلك الموافقة على المبدأ الجرمانى الذى يجعل العقار والممتلكات أهم كثيراً من الحياة ذاتها . وقد راعه أن يجازى مرتكب السرقة بالصلب أو قطع اليد وفقء العين ، بينما يمكن التغاضى عن القتل بدفع الدية اللازمة . على أن أسوأ العيوب هو شيوع استخدام الرشوة للحصول على حكم فى صالح الراشى . فكل إنسان فاسدٌ ومرتش :ـ الحاجب على بوابته والمستشارون القانونيون على منصتهم ، بل إن زوجة القاضى نفسها قد أغواها فريق له مصلحة خاصة ، فهى لا تزال تحوم حول عنق زوجها متشفعة إليه ضارعة ، فى حين أن مربيتها وخادمتها الوقحة الصغيرة تلومان سيدهما على قسوته عليها .

ومن الجلى أن ثيودولف عالج فى حديثه كثيراً من الأشياء التى قذفت عليه ، كأنما هى آلات حصار عديدة سلطت عليه لتدمير حصون استقامته . فمن هذه القذائف (أعنى الرشى) الأوانى الزجاجية والجواهر الشرقية والنقود الذهبية الرائعة التى تحمل حروفاً عربية والديباج الموشّى بأشكال الثيران وبنماذج هندسية ذات تصميم أسيوى ، وهناك أيضاً الأسلحة والخيل ، على أن أثمن هذه الكنوز جميعاً وعاء من الفضة يرجع إلى عهد الإمبراطورية الرومانية يحمل ظاهره نقوشاً بارزة توضح أعمال هرقل اليومية . أما المتقاضون من الفئات المتواضعة ، فلم يكونوا أقل إصراراً على تقديم ما لديهم من هدايا من جلود قرطبة المبيضة أو المصنوعة والمنسوجات الكتانية والصوفية ، والأحذية والقبعات والقفازات ، فضلا عن مناشف الوجه ، على حين أن شخصاً ما كرا عرف فيما يحتمل ذوق الأسقف الأدبى ، فأخرج إليه لفافة من « رق » الكتابة

الأرجوانى مبتسما ابتسامة الظفر بالأرب . ولكن القاضى النزيه يرفض كل هاته الهدايا ، على أنه ربما قبل بعض الهدايا الصغيرة من بعض الأصدقاء رغبة فى عدم جرح مشاعرهم ــ مثل ثمار الحدائق والبساتين والخبز والبيض والجبن المصنوع من لبن الماعز وصغار الدجاج اللينة والطيور « الصغيرة حجما واللذيذة طعما » .

والركب الذى يمر أمامنا فى ضياء شمس پروڤانس المشرقة ، موكب بالغ التنوع زاخر بالألوان ، مؤلف من أجناس مخلطة . ولا شك أن قدرا كبيرا من حياة روما القديمة لا يزال باقياً ؛ فعلى الرغم من أثر الفرنجة ونفوذهم ، فإن الإجراءات العامة بالمحكمة ، بما لها من قاض رئيس وجو أرستقراطى ، وما لها من مراسم تبعث الرهبة ، وما حفل به جدول قضاياها المعقد الذى تدور منازعاته حول العقود والوصايا ، إنما هى أبعد ما تكون حقاً من الجمعيات (المجالس) الجرمانية البدائية المكونة من المحاربين الأحرار . ومع ذلك فإن ما حفل به خيال العصور الوسطى من الرعب والمخاوف القائمة ، يقف بكامل قوته من وراء هذا العالم الماثل أمامنا . فإن ثيودولف يروح فى مجموعة قوية ومعتمة من الموازنات ، فيوازن بين ثياب الذهب والحرير والفراء والعطور ورقيق الأطعمة والخمور والمساكن الرحبة والممتلكات العديدة ، وتزاحم الموالى والعملاء حول الرجل الغنى فى هذه الحياة الدنيا وبين القذارة والضيق والفقر والوحدة المطلقة ، وما يصيب الجسد فى القبر من تحلل رهيب . وإن أوصافه لليوم الآخر بما فيه من رعود ونفخ مدوٍّ فى الصور[1] ، وإن عولجت بالطريقة التقليدية ، إلا أنها يمكن أن تتخذ شرحاً ونصاً صريحاً يعبر عن العديد الذى لا حصر له من النقوش البارزة المنقورة على بوابات الكاتدرائيات المشيدة على الطراز الرومانسكى أو القوطى .

---

(١) الصور كما ورد فى القرآن الكريم شىء كالقرن ينفخ فيه . [المترجم]

بلاط شرلمـان

والراجح أن شخصية شرلمـان الأسطورية ، التى جعلت منه عملاقا ضخما تمتد لحيته إلى وسطه لا تقوم على أساس من الحقيقة . إذ الظاهر أنه كان طويل القامة حقاً ، ولـكنه ليس ذا طول خارق للمعتاد ، وأنه كان قصير العنق ، وكان له بطن بارز ورأس مستدير وعينان كبيرتان معبرتان ، وكان له أنف أقرب إلى الطول وشعر غزير ؛ وكان حليق اللحية ، إلا من الشارب الفرنجى المألوف . ويتسم طبعه بالمودة والبساطة ، فـكان يستطيع من ثم أن يتجول بين حشد من رعاياه فى أثناء الاجتماع السنوى ، وتوجيه العبارة المناسبة لـكل منهم فيـكتسب بذلك ثقتهم ، ويلتقط منهم التعليقات الحـكيمة على الأحوال المحلية . ولمـا اشتهر به من الاستقامة والإخلاص والخلق القوى والحساسية المرهفة وبعد الهمة الذى لا حد له والشغف بجمع التفاصيل ، أثر فى معاصريه بقوة شخصيته وعذوبتها بقدر ما أثر فيهم بعظمة أعماله .

وقد وصلت إلينا ثروة ضخمة من الحوادث والنوادر التى تدور حول شرلمـان وبلاطه ، وذلك لأن الحوليات الهزيلة التى كتبها مؤرخو الأديرة لم تلبث أن عززها فجأة مجموعة رائعة من الشعراء الذين حاولوا فى محاكاة دقيقة لأوڤيد وڤرچيل تصوير المناظر التى يعيشون بين ظهرانيها . ولعل الترجمة البسيطة الطريفة والذائعة الصيت التى كتبها رينهارت عن حياة شرلمـان أثمن لنا من هذا كله أو تـكاد . فهى وإن تعرضت دون ريب لشىء من النقد فى تفاصيلها[1] ، تدفعنا إلى الاقتناع بصحة ما فيها بفضل قوة بيانها فى اللاتينية ، التى هيأت للـكاتب أسلوبا مشرقاً اختص به شخصياً ، لا يضارعه فيه فيما

---

(١) ولـكن أصداءها السويتونية أثارت الشكوك ، ومن الجلى أن المؤلف الذى كتب ما كتب بعد وفاة شرلمـان لم يكن فى مركز يتيح له الحصول على معلومات جديدة من مصادر مباشرة أصيلة عن نواح معينة من سياسته .

يحتمل إلا بيده (Bede) فى أثناء القرون الثلاثة الأخيرة فى الغرب . وكان شرلمان نفسه هو السبب فى التعجيل بالانبجاس الرائع لهذه الطاقة الفكرية التى تشهد ثمار القرائح فيها بالتدريب السليم الدقيق فى علمى البيان والأجرومية (النحو) . وقد استدعى شرلمان إلى بلاطه أشهر علماء غرب أوربا فى عصره من إنجلترة وإرلندة ولومبارديا ، فاجتلب بطرس البيزى وبولس الشماس وأبناء وطنهما الآخرون كنوز العلوم الإيطالية إلى فرنسا ، كما واصل الاسكوتس (Scots) أى العلماء المتجولون القادمون من الأديرة الإرلندية عمل أسلافهم المبشرين وأثّروا أثرهم التعليمى فى الإمبراطورية الفرنجية . ومع ذلك ، فلاشك أن ألكوين هو أهم شخصية قامت بتنظيم النهضة الكارولنجية ، فبفضل تعاليمه تحكمت المثل العليا للثقافة النورثمبريانية وطرائقها فى حركة إحياء العلوم ببلاط شرلمان . ففى أثناء القرن الثامن ، شهد الطرف الشرقى من إنجلترة الآثار المدهشة التى ترتبت على ازدهار حضارة أنجليا . وكان ذلك العصر ، هو عصر أناجيل ليندزفارن بما حوت من خطوط مونقة وتصوير فاخر ، وهو أيضاً عصر الأديرة العظيمة ومراكز العلم الكثيرة الزاهرة بكل من هكسهام وجارو ويورك ، وهو عصر بيده أشهر كتاب أوربا الغربية ، وكان عصر صلبان بيوكاسل ورائويل الضخمة التى يشهد ما نحت عليها من مناظر مقدسة تفوق فى وجدانها التشكيلى كل ما فى القارة من أعمال ، بوجود إمكانيات لم نصادفها فيما بعد لدى الفنانين الإنجليز المتأخرين من تصميمات لأشكال ورسوم خطية نمطية معبرة عن القصص . كانت ثقافة منتقاة سريعة النمو تولدت عن التقاء مؤثرات مختلفة فى أرض مملكة قوية لقوم من أشباه البرابرة . وربما أمكن التماس الإلهام الكلى فى موضوعاتها الزخرفية وفى مجال دراساتها الكلاسيكية ، وكانت نتيجة استيراد بيسكوب البندكتى للمخطوطات وزخارف الكنائس من فرنسا وإيطاليا لزخرفة مؤسساته فى

چارو ومونكسويرماوث (Monkswearmouth) دخول المؤثرات البيزنطية المنتشرة فى ذلك الوقت بجميع أرجاء القارة . ولا شك أن كفاية ألكوين فى تنظيم المدارس وإعداد الخطط الدراسية ، تومئ إلى بقاء ما اشتهر به اليونان والرومان من طرق التدريس ، التى انتقلت فيما يبدو إلى حاضرة العلم فى يورك على يد ممثلى البابا بكانتربرى : هادريان وثيودور . على حين أن الشعر العجيب الذى كان يقرضه الغزاة الجرمان بكل ما حوى من أبطال ووحوش ، ومن فكاهة بشعة ومن محاورة خفية ، كان لا يزال موضع إعجاب الرهبان النورثمبريين ، كما أنه انتقل إلى الكتب المدرسية الكارولنجية فى صورة ألغاز ومسائل فى شعر الحكمة ، لا بد أنها كانت تبعث البهجة فى قلب شرلمان، المعروف بشدة ولعه بأدب ملاحم الساجا التى خلفها أجداده الفرنجة . وبعد أفول نجم مملكة نورثمبريا وما تلاه من ارتفاع شأن مرسيا أولا ثم وسكس بعد ذلك ، اعتلت تلك الثقافة ثم توارت فى النهاية عن الأنظار ، وداستها أقدام المغيرين الفيكنج ، ولكن نظراً لأنها غرست فى تربة غالة ، مكتملة الازدهار، فإنها أصبحت العنصر المتسلط فى أثناء عودة الحضارة الغربية إلى الانتعاش فى عصر الكارلنجيين .

النهضة الكارولنجية

منذ اللحظة التى وجد فيها المدافعون عن المسيحية أنه ينبغى لهم أن يحددوا مراكزهم بالنسبة إلى الدراسات الكلاسيكية القديمة ، أصبحت دراسة الآداب تعد تمهيدا لغاية أعلى منها ، هى فهم أصول الدين (اللاهوت) . وقد أقر شرلمان قصدا هذا المثل الأعلى، بيد أن الاعتبارات السياسية دفعته هى أيضاً فى ذلك الاتجاه نفسه ، بالنسبة لرجال الإدارة لديه سواء كانوا كنسيين أو علمانيين ، رغبة منه فى أن يحصلوا على مستوى خلقى وفكرى

أعلى ، ولا يخفى أن وضع تنظيم وثيق الأركان محكم الربط لكل من الكنيسة والدولة كان يرفع من شأن مصالح الاثنتين التى اجتمعت كما هو معروف داخل وحدة الإمبراطورية المسيحية التى لاسبيل إلى فصمها . وبذا أصبحت مدرسة القصر فى آخن (Aix) مركزاً للنشاط الثقافى ، يشهده أفرادالأسرة الملكية وأبناء النبلاء الفرنجة . وكثيراً ما كان تلاميذها يتولون رئاسة بعض ما كان بأرض الراين ومواطن أخرى من الأديرة الكبيرة التى مالبثت أن أصبحت مواطن للعلوم والفنون فى مناطقها ، ومراكز تضم المكتبات والمدارس وأساتذة الخورس (مرتلى الكنائس) وصناع الزجاج وتجار الجواهر ونساخى المخطوطات . وقد نظم ثيودولف الأورليانى التعليم المحلى بأبروشيته . وأخذت مدن معينة بإيطاليا تشهد فعلا بمعاهدها التعليمية .

غير أن وسيلة التعبير التى استكشفت أخيراً قد استخدمها كتاب البلاط لافى التعبير عن الأغراض البيانية فحسب ، بل وأيضاً فى وصف مايحيط بهم من ملابسات . وهم يعرضون أمامنا مشهداً ذا ألوان زاهية بهيجة لبدايات ناضرة جديدة على خشونتها وسذاجتها . فيقولون عن قصر آخن الجديد ، إنه يقع فى وسط بقعة غنية بالغابات تنتشر فيها أسراب الغزلان وتشقها الجداول ، التى ترتادها الطيور المائية المختلفة . وإنا لنسمع ـ من أوصافهم ـ صرير العربات وهى تجلب الكتل البيضاء ، ونسمع صوت الأحجار وهى تقطع وتسوى ، على حين ترتفع الكنيسة العظيمة شيئاً فشيئاً ، حتى تطل قبتها المذهبة الشامخة على المبانى المنخفضة الممتدة التى يشغلها الملك وأفراد أسرته العديدون ، وتشرف على الفناء الذى يقع فيه تمثال لثيودوريك فى هيئة فارس ، وهو أعظم من سلف من الحكام الرومان الجرمان ، وقد نقل التمثال من رافنا ، وتطل أيضاً على حمامات السباحة فى الهواء الطلق التى تحيط بها درج الرخام والتى يستطيع أن يستحم فيها فى وقت واحد شرلمـــان ومعه مائة من الرفقاء . وهناك

كثرة موفورة من الذهب — نجدها فى آنية الذهب الخالص الموجودة بالكنيسة وعلى المائدة الإمبراطورية فى أيام الحفلات ، وفى السلاسل والخواتم الذهبية وفى الذهب المصوغ فى حمائل السيوف ومقابضها ؛ وفى شعر الأميرات الذهبى الباهت عندما يخرجن للقنص ساعة الفجر، وتنفتح بوابات القصر عندما ينطلق منها الفرسان ويعلو صهيل الخيل ، ويشتد نباح كلاب الصيد العميق وترتفع الصيحات التى يتردد صداها فى الغابة المجاورة . وهناك الثياب الزاهية الألوان مابين عباءات طويلة بيضاء وزرقاء أو أردية صوفية قصيرة تلونها الخطوط المستقيمة أو المتقاطعة والقمم . على حين أن ثياب الحرير والكتان الرقيق تلبس داخل المنزل ، كما أن ملابس الحفلات وحلل التشريفة غنية بوشيها الجزل مطرزة الحافات بحبات اللؤلؤ .

ويزدحم القصر بمبعوثى جميع الشعوب ، فيهم ممثلو ملوك مرسيا أو نورثمبريا أو الرؤساء الدانمركيين أو الصقالبة أو رسل البابا أو الموظفون البيزنطيون أو المسلمون من أسبانيا وإفريقية . بل إن هرون الرشيد نفسه يرسل الهدايا من عاصمته النائية بغداد ، وبفضل ما كان لشرلمان من نفوذ عند الخليفة تمكن من الحصول على الامتيازات لحجاج بيت المقدس المسيحيين . وقد حرص كتاب هذا العصر على أن يدونوا بدقة أسماء السلع الأجنبية الواردة من أقطار نائية ؛ كالتوابل الأسيوية من الفلفل والقرنفل والقرفة وما شابهها — وهى تستخدم بكثرة لإخفاء نكهات الطعام والخمر ، أو كمواد مساعدة على الهضم . ولكن حاجات القصر الإمبراطورى كانت تسدها بصفة أساسية منتجات المزارع الملكية الضخمة ؛ التى تزود ذلك القصر بما يحتاجه من السمك ولحم الصيد والجبن والزبد والخردل والخل والشهد والشمع والصابون والخمر ، على حين يرد اسم الخيار والشمام والخرشوف والبازلاء والجزر والبصل والكراث والفجل أيضاً فى مرسوم الضيعة (Capitulare de villis) الذى يحتوى على التعليمات

اللازمة لتزويد الدور الريفية الملكية بطلباتها . والراجح أن طرق الرومان في الزراعة بقيت بتلك الأراضي ، التي يحتمل أن بعضها كان من أملاك أباطرة الرومان المتوارثة .

الحياة في آخن

إن الحياة هنا خليط عجيب من الحياة البربرية القوية والحضارة القديمة الذاوية . فإن إينهارت ورفاقه يدرسون ڤتروڤيوس فضلا عن ڤرچيل ، كما أن مانهب من راڤنا من أعمدة ورخام أدخل في العمائر الجديدة ، مثلما أن مااقتبس من أوڤيد وسيتونيوس من عبارات يتجلى بوضوح في مصنفات ذلك العصر . ومع ذلك ، فإن بالعمارة المعاصرة آيات تشهد بالنشاط ومحاولة التجريب ، كالتصميم النادر لكنيسة ثيودولف في جرميني دي پريه (Germigny-des-prés) كالعمارة الشامخة لكنيسة سانت ريكييه أو دير القديس واندريل ببرجه الضخم الذي تعلوه منارة سميكة قصيرة مذهبة ، وتزينه غرفة الطعام الفسيحة التي تزدان جدرانها بمناظر تمثل الشهداء والشهادة والقصص المقدسة . ولا شك أن في جو البلاط نفسه من المتناقضات ما لايقل عن هذا استرعاء للأنظار . ففي داخل أسواره يختلط الحجاج والتجار والجند والرهبان والنبلاء والعلماء والسيدات المرحات والغلمان الرشقاء ، على الرغم مما قد ينشب بينهم من خلافات في بعض الأحيان . ويتردد شرلمان نفسه على المدرسة طلباً للتعلم ، ويتنافس هو وأصدقاؤه ببالغ الشغف في نقاط عجيبة في علم الصرف أو العلوم . ومع ذلك فلم يكن هذا سوى متنفس واحد لطاقته الجسمية والفكرية الهائلة . ومن وراء كل هذا المرح وهذه الفخامة التي تتجلى في آخن من ممارسة الصيد والسباحة والمؤامرات والفضائح ، يسير العمل الإداري الجدي قدماً في طريقه ، وفي كل صيف ينطلق فرسان الفرنجة للقتال خارج حدود العالم المسيحي .

على أن أحوال فرنسا فى مجملها لايجوز استنباطها من هذه الصورة لحياة البلاط . أجل إن حكومة شرلمان القوية حفظت النظام فى البلاد ، فانتعشت التجارة تبعاً لذلك ، ولا سيما فى مدن بروڤانس ومنطقة الراين ؛ غير أنها لم تكن أساساً إلا تجارة فى أدوات الترف . ولم يحدث أى تغيير فجائى فى النظام الاقتصادى بأوربا الغربية . وتواصل قطع الغابات وترتب على ذلك نتيجته الطبيعية من زيادة رقعة الأرض القابلة للزراعة ؛ وأحرزت المزارع الضخمة المكاسب على حساب المزارع الصغيرة ، وأخذ مركز المالك الحر الصغير للأرض يزداد على الأيام تقلقلا واضطرابا . وكما كان الشأن قديماً ، تركزت حياة السكان حول الدور الريفية للسادة العلمانيين والكنسيين ؛ وصار الحد الأقصى للسكان الطاحون ودكانة الحداد والسوق المحلية والمحكمة .

عيوب سياسة شرلمان

توفي شرلمان فى آخن فى يوم ٢٨ يناير ٨١٤ ، وبزوال شخصيته البارزة لم تلبث الإمبراطورية الفرنجية الضخمة التى أتم بناءها ، أن هوت فريسة للتمزق والفوضى . فإن إينهارت الذى سطر ماألفه فى عصر خلفه لويس التقى كان ينظر إلى مامضى من أيام شرلمان ، نظرة الناس إلى عصر ذهبى أسطورى مضى . فما كان يتلألأ به بلاط شرلمان من الفخامة المتألقة التى بهرت أبصار معاصريه أعمتهم عن حقيقة إمبراطوريته وأنها دولة قلقة غير ثابتة ، مثلما أن ما اشتهر به شرلمان من هيبة وجاذبية شخصية وحصافة وكفاية إدارية ، أخفى عن أعينهم ما كان يعوزه من تدبير السياسة وبعد النظر . وإذا نظر إلى شرلمان على ضوء الأحداث التالية ، لم يبد فى صورة أول إمبراطور رومانى غربى ينحدر من سلالة أوغطس وقسطنطين ، وإنما يبدو بوصفه آخر ممثل لتلك السلسلة الطويلة من الأبطال والزعماء الذين قادوا المتبربرين فى هجراتهم

وتجولاتهم والذين يقوم على رأس قائمتهم الطويلة ألاريك وأتولف ، فإنه ماثلهم جميعاً فى احترامه للحضارة اليونانية الرومانية (الجرايكو رومانية) ، أو أقل . إنه انخرط إلى حد ما فى محرزات تلك الحضارة ؛ ولكن مما له دلالته أنه يشاطر ثيودوريك الأكبر أميته وعدم قدرته على كتابة شىء سوى توقيعه . على أنه يتفق وإياهم ، فى الحدود التى تحدده ، وهى أنهم جميعاً غزاة فاتحون عتاة أقوياء من الناحية التنفيذية ، ولكنهم يفتقرون إلى النجاح فى دعم المكاسب وربط ما فتحوه بعضه ببعض . وقد مد شرلمان حدوده إلى الإلب والدانوب ، وتجاوز سلطانه جبال البرانس ، وامتد إلى المنطقة الواقعة جنوب روما . ومع ذلك فإنه لم يثبت بصورة فعالة أى حد من حدوده باستثناء منطقة سكسونيا فيما يحتمل . ذلك أن إعوازه إلى أسطول وجيش دائم جعل شواحل فرنسا وإيطاليا تحت رحمة المغيرين من أهل الشمال والمسلمين ، كما أن هذا الظرف نفسه أفضى بمضى الزمن إلى استقلال كثير من مناطق حدود الدولة وأطرافها فعلا التى أصبح بعضها نواة لكثير من الدول الأوربية التى ظهرت فيما بعد مثل النمسا (Austria) وبروسيا . ولا شك أن إعواز شرلمان إلى سياسة مدروسة فى البحر المتوسط ، تعادل فى مستواها ما اشتهرت به بيزنطة من سياسة ناضجة ، هو الذى منعه من جلب قواته جميعاً لمهاجمة بنفنتو والضغط عليها — التى احتفظت باستقلالها طوال حكمه — ولو أنه فعل ذلك لتمت تسوية مسألة جنوب إيطاليا ، التى أثبتت الأيام للأجيال التالية أنها أعوص مشكلة فى شبه الجزيرة الإيطالية . وغير خاف أن الوضع الجديد بما انطوى عليه من الافتقار إلى ما كان لدى الرومان من أساليب إدارية وما اقترن بها من فرق الجيش والنزلاء المستعمرين والجهاز الإدارى البيروقراطى المتشابك والمجرد من كل صفة شخصية ، جعل تمزق الإمبراطورية أمراً لا مفر منه متى زالت يد حاكمها القوية ، وقد تجلت نتائج ذلك واضحة فى إيطاليا حيث بدأت النزعات

الإقطاعية تبدو للعيان فعلا بظل الحكم اللومباردى ، إذ ظهرت تلك النتائج فى زيادة قوة السلطات المحلية فى شئون القضاة وفرض الضرائب على حساب السلطة المركزية . وحتى الأساقفة الذين كانوا يعملون مبعوثين ملكيين ، أخذوا يدعون أن هذه الحقوق امتيازات وراثية ترتبط بمناصبهم ، على حين أن الكونتات لم يعودوا موظفين من قبل الإمبراطور يمكن عزلهم بإرادته ، بل أصبحوا أتباعاً إقطاعيين ، يحوزون ممتلكاتهم على أنها إقطاعات (Beficicia) ، وليس بوصفها كسباً طارئاً مرتبطاً بالمنصب . وقد أصبح النبلاء الفرنجة والباڤاريون المستقرون بإيطاليا أقطاباً محليين من أعيان ملاك الأراضى ، وسطع نجم ثلاث عائلات عظيمة عالياً بمناطق فريولى وتوسكانى واسپوليتو[١] . على أن عوامل تمزيق وانفصال . كانت تعمل عملها فى أجزاء أخرى من الإمبراطورية ، فزادت كل من أكيتانيا وباڤاريا من استقلالها ، كما أن الانقسامات القبلية التى كان يتزعمها بألمانيا الأدواق ، قدر لها أن تكون من أهم العوائق التى اعتاقت نهضة المثل العليا الإمبراطورية التى حدثت بعد ذلك فى عهد أوتو .

ولا شك أن الاتجاه الجرمانى فى فكر شرلمان السياسى يتضح تماماً من الترتيبات التى وضعها لوراثة العرش . فالتقسيم الصادر فى (٨٠٦) لا يستشف فيه أى أثر لفكرة استمرار الإمبراطورية بعد وفاته — إذ قسمت الدولة بين أبنائه الثلاثة على نحو ما فعله كلوڤيس[٢] وخلفاؤه وقد مات قبله اثنان من

---

(١) إن هذه المناطق الثلاث يمكن اعتبارها مناطق حدود يهددها على التعاقب الصقالبة وقراصنة العرب وغارات بنفنتو . وعندما مات المارجريف (حاكم الثغر) إيرهارد المعروف « بدرع إيطاليا » ، وهو من أصل سوابى خلفه فى عرش إيطاليا فريولى ابنه ثم حفيده .. وسيطر كونتات لوكا الباڤاريون على جزيرة قورسيقة ، وكان لهم سلطان على لونى وبستويا وفولتيرا وفلورنسا ، وقد قسم شرلمان اسپوليتو إلى ولايات ، ولكنها استردت استقلالها فى زمن أسرة لامبرتينى الفرنجية النبيلة .

(٢) انظر ص ٣٠٧ بعنوان الفرنجة (الفصل الثانى عشر) .

أبنائه ، وهكذا كانت الصدفة وحدها هى العامل الذى جعل جميع فتوح الفرنجة تظل تحت سيد واحد عند وفاة شرلمان فى (٨١٤) ، وقد منح الوالد قبل وفاته بسنةواحدة اللقب الإمبراطورى لابنه لويس الملقب بالورع ؛ ولكن كان من أوائل أعمال هذا الأخير إعادة توزيع الإمبراطورية بين أبنائه الثلاثة. أجل إن الابن الأكبر صار فعلا شريكا لأبيه فى سلطانه ووريثاً له ، وإن أخويه جعلا تابعين يخضعان له . ولكن هذين الأخوين كانا يسيطران بالفعل على ما فى مملكتيهما من موارد عسكرية ، ولم يتوانيا فى استخدامها ، ومن ثم زخرت المدة الباقية من حكم لويس بما ثار بينهم من منازعات اقترنت بالتمرد ، وبما ترتب على ذلك من إعادة تقسيم الأراضى .

وثمة مرحلة أخرى فى تفكك هذه الإمبراطورية ، آذنت بها معاهدة فردان (٨٤٣) ، وبمقتضاها اتفق أحفاد شرلمان بعد صراع عنيف على إنشاء ثلاث ممالك ، تتألف من ثلاث شرائح مستطيلة من الأرض تمتد من الشمال إلى الجنوب . فالشقة الشرقية تحتوى على جميع ممتلكات الفرنجة الواقعة شرق الراين ، والشقة الوسطى وهى طويلةوضيقة ، كانت تمتد من الأراضى المنخفضة مارة بأوستراسيا وبرجنديا وپروڤانس ، حتى شمال إيطاليا ووسطها . أما الشقة الغربية فتألفت من بقية فرنسا فضلا عن منطقة الأطراف الأسپانية . ولسنا فى حاجة إلى تأكيد أن هذا التقسيم صناعى محض ، ولم تلبث هذه الحقيقة حتى تجلت حين تمزقت المملكة الوسطى عند وفاة ملكها .

ولم ينته القرن التاسع حتى استحالت إمبراطورية شرلمان إلى خمس دول منفصلة متعادية : وهى فرنسا وألمانيا وإيطاليا وبرجنديا العليا وبرجنديا السفلى .

الفصل الخامس عشر

أوربا فى مرحلة انتقال
حركات الأقوام

ربما أمكننا الآن عرض صورة للتغيرات التى تمخضت عنها أربعة قرون من الظلام والفوضى . ولو أننا نظرنا إليها من علٍ ، كمن ينظر من طائرة وهمية تحلق فى سرعة على مسرحى الزمان والفضاء ، لبدت كتلة الأراضى الأوراسيوية (الأوربية الأسيوية) كأنما تمر فى دور عنيف من أدوار الحركات المستمرة التى يقوم بها السكان ، تلك الأدوار التى تكون الطبقة السفلى التى يرتكز عليها تاريخ العالم [1] . وقد كانت الحاجات الأولية ، تدفع السكان إلى الانثيال غدوا ورواحا فى موجات فجائية للغزو ، أو فى انسيابات بطيئة للتوغل ، لا يضبطها ويتحكم فيها شأن مياه الفيضان - سوى قوى لاشعورية وعوائق جغرافية ، أو ما كان للبقاع المختلفة من قدرات متفاوتة على كفالة حياة البشر . وكلما اقترب المنظر ، تكشفت أمامنا جهود الإنسان فى ابتكار الحواجز المصطنعة . ففى الطرف الأقصى من الدنيا ، يقف سور الصين العظيم رمزاً لإمبراطورية مستقرة ، وشاهدا على نصر باهر أحرزه الإنسان فى صراعه الأبدى الدائر بين أرض السهوب والأرض التى يشقها المحراث . وفى الطرف الأقصى الآخر من الدنيا ، تقوم الحدود الرومانية ، التى تتاخمها كالجناح حدود الفرس الساسانيين ، وتعترض حركات القبائل الجرمانية المتجهة غرباً . وتنبسط بين الطرفين السهولة المترامية بوسط آسيا ، التى هى مجال التكاثر

---

(١) انظر . أ . و . كوليشر فى Kriegs-und Wanderzuge ص ١ - ٤٦ (برلين ١٩٣٢)

للشعوب البدوية (المترحلة) التى تنطلق من الصحراء إلى الأراضى الخصبة التى تتاخمها ، حاملة إليها فى العادة الدمار والخراب ، ومزودة لها فى بعض الأحوال بالقوة والحيوية الجديدة . وكلما هبت عاصفة على آسيا كان فيها نذير الخطر على جميع الحضارات القديمة . فإذا اخترق المغول والمانشوسور الصين العظيم ، سقطت عن عروشها أسرات الصين العريقة المالكة . وإذا تدفق الهون والأفار عن طريق السهوب الواقعة جنوبى الروسيا ، ترتب على ضغطهم من الضربات المتتالية ، ما يدفع أمامهم الجموع الجرمانية ، إلى القضاء نهائياً على ما كان لروما من سلطان فى الغرب[1] ، كما أدى ذلك الضغط نفسه بعد ذلك بقرنين ، إلى القذف بجموع الصقالبة بحكم قوة الطرد المركزى على شعوب وسط القارة . ثم تأتى فى عهد قريب من ذلك ، موجة الغزو العربى فتغمر بلاد الشام ومصر وتفيض حتى تغطى شمال إفريقية وأسبانيا ، وتتقدم فى الحين نفسه شمالا بشرق إلى ما وراء فارس ، حتى تلتقى بطليعة الجموع التركية ، التى كانت تنتظر الإشارة لتقوم بالدور الأخير فى آخر صاعقة هبطت من آسيا على مسرح أوربا .

التجارة والصناعة

فإذا زدنا بطائرتنا الوهمية دنوًّا من الأرض لحظنا أن شبكة الطرق الرومانية لا تزال تغطى وجه المناطق الريفية ، ولكنها لم تعد فى عام ٨٠٠ للميلاد تزخر بحركات الموظفين ولا بما كان للتجار من نشاط تجارى بعيد المدى ، ولا تغص بالفنادق ودور البريد المشيدة بالأحجار . وهى الأشياء التى قال عنها

---

(١) ظلت حدود روما على الراين تصد هجرة الجرمان مدة أربعة قرون ، وبذا أصبحت منطقة ضغط للشعوب المتنقلة غرباً . وقد خفف من شدة هذا الضغط تخفيفاً جزئياً مرور كثير من الجرمان بسلام ، إما فرادى وإما فى قبائل ، ودخولهم إلى الإمبراطورية إما بهجرة قبائل جرمانية شرقية كبرى من مناطق البلطيق إلى حوض الدنيبر والبحر الأسود . على أن هاته القبائل كانت أول من أحس بضغط الهون الذى دفعهم أمامهم حتى عبروا حدود الدانوب .

سائح صينى مر فى القرن الأول إنها من المعالم المميزة للإمبراطورية الرومانية[١] .
على أن التجارة لم تتوقف بأية حال . إذ من الواضح أن شطراً كبيراً من البنيان
الاقتصادى الذى كان موجوداً فى العهود الإمبراطورية ، ظل قائماً بمناطق
ضخمة من فرنسا وإيطاليا . وحتى المدينة نفسها — كما تدل على ذلك كثير
من الأمثلة — ظلت محتفظة بأهميتها القديمة كمركز محلى للتجارة . فإن السفن
تسير مصعدّة فى نهر پو والراين ، كما أن المعديات والكبارى التى وجدت منذ
العهد الرومانى بروما وإيطاليا وغالة ظلت تدفع الجزية للفرنجة واللومبارد ،
وإن لم يكن من الضرورى أن يدل ذلك على شىء يتجاوز التجارة المحلية . وعلى
الرغم من أن فى الإمكان إيراد أمثلة لا حصر لها عن النشاط التجارى ، فالواقع
أن هناك بونا شاسعا فى الأحوال الاقتصادية بين العصور القديمة ومستهل
العصور الوسطى ، ولذا فإن أبحاث الأستاذ دوبش (Dopsch) وغيره من العلماء
لم تزد على أن حددت الفكرة ببعض الأوصاف دون أن تقضى عليها . إذ إن
الذى كان يحدث فى ظل السلم الرومانى فى أثناء القرنين الميلاديين الأول والثانى
أن جميع أنواع الإنتاج الكبير الخاص بالأقاليم كانت تتبادل بوفرة تامة بواسطة
التجارة المحمولة براً وبحراً من بريطانيا إلى سوريا ، وهى التجارة التى كانت
تزود السكان أو الجيوش بضروريات الحياة العادية مثل القمح والخمور والزيت
والمعادن والخشب والملابس والفخار . فالمزارع السرىّ من أبناء بوسكوريالى
الذى كان يعيش فى تلك الأيام على التلال المطلة على خليج نابولى بما اشتهر به
من التخصص فى إنتاج النبيذ على نطاق واسع من أجل التصدير ، تخصصاً أدى
به إلى إهمال كل ما عدا النبيذ من لوازم البيت ، وبما كان لديه من صنوف
الجصيات (الفريسكو) والبرونز والأثاث المطعم الحديث الطراز وصحاف
الفضة الفاخرة ؛ بل حتى ما لديه من القراميد والفخار وجواربه وما يستخدمه

---

(١) انظر ف . هيرث China of the Roman Orient ص ٣٨ (ميونخ ١٨٨٥)

من مناجل تقليم الشجر وما يرتديه من الثياب ويتناوله من صنوف الأطعمة ، وكل هذه أشياء مجلوبة من المدينة أو من وراء البحار — إن ذلك المزارع السرىّ إنما هو عضو رئيسى فى نظام تجارى يشمل العالم كله ويعتمد بعضه على بعض : — فهو وحدة طرازية تمثل الحضارة الرومانية[1] . ولا مراء أن الحضارة كانت ترقّ وتضمحل خارج عالم البحر المتوسط حتى تتحول إلى مجرد طلاء سطحى ، ومع ذلك فإن الفخار الذى انتشر بكل مكان والأوانى المعدنية المصنوعة بالقارة والمكتشفة بمواقع رومانية بريطانية لتشهد بأهميتها فى الحياة اليومية حتى فى الجزائر البريطانية نفسها .

على أن الموقف فى حوالى ٨٠٠ للميلاد يختلف عن ذلك اختلافا بليغاً . فلو أغفلنا مالا بد منه من اختلافات ، لأمكننا أن نطلق بحق على النظام السائد بأوربا الغربية فى ذلك الزمن اسم نظام الاقتصاد المغلق ـ أو الاكتفاء الذاتى (Geschlossene Hauswirtschaft) وهو نظام يتكفل فيه بحاجات الحياة عمل مجتمعات ذات اكتفاء ذاتى ، «وليس لتبادل السلع فيه إلا مركز ثانوى فى الإنتاج[2]» أما التجارة التى تنقل إلى مسافات بعيدة فهى على الجملة مقصورة على سلع الترف اللازمة للبلاط والكنيسة ـ كالتوابل والجواهر والعاج والبخور والمصنوعات الفنية . بل إن فرنسا نفسها ، وهى القطر الذى تهيأت فيه أطيب الظروف المواتية لإعادة بناء المجتمع ، لم يكن ما فيها من مزارع ضخمة جيدة التنظيم وتابعة للبيت المالك ولاضياع الأديرة القوية (مثل دير سان جرمين دى بريه) مما يمكن تسميته باسم المصانع بأية حال ، كما توهم البعض أحياناً ،

(١) انظر تينى فرانك فى (An Economic Hist. of Rome) (ط ٢ لندن ١٩٢٧) ف ١٤ وخاصة ص ٢٦٦ .

(٢) انظر ، كوليشرف (Allgemeine Wirtschaftsgeschichte) ص٣ ، ٢٩٩ (برلين ١٩٢٨ — ١٩٢٩) .

ولا هى كانت مصانع تنتج للأسواق الخارجية بالجملة كميات ضخمة من السلع الزراعية والصناعية ، وإنما هى مجرد مزارع بالغة الضخامة ، تزود البيت الملكى والدار الكنسية بما تحتاج إليه من الضروريات ، وذلك مثلما كانت الأوقاف الإيطالية تقدم تلك الضروريات لكنيسة روما فى عهد جريجورى الكبير[١] . وغنى عن البيان أن هذا النظام المعروف باسم « الآفاق المحلية » إنما يرجع بصورة مباشرة إلى انهيار الحكومة الرومانية والمواصلات والتجارة . ويبدو أنه لا يصح تحديد نقطة التحول على أنها القرن الخامس ، بل بالأحرى على أنها سنوات الفوضى والغزو الخمسين فيما بين (٢٣٥ — ٢٨٥) ، وهى السنوات التى دمرت بالفعل ما كان للإمبراطورية الرومانية من نسيج اقتصادى محكم . وقد أعاد دقلديانوس وقسطنطين للنظام السياسى سيرته الأولى . إذ ثبتا العملة وحددا مستوى أسعار السلع ، وأحكما ربط الصناعة بعجلة الجيش والإدارة المدنية — ولكنهما لم يتمكنا من تعويض ما كان للنشاط التجارى من خيوط دقيقة ، كما أن مهلة القرنين الهادئين التى أتاحتها جهودهما لبلاد الغرب لم تشهد أى انتعاش فى التجارة بين الأقاليم ، بل شهدت ارتداداً إلى الوضع البدائى القائم على الاكتفاء الذاتى المنعزل . وتجلى ذلك بوجه خاص فى بلاد مثل بريطانيا وشمال فرنسا اللتين كانت الأنظمة الكلتية قائمة بهما ، وهى أنظمة تناقض ما هو معروف عن البحر المتوسط من مراكز تتركز بها المدن[٢] .

والنتيجة لهذا فإن التجارة والصناعة فى الغرب ، لم يتبد فيهما انقطاع ظاهر

(١) انظر ما قبله ص ١٣٢ من هذا الكتاب . وانظر كذلك .Greg. Epp بمواضع متفرقة وأيضاً إسبيرنج فى : The Patrimony of the Roman Church in the time of Gregory the Great) كمبريدج ١٩١٨.

(٢) انظر ب فينو جرادوف فى (The Growth of the Manor) ص ٦٦ (لندن ١٩٠٥) .

عند الانتقال من العصر المتأخر للإمبراطورية الرومانية إلى أوائل العصور الوسطى. وقد قضى قراصنة الوندال على الملاحة فى البحر المتوسط أو على الأقل على معظم ما تبقى منها حتى القرن الخامس، ولم يكن إحياء النشاط التجارى زمن الـكارولنجيين أمراً ممكناً بعد ظهور البحرية الإسلامية[١]. وذلك على حين أن الطريق التجارى البرى إلى الشرق قد أوصده كذلك حشود الغزاة الزاحفين صوب الغرب، ثم احتلال الهون والآفار لأرض المجر، فضلا عن هجرة الصقالبة. ومع ذلك فمن المحقق أن أنواعاً معينة من المنتجات احتفظت بأسواقها أو حصلت على أسواق جديدة، ومنها أسلحة طليطلة وصناعات قرطبة الجلدية ومنسوجات فريزيا. ومن المدن الشمالية التى تشير إليها السجلات بوصفها مراكز تجارية: إيتابل وأوترخت ولندن وسيليسڤيج وبركا بالسويد. وعقدت الأسواق السنوية — كالتى قامت فى تروى (Troy) وسان دنيه — فاجتذبت إليها التجار الجوالين من كل البلاد، وأصدر الملوك التشريعات المنظمة للتجارة، وصار بالمدن الـكبيرة عادة أحياء خاصة بالتجار. وهناك أسواق الراين العظيمة القائمة على التخوم منذ العهد الرومانى[٢]، وهى التى كان يطاولها صف المحطات التجارية التى أذن باقامتها شرلمـان على الحدود الصقلبية. على أن بعض الطرق بالغة الطول، كالطريق المـائى الذى يربط بين بحر البلطيق والبحر الأسود، تتبدى فيها دلائل تدل على تزايد النشاط التجارى إبان القرن الثامن، على حين أن المدن الفرنجية لم تكن تجهل بأية حال وجوه من يترددون عليها من العرب واليهود والسوريين، بما يحملون

---

(١) انتقد ن . هـ . باينز فى (J. of Roman Studies) ع ١٩ (١٩٢٩) ص ص ٢٣٠ ع ع رأى بيرن القـائل بأن التجارة المنظمة الممتدة من أقصى البحر المتوسط إلى أقصاه ظلت موجودة حتى القرن الثامن . وعن مراجع أخرى لهـذه المسألة انظر كتاب (Byzantion) ج ٧ (١٩٣٢) ص ص ٤٩٥ — ٥٠٩ ، وانظر أيضاً إ . باتزلت فى : (Die frankische Kultur und der Islam) (فيينا ١٩٣٢) .

(٢) انظر (Tac. Germ. C. 4I. & Hist. iv. 64) .

إليها من النفائس والتحف الشرقية . ومع ذلك ، فإن من الحقائق الثابتة أن الفترة المبكرة من العصور الوسطى لم تشهد من النشاط التجارى المنتظم فى الغرب ما يمكن أن يقال فيه إنه لا غنى عنه للإبقاء على المجتمع — وكانت الأحوال فى الإمبراطورية البيزنطية مغايرة لذلك تماماً ، وذلك لإن البنيان الاقتصادى الرومانى ظل هنا سليما محافظاً على وحدته وتماسكه بكل ما حوى من نقد وائتمان (Credit) وأسواق وتشريعات تجارية ، على حين أن العلاقات التجارية البحرية مع الشرق الأقصى التى قطعت منذ القرن الثانى قد عادت إلى مجاريها تقريباً .

الزراعة فى الغرب

على أن للزراعة صورة مخالفة لذلك قليلا وإن لم يترتب على غزوات البرابرة أى انقطاع حقيقى فى هذا المجال أيضاً ؛ ذلك بأن مطالع العصور الوسطى فى غرب أوربا إنما هى استمرار للتقدم المضطرد الذى بدأ فى عهد قيصر ، والذى انتشرت فيه ـ متفرعة من دائرة الإمبراطورية ـ الطرق البارعة فى فلاحة الأرض منتقلة إلى خارج الإمبراطورية فإلى جوف القارة الأوربية . ومن إقليم الراين وشمال شرقى فرنسا اجتازت آلات الزراعة وأساليبها الفنية الرومانية مناطق الحدود إلى ألمانيا[١] ، حتى إذا استقرت قبائل البرابرة ، زالت من الوجود حياة الرعى والقنص ، وحلت محلها المهن والأعمال الزراعية الثابتة ، التى أخذت تنتشر رويداً رويداً فوق شطر متزايد الرقعة من أوربا . ومن وراء هذه المنطقة كان هناك عالم يستره الظلام حافل بالمستنقعات والغابات والسهوب وزاخر بالأقوام البدوية والشعوب البدائية التى تعيش على التقاط

(١) وبفضل الرومان أيضاً عرف الألمان البساتين والحدائق ، كما يتجلى ذلك من أسماء الفواكه والأزهار والخضر المشتقة من اللاتينية . وواصلت الأديرة العظيمة بث هذه المعرفة .

الثمار . لقد كانت حدود هذا العالم تتراجع على الدوام ، غير أن مناطق كبيرة منها بقيت على حالها من التأخر ، منها أصقاع مترامية من الغابات العذراء بفرنسا وألمانيا ، ومنها شعوب رعاة تطوف فى أرجاء مرتفعات البلقان . على أن هناك تعديلات وتغييرات أخرى دخلت إلى خريطة أوربا الزراعية بتأثير خصائص التربة والمناخ وتقاليد القبائل والعرف المحلى . وبذا يمكن التمييز بسهولة بين طرائق الألمان الشماليين والألمان الجنوبيين ، على حين أنه حدث فى إنجلترة ، أن سلاح المحراث السكسونى الثقيل ، الذى كان يقلب التربة الطينية العميقة فى الحقول المستطيلة الضيقة غير المسورة التى تحيط بمستوطنات الغزاة ، قد قضى تماماً على الزراعة الرومانية الكلتية بكل ما حوت من حقول صغيرة مربعة تقع فى تربة طباشيرية أو رملية حصبائية . وبفضل هذا المحراث نفسه ، ابتدأ أول التحولات الثلاثة التى مرت بريف بلادنا[١] .

ولكن خط الانفصال الرئيسى ببلاد الغرب لا يزال إلى اليوم قائماً وواضحاً بين الزراعة الاستنفادية الشديدة الاستغلال للرقاع الضيقة بإقليم البحر المتوسط التى تتمثل فيما يملكه الأفراد من قطع يزرعونها قمحاً وكروماً وزيتوناً ، والتى اشتهرت بالخطوط القصيرة الضحلة والمحاريث الخفيفة وبين الزراعة المترامية الرقعة بالمناطق الشمالية ، حيث يتحكم المناخ القاسى وقلة عدد السكان والمناطق الضخمة من الغابات أو المستنقعات ، وتنتج نظما للزراعة يلعب فيها دورا كبيرا بل دورا سائدا متسلطا ، ويكون عمل الإنسان نادرا قليل المهارة ، ويشق المحراث الثقيل بثيرانه الثمانية شقوقاً مديدة فى الحقول المستطيلة الشقة .

(١) لاشك أن السياجات التى أقيمت فى أثناء الفترة الأخيرة فى العصور الوسطى والتى بلغت ذروتها فى أثناء القرن الثامن عشر ، هى السبب المباشر فى التحول الثانى ، كما تعد الثورة الصناعية التى أتمها فى أيامنا هذه استخدام الوسائل الميكانيكية فى الزراعة مسئولة عن التحول الثالث .

والواقع أنه ليست لهذه الأحوال المتناقضة من أهميـــة إلا من الناحية السيكولوجية فقط . فإن نظام الزراعة المحدد المعالم فى البحر المتوسط، الذى عم إيطاليا وجنوب غالة وأسپانيا وشمال إفريقية زمن حكم الرومان ، بما اتسم به من الفردية والاكتفاء الذاتى والملكية المطلقة للأرض ، كان خير معوان لأهداف نظام الضرائب وتحديد الوضع الاجتماعى للأفراد ، على الرغم من أن عبارات القانون الرومانى الطنانة ، قد أخفت الحوافى الخشنة لكثير من صنوف الشذوذ . ومع ذلك ، فإن الأحوال الطبيعية فى الشمال تمخضت عن عقلية تعاونية ، وعن عالم فكرى ، حقوق الملكية فيه غامضة ومعرضة لصياغة مبهمة عسيرة الفهم . وكان للدورة الزراعية واختلاط الأنصبة فى الحقول والشيوع فى استخدام الغابات والمياه والمشاركة فى منتجعات الرعى ، وعادات الحياة التى تولدت من أمثال هذه التقاليد ، — كل ذلك كان له الفضل فى خلق اقتصاد ريفى أكثر مرونة وعدم انتظام من اقتصاد منطقة البحر المتوسط . وقد رُسخت عناصره المميزة إبان العهود الكلتية لغالة وبريطانيا واستمرت إلى ما بعد الفتح الرومانى (على الرغم من أن نظام الضياع (الڤيلات) المركزية سار أشواطاً فى سبيل التقدم بكل من القطرين ، إذ وجد فيها تربة صالحة لنموه) . وتتضح هذه العناصر فى كل مرحلة من مراحل الزراعة الچرمانية ابتداء من الاحتلال المؤقت فى أثناء عهد الهجرات حتى التطورات الكاملة النمو بإنجلترة فى عهد الأنجلوسكسون . وقد تركت تلك العناصر أثرها فى حياة القرية وفى نظم الحكم الذاتى المحلية الشائعة فى العصور الوسطى ، وهى تشكل عنصراً جوهرياً فى نمو الضيعة (Manor) (أى دائرة حكم النبيل) ، إذ إنها عطلت بل منعت تماماً فى كثير من الأحيان ذلك التماثل التام الذى ربما فرضته — لولاها — المؤثرات الإقطاعية .

الطبقات الاجتماعية

وربما كان هناك شيء من زائف التبسيط فى مد ظلال هذا التباين على أوائل العصور الوسطى وعرض المسألة على اعتبار أنها اختفاء ما للألمان من حرية شخصية ونظم ديموقراطية فى غمرة ما للرومان من المفاهيم الفقهية التى أقامتها قرون طويلة تعرضت فيها الطبقات الدنيا لظلم منظم ، والتى غذتها الفكرة السائدة فى البحر المتوسط عن تفاهة حياة الإنسان وزهادة العمل البشرى . أجل إن هذه الفترة تتميز بما سادها بصفة عامة من : « إهدار لكرامة طبقة العامة وتحطيم لكيانها »[1] . فإن الفلاح الصغير (Bonde) لم يظل مستقلا أى قادراً على الاحتفاظ بحقوقه إلا فى أقاصى الشمال فى بلاد النرويج والسويد . ولكنه فى الدانيمركة وإنجلترة لا يصبح فلاحا(Husbandman)أجيراً فحسب ، بل عبداً رقيقاً (Bondman) . وهنا تتحول اللفظة الفرنجيــة ڤيلانوس (Villanus) أى العامل بالضيعة إلى لفظة (Villein) السائدة فى العصور الوسطى ، والتى يقصــد بها « رجـل وضيع الأصل رقيق الحال » . وتختفى الطبقات الوسطى من المجتمع فى مملــكتى كنت ووسكس ، مخلفة وراءها ثغرة هائلة بين طبقتى النبلاء والدهماء . وحدثت هذه العملية أيضاً بمناطق أخرى . ومع ذلك فإن التقاء الاتجاهات عند الجانبين الرومانى والجرمانى ، مهد الطريق لهذا « التحول الأرستقراطى للجماعة البشرية » . وقد أفضى سقوط الحــكم الرومانى إلى انتقال السلطة الحقيقية — على الرغم من أنها لم تــكن بأسرها دستورية — إلى أيدى الأعيان المحليين الذين أصبحوا سادة صغاراً على فلاحيهم يتولون النظر فى شئون مستأجريهم القضائية ويقررون عليهم الضرائب .

---

(١) انظر (Cambridge Medieval History) مج ٢ ص ٦٥٢ (كمبريدج ١٩١٣)

ومع ذلك فإن ما حل بالإمبراطورية من هبوط اقتصادى ، وإن أدى إلى تحول صغار الملاك إلى أتباع لمالك الأرض ، وقيد حرية حركتهم ، قد جعلهم شيئاً ضرورياً لا يستغنى عنه نظراً لندرة اليد العاملة ، وبذلك أتاح لهم ميزة القدرة على المساومة . وفى الحين نفسه أدى تحسن الوضع الاجتماعى للرقيق ، الذى يرجع إلى التشريعات ذات النزعة الإنسانية أولا ، ثم ذات الصبغة المسيحية فيما بعد ، — إلى التقريب بين وضع الفلاح الصغير (Colonus) ومكانته ، وبذلك أسهم فى تكوين طبقة كبيرة شبه حرة ، هى طبقة العمال (Laborantes) التى ألفت مع رجال الكنيسة (Orantes) والنبلاء (Bellantes) العناصر التى يتركب منها المجتمع فى غرب أوربا[١] .

وإذا حولنا أبصارنا إلى الجانب التيوتونى من الصورة لم نجده يمثل بأية حال المثل الأعلى للحرية والديمقراطية البدائية ، كما تصور ذلك وأعلنه أحياناً بعض المتحمسة من مؤرخى القرن التاسع . ويشير الأستاذ ڤينوجرادوف أنه : «لاشك أن الرجل القبلى المسلح الحر كان يستمتع بقسط لا بأس به من الحقوق ، وإن لم تكن هناك أدنى علاقة بين الاعتراف بوضعه الاجتماعى وبين النظريات الديمقراطية العصرية» . وقد كان المحاربون فى أى مجتمع بدائى كبلاد الإغريق أو روما فى عهودها الأولى ذخراً ثميناً تعتز به الدولة ، ومن ثم لم يكن بد من استرضائهم ، حتى لقد كان لهم فى بعض الأحيان نصيب فى تدبير السياسة . ومع ذلك لم يكن بين الجرمان حتى فى زمن تاكيتوس نفسه مساواة فى المكانة ، وعندما استقرت نهائياً القبائل المهاجرة ، زاد الإقطاع ومنح الأراضى المقطعين فى مدى التفاوت بين الطبقات . وكلما ازدادت سلطة الملك ، حل مكان طبقة النبلاء الوراثية طبقة نبيلة أخرى قامت على أساس ما تؤديه من الخدمات . على أن هذه الطبقة الجديدة من النبلاء لم تكن تلبث حتى تصبح وراثية ، وإنا لنجد منذ

---

(١) انظر تذييل ب .

أ بكر أيام الاستقرار وإلى جوار القرى الحرة ، أن رقعة أملاك النبلاء ورؤساء الأديرة يطرد نموها . فإذا حلت الفوضى التى وقعت فى عصر الميروفنجيين أورثت أوربا من النتائج ما أورثه لها انهيار الإمبراطورية الرومانية ، وعندئذ أنزل الرجال الأحرار أنفسهم منزلة الأتباع ليحصلوا على حماية أحد الملوك الأقوياء ، على حين أن السلطة المركزية ظلت على الدوام تجرى المساومات والمقايضات على سلطاتها أو التخلى عنها . ومع ذلك فإن العملية التى يعتبر النظام الإقطاعى ذروتها ، سارت ببطء . ففى أيام شرلمان كان اتساع ما فى حوزة صغار الملاك والمجتمعات الحرة من الأراضى يفوق فى مساحته مساحة الضياع الكبيرة ، بل الواقع أن مناطق الأملاك الكبيرة يتجلى فيها بوضوح وجود سلطة الضياع الريفية (Menorial) جنباً إلى جنب مع الوحدات والنظم الشعبية المعروفة منذ القدم .

ومن الطبيعى أنه لا يجوز أن نتطلع فى قرون الفوضى والاضطراب إلى النظريات السياسية المكتملة التطور التى تتولد دائماً من الظروف المعاصرة، وذلك لأن عصور الفوضى تكون فيها المحافظة الفعلية على الأمر الواقع (De facto) وعلى السلطة أهم كثيرا مما للشخص الذى يمارسها من دعاوى شرعية (Dejure) ، ومع ذلك فى الإمكان أن نلحظ فى أفكار الناس عن الدولة تغيرين أساسيين، تولداً عن سقوط الدولة الرومانية فى أوربا الغربية ، وقدر لهما أن يؤثرا فى العصر الوسيط بأكمله . وأول هذين التغيرين هو العلاقة الجديدة المتغيرة بين السلطتين العلمانية والإكليروسية (الكنسية)، تلك العلاقة التى لم يكتمل وضوحها إلا بعد انهيار الإمبراطورية الكارولنجية . أما التغير الثانى فهو انتشار العادات الفكرية المستمدة من الظروف القبلية[1] لدى البرابرة . فإن السكان المختلطين أصولا ، المتفاوتين فى درجة الثقافة، النازلين بالممالك الرومانية الجرمانية أثاروا مشاكل عسيرة فى الإدارة ، لم يتهيأ حلها إلا باتخاذ المبدأ العجيب

(١) انظر ص . ه . فى (The Crowth of Political Thought in Europe) ص ص ١٧١ ع ع . (لندن ١٩٣٢) .

المعروف « بشخصية القانون »[١] . إذ كان كل إنسان يعيش وفق قانون قومه ، سواء كان رومانيا أو برجنديا أو من القوط الغربيين أو من الباڤاريين أو من الفرنجة الساليين أو الريبواريين . يقول أجوبارد الليونى مدافعاً عن ضرورة وحدة النظام القانونى فى إمبراطورية الفرنجة : « لو أن خمسة رجال يجلسون أو يمشون معاً ، لما كان لأحدهم من القانون ما لزميله ورفيقه[٢] » . ولا مراء أن عملية المزج بين هذه النظم تعد مرآة لما نالته أوربا الغربية من ازدياد فى التطور الثقافى . فإن الشخصية كمبدأ تخلى مكانها فعلا للإقليمية ، ولكن ذلك لا يتم إلا بعد أن تؤدى الغرض منها فى ضمان بقاء نواحى العرف القانونية المتضاربة فى أثناء مرحلة انتقال حرجة . والواقع أن الأمر ينتهى بأن يصير « العرف » هو القانون النهائى ، وبهذا الوضع الجديد يتضح لنا انتصار الفكرة الجرمانية القديمة عن القانون القبلى ، الذى اكتسب طابعه منذ الأزمنة السحيقة والتزم به الملك والرعية جميعاً[٣] . ومما يرتبط ارتباطاً وثيقاً بفكرة سيادة القانون هذه ، فكرة الملكية « التى تقوم أساساً على خدمة الأمة »[٤] . وهذا المبدأ الأول مبدأ السيادة المسئولة ، الذى يتعارض ويتنازع على نوع الحكم فى أوربا مستقبلا مع نظيره الأسيوى ، ، وهو المبدأ الثانى الذى يجعل الملك يحكم بمقتضى الحق الإلهى ، وبوصفه نائباً عن الله فى الأرض من الناحية الروحيـــة الكهنوتية ، هذا المبدأ الأول إنما هو بالضرورة مبدأ جرمانى ، على الرغم من أنه ليس جديدا على الغرب بحال . وذلك لأنه متأصل أيضاً فى روما الجمهورية ذاتها[٥] ، التى كانت

(١) انظر ماقبله ص ١١٦ بعنوان الممالك الرومانية الجرمانية .

(٢) M. G. H. Legg. iii, 504.

(٣) « Tac. Germ. c. 7. Nec regibus infinita aut Libera potstas »

(٤) ميكيلوين فى الموضع السابق ص ١٧٥ .

(٥) إن إيزيدور الأشبيلى الذى عاش فى القرن السابع يلحظ الترنيمة الرومانية القديمة للأطفال ونصها (Rex eris si recte, facies, sinon facies, noneris) وعن صورة قديمة أكثر لهذه الترنيمة انظر Hor· Ep. i. i. 59 « Atpueri Ludntes « rexeris » aiunt ' Sirecte facies '

تفوض السلطة العليا إلى موظفين منتخبين ، وبقى هذا النظام معمولا به حتى آماد طويلة من عهد الإمبراطورية فى صورة قانون السيادة (Lex de imperio) ومراسم هتاف الجيش والشعب اعترافاً بشرعية الإمبراطور الجديد . ولو أرجعنا البصر إلى العصور البيزنطية المتأخرة ، يوم بدا أن التصورات والأفكار الهللينية والعبرانية عن الملكية قد أحرزت انتصارها النهائى ، لوجدنا الفكرات الرومانية لا تبرح متشبثة بمكانها فى الألقاب الإمبراطورية وما ارتبط بالحاكم من واجبات وفضائل تقليدية . فأما فى الغرب ، فإن آباء الكنيسة كانوا متفرقى الكلمة بين ميلهم إلى نظام الحكم الثيوقراطى (الدينى) وفق ما ورد بالعهد القديم ، وبين فكرة شيشرون عن الدولة [١] ، وبذا أصبح من المحتم الاعتراف بالعامل الجرمانى لاستمرار اتحاد السلطة والمسئولية ، الذى مهد السبيل لما أعقب ذلك فى بلاد الغرب من تطورات دستورية .

الحكومة الثيوقراطية

ولعل ما هو أهم من ذلك ، بالنظر إلى التغييرات الهائلة التى أدخلها قسطنطين ، يوم طابق بين مصالح المسيحية والإمبراطورية ووحدتهما ، أنه جعل الكنيسة شريكا له فى الحكم ، وزاد فى قوة المسحة الدينية للسلطة الحكومية . فإن الكنيسة أصبحت منذ تلك اللحظة بفضل ما خوله لها من ولاية وسلطة ، جهازاً من أجهزة الإدارة ، كما أن الفجوات والفراغ الذى تخلف عن الاختفاء التدريجى لسلطة الإمبراطور فى إيطاليا ، كان يسد ثغراتها على الدوام نمو النظام البابوى المطرد . ولم يفت ملوك البرابرة على الرغم من موقفهم

---

(١) انظر ا . ج . ، ر . و . كارليل فى (History of Medieval Political Theory in the West) مج ١ ف ١٨ (لندن ١٩٠٣) .

المستقل أو الحافل بالتهديد نحو البابوية ، أن يستفيدوا من الكنيسة فى خدمة أغراضهم القومية ، وذلك لأن رجالها كانوا المرجع الوحيد الذى يجدون لديه من المعرفة بطرائق الرومان ونظمهم القدر الكافى لمعالجة المشاكل المعقدة فى مجتمع متحضر. على أن نقطة التحول فى هذه العملية لم تتم إلا بذلك التغيير العظيم فى الخطط السياسية الذى يسميه المؤرخون باسم «تغيير القلب» والذى استحدثه بالنسبة «للبرابرة» جريجورى الكبير فى السياسة البابوية . وربما صح عند كل من ليو الأول وأوغسطين وچيروم أن تكون رسالة الكنيسة عالمية من الناحية النظرية ، غير أنها كانت فى الواقع محددة بجدول الإمبراطورية الرومانية[1]. وقد كان الغزاة المغيرون يعتبرون حتى فى نظر سالفيان نفسه الذى اشتهر بالإشادة بما اتصف به الألمان من فضائل ساذجة ، — سوط عذاب من الله ، كما أن ما يرتدونه من ثياب وما ينبعث من أجسادهم من روائح كان كفيلا بأن يجعلهم خارج نطاق المجتمع الإنسانى المتحضر . وقد وضع جريجورى حداً لذلك كله بما قام به من نشاط تبشيرى وديبلوماسى فى أوربا الغربية ، فمهد بذلك السبيل لإمكانات جديدة لم تدر بأحلام الناس ، وكلما زاد النفوذ البابوى فى الممالك الجديدة ، ترتب عليه بالتبعية تسويغ الانفصال عن بيزنطة عقلياً ، وهى المركز الإمبراطورى للعالم . فقد هيمنت فى أسپانيا المجامع الأسقفية على مملكة القوط الغربيين إبان السنوات الأخيرة من وجودها . فأما فى إنجلترة فإن الحكام الإنجليز السكسونيين اعتمدوا فى حكمهم على مشورة مستشاريهم الرومانيين وما يبذلونه لهم من معاونة فى السياسة والتشريع . كما أنه حدث فى فرنسا أن رجال الكنيسة لم يلبثوا أن دخلوا فى خدمة الفرنجة — وبفضل تعاونهم تيسر كل

---

(١) انظر إ . كاسبار فى (Geschichthe des Papsttums) مج ١ ص ٥٥٨ (تيوبنجن ١٩٣٠) .

ما تم من الفتوح من عهد كلوفيس إلى عهد شارل مارتل — وأخذ شرلمان نفسه بواصلة التقاليد الميروفنجية ، فاحتفظ للكنيسة بمركزها بوصفها أداة هامة جوهرية للحكم ، وإن كانت خاضعة لسلطان الملك فى كل الأمور . ولم يكن بد من التخلص من مساوئ الكنيسة ، حتى تستطيع القيام بوظيفتها الأساسية فى فرض الصبغة المسيحية على تفكير الرعايا الفرنجة وطباعهم . ومن ثم وضعت بأيدى رجال الكنيسة شئون التعليم والإدارة بل القمع (كما حدث فى سكسونيا) . ولا مراء أن الطابع الدينى (الثيوقراطى) فى نظام شرلمان بلغ من القوة والبروز ما بلغه فى عهد جستنيان وخلفائه . وكان أباطرة القرن التاسع بشرق أوربا وغربها سواء ، يحكمون رعاياهم باعتبارهم مفوضين من قبل الله ، وتمسك الرجل العادى بقواعد الديانة الرسمية وأحكامها ، تمسكا لابد أنه يثير دهشة أى مواطن رومانى ممن عاشوا فى العصر السابق لقسطنطين .

التغير الثقافى

ربما جاز وصف طابع التحول الثقافى الذى تولد فى تلك القرون عن انهيار الحكم الرومانى فى الغرب ، بأنه مجرد « تفتت » وتحلل للقشرة الخارجية للحضارة . وعلى الرغم من أن أجزاء بعينها من تلك القشرة ظلت حية ومتماسكة فى بعض الأماكن أو تكاد ، فإنها لم تعد بأية حال من الأجزاء الأساسية التى يتألف منها الإطار العام . إذ برزت عند ذاك إلى السطح للمرة الثانية تقاليد إقليمية أقدم عهدا طمستها لعدة قرون تلك الخطط النظامية المرسخة الأصول التى ابتدعها الجهاز الإمبراطورى الرومانى وغمر بها تلك التقاليد ولم تلبث أن تجلت نتائج خمائر جديدة ثورية كانت تعمل فى الخفاء مدة طويلة .

فمن الناحية الاقتصادية ، انحلت روابط التجارة العالمية ، وحل محلها

نظام الاكتفاء الذاتى المحلى . ومن الناحية السياسية ، تمزقت الأقاليم الغربية ، وتحولت إلى ممالك جرمانية رومانية . واتحدت تلك الممالك أمداً قصيراً من الزمان تحت تاج شرلمان ، ثم عادت فتمزقت عدداً من الدويلات المتعادية . وفى مجال التعليم ترتب على اختفاء الإدارة الرومانية ، أن زال الباعث على تعلم البيان . واختفت من الوجود المدارس والجامعات باختفاء ما كان يساندها من نظام سياسى واقتصادى ، على حين أن الطبقات الناعمة بالمتعة والفراغ التى تبادلت من الرسائل الرشيقة الحافلة بالتلميحات والإشارات ما حفظ للأدب مكانته الاجتماعية ، لم يعد لها وجود باعتبارها طبقة المفكرين الأوربيين . ولا شك أن عدداً كبيراً منهم هلك فى أثناء الغزوات أو انحدر إلى مرتبة الفلاحين. كما هاجر إلى بيزنطة عدد كبير من الأسر النبيلة . وانعزلت عائلات أخرى منهم فى دورهم الريفية النيعة ، فشغلوا أنفسهم بالقنص والطراد أو انضموا إلى حرفة الجندية ، وهى الحرفة الوحيدة المجزية فى مثل ذلك العصر . وكانت الأديرة تفتح أبوابها أمام قلة من هذه العائلات اتخذتها ملاذا ، على أن حياة الأديرة وخدمة الكنيسة لم تكن لتهيئ الفرص لتلقى التعليم العلمانى .

ومن الناحية الفنية ينحط الطراز الرسمى للإمبراطورية الذى ظهر فى أسوأ صوره فى أنواع « الإنتاج الصناعى الكبير » الذى كان يصدر إلى الأقاليم النائية (كأوانى ساموس الفخارية وما أشبهها) بتداعى الأسباب التى دعت إلى إنتاجه وتوزيعه ، كما أن التقاليد المحليـة غير الرومانية استمر تأثيرها فى بعض المناطق — كالنماذج الكلتية المرنة والجواهر التيوتونية الضخمة ، والتصاميم الخيالية العجيبة التى ابتدعتها يد الصانع الأسكنديناوى فى الخشب والمعادن . وفى روما ذاتها يتجلى الانتقال من العصور القديمة إلى العصور الوسطى بمقارنة النقوش البارزة لعهد تراچان (حوالى ١٠١ م) التى كانت تؤلف فى الماضى جزءاً من منصة الخطيب فى الفوروم (السوق) بما يماثلها

فى الموضوع من نقوش بارزة رسمت على قوس قسطنطين (حوالى ٣١٥ م) وفيها تتجلى بوضوح[1] الخصائص الطرازية البيزنطية . والنقش الأول يصور الإمبراطور تراچان وحاشيته بأقصى غاية المهارة فى التمثيل كالمعالجة الدقيقة للثياب ، والبراعة فى تأخير المستويات المتتالية ، وهى الأمور التى ترتبط بالطراز اليونانى الرومانى . وفى النقش الثانى ، يتصدر قسطنطين المشهد ممثلا فى صورة جامدة فى قمة سلم الوظائف ، ويعلو صفوفاً ضئيلة مصغرة ومكتّلة من رجال السناتو والرعايا . ولا شك أن التباين بين الحالين بالغ الوضوح . إذ تتجلى خشونة النهج الفنى وغلظه ، كما يتجلى التركيب الشكلى المبالغ فى «سيمتريته» فضلا عن الافتقار إلى الحاسة التشكيلية والميل إلى سوء معالجة الأشكال باستخدام « التخطيط الـكروكى بالأزميل » ، اعتماداً على قيام اللون بملء التفاصيل ، وهو تحول ظاهر من طرائق النحات والنحت إلى طرائق المصور والتصوير . على أن من الخطأ اعتبار هذا الوضع « تداعياً »[2] ، أو تطوراً أصيلا يقوم على ما للتطور من خطوط فنية بحتة ، ارتبطت بمسائل فنية لا بد من حلها . أما الانحطاط الحقيقى فى الفن القديم فيظهر فى تلك التماثيل التى تماثل فى واقعيتها الصور الفوتوغرافية والتى تمثل صيادى الأسماك المصابين بالروماتيزم والعجائز الناحلات واللاكمين الوحشيين — التى ترضى مطالب الجمال الرومانى فى القرن الثالث[3] . ومن المؤكد أن فى إمكاننا أن استنتج وجود الانحطاط فى كل من المهارة والذوق العام ونتعرف عليه من نقوش قسطنطين البارزة ، ولـكن التغير يكمن فيما هو أعمق من هذا . ذلك بأنه تغير الروح والنظرة ،

---

(١) انظر هـ . لايتزمان فى « Das Prblemd der Satantike » Sitz. d. Preuss. Akad. d. Wiss)

(٢) انظر ل . نون . سيبل فى (Shätrömische Sculpture) مج ١ ص ص ٤٥ ع ع (فينا ١٩٠١) .

(٣) انظر ا . و . لورنس فى (Classical Sculpture) ص ٣٧٠ (لندن ١٩٢٩)

تغلغل فى كل ناحية من نواحى الحياة ، وهو يسعى هنا باحثاً عن وسيلة للتعبير عن نفسه ، وذلك بصورة غلب عليها التردد فى البداية ، ولكنه تطور فيما بعد حتى وصل إلى الظفر الراسخ المحقق المتمثل فى الفنين البيزنطى والرومانسكى. والسمة الغالبة فى هـذا التطور شرقية . وقد تجلى التغير فى الحقل الدينى فى انتشار العبادات والنحل الباطنية (ذات الأسرار الخفية) ، كما يتجلى فى النصر النهائى لأعظم هذه النحل جميعاً ، وهى المسيحية . وفى ميدان الفكر ، يمكن ترسم تغيير جاء فى صورة تطور مصاحب للرمزية الشرقية . فإذا انتقلنا إلى مضمار الفن ، وجدنا النظرة المسيحية والصوفية تحدث تغييراً فى الداخل فى ثمار التقاليد الكلاسيكية ، ويعززها من الخارج المؤثرات المادية للأساليب والتكنيكات الآسيوية [١] . ثم يصبح هذا المؤثر بعد أن تركزت الإمبراطورية فى بيزنطة ، أشد ثباتاً وأعظم قوة ، ويتمخض تفوق العاصمة الثقافى والاقتصادى عن انتشار إنتاجها الفنى فى كل أرجاء أوربا المتبربرة ، حيث صارت نماذج يحتذيها تطور الفن فى العصور الوسطى أو يصحح عليها أوضاعه .

الآداب واللغة

وهناك اتجاهات مماثلة تتمثل فى انبثاق الأشكال والصور الشعبية القديمة وتأثير خمائر جديدة ، وهى تتجلى فيما أحدثته فى الأدب واللغة من التغيير . فإن أناقة وأرستقراطية أوزان الشعر اليونانى بما ترقرق فى مقاطعها المتسقة الكم والعدد من موسيقى رقيقة ، قد احتفظت لنفسها بسيطرة قلقة على الشعر اللاتينى ، الذى تعمقت جذوره الطبيعية فى إيقاعات الفلاحين القوية عن أرض بيادر الحبوب وعن عجلة المغزل والرقصة الريفية ، والأقوال المأثورة

---

(١) بطبيعة الحال ، ليست الرمزية بأى حال منافية لأشد أنواع الواقعية تصلبا . وهذه حقيقة تتجلى بوجه خاص بمدرسة أنطاكية . وتتجلى آثار الفن السامى فى التمثيل بالصور فى فريسكوهات ديورا (Dura) التى ترجع إلى القرن الثالث الميلادى .

التي ينطق بها الوحي الريفي ، وما يصدر عن أقدام جند الكتائب من وقع ثقيل . ويتعالى صوت الغناء من جوقة المنشدين الإمبراطوريين ، ولكن جذاذات صغيرة من هذا الشعر الشعبي تستطيع الأذن التقاطها من دون صوتهم المتعالي ، ومن الشذرات ترنيمة للطفولة أو قفشة مفحشة عن جنود قيصر المسرحين أو سطر من الشعر الغرامي كتب على جدار بأحد شوارع پومپياى . وقد تبنت هذا الشعر المشدد النبر والإيقاع في أثناء القرن الثاني الميلادي جماعة من الأدباء المجددين ، وعن تلك الحركة ازدهر الفن الرائع المسمى باسم التهجد في عبادة ڤينرس (Pervigilium Veneris) . ولا شك أن ما أصاب المعايير الثقافية من الضعف قد شجع على ظهور هذه التطورات . كما أن الروح الجديدة استكشفت وسيلة مناسبة للتعبير الذاتي هي الإيقاعات القوية وما لها من مؤثرات عاطفية عريضة . وكانت أسپانيا وإفريقية تربة صالحة مثمرة لهذا التطور في الأوزان . ومما له دلالته القوية على تغير الظروف ما كتبه أوغسطين ضد الدوناتيين من أناشيد فجة لكي تؤديها الجماعات المحتشدة بطريقتها الخشنة في التشطير والتقطيع وجوقاتها الزاعقة ، وذلك في حين أن تراتيل پرودنتيوس في المواكب الرسمية رغم تفوقها في الجمال والروعة ، ليس بوسعها أن تخفي اطّراد الإيقاع المنتظم للأشعار الشعبية تحت الألحان الواهنة والانسجام الموسيقي المتنقل . وهنا يبرز في وقت واحد كل من الرويّ والسجع مجتمعين معاً ، وهما من الظواهر المعروفة فعلا في الشعر الشعبي [١] ، وبذا يستكمل ما للعصور الوسطى من ترانيم أشكاله وصوره .

أما النثر فقد سار في الاتجاه نفسه ، على الرغم من أن انعدام التشطير الثابت فيه يحول بيننا وبين تتبع مراحله التالية . ومع ذلك فإن نبرة الضغط المشدد وتصغير حجم الفقرات تتجلى في الخواتيم (Clausulae) ، أو ما يرد من

(١) انظر إ . نوردن في (Die antike künstprosa) ص١١٨ (ليبزج ١٨٩٨)

إيقاع شكلى فى ختام الجمل والفقرات ، التى استخدمها كتاب الحقبة المتأخرة من القرن الرابع الميلادى ، واكتملت فى عهد جريجورى الكبير مرحلة الانتقال من النثر المسجوع إلى النثر الإيقاعى [١] .

أما لغة الحديث نفسها ، فتعرضت لتغير مماثل . وهنا أيضاً كان الأصل فى التغير سيكولوجيا. على أنه لا بد من التزام الحيطة فى معالجة أداة كهذه لها مثل تلك المرونة والتعرض للفناء ، غير أن بعض النزعات البارزة تبدو فيها واضحة. على أن الأساس الجوهرى للتفرقة بين اللاتينية العامية واللاتينية الأدبية الراقية ، هو نوع الفكر الذى تعبر عنه . وعلى الرغم من أن اللاتينية العامية لا بد أنها تأثرت بما سلفت الإشارة إليه من التفكير اليونانى ، الذى تطرق إلى لغة المتعلمين كتابة [٢] وحديثاً ، فإن روحها حافظت على مناعتها إزاء كل أثر للعصر اليونانى القديم ، وبذا ظلت ملكا خالصاً للعامة ، ودامت طويلا بعد تفكك الغرب من الناحيتين السياسية والاقتصادية ، ولم تلبث بعد ذلك أن تفرعت إلى مختلف لغات الرومانس . على أن اللاتينية المهلّنة (أى المتأثرة باليونانية) لم تستطع أن تعيش ولا أن تموت بعد سقوط دولة الرومان بفضل حفظها محنطة جامدة فى قالب الآداب . فظلت باعتبارها لاتينية متوسطة تعيش حياة غير طبيعية بين أروقة الكنائس والمدارس وفى بطون الأوراق ، وعلى ألسنة الدارسين [٣] وآذانهم . وعلى الرغم من أن الأغانى الجوليادرية هبطت بها حتى

---

(١) انظر ا . س . كلارك فى (The Cursus in Medieval of Vulgar Latin) ص ١٣ (أوكسفورد ١٩١٠) .

(٢) وهى اللغة الحضرية (Sermo urbanus) بالمناقضة مع اللغــة العامية (Sermo) (plebius Vulgaris) انظر ف.ف. أبوط فى (Classical Philology) ، ١٩٠٧ ، ص ص ٤٤٤ — ٤٦٠ .

(٣) انظر ك . فوسلر فى (The Spirit of Language in Civilization) ص ص ٥٧ — ٧٥ (لندن ١٩٣٢) .

اقتربت قليلا من الأرض ، فإنها ظلت معلقة بين الأرض والسماء بعيداً عما لحديث الناس الجارى من تيارات لا شك أنها هى القوى المؤثرة فى تطور اللغة.

وفى تلك الأثناء ، كانت لغة العامة ـ بعد أن تخلصت من ضغط الطرائق الأجنبية فى التفكير ـ عرضة لمؤثرين توأمين متلازمين ظهرا فى ذلك الزمن : انتعاش التقاليد المحلية وتأثير البواعث المنبهة الجديدة . والواقع أن ما حدث من تغيرات فى المحصول اللغوى والصرف ، مرآة تعكس ما يقابل ذلك من تغير فى العقلية . وصحب اختفاء ما كان للحياة من اتجاه رواقى أرستقراطى شخصى ، زوال ترتيب الكلمات وضبطها ، فضلا عن الإعراب الذى يتيسر به هذا الترتيب . وحل محلهما الأسلوب غير الشخصى الذى يهدف إلى التواصل بين الناس لا التعبير الذاتى ، ويتمثل ذلك الأسلوب فى المبالغة فى التعبير التى يتسم بها حديث غير المتعلمين ، وفى التغير الذى ألم بمعنى المستقبل الذى لم يعد الناس يتقبلونه بالاستسلام ولا بالعزم المعقود ، ولكنه أضحى موضع المخاوف والآمال الحارة. وأشد ما يتجلى فيه التباين هو الفجوة الواضحة التى تفصل بين الأسلوب الذاتى الرصين الذى يكتب به كبار الكتاب القدامى (الكلاسيكيين) وبين ما يتميز به فى الوقت الحاضر خلفاؤهم من أبناء عصرنا من الفرنسيين والإيطاليين من اختلافات دقيقة رغم اشتراكهم فى التراكيب اللغوية . « ولو قارنا بين صفحة مما سطر ليفى أو تاكيتوس أو فرچيل وبين لغات الرومانس العصرية جميعاً . . . لبدت الثانية كأنما هى كتيب ساذج بالمقارنة إلى لوحة من البرونز [1] » .

التطورات اليونانية

ربما زادتنا تطورات الأدب واللغة عند اليونان قدرة على استجلاء ما سبق إجماله من الاتجاهات . فإن دراسة لغة الحديث وطريقة النطق تعتبر

---

(٢) انظر ك فوسلر فى الموضع السابق .

دائماً من الأعمال الفنية كما أن إحلال النثر محل الشعر لأغراض معينة لم يزد على أن أتاح المجال للاكتمال الفنى . وقد ظهر فى عصر عظمة أثينا أسلوب نثرى باهر ظل متحكماً فى الكتابة اليونانية ألفا وخمسمائة سنة ، بعد أن نجح فى مقاومة جميع المؤثرات الشرقية التى ابتدأت بحكم خلفاء الإسكندر (Diadochi) ، وعاش طويلا بعد الفتح الرومانى ، وتبناه مع قدر ضئيل نسبياً من التغيير — سلسلة طويلة من مؤلفى بيزنطة[١] فى العصور الوسطى. على أن لغة الحديث لم تبلغ هذه الدرجة من الحصانة إزاء تأثير التطورات السياسية والاقتصادية ، ومن ثم يمكننا هنا اكتشاف تغيرات مماثلة لتلك التى حدثت فى اللاتينية . إذ إن لغة مشتركة تتألف إلى حد كبير من لغة أتيكية محرفة ، طغت على اللهجات المحلية ، وأصبحت أداة للتفاهم بين الناس فى أرجاء الشرق الهلينى قاطبة . وصحب ما أصاب الثقافة الإغريقية من وهن وضعف ، تعرض اللغة لخطر بالغ الشدة ؛ فأخذ التغير يداخل طريقة النطق بالكلمات ورقت حروف العلة المفخمة المعروفة فى عصر بركليس حتى استحالت إلى أصوات حرف « e » ، التى ظهرت فى اليونانية المتأخرة وهى عملية امتد أثرها إلى الحروف الساكنة نفسها ، ولم يلبث التمييز بين المقاطع الطويلة والقصيرة أن اختفى مع دخول نبرة تشديد أجنبية[٢] .

إن هذه التغيرات التى ألمت بلغة الكلام استأصلت أسس الشعر والنثر اليونانى القديم اللذين كانا يقومان على الكم العددى وعلى الطبقة الموسيقية . ومنذ تلك اللحظة أخذت الفجوة تتسع بين اللغة الشعبية وبين فنى المتبحرين فى العلم : — قرض الشعر والبيان ، إذ مابرحت الدوائر المحافظة بالجامعة والحياة الرسمية ، تظهر بالغ الاهتمام وتقدر بمزيد الإعجاب قرناً بعد قرن وتشيد بعلم

---

(١) انظر إ . نوردن فى الموضع السابق ص ص ٣٦٧ ع ع .

(٢) عن تخطيط معجب لهذه التطورات انظر هـ . ليتزمان بالموضع السابق .

العروض وتكييف الصوت المعروفين فى الأيام الخوالى ، وهو تقليد لم ينقطع عنه الناس يوماً واحداً كما حدث فى الغرب . وربما جاز لنا أن نستنتج أن من كان كريزوستوم وباسيل يجتذبانهم من جماهير المصلين من أبناء الطبقة الراقية إلى كنيستيهما فى القرن الرابع الميلادى ، لم يكن يجتذبهم إليهما فقط حديث هذين المبشرين الزاكى فى وصف الأخلاق المعاصرة وشذرات على النبات والحيوان التى كانا يستخدمانها مداراً للتربية الخلقية ولشرح الكتاب المقدس ، بل كان يجتذبهم كذلك إليهما مهارتهما البارعة فى استخدام جميع الخصائص الفنية الموسيقية التى طبعت عليها الخطابة الكلاسيكية . ومع ذلك ، فإن خواتيم العبارات التى كان باسيل يلقيها تحتوى من الدلائل ما يشهد بظهور بوادر الإيقاع المشدد الجديد ، حتى إذا انتهى القرن الرابع ، صارت هذه الخواتيم هى الصورة السائدة .

وظل الشعر المنظوم فى الأوزان القديمة بكل ماله من مقاطع محدودة العدد وما تحكم فيه من قواعد الكم ، بعيداً عن التأثر بالنبرة الديناميكية الدافعة أو المشددة ، وإن كان طابعه المصطنع يتجلى فى الزلات ، التى يقع فيها أحياناً بعض من مارسوه بعد القرن الرابع . بيد أن روح التصوف المسيحى التمست لنفسها متنفساً بابتكارها بعض الإيقاعات الجديدة التى استلهمت من النماذج السورية ، التى زخرت بها تراتيل ذلك العصر ، بما حوت من مرجّعات شرقية وعاطفة لشوانة حارة ، والتى بلغت ذروة التطور فيما تردد تحت قبة كنيسة القديسة صوفيا من تراتيل رومانوس الفخمة .

وقد كان للتراث الجذل الخصب لفكر العبرانيين ودينهم الذى تبنته الكنيسة المسيحية فى أثناء القرن الأول من حياتها ، أعمق الأثر فى تشكيل الطقوس الدينية المسيحية . غير أن هذا التراث لم يكن إلا مظهراً واحداً من مظاهر الإحساس الدينى أى تعرفا إلى سر الله الباطن غير المرئى ، اشترك فيه

سكان الشرق الأدنى ، وينبغى التماس أصوله فى الماضى السحيق ، فيما كان لمصر وبابل من تقاليد[1] . على أن التأمل السلبي المتمعن فى الجوهر الإلهى ، والحرص على نبذ الفردية ، اللذين يميزان التدين الشرقى عما اتصفت به المفاهيم الإنسانية للفكر اليونانى من النشاط والحس العملى ، يتطلبان للتعبير عن نفسيهما إيقاعات عاطفية جديدة ، ويستلزمان مفردات لغوية جديدة بل يحتاجان إلى تركيب جديد للجمل . وفى إمكاننا أن نتعقب فى شعر الكنيسة المسيحية وطقوس صلواتها بعض المظاهر المشتركة فى العهد القديم والقرآن والبرديات السحرية ، وكما هو الحال فى فلك الفنون ، حيث حدث أن الانقلاب تشكل بالشكل اليونانى الرومانى الذى نقله إلينا ، حدث هنا بالمثل أيضاً أن ما كان للإله من صفات سلبية غير معقولة وانصراف التعبد إلى طبيعة الله وذاتيته ، لا إلى مظاهر نشاطه ، كل ذلك جرى التعبير عنه ، فى تراكيب العبارات بالجمل الوصفية والحالية وصلة الموصول ، كما جاء فى شكل مواعظ عجيبة ، ومختارات شعرية مهوشة حرة الحركة ، أدت آخر الأمر لا سيما فى حالة الطقوس إلى خلق شكل جديد من النثر الشعرى اليونانى .

وكان للمؤثرات الشرقية فى فن عالم البحر المتوسط وديانته وأدبه ، أثر دائم وقوى لا يتفاوت إلا فى مدى شدته ، وهو أثر يرجع إلى ما قبل التاريخ من أزمنة . فالعقائد الباطنية التى ترجع إلى أصل شرقى ، إنما دخلت منذ زمن مبكر فى تركيب الديانة اليونانية ، كما أن ما اشتهرت به مصر وآسيا الصغرى وسوريا من الشعائر العاطفية الخفية ، التى أدخلها فى أعقاب الفتوح الرومانية كل من كتائب الجند والأرقاء والتجار ، سرعان ما انتشرت فى أنحاء الغرب وتحكمت فى أخيلة السكان[2] . ومع ذلك فعلى الرغم من أن العقيدة الرومانية

---

(١) انظر إ . نوردن فى (Agnostos Theos) ص ٢٢٢ (برلين ١٩١٣) .

(٢) وكتابات فرسيكوس ماترنوس ترجى إلينا صورة أخاذة للصفة الحقة للوثنية الشعبية فى القرن الرابع الميلادى .

انهزمت تماماً أمام العبادات الآسيوية ، فإن السيكولوچيا الدينية فى الغرب احتفظت بطابعها الأصلى ، كما أن فى الإمكان تفسير كثير من مظاهر المنازعات الدينية فى القرن الأول المسيحية على أساس التباين والتناقض ، ليس فقط بين ما اشتهر به اتجاه اللاهوت اللاتينى من الصفة القانونية والحسية ، وما اتصف به كتاب اليونان من ميول خيالية ميتافيزيقية ، بل وأيضاً بين ما أكده الغرب فيما يتعلق بشخصية المسيح وأعماله فى سبيل الخلاص ، وبين ما اتصف به التفكير الشرقى من الاستغراق العاطفى فيما لطبيعة الله من جوهر مفرط الدنيوية .

الرمزية والمجازية

وأظهر الغرب نواحى خلاف أخرى مماثلة باستخدامه الرمزية والمجازية ، اللتين تعتبران على وجه الجملة العمليتين العقليتين المميزتين لتلك الحقبة . فإن التأويلات الساذجة بل المضحكة أحياناً لآيات الكتاب المقدس التى لقيت التأييد من جريجورى الكبير ، ترتبط تقريباً بأخيلة أوريچين الشعرية الرفيعة بنفس الطريقة التى ترتبط بها الأخيلة الثائرة الصاخبة والجمال الواقعى الماثل فى المصغرات والنحائت الرومانسكية ، بما عرف فى الفن البيزنطى من معالجة للرموز تتصف ببالغ الرقة والتجريد والكبح . ففى ذلك الفن ، ازداد الضيق فى تحديد إنتاج الصانع لعدة أسباب متنوعة فى كل من الموضوع والأساليب . ذلك بأن النظر إلى ما وراء اللغة ، وإلى ما وراء العالم المرئى الذى يدركه العقل والحواس ، والتطلع إلى لغة أخرى خفية ، وإلى عالم سرى لا يعرفه إلا « المريد الدينى Initiate » ، إنما هو الامتياز الذى اختص به الشاعر والمتصوف فى كل العصور . وقد استخدم أفلاطون الرطازة (Myth) مع إحساسه بتحديدها ، لتزيد فى توضيح ما ليس فى الاستطاعة التعبير عنه

باللفظ . على أن فلاسفة آخرين قبله حاولوا الاحتفاظ بما كان للعقائد البالية السالفة من تعبير مقدس ، بالإشارة رمزاً أو مجازاً إلى سخافاتها أو استحالة وقوعها . ومع ذلك فإن الطريقة (Subject metha) الذاتية طريقة شديدة الخطر ؛ فإن الفرد نظراً لافتقاره إلى الضوابط الموضوعية ، يظل عرضة على الدوام لتيارات زمانه الخفية . وقد حدث أن مذهب اللاحيائية البدائى — (وهو الاعتقاد بوجود روح Mana فى الألفاظ والأفعال والأشياء غير الحية) الذى عاد من جديد فى صورة إحياء الشعوذة والتنبؤ — نفذ إلى الأفلاطونية الحديثة ، حينما ضعفت قواها وقدرتها الشاعرية على التنظيم ، واختفى التمييز بين الرمز وبين ما كان يمثله[1] ، وكان لذلك الاختفاء عواقب وخيمة . ودمر السحر وهو شىء مادى فى جوهره ، ما كان للإشارة المجازية من أساس روحى . وكانت نتيجة اضمحلال الطاقة الفكرية والخيالية القضاء على ما كان للرمز من وضع سليم مناسب[2] وقد حاول فيلون اليهودى المتهلن التوفيق بين التوراة السبعينية وبين الأفكار السائدة فى عصره بإدخاله تحريفا شعرى الجوهر على المعنى الحرفى للتوراة ؛ مثال ذلك أن الأباريق والطسوت وغيرها فى الأثاث والمتاع الموجودة بهيكل سليمان ، كانت عنده بمثابة ماللروح النقية من فضائل وسجايا . وحرص الشراح المسيحيون على نقل طرائقه ، وبلغ الأمر بالقديس أوغسطين نفسه وهو يجادل بشدة أحد أتباع المانوية حين سأله عن المغزى الخلقى فى قصة داود

---

(١) انظر أ . فون . هرناك فى (History of Dogma) مج ٢ ص ١٤٤ (أدنبره ١٩٠٧) . إن مفهوم كلمة « رمز » لدينا فى هذه الأيام ليس ماتمثله تلك الكلمة ، فى ذلك الوقت (القرن الثانى الميلادى) كانت كلمة « رمز » تدل على شىء هو نفسه بشكل ما ، عين ما يدل عليه معناه .

(٢) انظر الانحراف الذى طرأ على الفكر الأفلاطونى فى سفر الحكمة (Ecclesiastieus) من الأسفار المحذوفة الإصحاح ٣٣ . آية ١٥ ، « تأمل فى كل ما صنع العلى ، وهناك اثنان واثنان أحدهما ضد الآخر » . وإصحاح ٤٢ آية ٢٤ ، « كل الأشياء مزدوجة أحدها ضد الآخر » .

و بتشبع ، أنه استطاع أن يؤكد أن داود هو المسيح وأن أوريا هو الشيطان ، وأن بتشبع وهى تغتسل على سطح البيت ، إنما تمثل الكنيسة التى سرعان ما ستصبح العروس السماوية التى تتطهر من أدران العالم السفلى . ومع ذلك ، فإن القوم لم يهملوا استخدام الرمزية على الوجه المشروع . إذ إن أوريجين وهو شاعر حقاً ، ولعله أعظم المفكرين المسيحيين الأوائل ، حاول التوفيق بين اختلافات العهدين القديم والجديد وبين كتاب الأناجيل الأربعة (متى ومرقس ولوقا ويوحنا) وبين الاختلافات الواردة فى كتابات بولس ورفاقه ، بما لجأ إليه من استعارة موسيقية أبرزها فى لحن إيقاعى سيمفونى[1] ، وهنا يمكن التقريب بين الأنغام المتنافرة بواسطة ممارسة ماقد يصل إلى الخيال الشعرى ، كما أن فى الإمكان إساغة مفاهيم بدائية كالمعنى الحرفى للأيام الستة التى خلق الله فيها العالم ، وذلك بالالتجاء إلى التفسيرات الخيالية الأسطورية . وكانت نتيجة هذه الطريقة إفساح المجال لذكاء الأذكياء ، وفتح باب الأمل فى استحداث تطورات جديدة : ولكن لم يقدر لهذا أن يحدث ، كما أن ازدياد اللجوء إلى اللعنات ، واشتداد جمود العقائد ، واتخاذ حلول مذهبية مخالفة للمعقول ، اجتمع ذلك كله فقطع الطريق على المفكر المستقل[2] . وترتب على انهيار الثقافة العامة ، أن ما كان للألفاظ من معنى أخذ يتراجع رويدا رويدا إلى الأوهام بعد أن حرم من ضبط العقل له ، وعلى هذا الأساس أقام العقل فى العصور الوسطى بنيانه . ولا تزال مقارنة چيروم الدقيقة الضليعة لمخطوطات التوراة السبعينية تحتفظ بأهمية الحقيقة التاريخية ، بوصفها شيئاً مميزاً عن تفسيرها ، غير أن أتباع ألكوين الذين حرصوا على التمسك بتعاليم معلمهم دون الاهتمام بممارستها ،

(١) انظر خياله الأوركسترالى العجيب فى (Philokalia) ٦٠ ، ٢ (P. G ١٣ مجموع ٨٣٢) .

(٢) تذييل ب .

لا يعتبرون متن الإنجيل مقدساً ، فإنهم لحرصهم الشديد على نبذ القشور المادية واستخلاص ما فى الكتب المقدسة من معنى روحى[١]، أظهروا استعدادا لإدخال التغييرات وإضافة العبارات التى تتفق مع آراء الشراح من آباء الكنيسة[٢].
ولم يكن المؤلفون الوثنيون أحسن منهم حالا ، إذ إنهم استخدموا المجازية باستخفاف فى الإفادة من محتويات تلك الكتب بقصد التهذيب . فقد بلغ بهم الأمر أن حرفوا معنى الكلمات التى استهلت بها الإنيادة وهى : «إنى أتغنى بمديح الأسلحة والرجال » (Arma Virumque Cano) فجعلوا لها سمة خلقية. فإن كلمة « الأسلحة » قد عد بعض الناس أن معناها الفضيلة ، وأن المقصود بالرجال هو « الحكمة »[٣]. والواقع أن هذه الطرق لم يكن الغرض منها إلا اختصار الطريق للوصول إلى الهدف البعيد الذى جعلته الكنيسة نصب عينها — وهو الدأب على إعادة تشكيل المعرفة القائمة وبذل الجهد الهائل لبنائها فى مشروع شامل متماسك للفلسفة المسيحية . وكان مفكرو القرون الأولى هم الذين بدءوا بالعملية ، ولكن نظرا لما يتسم به الخيال الرمزى من عناد والتواء لم يحدث بعد ذلك أى تقدم عام لمدة تقارب ٦٠٠ سنة ، وهى الفترة التى بدأت فيها الحركة (ولم يكن بدؤها خلوا من أثر الإلهام الإسلامى فى أسبانيا الذى حفظت به الترجمات العربية بعض نواح معينة للفكر الإغريقى) التى بلغت ذروتها بكتاب النهاية (Summa) الذى ألفه توماس الأكوينى ، وبالتعبير الأسمى لمسيحية القرون الوسطى، وهو كتاب الكوميديا الإلهية (Divina Commedia).

---

(١) انظر بيده فى : « Retecto cortice Litterae, altius et sacratius in medulla sensus spiritualis invenire »

(٢) انظر هـ . هـ. جلنز فى (History of the Vulgate in England from Alcuin) (كمبردج ١٩٣٣) .

(٣) ان رادبرتوس (M. G. H. Epist vi 6 · 16 , 143) لا يقنع حتى بهذا ، ولكنه يرغب فى استبعاد فرجيل من قائمة المؤلفين الذين ينبغى دراستهم .

الكنيسة والحركة الإنسانية

ومن المقطوع به أن الكنيسة المسيحية بمجموعها كانت فى أثناء عصور الانتقال تخشى العلوم الوثنية وترتاب فيها ؛ غير أن موقفها ذاك تخللته بعض الاستثناءات البارزة ، على أن تقاليد ترتوليان البالغة الصلابة كانت أقوى ، وهى التى كانت لها الغلبة فى النهاية بفضل تأييد جريجورى لها . على أن رد الفعل الطبيعى لما أصيبت به الكنيسة فى « العصور المظلمة » من امتهان ، أن يشتد التأكيد فى الآونة الأخيرة على ما اتسمت به الكنيسة من روح إنسانية فى العصور الوسطى ؛ ولكن المبالغة فى هذا الرأى ليست من الأمور المستبعدة ، وذلك لأن من المؤكد أن الغرض الوحيد من التعليم ببلاد الغرب فى ذلك العصر ، هو إعداد الكنسيين للاضطلاع بواجباتهم [1] . وكانت المعرفة اللازمة لفهم الصلوات اللاتينية — وفى حالة التلاميذ الذين هم أكثر تقدما — دراسة المعلومات الضرورية للإحاطة بالأدب المسيحى الجدلى والتفسيرى ، وحساب عيد القيامة وسائر الأعياد ودراسة نظام الكنيسة القانونى والإدارى ، كل ذلك يؤلف فى حالات عديدة منهجا تعليمياً رائعا . هذا إلى أن الحياة النظامية التى تسود الدير بمالها من ساعات عمل منظمة ومكتبة خاصة وحياة اقتصادية مستقرة ، قد هيأ من الفرص للمحافظة على الثقافة إبان عهود الأخطار والأزمات ما لم يهيئه أى نظام آخر . ولكن ما أتمه علماء أفذاذ مثل بيده وأولدهلم من منجزات خارقة ، والمستوى الفكرى العالى الذى بلغته — حسبما يتراءى من المعايير المعاصرة — كل من كنتربرى ويورك وويرماوث وچارو بإنجلترة فى القرن السابع ، بل بلغته مناطق أقل أهمية مثل مالمبرى ونيرسلنج وبيشوبس والشام —

---

(١) انظر . روجر فى (L' Enseignement des Lettres classiques en France d' Ausono d' Alucin) ص ص ٤٣٧ وع (باريس ١٩٠٥) .

كل ذلك ينبغى ألا يخفى عنا أن ما ندين به من صون الأدب الكلاسيكى من يد الدمار وما نحس به على ذلك من الشكران ، كان من الأمور التى تستثير سخط السلطات الكنسية[1] الشديدة المحافظة على سلامة الكنيسة . كما ينبغى ألا يدفعنا إلى الاستهانة بالثغرة الضخمة التى تفصل بين علوم عصرنا هذا وبين علم چيروم ، فضلا عن علم أوريچين ، يوم كانت جميع موارد الحضارة القديمة لاتزال بين أيديهم . وقد ظلت هذه الموارد فى تناقص مستمر أمد قرون عديدة ؛ وذلك فوق ماقامت به الكنيسة من التقليل مما يتزود به الدارسون من علم . وانقطع الفكر الخلاق منذ أمد بعيد ؛ وانصرف اهتمام الناس فى أثناء ذلك العصر إلى المختصرات والمختارات وكتب النحو (الأجرومية) والمراجع العامة . واختفى من الغرب تماما كل تمكن حق وإجادة أصيلة للسان اليونانى ؛ فلم يظهر أحد بعد بويثيوس أية قدرة حقة على تمثل الفلسفة الهللينية وفهمها . أجل إننا نعثر فى المخطوطات الأرلندية على بعض الأحرف الإغريقية مستخدمة كحلية وزخرفة ، وعلى بعض العبارات المنعزلة ، وبعض الكلمات المنقولة من المعاجم ، كما أن بيده ينفرد بصفة استثنائية بإظهار شىء من المعرفة بالتوراة السبعينية[2] . ولكن ليس ثمة أمارة واحدة تدل على استخدام اليونانية استخداما يتجلى فيه الخلق والابتكار . والواقع أن العلماء الموسوعيين السلبيين أمثال إيزيدور الأشبيلى ورابان ماور ، إعاهم النتاج الذى تتميز به مطالع العصور الوسطى ؛ وذلك أكبر شاهد على الضرورة القاسية الملحة ، التى تدعو إلى المحافظة على المعرفة القائمة درءاً لخطر البربرية التى تهدد بابتلاعها .

---

(١) أى جريجورى الأكبر ومدرسته القوية النفوذ . انظر التذييل ب .

(٢) عن معرفة الإغريقية فى ذلك الأوان انظر م . ل . و . لاستنر فى (Thought of Letters in Western Europe) ٥٠٠ — ٩٠٠ للميلاد ص ص ١٢٥ ع ع ، ١٩ ع ع (لندن ١٩٣١) .

وكان ختام القرن السادس مسرحا لانهيار أكيد للثقافة بفرنسا ومعها إيطاليا أيضا ، ولكن بدرجة أقل . ومن آيات ذلك أن جريجورى أسقف تور أعظم كتاب غالة لم يكن يستخدم أحد التعبيرات البيانية حين نعى افتقاره إلى النحو والتعليم[١] ، ولا يخفى أن الأجيال التى أعقبته تردت فيما هو أعمق من ذلك من مهاوى البربرية[٢] . وقد انحطت اللاتينية الفصحى لغة الأدب ، وهى وسيلة التفكير ، فأصبحت رطانة عجيبة ، كما يتجلى ذلك من الوثائق القليلة التى ترجع إلى ذلك العهد، كما أن أوسع شعراء عصر النهضة الكارولنجية ثقافة كانوا يقرضون أشعارهم اللاتينية بلسان غريب عنهم لا يقل فى أعجميته عنه لدى أى تلميذ فرنسى فى أيامنا هذه . وفى الحين نفسه وجد كثير من الاعتقادات والخرافات الشعبية طريقها إلى التعاليم الرسمية للكنيسة الغربية ، ولقيت التأييد من جريجورى الكبير[٣] بما كان له من سلطان ونفوذ قوى . وعلى الرغم من إدراك أوغسطين لما تنطوى عليه عبادة المقدسات والآثار الدينية من أخطار ، فإنه أجازها فى أشد صورها تطرفا[٤] حتى إذا انقطعت المواصلات واضطربت ظروف العيش وغلب الارتباك على المعايير والثقافات، انتعشت بواعث الإشاعات وسرعة التصديق ، وقوى الاعتقاد فى الأعاجيب والشياطين وفى قوة مفعول السحر وأدواته .

---

(١) مما هو جدير بالذكر أنه ليس لدينا مخطوط كلاسيكى واحد يمكن إظهار أنه نسخ فى غالة فى أثناء ذلك القرن . انظر س . ك . كروفورد فى (Anglo Saxon Influence in Western Christendom) ، — ٦٠٠ — ٨٠٠ ص ٨١ (أوكسفورد ١٩٣٣) .

(٢) م . بونيه فى : (Le Latin de Gregoire de Tours) ص ٨٦ (باريس ١٨٩٠) .

(٣) ا . فون هارناك فى (Dog men geschichte) ، ٣ ص ٢٥٧ ع ع (الطبعة السادسة توبنجن ١٩٢٢) .

(٤) انظر ج . تسيلينجر فى (Augustin und die Volksrommigkeit) ص ص ٣٤ (برلين ١٩٣٢) .

الوثنية والخرافات

على أنه لا يجوز لنا أن نعتقد أن الأميين كان يسود بينهم قبل ذلك شيء من الاتجاه العقلي . إذ إن العالم القديم كان به من الآلهة ما يزيد على عدد الناس ، ولم تتمكن الديانات الرسمية ولا جهود المتعلمين في التقريب بين الأديان من القضاء على العبادات المتأصلة في الريف من أقدم الأزمان . وكان الجميع حتى الفلاسفة أنفسهم يعيشون ويتحركون في جو ظللت فيه التقاليد البالية وطرائق الفكر القديم كل دار ، والراجح أنهم حاموا على أحفة الأدب الشعبي (فولك لور) والخيال الجميل — وكانوا شبه مصدقين لها إن لم يكونوا مصدقين تماما . على أن هـــذه النزعات لم تتوار من الدنيا عند نهاية القرون الوسطى : إذ إن الشعوذة بلغت فيما يرجح أقصى غاية تطورها عند نهاية القرن السادس عشر . ومع ذلك فإن المسيحية لم توفق إلى تغيير الوضع في هذه الناحية . وكما أن الدولة الرومانية قد أضفت في النهاية قدراً كبيرا من نظمها وطرائقها على الـكنيسة المسيحية المظفرة ، فكذلك فعلت الوثنية في القرون الوسطى ، حيث نفضت على العقول ميراثها وهي تلفظ آخر أنفاسها . وفوق هذا ، فإن انتشار المسيحية بأوربا في أثناء تلك القرون لم يكن مستكملا بأي حال . إذ إن روما مثلا وكثيرا من عائلاتها السناتورية ظلت زمنا طويلا معقلا حصينا للعبادات القديمة [1] وكانت المناطق الشمالية من إيطاليا فضلا عن النمسا

---

(١) انظر ف شـنيدر في (Rom und Romgedanke im Mittelater) (ميـونخ ١٩٢٦) — هناك مثــال رائع على استمرار الأعراف الوثنيـــة في روما هو (Cornomania) . فمنذ ٨٧٠ حتى زمن جريجوري السابع كان عميد (Séchola Contorum) يقوم على الملأ يوم السبت الذي يعقب عيد الفصح برقصة عجيبة في ميدان اللاتيران . ويضع على رأسه في أثناء الرقص إكليلا له قرون وتلوح يداه بصلاصل ذي أجراس . وعندئذ ينثر أوراق الغار وهو يصيح : (iaritan, iaritan, iariar iastri, raphayn, iercoin, iariasti)

وجنوب فرنسا لا تزال تقيم العبادات لأرباب العصور الكلاسيكية القديمة . ولم تبرح الوثنية حتى عام ٦٥٠ تزدهر جهارا بكل ما أوتيت من معابد وتماثيل بجميع أصقاع غالة ، بل لقد ظلت تواصل بعد ذلك التاريخ نفسه نشاطها شمال نهر السين وبمناطق نهر الراين حتى القرن الثامن أو التاسع . واتخذ آلهة اليونان بمنطقة البحر الأبيض المتوسط أشد ثياب التنكر والاستتار شفوفا . وكل ما حدث من التغير هو أن ما ينسب إلى الآلهة المحلية والينابيع المقدسة من قدرة على الشفاء ، نقلت بحذافيرها دون أدنى تغيير إلى القديس المختص ، كما أن الهيرون(Heroon)وهو ضريح الإله أو شبه الإله عند الوثنيين ، أصبح يسمى فى أحوال كثيرة دار الشهداء(Martyreion) ، ومركز الحج الذى يحتوى على مخلفات الشهيد المسيحى [1] ذات الأثر الفعال . وكان الشيء الكثير من هذه التغييرات متعمدا — وينطوى على حق تنازلت عنه الكنيسة إرضاء لقوة المشاعر الشعبية ، وللحاجة الماسة إلى مصدر ظاهر للسلوى ، ومرفأ مادى تلوذ به الأنفس . ولذا فإن أوغسطين يوضح أن تحويل عبادات الأبطال الموسمية إلى أعياد القديسين إنما هو إذعان حتمى لما يملأ جوانب الإنسان من ضعف وثنى . ففى غالة يحل الاستفتاح [2] بالكتاب المقدس (Sortes Biblicae) محل النبوءات عند الوثنيين؛ كما أن عادة الفرنجة فى المحاكمة بواسطة المحنة والابتلاء أصبحت عملية مستساغة لها ما لقضاء الله وقدره من السلامة والصحة ، على حين أنه حدث فى إنجلترة أن مليتوس أسقف لندن تلقى التعليمات من البابا جريجورى بعدم منع التضحية بالثيران قربانا « للشياطين » ، بل يأمر قومه أن يعمدوا —

---

(١) وعن الحاجة النافعة إلى الحذر فى أثناء تعقب مثل هاته البقايا الوثنية انظر هـ . ديليهاى فى (Les Legendes hagiographique) ص ص ١٤٠ ع ع (الطبعة الثالثة بروكسل ١٩٢٧) .

(٢) الاستفتاح فتح الكتاب فى أية صفحة استبشاراً به . (المترجم) .

عنـد الاحتفال بعيد الشهيد الذى تقدس مخلفاته محليا لديهم — إلى إقامة الجواسق حول كنائسهم ، وأن يولموا الولائم مجتمعين « وينحروا الذبائح شكراً لله » (١). ومع ذلك فإن تبنى مثل هذه الممارسات وغيرها من العادات الفكرية ، غالبا ما كان نتيجة لنزعات لاشعورية ، ترجع إلى ما أحاط بالمسيحية فى القرون الأولى من بيئة وثنية ، وإلى جهل رجال الكنيسة وإعوازهم فى المعرفة مهما علا شأنهم ، وإلى اعتناقهم مبادئ مسيحية غير مفهومة تماما وإدخالها فى حياة أقوام سادتهم أنظمة اجتماعية أقدم عهداً .

على أن بعض الانحرافات لقيت من الكنيسة معارضة صريحة . مثال ذلك أن الرقص وهو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالطقوس البدائية أوشك فى أحد الأزمنة أن يغمر الطقوس الدينية المسيحية بمصر ، فمنذ ٥٨٩ إلى ١٦١٧ انعقدت عدة مجالس كنسية متعاقبة وأجمع الوعاظ والمبشرون على تحريم الرقصات المغربية بما ارتبط بها من الأجراس والنقارات والتمثيل التنكرى ، وبما فيها من مخنثين وسارية مايو للرقص وارتداء أقنعة على هيئة رأس الغزال والكرنفالات والأهازيج (٢) . ونددت المجامع أيضاً بأغانى الحب التقليدية ؛ وحرم على المسيحيين (٣) تمجيد عاطفة الحب الرومانسى والإشادة بما يشيع فى الأساطير الكلتية والساجا النورسية من الفرح الضارى بالمعارك الحربية . واتهم اللسان الجرمانى نفسه ، وهو وسيلة الأفكار الوثنية ، بأنه لغة الشيطان .

بيد أن الوثنية ظلت رغم ذلك حية طوال العصور الوسطى ، إذ بقيت فى صورة عالم مستتر ذى أساليب ملتوية ومعتقدات مختلطة ، نشأت عن شعوب

---

(١) بيده فى (Hist. Eccl) ١ ، ٣٠

(٢) انظر ما كتبه الدوم جوجو بعنوان (Las Danse dans Les Egli ses) فى : (Rev. d'hist, eccl) مج ١٥ ، ١٩١٤

(٣) وجه النقد إلى الرهبان النورثمبريين لتمسكهم بأغان مثل « أغنية بيوولف » .

متنوعة وطبقات اجتماعية متباينة ، وجمعت بين الاعتقاد الإيطالى فى أرواح النبات ، و بين أرواح المـاء وعفاريته عند الكلتيين ، و بين معتقدات التيوتون فى الغيلان وجنيات الفيرى ، وبين وحوش السكنديناويين ، فضلا عن آلهة اليونان الجميلة الرشيقة فى صورتها المصغرة الضئيلة . ومن دون جميع هـذه التغيرات التى ألمت بالأسماء والمراسم ، طفق الفلاح يقيم حفلاته الموسمية العتيقة ، ويقدم الولاء لأرواح الخصب والنماء المرتبطة بأوقات البذار والحصاد. ولم تفارق أسماء تريستان وبيوولف وأبطال المآثر (نبلونجنلايد Nibelungenlied) الألمـانية ألسنة الناس وأفواههم [1] ، بل إن أعمال الاسكندر وقصة طروادة القديمة لم تنس نهائيا . ومع ذلك ، فإن هذه الصور التى كانت تتناقلها الألسن فى العصور الوسطى عن التاريخ الـكلاسيكى القديم ، وهى تحريفات وهميـة لموضوعات شوهت من قبل فى أزمنة التاريخ الرومانى المتأخرة ، — كانت أبعد ما تـكون عن الحقيقـة . فإن صورة ڤرچيل الساحر صانع العجائب ، والإسكندر بطل مجموعة القصص الشرقية الحالمة كقصص ألف ليلة وليلة ، ليست إلا انعكاساً مبهماً عن شخصية كل منهما الحقيقية . والواقع أن الناس فى تلك العصور كانوا كمن ينظر من خلال منظار معتم إلى أشكال العالم القديم وأحداثه البعيدة ، وهى أشياء بعيدة عن ظروف عيشهم وأحواله بعد أوربا العصور الوسطى عن أوربا فى زمننا الحاضر . أما روما ذاتها فلم تعد عند الحاج الممتلىء النفس بالرهبة ، تنطوى على ذكرى العاصمة العريقة النابضة بالحيوية والتجارة والرخاء . بل كانت مدينة مقدسة حافلة بالمزارات وذكريات

---

(١) عن الإحالات الـكثيرة إلى ساجا بيوولف فى المواعظ التى ألقيت فى المدة المتأخرة من العصور الوسطى . انظر ح . ر . اوست فى (Pulpitin Medieval England Literatureq) ص ١١١ (كمبردج ١٩٣٣) .

الاستشهاد والشهداء ، فضلا عن كونها مدينة خرائب تسكنها الأشباح ، ومدينة أساطير وأحداث عجيبة ارتبطت بماض مدهش ، وكانت بلداً يطرد البابوات فيه بالرقى الثعابين الجالبة للطاعون ، أو يصفدون الوحوش والتنائن بالأغلال تحت الكابيتول بما يتلونه من تعاويذ .

تراث روما

ومع أن الحصول على صورة واضحة للعهود العتيقة ربما كان أبعد منالا على عقول الناس فى العصر الوسيط منه على العقول المعاصرة ، فإن حضارة الإمبراطورية الرومانية لم تبرح هى القالب الذى تصاغ على غراره القوانين والنظم وأنماط الفكر التى كانت تتحكم فى الحياة البشرية فى أثناء العصور الوسطى ، والتى قدر لها آخر الأمر أن تعم أوربا كلها . وكان المثالون والمعماريون بكل من إيطاليا وجنوب فرنسا مصدر الإلهام لخلفائهم فى العصور الوسطى . واعترف الناس جميعاً أن الحكمة البشرية كلها قد اجتمعت للمؤلفين القدماء ، كما أن أدب عصر أوغسطس كان يستهوى بقوة خيال القارئ وإن كان غير راغب فيه إلى حدما . واحتفظت الكنيسة لنفسها بإطار التنظيم الرومانى وهيكله ، وعلى الرغم من أن المثل الأعلى للوحدة الأوربية بكل ما بشر به فى نشوء ثقافة أوربية مشتركة قد تحطم عند وفاة شرلمان ، فإنه ظل حافلا بالآمال فى الانتعاش والنهوض فى خاتمة المطاف . وما ذلك إلا لأن ذلك المثل الأعلى أقام لنفسه حصناً منيعاً بفرنسا والأقطار المحيطة بها تحطمت عليه الموجات العاتية من أعاصير الفيكنج والمجر والمسلمين وأوهنت على صخوره قوتها بغير طائل ، حصناً كان يحوط بحراسته ما تحويه أديرتها وقصورها من كنوز روحية ومادية ، انتزعت بغاية العجلة والاضطراب الشديد من بين حطام العالم العهيد .

تذييل (١)

الجهاز الإمبراطورى فى القرن الرابع الميلادى

١ — الإمبراطور

لا يزال من الناحية النظرية ينتخبه السناتور والجيش — والواقع أن مبدأ وراثة العرش كان يقوم إلى حد كبير على الأسرات ، وذلك نظراً لأن الإمبراطور فى أثناء حكمه كان يستطيع تعيين خلفه بصورة غير مباشرة بمنحه لقب أوغسطس .

٢ — مجلس الشيوخ (السناتو)

كانت العضوية فيه إما لأبناء أعضائه ممن شغلوا منصب برايتور (Praetor) ، وهى وظيفة كان أهم أعمالها فى ذلك الوقت دفع نفقات الألعاب أو الأشغال العامة ؛ وإما لأعضاء الهيئات الثلاثة (Illustres, Shectabiles, Clarissimi) التى تولوها بحكم مناصبهم أو مكافأة لهم عند التقاعد . على أنه لم يكن يحظى بالعضوية إلا عدد قليل بتفضل خاص من الإمبراطور (adlectio) .

٣ — المجلس

كان مجلس الدولة المعروف باسم (Consistorium) تطوراً وامتدادا لمجلس (Consilium) الذى أسسه هادريان . وكانت العضوية فيه آنذاك دائمة (Comites Consistoriani) ، وتشمل كبار الموظفين ، ويقوم بخدمة الإمبراطور ويجتمع دائماً لإسداء المشورة حول سياسة الحدود والمشكلات التشريعية والإدارية . وكان يتولى أيضاً محاكمة من يتهمون بالخيانة .

٤ — الموظفون الإمبراطوريون

كان أهم الموظفين الذين فى خدمة الإمبراطور هم :

(ا) كبير الموظفين (Magister Officiorum) ، وهو يتولى الرئاسة على عدد من الإدارات المتنوعة ، التى تعالج الاسترحامات والالتماسات والسفارات والمراسيم وبريد الدولة ومصانع الدولة للأسلحة . وكان يقود كذلك الحرس الملكى المسمى « بالاسكلارية (Scholarian) » (انظر ما بعده) ورجال المخابرات (Agents inrebus) الذين يوفدون فى مهام دقيقة والذين درجوا بوجه خاص على كتابة التقارير حول سوء تصرفات الموظفين فى الأقاليم .

(ب) كوايستر القصر المقدس (Quaestor Sacri Palatii) . وهو أكبر مستشار للقانون ، ويتولى وضع مشروعات القوانين والمراسيم الإمبراطورية .

(ج) كونت الخزانة المقدسة (Comes Sacrarum Largitionum) . وهو وزير المالية الذى يرأس موظفى الخزانة ودارسك النقود والجمارك وجميع الجهاز المالى فى الأقاليم . وكان كونت الأملاك الخاصة (Comes Rerum Privatarum) يدير إيرادات مزارع الإمبراطور . والراجح أنه بعد أن يدفع أجور مرءوسيه كان يسلم ما تبقى من الإيراد لكونت الخزانة المقدسة ، مثلما كان يفعل البرايتوريون الذين كان لكل منهم خزانة (Fiscus) .

(د) وكان هناك من الناحية العملية موظف لا يقل عن هؤلاء أهمية هو كبير الأمناء (الحجاب) (Praepositus Sacri Cubiculi) وهو فى العادة خصى ، وله عادة نفوذ شخصى عظيم على الإمبراطور ، وإن كان فى ذلك خروج على الدستور ، وهو الذى يتولى الإشراف على موظفى القصر وشئون الدور الإمبراطورية .

٥ — الجيش

كانت القيادة العليا فى أيدى مقدمى الجند (Magistri Militum) . وكان هناك فى الشرق خمسة مقدمين للراكبة والراجلة (Magistri equitum peditum) يعنى الفرسان والمشاة ، كان اثنان منهما يقيمان بالقسطنطينية فى خدمة الإمبراطور المباشرة (in praesenti) ، وكل منهما يتولى قيادة نصف حرس القصر . فأما القواد الثلاثة الباقون فيتولون الشرق وتراقيا واالليرية . وكان هؤلاء الخمسة متساويين جميعاً . وكان هناك فى الغرب مقدمان للجند يقومان على الخدمة (in praesenti) ، وهما يقيمان بإيطاليا : أحدهما لقيادة المشاة والآخر لقيادة الفرسان . وكان مقدم المشاة أهم كثيراً من رفيقه ، ثم أصبح قرب نهاية القرن الرابع القائد الأعلى لجميع القوات العسكرية بالغرب ، وقد اتخذ لقب مقدم الخدمتين (Magister utriusquemili) . وهو الذى يقرر إلى حد كبير سياسة الدولة فى الغرب ، حيث أصبح الإمبراطور فى الغرب مجرد ظل أو دمية . وكان النظام المتبع فى الشرق وهو نظام القواد المتعادلين يحول فى العادة دون نشوء مثل هذه التطورات .

ويمكن تقسيم الجيوش على الجملة إلى :

(ا) جيش الميدان أو الرفقاء (Comitatenses) (وهو جيش الميدان المتحرك الذى يتكون منه حاشية الإمبراطور أو الرفقاء Comitatus) . وهو القوة الرئيسية الضاربة التى تصحبها عادة جماعات ضخمة من جند المتبربرين المسماة بالجند المحالفين (Foederati) .

(ب) جند الثغور الثابتون (جيش الأطراف (Limitanei or ripeneses) وهم جند يرابطون دوماً على الحدود بقيادة أدواق ، وهم تابعون لمقدمى الجند كما أنهم أدنى مرتبة ونوعاً من القوات المتحركة .

(ج) حرس القصر ، الاسكلارية (Scholarii; Palatini) ، وهى كتائب منوعة من جند حراسة « الدار » الإمبراطورية ، منها ما يتخذ للزينة ويستخدم فى المواكب ، ومنها ماله قيمة عسكرية بالغة . ومنهم من كان تحت القيادة المستقلة لناظر الدواوين وحده (Magister Officiorum).

٦ — حكومة الأقاليم

لتحقيق أهداف الإدارة المدنية ، قسمت الإمبراطورية إلى أقسام كبرى أربعة ، و ولايات (Prefectures) (اثنان منهما فى الغرب واثنان فى الشرق) ، ويحكمها أربعة ولاة برايتوريين .

(ا) إقليم الغاليين ، ويشمل إلى جانب غالة ، بريطانيا وأسبانيا والركن الشمالى الغربى لإفريقيا .

(ب) إقليم إيطاليا ، ويشمل إلى جانب إيطاليا سويسرة والأقاليم الواقعة بين الألب والدانوب ، فضلا عن المناطق الساحلية بشمال إفريقيا .

(ج) إقليم الليرية (Illyrieum) ويشمل شبه جزيرة البلقان عدا تراقيا .

(د) إقليم الشرق ويضم تراقيا ومصر ، وجميع الأراضى الأسيوية التابعة للإمبراطور . وانقسم كل إقليم من هذه الأقاليم إلى دوقيات(Dioceses) مجموعها سبع عشرة دوقية ، ويتولى الحكم فى كل منها فيكار أى وال ، وكانت كل دوقية تنقسم بدورها إلى مقاطعات (محافظات) . كان لحكامها ألقاب مختلفة هى القنصلارى والكريكتورى والرئيس Consulares, Correctores, Fraesides) . وهناك مناطق ثلاث بقى فيها منذ أيام الجمهورية اللقب القديم : البروقنصل ، وهى إفريقيا وآسيا وآخيا .

وكان من اختصاص الولاة الأربعة (بأمر الإمبراطور) تعيين ولاة

المقاطعات والإشراف على أعمال كل من المحافظين والفيكارية ، وشئون المئونة والأرزاق والجيوش المرابطة فى أقاليمهم ، وكانوا هم كبار قضاة الاستئناف ، ومن حقهم إصدار القرارات (البرايتورية) فى كل الأمور التفصيلية . ويعتبر الواليان البرايتوريان فى الشرق وإيطاليا أعلى موظفى الإمبراطورية مكانة . وكانت لولاة الدوقيات (الملقبين بالفيكارات) ولحكام المحافظات سلطات قضائية وإدارية ، كما أنهم كانوا يشرفون على جميع الضرائب . ولم يكن لأحد من هؤلاء الموظفين اختصاصات عسكرية . إذ كان الفصل بين السلطتين المدنية والعسكرية من أهم إصلاحات عهد دقلديانوس وقسطنطين .

٧ — العواصم

كانت كل من روما والقسطنطينية فى ذلك الوقت مركزا لحكومة مزدوجة متوازية تدير الأجزاء الشرقية والغربية من الإمبراطورية الرومانية . على أن هاتين العاصمتين وأرباضهما تخرجان عن اختصاص الولاة البرايتوريين ، بل تتبع كل منهما والى المدينة (Praefectus Urbi) دون غيره ، الذى هو أيضاً رئيس مجلس السناتو وكبير قضاة الجنايات ، كما كان يهيمن على الشرطة (Vigiles) بطريق مباشرة أو غير مباشرة ، فضلا عن الإشراف على السقايات والأسواق وتزويد المدينة بالقمح وعلى نقابات الصناع (Collegia) .

٨ — الضرائب

(١) الضريبة السنوية (Annona) : وتؤديها الإمبراطورية كلها عيناً وأحياناً بالنقد . وكانت القيمة الكلية الواجب جبايتها تعلن كل سنة بقرار (Indictio) يصدره الإمبراطور . وعندئذ يتقاسم الولاة البرايتوريون هذا القدر ويتحمل كل نصيبه . وتمسح الأراضى وتقدر قيمتها حسب قدرتها

الإنتاجية ، ولذا فإن الوحدات (Juga) كانت مساحتها تختلف تبعاً لخصوبة التربة ونوعها . والوحدة الضرائبية (Jugum) من الناحية النظرية قدر من الأرض يكفى لإعالة فلاح واحد (Caput) وأسرته .

(ب) الضرائب الفترية (التى تؤدى فى أزمنة معينة) : عند تولية الإمبراطور الجديد على العرش وعند انتهاء فترة كل خمس سنوات ، كان الناس يطالبون بسداد مبالغ طائلة لتمنح هبة للجند . وكانت تلك المبالغ تجمع على الأوجه التالية :

١ — الهدايا الإجبارية (Aurum oblaticium) وهى هبات يبذلها أعضاء السناتو .

٢ — هدية التيجان (Aurum Coronarium) وهى هبة مماثلة للسابقة يقدمها حكام المدن (Decuriones) وكانت تصنع فى الأصل على شكل تيجان ذهبية .

٣ — الضريبة (أو المساهمة) الخمسية (Lustralis Collatio) (وتدفع كل خمس سنوات) وهى ضريبة على الأرباح التجارية .

(ح) ضريبة (Collatio glebalis) وتدفعها الطبقة السناتورية ، وهى ضريبة مدرجة على الأملاك ، يسميها الشعب عادة باسم ضريبة الأكياس (Follis) لأنها كانت تؤدى فى أكياس (ومعنى لفظة Follis هو كيس العملات الصغيرة) .

(د) الضرائب غير المباشرة وغيرها . ومنها الضرائب الجمركية والمناجم ومصانع الدولة وإيرادات وأرباح الضياع الإمبراطورية الضخمة .

تذييل (ب)

(ص ٢٧) : (١) الاقتصاد النقدى والاقتصاد الطبيعى

إن مسألة الانتقال من الاقتصاد النقدى فى القرنين الأولين للميلاد إلى الاقتصاد الطبيعى فى مطالع القرون الوسطى قام بدراستها ج. مكفتز فى : (Geld uud Wirtschaft im rômischen Reich das 4 Jahrh. n. Chr., Helsingfors, 1933) والراجح أنه حتى فى القرن الرابع الميلادى نفسه لم تتخل المالية الخاصة بوصفها مقابلا لمالية الدولة عن الأساس النقدى . ولذا فإن التضخم المالى ، الذى حدث فى أخريات القرن الثالث لم يكسب الاقتصاد « الطبيعى » أية ميادين أخرى جديدة ، واقتصر على مجرد زيادة انتشاره فى الدوائر التى سبق أن شغلها — حتى أنه لم يبد فى إيطاليا فى عهد ثيودوريك نفسه إلا تغيير قليل فى نظام المالية العام . فإن مملكة القوط الشرقيين لا تزال بعيدة عن الأحوال الاقتصادية فى دول أوربا الغربيـة فى مستهل القرون الوسطى . (انظر ه. جايس فى Geld und naturalwirtscaftliche Erscheinungsformen im staatlichen Aafbau Itaiens waürend der Gotenzeit) (شتوتجارت ١٩٣١) .

وهناك مسألة معقدة لا تزال بحاجة إلى توضيح وهى : إلى أى حد كان نظام التبادل فى الغرب فى أثناء القرون التى أعقبت تأسيس الممالك للتبربرة قائماً على النقود ؟ ذلك أن المقايضة كانت تعيش على الدوام جنبا إلى جنب مع استخدام وسيط فى العملة ، وحق لدوبش فى كتابه (Natural-und Geldwirtschaft) (ڤيينا ١٩٣٠ ص ١١٠) أن ينكر الرأى القائل بأن الجرمان دمروا النظام الاقتصادى القائم على النقد فى أواخر عهد الدولة الرومانية ، وأنهم أحلوا

مكانه اقتصاداً طبيعيا أنسب لحاجاتهم البدائيــة . إذ الواقع أن النقود ظل استخدامها شائعا بين الناس طوال عهد الميروڤينچيين والـكارولنچيين (وبخاصة فى جنوب فرنسا وإيطاليا وفى دفع الغرامات والضرائب) غير أن ما أعقب سقوط الإمبراطورية الرومانية فى الغرب من تفـكك نظام الحـكومة واضطراب للتجارة ، أدى رويداً رويدا إلى قيام مجتمعات محليــة تعيش على الاكتفاء الذاتى ، والراجح أن وسيلة المبادلة السائدة كانت المقايضة المباشرة . كما أن الجزاء على الخدمات التى تؤدى لم يكن بالنقد .

(ص٣٠٣) (٢) معركة تحطيم الصور وما دار فيها من جدل

كان رد دعاة التحطيم على الاتهامات المذهبية التى كان يوجهها إليهم خصومهم قائما أيضا على الأصول السليمة لعلم طبيعة المسيح . إذ إن الطرفين اعترفا أن كل ما يتعلق بالله لا يمكن تمثيله بالصور بغير التعرض للكفر . وللمسيح طبيعتان : طبيعة بشرية وأخرى ربانية . فادعاء تمثيل الطبيعة البشرية وحدها كان يناقض الاعتقاد باستحالة انفصال الطبيعتين ، وفيــــه انزلاق إلى ما يسمى بالزندقة النسطورية . على أن الزعم بإمكان تمثيل الطبيعتين معاً فى صورة ، يكاد يدانى إنـكار تمايز الطبيعتين إحداهما من الأخرى ، وبذا يصــل إلى الاتفاق مع الهرطقة المقابلة ، وهى هرطقة وحدة الطبيعة (المونوفيزيتية) . وذلك ينطوى أيضاً على ضرب من الـكفر ، نظرا لدلالته على الرغبة فى تمثيل شىء إلهـى . وبذا يصبح كل تمثيل للمسيح مستحيلا ، وذلك لأنه كان يخالف الأسس الجوهرية للعقيــدة المسيحية . انظــر ج . أوستروجورسكى (Rom und Byzanz im Kampfe um die Bilderverehrung", Seminarium Kondakovianum, Vi) (براغ ١٩٣٣ ص ٦٢)

(ص ٣٨٤)   (٣) التقسيم الثلاثى لمجتمع العصور الوسطى

تتجلى الطبقات الاجتماعية الثلاث تماما فى التأملات الشخصية التى أدرجها الملك ألفريد الأكبر فى ترجمته لكتاب بوئيثيوس : « سلوى الفلاسفة » « De Consolatione » . وفى تلك التأملات يقول إن المادة الغفل وأدوات الحكم لأى ملك إنما هى : بلاد آهلة بالسكان وقسيسون يقيمون الصلوات ، وجند يشنون الحروب ، وعملة يقومون بالأعمال. ومن العجيب أن اقتراب انحلال هذا الطراز من المجتمع ، عند نهاية العصور الوسطى توضحه فقرة فى إحدى العظات (exemplum) الواردة فى مخطوطة إنجليزية من القرن الرابع عشر (انظر ج . ر . أوست فى Literature & Pulpit in Medieval England (كمبردج ١٩٣٣ ص ٥٥٣) . « خلق الله رجال الدين والفرسان والعمال ، ولكن الشيطان خلق اللصوص والمرابين » . ولما أن انزعج الواعظ إزاء النظام المتغير الذى كان يحس فى إبهام بما يلم به من تغير ، مثل انقسام المجتمع إلى ثلاثة أقسام على أنه جزاء إلهى ، على حين أنه نظر بعين الخوف والكراهية إلى نمو التجارة الذى يؤذن بنهاية العصور الوسطى .

(ص ٤٠١)   (٤) بين العقل والاعتقاد

يناقش ا . ج . ماكدونلد فى كتابه (Authority & Reason in the Early Middle Ages) (أوكسفورد ١٩٣٣) التطورات التالية . فالقواعد المنطقية التى كان يعلمها بوئيثيوس للناس والتى أرست أسس الفلسفة المدرسانية ، قد أسىء استخدامها إبان القرون التالية ، غير أن فئة قليلة من المفكرين الأذكياء أمثال برينجار ويوحنا الاسكتلندى استطاعوا استخدامها بصورة نافعة فى التفسير العقلى للكتاب المقدس . وكان برينجار يرى أن العقل أو الإدراك

السليم ينبغى أن يكون الفيصل فى شأن أية فقرة من الـكتاب المقدس : وهل ينبغى أن يكون تفسيرها حرفياً أو مجازياً أو خليطا يجمع بين الاثنين . ومن هنا فإن عبارة « Hoc est corpus meum تفسر فيها الـكلمات حرفيا بالخبز ومجازيا بجسم المسيح ولـكن السلطات لم تـكن تطيق قبول هذه الآراء ، ومن ثم استنزلت كنيسة العصور الوسطى اللعنة على أعمال الرجلين . واكتشفت البابوية فى ادعائها الحق فى الفصل فى المذاهب المذهبية ، سلاحا قويا تشهره فى صراعها مع الإمبراطورية ، ومن ثم فإن تدخلها الذى كلل بالنجاح فى قضية برينجار يعتبر مرحلة فى توطيد هذا الادعاء . وتم النصر نهائياً بالتعريف الذى وضعـه أنوسنت الثالث لمذهب العشاء الربانى فى المجمع الرابع باللاتيران فى (١٢١٥). وبذلك تهيأت الوسائل إلى مجمع ترنت وإلى مجمع الفاتيكان فى (١٨٧٠).

« وإذ صار هذا التعريف حكما يرجع إليه فى مسائل الإيمان بصورة مستقلة عن تقاليد آباء الـكنيسة والتقاليد المتأخرة ، فإنه أقر مبدأ التقاليد وبذلك استبعد العقل من مجال العقيدة ». (انظر الموضع السابق ص ١١٢).

(ص٤٠٤) (٥) إيرلندة والمحافظة على الدراسات القديمة

استلفت الطابع الـكلتى لإحياء العلوم والآداب بنورثمبريا أنظار الناس إليه فى الآونة الأخيرة (انظر ل. جوجوه فى . Christianity in Celtic Lands (لندن ١٩٣٢ ص ص ٥٠ ـ ٥٥) . ونظراً لأن الأديرة الإيرلندية كانت تقع فى بلاد ظلت على الدوام خارج دائرة الإمبراطورية ، فإنها خلت من كل أثر للعقائد اليونانية الرومانية ، ولذا لم تـكن تخشى كثيرها ما ارتبط بالآداب القديمة (الـكلاسيكية) من ارتباطات وشوائب وثنيـة. ونظراً لمـا اشتهر به مسيحيو إيرلندة من سعة الاطـلاع واستيعاب ما كتبه قدماء المؤلفين وشغفهم

بنظامهم القومى واتجاههم الاستقلالى الذى لا يضارعه سوى ولعهم بدراسة الأسفار المحذوفة (من الكتب المقدسة) التى تنكرها روما وتمنعها ، كل ذلك جعل منهم مدرسة فكرية متميزة ، وخطراً يتهدد السلطة المركزية للبابوية ، لم يستأصله إلا ما حل بهم من هزيمة فى مجمع هويتبى (٦٦٤) ، غير أن تلك الهزيمة لم تصبهم إلا بعد أن تمكنوا بمساعدة ثيودور وهادريان (وكلاهما لا ينتمى إلى مدرسة جريجورى) من تمثل قدر كبير من تراث العلوم القديمة ، ونقلها إلى العلماء الإنجليز السكسون ومنهم إلى فرنسا الكارولنجية ، وهى علوم لولا الإيرلنديون لتعرضت للدمار . وقبل ذلك الأوان بزمن مديد كان الأثر الكلتى يتغلغل فى أوربا حتى فورتزبرج وسالسبرج وبوبيو ، ولذا فإن الجانب الأكبر من المحافظة على الثقافة الكلاسيكية فى الغرب فى أثناء هذه الفترة ، إنما يرجع بحق إلى الكنيسة الكلتية الخارجة على الأرثوذكسية .

(ص ١٩٩) (٦) النصوص القانونية الثلاثة

لم تكن «الفصول الثلاثة» فى الأصل سوى ثلاثة نصوص وردت فى مرسوم أصدره جستنيان فى ٥٤٣ ، رمى به إلى مصالحة أصحاب مذهب وحدة الطبيعة وندد فيه ببعض الكتابات التى كتبها ثلاثة من رجال اللاهوت فى القرن الخامس ، اتهموا ببعض الميول النسطورية . ولم يلبث اسم « الفصول الثلاثة » أن انتقل من هذه النصوص إلى الكتابات ذاتها ، واستخدم الاسم هنا فى معناه الأخير ، ولكن مجمع خلقدونية (٤٥١) الذى لعب فيه ليو الأكبر دوراً رئيسياً والذى لقى فيه أتباع مذهب وحدة الطبيعة (المونوفيزيتيون) الهزيمة ، قد رد الاعتبار إلى رجال اللاهوت الثلاثة الذين دار حولهم النزاع ،

وبذلك أدخل فى الأمر نقطة خلاف رئيسية بين الاسكندرية وبين الكاثوليك الغربيين . ولما لم ينجح جستنيان فى الوصول إلى نتيجة بإقصاء البابا عن الكرسى البابوى ، دعا فى (٥٥٣) إلى عقد المجمع الثانى بالقسطنطينية ، وفيه حقق رغبته رسمياً باعلان بطلان « الفصول الثلاثة » . على أن قرارات المجمع لقيت مقاومة عنيفة فى الغرب ، ومع ذلك فقد اعترف الغرب نفسه بأنه مجلس مسكونى ، وأنه صحيح ، له من الصحة ما للمجالس الأربعة السابقة ، وذلك فى عهد جريجورى الكبير .

الأباطرة والبابوات

الأباطرة	البابوات
٣٧٩ ثيودوسيوس الأول (الكبير)	٣٦٦ داماسوس الأول
٣٩٣ هونوريوس (في الغرب)	٣٨٥ سيريكيوس
٣٩٥ اركاديوس (في الشرق)	٣٩٩ أناستاسيوس الأول
٤٠٨ ثيودوسيوس الثاني (الشرق)	٤٠١ انوسنت الأول
٤٢٥ فالنتينيان الثالث (الغرب)	٤١٧ زوسيموس
٤٥٠ مارقيان (الشرق)	٤١٨ بونيفاس الأول
٤٥٥ ماكسيموس ، افيتوس (الغرب)	٤١٨ (يولاليوس ، البابا المناهض)
٤٥٧ ماجوريان (الغرب)	٤٢٢ سيلستين الأول
٤٥٧ ليو الأول (الشرق)	٤٣٢ سيكستوس الثالث
٤٦١ سيفيروس (الغرب)	٤٤٠ ليو الأول (الكبير)
٤٦٧ انثيميوس (الغرب)	٤٦١ هيلارى
٤٧٢ أوليبريوس (الغرب)	٤٦٨ سيمبليكيوس
٤٧٣ جليكريوس (الغرب)	٤٨٣ فيلكس الثالث
٤٧٤ يوليوس نيبوس (الغرب)	٤٩٢ جيلاسيوس الأول
٤٧٤ ليو الثاني (الشرق)	٤٩٦ أناستاسيوس الثاني
٤٧٤ زينون (الشرق)	٤٩٨ سيماخوس
٤٧٥ رومولوس أوغسطولوس (الغرب)	٤٩٨ (لورنس ، البابا المناهض)
٤٩١ أناستاسيوس الأول	٥١٤ هورميسداس
٥١٨ جستين الأول	٥٢٣ يوحنا الأول
٥٢٧ جستنيان	٥٢٦ فيلكس الرابع
٥٦٥ جستين الثاني	٥٣٠ بونيفاس الثاني
٥٧٨ تيبريوس الثاني	٥٣٠ (ديوسقوروس ، البابا المناهض)
٥٨٢ موريقيوس	٥٣٣ يوحنا الثاني
٦٠٢ فوقاس	٥٣٥ اجابيتوس الأول
٦١٠ هرقل	٥٣٦ سيلفريوس
٦٤١ قسطنطين الثالث هرقليوناس ، قسطانس الثاني	٥٣٧ فيجيليوس
٦٦٨ قسطنطين الرابع (بوجوناتوس)	٥٥٥ بيلاجيوس الأول
٦٨٥ جستنيان الثاني	٥٦٠ يوحنا الثالث
	٥٧٤ بندكت الأول

الأباطرة

٦٩٥ ليونتيوس
٦٩٨ تيبريوس الثالث
٧٠٥ جستنيان الثانى يعود للعرش
٧١١ فيليب باردانس
٧١٣ اناستاسيوس الثانى
٧١٦ ثيودوسيوس الثالث
٧١٧ ليو الثالث (الإيسورى)
٧٤٠ قسطنطين الخامس (كوپرونيموس)
٧٧٥ ليو الرابع
٧٨٠ قسطنطين السادس
٧٩٧ ايرين تخلع قسطنطين السادس
٨٠٢ نقفور الأول
٨١١ ميخائيل الأول
٨١٣ ليو الخامس

البابوات

٥٧٨ بيلاجيوس الثانى
٥٩٠ جريجورى الأول (الكبير)
٦٠٤ سابينيانوس
٦٠٧ بونيفاس الثالث
٦٠٧ بونيفاس الرابع
٦١٥ ديوسديديت
٦١٨ بونيفاس الخامس
٦٢٥ هونوريوس الأول
٦٣٨ سيفرينوس
٦٤٠ يوحنا الرابع
٦٤٢ ثيودور الرابع
٦٤٩ مارتن الأول
٦٥٤ يوجين الأول
٦٥٧ فيتاليان
٦٨٢ اديوداتوس
٦٧٦ دمنوس أو دومس الأول
٦٧٨ أجاثو
٦٨٢ ليو الثانى
٦٨٣ (؟) بندكت الثانى
٦٨٥ يوحنا الخامس
٦٨٥ (؟) كونون
٦٨٧ سرجيوس الأول
٦٨٧ (بسكال ، البابا المناهض)
٦٨٧ (ثيودور ، البابا المناهض)
٧٠١ يوحنا السادس
٧٠٥ يوحنا السابع
٧٠٨ سيسينيوس
٧٠٨ قسطنطين
٧١٥ جريجورى الثانى
٧٣٠ جريجورى الثالث
٧٤١ زخارياس
٧٥٢ استيفن الثانى
٧٥٧ بولس الأول
٧٦٧ (قسطنطين ، البابا المناهض)
٧٦٨ استيفن الثالث
٧٦٢ هادريان الأول
٧٩٥ ليو الثالث

جدول تاريخي

الأحوال السياسية		الأحوال الدينية	الأوضاع الحضارية
في الغرب	في الشرق		
		٣١٢ مرسوم ميلان	
		٣٢٥ مجمع نيقية	
		٣٢٨ ـ ٧٣ اثناسيوس أسقف الإسكندرية	
	٣٣٠ إنشاء القسطنطينية		ح ٣٣٠ وفاة ايامبليكوس
			٣٤٠ وفاة يوسيبيوس
٣٥٧ ـ ٨ حملات جوليان على الراين			
		٣٧٤ ـ ٩٧ امبروس أسقف ميلان	
	٣٧٦ عبور القوط للدانوب		
	٣٧٨ معركة أدرنة		
			٣٧٩ وفاة باسيل أسقف قيصرية
		٣٨١ مجمع القسطنطينية	
			٣٨٨ وفاة أولفيلاس
	٣٩٥ وفاة ثيودوسيوس الكبير		ح ٣٩٥ وفاة أوسونيوس
		٣٩٨ كريزوستوم أسقف القسطنطينية	
٣٩٩ معركة إفريجيدوس			
	٤٠ تمرد جايناس		ح ٤٠٠ وفاة أميانوس ماركيلينيوس
٤٠٦ تأسيس المملكة البرجندية على الراين			ح ٤٠٦ وفاة برودنتيوس
٤٠٦ـ٧ الوندال يغزون غالة			
٤٠٨ إعدام استيليكو			ح ٤ ٨ وفاة كلوديان
٤٠٩ الوندال والآلان والسويف في أسبانيا			

الأحوال السياسية		الأحوال الدينية	الأوضاع الحضارية
فى الغرب	فى الشرق		
٤١٠ استيلاء ألاريك على روما			
٤١٢ القوط الغربيون فى غالة			
	٤١٣ بناء أسوار القسطنطينية البرية		
٤١٦ ـ ١٨ القوط الغربيون بأسبانيا			
			٤١٩ وفاة جيروم
ح ٤٢٠ ـ ٤٠ الأنجلو سكسون ببريطانيا			
٤٢٨ ارتقاء جايسريك العرش	٤٢٨ ـ ٦٣٣ الحكم الفارسى بأرمينية	٤٢٨ نسطوريوس أسقف القسطنطينية	
٤٢٩ الوندال فى إفريقية		٤٢٩ بعثة التبشير الجرمانية إلى بريطانيا	
			٤٣٠ وفاة أوغسطين
		٤٣١ مجمع إفيسوس	
	٤٣٣ ارتقاء أتيلا العرش		
٤٣٦ نهاية المملكة البرجندية الأولى			
			٤٣٨ قانون ثيودوسيوس
٤٣٩ الوندال يستولون على قرطاجنة			
		٤٤٤ وفاة كيرلس الإسكندرى	
		٤٤٩ لاتركينيوم فى أفيسوس	
	٤٥٠ وفاة ثيودوسيوس الثانى		
٤٥١ معركة سهل مورياك		٤٥١ مجمع خلقدونية	
٤٥٤ اغتيال أئتيوس			
٤٥٥ جايسريك ينهب روما			
		٤٦١ وفاة ليو الكبير	
٤٦٨ ارتقاء يوريك			
٤٧٢ وفاة ريكيمير			
٤٧٦ خلع رومولوس أوغسطولوس			

الأحوال السياسية		الأحوال الدينية	الأوضاع الحضارية
في الغرب	في الشرق		
٤٨١ ــ ٥١١ عهد كلوفيس		٤٨١ الشقاق الديني بين روما والقسطنطينية	
		٤٨٢ زينون يصدر رسالة الاتحاد	
			ح ٤٨٣ وفاة سيدونيوس أبولليناريس
٤٨٦ كلوفيس يهزم سياجريوس			
٤٨٨ القوط الشرقيون ينطلقون نحو إيطاليا			
	٤٩١ ارتقاء أناستاسيوس الأول		
٤٩٣ ــ ٥٢٦ حكم ثيودوريك بإيطاليا			
٤٩٦ كلوفيس يهزم الألامان		٤٩٦ تعميد كلوفيس	
ح ٥٠٠ اللومبارديون بين الثيس والدانوب			
			٥٠٦ صدور قانون ألاريك
٥٠٧ معركة فوجلي. كلوفيس يفتح أكيتانيا			
٥٠٨ استيلاء القوط الشرقيين على بروفانس			
	٥١٨ ارتقاء جستين العرش	٥١٨ نهاية الانشقاق بين روما والقسطنطينية	
			٥٢٣ إعدام بوئيثيوس
	٥٢٧ ارتقاء جستنيان		
			٥٢٩ إغلاق مدارس أثينا
			٥٢٩ إنشاء دير مونتي كاسينو
٥٣١ الفرنجة يدمرون المملكة الثورنجية	٥٣١ ــ ٧٩ عهد كسرى		
٥٣٢ ــ ٤ الفرنجة يفتحون برجنديا			
	٥٣٣ بلساريوس يفتح إفريقية		٥٣٣ نشر الموجز القانوني

الأحوال السياسية		الأحوال الدينية	الأوضاع الحضارية
فى الغرب	فى الشرق		
	٥٣٦ ـ ٧ بليساريوس فى روما		
			٥٣٧ بناء كنيسة القديسة صوفيا
	٥٤٠ الفرس يستولون على أنطاكية		
	ح ٥٥٠ الآفار والبلغار على الدانوب الأدنى	ح ٥٥٠ وفاة بندكت من نورسيا	
٥٥٢ الفرنجة يخضعون بافاريا	٥٥٢ نارسيس يعيد فتح إيطاليا		
		٥٥٣ مجمع القسطنطينية	
	٥٥٤ القرار التنظيمى		
			ح ٥٦٢ وفاة پروكوبيوس
	٥٦٥ وفاة جستنيان		ح ٥٦٥ كولومبا يؤسس دير أيونا
	٥٦٦ ـ ٧ اللومبارد والآفار يدمرون مملكة الجبيد		
٥٦٧ تقسيم فرنسا إلى أوستراسيا ونوستريا وبرجنديا			
٥٦٨ اللومبارديون فى شمال إيطاليا			
		ح ٥٧٠ مولد محمد (ص)	
٥٧٥ـ٦١٣ وصاية برنهيلدا على العرش			
٥٨٤ ـ ٩٠ أوثارى ملكا على اللومبارديين			ح ٥٨٤ وفاة كاسيودوراس
٥٨٥ نهاية مملكة السويف فى شمال أسبانيا			
		٥٨٦ ريكارد حاكم أسبانيا القوطى الغربى يعتنق الكاثوليكية	
٥٩٠ ـ٦١٦ اجيلولف ملكا على اللومبارد		٥٩٠ جريجورى الكبير يتولى البابوية	

الأحوال السياسية		الأحوال الدينية	الأوضاع الحضارية
فى الغرب	فى الشرق		
			٥٩٤ وفاة جريجورى أسقف تور
		٥٩٧ نزول أوغسطين	٥٩٧ وفاة كولومبا
		٦٠٣ اللومبارديون يعتنقون الكاثوليكية	
		٦٠٤ وفاة جريجورى الكبير	
	٦١٠ ارتقاء هرقل العرش		
٦١٣ اتحاد أوستراسيا وبرجنديا			٦١٣ تأسيس دير القديس جال
	٦١٤ الفرس يستولون على دمشق وبيت المقدس		
			٦١٥ وفاة كوليان مؤسس ديرى بوبيو ولكسول
	٦١٩ الفرس يغزون مصر		
		٦٢٢ الهجرة النبوية	
		٦٢٢ ـ ٨٠ معركة وحدة إرادة المسيح	
	٦٢٦ حصار الآفار والفرس للقسطنطينية		
		٦٢٧ نورثمبريا تتنصر	
	٦٢٨ هرقل يهزم الفرس نهائيا		
٦٢٩ ـ ٣٩ حكم داجوبرت			
		٦٣٢ وفاة محمد (ص)	
	٦٣٣ ـ ٩٣ حكم بيزنطة بأرمينية		
	٦٣٤ خلافة عمر		
	٦٣٤ العرب يغزون فلسطين		
	٦٣٦ معركة اليرموك	٦٣٦ صدور وثيقة الإيمان الجديد (Ekthesis)	٦٣٦ وفاة إيزيدور الأشبيلي
	٦٣٧ معركة القادسية		
	٦٣٩ ـ ٤١ العرب يفتحون أرض الجزيرة		

الأحوال السياسية — فى الغرب	الأحوال السياسية — فى الشرق	الأحوال الدينية	الأوضاع الحضارية
	٦٤٢ سقوط الإسكندرية		
	٦٤٢ ــ ٣ العرب يفتحون فارس		
٦٤٣ ــ ٥٦ جريموالد ناظراً للقصر فى أوستراسيا			
	٦٤٧ العرب يفتحون طرابلس		
		٦٤٨ صدور قرار الإمبراطور المعروف بالصورة (Type)	
	٦٤٩ العرب يفتحون قبرص		
	٦٦١ ــ ٧٥٠ خلافة الأمويين بدمشق		
	٦٦٤ العرب يغزون البنجاب	٦٦٤ مجمع هويتبى	
		٦٦٩ ــ ٩٠ ثيودور أسقف كنتربرى	
	٦٧٣ العرب يهاجمون القسطنطينية		
		٦٧٨ بدء تنصر فريزيا	
ح ٦٨٠ الصلح بين اللومبارد والبيزنطيين		٦٨٠ مجمع القسطنطينية	
٦٨٣ مقتل ابروين			
		ح ٦٨٦ تنصير مملكة ساسكس	
٦٨٧ معركة ترترى			
		ح ٦٩٠ ــ ٧٣٩ ويليبرورد فى الأراضى المنخفضة	٦٩٠ وفاة بندكت بيسكوب
		٦٩٢ مجمع ترولا	
	٦٩٣ ــ ٨٦٢ حكم العرب بأرمينية		
			ح ٧٠٠ بيوولف
٧٠٩ ــ ١٠ حملات بيبين على الألامان			٧٠٩ وفاة ألدهيلم

الأحوال السياسية		الأحوال الدينية	الأوضاع الحضارية
فى الغرب	فى الشرق		
			ح ٧١٠ إنشاء المسجد الأموى بدمشق
٧١٢ ـ ٤٤ ليوتبراند ملكا للومبارد			
٧١٣ ـ ٣٤ العرب يفتحون أسبانيا كلها عدا استورياس			
٧١٤ وفاة بيبين			
		٧١٥ ـ ٣١ جريجورى الثانى	
	٧١٧ ارتقاء ليو الثالث (الإيسورى) العرش		
٧١٧ ـ ٤١ شارل مارتل محافظاً للقصر	٧١٧ـ١٨ حصار القسطنطينية		
٧٢٠ ـ ٥٩ العرب فى أربونة			
			٧٢٤ إنشاء دير ريشناو
	٧٢٥ ليو الثالث يبدأ حملة تحطيم الصور المقدسة		
		٧٣١ ـ ٤١ جريجورى الثالث	
٧٣٢ معركة تور بواتييه			
		٧٣٣ إخراج جنوب إيطاليا وصقلية وإلليرية وكريت من التبعية الكنسية لروما	
٧٣٥ شارل مارتل يخضع أكيتانيا وجنوب برجنديا			٧٣٥ وفاة بيده
		٧٣٩ جريجورى الثالث يلتمس معونة شارل مارتل	
	٧٤٠ وفاة ليو الثالث		٧٤٠ صدور الإكلوجا
٧٤٣ ـ ٥١ تشلدريك الثالث آخر ملوك الميروفنجيين			

الأحوال السياسية		الأحوال الدينية	الأوضاع الحضارية
فى الغرب	فى الشرق		
٧٤٨ ـ ٨٨ تاسيلو آخر دوق مستقل لبافاريا			
	٧٥٠ سقوط الأمويين		
٧٥١ اللومبارديون يستولون على رافنا			
		٧٥٢ ـ ٧ استيفن الثانى	
٧٥٣ استيفن الثانى يعبر الألب			٧٥٣ وفاة يوحنا الدمشقى
٧٥٤ البابا يتوج ببين		٧٥٤ وفاة بونيفاس مؤسس الكنيسة الجرمانية	
٧٥٦ عبدالرحمن أميراً لأسبانيا	٧٥٦ ـ ٦٥ الحملات على البلغار		
٧٥٦ وفاة ايستولف			
٧٥٧ ـ ٧٤ ديسيديريوس ملكا على اللومبارد			
٧٥٧ ـ ٩٦ أفا ملك مرسيا		٧٥٧ ـ ٦٧ بولس الأول	
٧٦٠ ـ ٨٨ ببين يخضع أكيتانيا			
	٧٦٣ بغداد تصبح عاصمة الدولة العباسية		٧٦٣ تأسيس دير لورش
		٧٦٤ ـ ٧١ اضطهاد عبدة الصور	
٧٦٨ ارتقاء شرلمان وكارلومان			
٧٧١ وفاة كارلومان			
٧٧٢ ـ ٨٠٤ حروب السكسون			
٧٧٤ سقوط مملكة اللومبارد			
٧٧٨ معركة رونسيسفال			
	٧٨٠ ـ ٩٠ وصاية الإمبراطورة إيرينى		
	٧٨٦ ـ ٨٠٩ هرون الرشيد		

الأحوال السياسية — فى الغرب	الأحوال السياسية — فى الشرق	الأحوال الدينية	الأوضاع الحضارية
٧٨٧ شرلمان يخضع بنفنتو		٧٨٧ إيرينى تعيد عبادة الصور	
٧٨٨ قيام مملكة الأدارسة بمراكش			
		٧٩٠ الرسائل الشرلمانية	
٧٩١ ــ ٦ حملات شرلمان على الآفار			
			٧٩٣ الدانمركيون ينهبون دير لندس فارن
		٧٩٤ دايت فرانكفورت	
		٧٩٥ ــ ٨١٦ ليو الثالث	
٧٩٧ مرسوم سكسونيا	٧٩٧ مصرع قسطنطين السادس		
ح ٨٠٠ استقلال تونس			
٨٠٠ تتويج شرلمان			
			ح ٨٠١ وفاة بولس الشماس
	٨٠٢ ــ ١١ نقفور الأول إمبراطورا		
			٨٠٤ وفاة ألكوين
	٨٠٩ غزوات البلغار		
٨١٣ لويس التقى يتوج فى آخن			
٨١٤ وفاة شرلمان	٨١٤ وفاة كروم حاكم البلغار		
		٨١٥ مجمع القسطنطينية وتحطيم الصور	
			٨٢١ وفاة ثيودولف الأورليانى
		٨٢٦ وفاة ثيودورس رئيس دير ستوديون	

الفهرس الأبجدى

(ت)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ق)

(ى)

الناشر

عالم الكتب

٣٨ شارع عبد الخالق ثروت - القاهرة



الثمن ٣٥½